الرقة والثورة

معبد الحسون

النسخة الاصلية من موقع الرأي والفقه بوست

الإهـــــــداء

إلى أرواح شهداء الثورة السورية..

إلى شباب الرقة الذين كافحوا، وقاتلوا في سبيل راية الحرية..

وضَحّوا بأرواحهم وهم يتصدون للطغيان والفاشية والظلاميين..

إلى روح الشهيد **أحـمـد الـسَّيد** .. " سندس " ...

ذوّابـةَ شـهداءِ الرقـة ويـعسوبَـهم..

فـقد كـانـت كـلتا يديكَ يـمينٌ في الـعطـاءِ والإقدام..

وكلـتا قـدميكَ شِمالٌ في الـتـردِدِ والإحـجـام..

النسخة الاصلية من موقع الرابطة السورية لحقوق المرأة

النسخة الاصلية من موقع الرأي والفتوى

الـرقـة والـثـورة (فهرس عام)

ـ شهادة شخصية ـ

استهلال: {أَوَلَمْ نَنْهَكَ عنِ العالمين؟}

ـ الجزء الأول ـ

مدخل

مقدمة

عوامل مساعدة على الثورة

في البدء كان المدنيون

قاطرات الغضب

هوامش الجزء الأول

ـ الجزء الثاني ـ

كتائب وثوار (أبو جاسم الأمن العسكري)

هؤلاء الأوباش هم الحقيقة

أحمد منصور وميليشيات القتل

الجدول رقم ـ أ ـ والجدول رقم ـ ب ـ

كتيبة "حذيفة بن اليمان" والبدايات

الشخصية السيكوباتية حين تفتكُ بالثورة والمجتمع

كتيبتا "شهداء الرقة" و"الناصر صلاح الدين"

هوامش الجزء الثاني

ـ الجزء الثالث ـ

النسخة الاصلية من موقع الرأي والرقة بوست

" أبو عبد الله المنبجي" وكتيبة "أحرار منبج"

تلك الليلة الطويلة

الثورة والدولة العميقة

الثورة في الرقة بين "المخابرات الجوية" و"داعش"

شروق الأسئلة وغروب الأجوبة(داعش أو نحرق البلد)

ملف وردية خوشابا"أم رشا"

هوامش الجزء الثالث

ـ الجزء الرابع ـ

خارطة الشر

من هو أبو لقمان أمير داعش في الرقة؟

((1)) ـ الجذور

((2)) سيرة ذاتية

((3)) ـ طَبَخَ النُصْرة ليُغَمِّسَ خارجَ صحنِها

((4)) ـ بحص أبيض في الرز

((5)) ـ أشباح الخراب

داعش في الرقة

داعش قوة الشر الأسود في هذا العالم

هوامش الجزء الرابع

ـ الجزءالخامس ـ

تفكك الثورة

الرقة بين أنياب الغنيمة والقبيلة والعقيدة

الرقة من التحرير إلى التدمير إلى التبرير

الثورة والعشائر(1)

الثورة والعشائر(2)

تم تحميل الرواية من موقع الرأي والرقة بوست

لواء ثوار الرقة

مقتل السعودي سالم

هوامش الجزء الخامس

ـ الجزء السادس ـ

إنفجار المعركة الفاصلة

خديعة أبو العباس الأعمى وبداية الإنكسار

خيانة أحرار الشام

"تحرير" المطار والفرقة17 واللواء بقرار من نظام الأسد

شهداء كتيبة "شهداء الغوطة".. واستشهاد "سُنْدُس"

الإنسحاب من الرقة

هوامش الجزء السادس

النسخة الاصلية من موقع الرأي والرقة بوست

النسخة الاصلية من موقع الرأي والفتوى

{{ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عن العالمين..؟}}(1)

ويالها من ذكرى؛ أستعيدُها اليومَ بأجزاء وتفاصيل عن والدي رحمه الله..

مضى على وفاة والدي أكثرُ من واحدٍ وعشرين عاماً، ومضى على هذه الذكريات وهذه الأقوال قريبٌ من أربعين عاماً، حيث كان أبي يزدري دائماً اهتمامي المتزايد والشديد إلى حد الإدمان المفرط بالسياسة، في مرحلة من مراحل حياتي المبكرة؛ فكان يستخفُّ أيما استخفافٍ بمتابعاتي المتواصلة بالشأن السياسي العام منذ يفاعة شبابي الأول.. كان يقول لي مثلاً:

ـ لا تعذبْ نفسك كثيراً.. كلُّ هذا العذاب في الجري والاهتمام بمستقبل هؤلاء الناس عبث لاطائل من ورائه، فهؤلاء الناس لا مستقبل لهم..

كانت عباراتُه حِجْراً مَحجوراً.. محددة وصارمة، وقاطعة في منظور يأسها، رغم أن والدي لا يمكنُني وصفُه باليائس ولا الفاشل ولا المتشائم، فقد كان دائم النشاط والحيوية والإهتمام بالشأن الثقافي والأدبي.. خاصة اهتمامه المفرط والمبالغ فيه بتاريخ الرقة وآثارها. لذلك كان يضيف:

ـ أنا لا يهمُني شيءٌ في هذه الحياة إلا صَوْنُ آثار الرقة وترميمُها وحفظُها وحمايتُها.. أما هؤلاء الناس الذين تسميهم أنت الشعب أوالجمهور، فإنهم زائلون لا محالة.. سائرون إلى حتفٍ مجهول.. ماضون إلى نهاية لست أدري ماهي..!

كنتُ أسخر بالطبع في نفسي من أقواله، وكنتُ أردد وأنا أبتسم في داخلي: وهل أنت(نوستراداموس)هذه الأمة يا أبي؟

أحياناً كان يضيفُ في أكثر من مناسبة على امتداد السنين:

ـ سيستعيدُ هؤلاء الناس كلَّ حركات الزنج والقرامطة والخوارج.. سيبعَثون الفاطميين والنميريين والقشيريين والحمدانيين والبويهيين.. سيبعثون الصليبيين من جديد، سيبعثون الأعرابَ والمرتدين، وكلَّ حركات التمرد والتدمير في تاريخنا القديم.. وسيدمرون الحياة والحضارة مرة أخرى.. سيقتلُ بعضُهم بعضاً، وسيُفْظِعون في القتل إلى حدٍ يشيب منه الرأس.. سيجدون أوغاداً ولمامات رثة من البشر يجمعونها حول مشاريع إجرامية، وأكاد ألمح بأمِّ عيني منذ الآن ذلك الخراب الكبير الذي سيلحق بالمدن والقرى.. سيتشارك البعثيون والعلويون منهم مع الشيوعيين والمتدينين، المشايخ أصحاب اللحى، في مخطط واحد لتدمير هذه البلاد.. لا أعلم كيف، لكنني أكاد أرى ذلك رأي العين وألمسه لمس اليد..

ثم فجأة، يحول صيغة الحديث باتجاهي"على أساس أنني أنا من يمثل الناس"، أو على الأقل أنا من يمثلهم رمزياً بحماسي المراهق في تلك الفترة، وكانت التسمية المفضلة لديه اختصاراً للإشارة إلى كل بعثي أو ناصري أو ماركسي أو شيوعي، أو حتى أخواني أو سلفي هي كلمة"ربعك".. (أي أصدقائك وجماعتك الراكضين وراء العمل السياسي)، فيضيف بلهجة تهكمية واتهامية مؤكدة:

ـ سيهاجم أهل الأرياف المدن ويدمرونها، سيعود الإحتلال والإستعمار مرة أخرى، وسيسلب من هذه البلاد حق الحياة وحق الحرية فوق ماتعانيه اليوم من فَقْد هذا الحق، وسيعود الناس أشباه عبيد.. سيتدخل الإستعمار القديم مرة أخرى، وسيعيد احتلال هذه البلاد.. مجرد وجود "حافظ أسد" بذاته على رأس السلطة في هذا البلد دليلٌ على هذه النهاية الكارثية المنتظرة.. وجود "طلائع البعث" والبدء بترويض هؤلاء الأطفال باكراً على العبودية هو الدليل الأوضح بالنسبة إلي على أنكم تمضون نحو النهاية.. ستُشَرَّدون وتوزعون كقطائع الغنم على قارات الأرض الخمس.. لهذا أقول لك دعك من السياسة.. سيأتي يومٌ على السوريين يصبحون فيه قضية القضايا في هذا العالم.. لا أستطيع أن افسر لك كيف ولماذا.. لا أستطيع أن أشرحَ ما لا يُشْرح، ولا أن أفسرَ مالا يفسرُ، غير أن هذا سيحدث قطعاً..

وحين كنت أقترحُ عليه: لماذا لا تنشر ديوان شعرك الذي ألفته..؟ لماذا لاتطبع مؤلف التاريخ الضخم الذي قضيت عمراً في تأليفه..؟كان يجيب: ولماذا أنشره؟ وهل سيبقى في هذه البلاد من سيقرأ شعراً أو يطالعُ تاريخاً؟هذه البلاد رايحة.. رايحة.. افهمها منذ الآن..!

كان البون شاسعاً والهوة سحيقة فيما بيننا، إذ بينما كنتُ أفتقرُ إلى الإيمان بنفسي، وأمتلىءُ بذلك الإيمان الوفير الكبير بالناس، بالجمهور، بالشعب، بالجموع، بكلية العالم والكون والبشرية.. كان أبي يقف في الموقع النقيض مني تماماً: كان شديدُ الإيمان بنفسه،

مكتفياً بذاته إلى حدِّ أنه لو نُقِلَ من كوكب الأرض ووضِعَ في كوكبٍ آخر، خالٍ من السكان، لعاش وحيداً سعيداً.. ولظلَّ مبتهجاً مسروراً في وحدته الإستعلائية تلك، وبفرح لا يوصف لولا التنغيصة الدائمة من أنه قد يفارق آثار الرقة التي اعتاد أن يظل يومياً ساعاتٍ طوالاً يتأملُها بشغفِ غير المُصَدِّق.. كان أبي فقيراً جداً إلى الإيمان بالناس إلى درجة لايمكن وصفُها ولا تعليلُها، إذ ليس لانعدام ثقته بالمجتمع حدٌّ ولا مطلع.. وطالما سمعته يردد:

ـ القتل والخراب الذي شهدته الأمة في القرن الرابع الهجري سوف يعود في دورة طبيعية.. في ذلك القرن انتشر الشيعة وعمّوا كافة أطراف البلاد والأمة، وفي هذا الزمان سوف يعودون من جديد.. انظرْ إلى هذه المدينة الهادئة البسيطة، مدينتنا الرقة، واحكمْ على الأمور بعد أن ينتشر التشيع فيها.. (في ذلك الوقت لم يكن معظم أهل المدينة البسطاء قد سمعوا بالشيعة أصلاً، وليس لديهم ربما أدنى فكرة عن التسمية)..ثم يضيف:

ـ سيأتي عليكم يوم تحلمون فيه بالسفر.. مجرد السفر والتنقل، من الرقة إلى حلب.. ومن الرقة إلى دمشق.. ومن الرقة إلى دير الزور.. سيقسمون هذه البلاد إلى دول، كل قطعة صغيرة بحجم قرية ستصبح كما لو أنها دولة مستقلة.. وسيهجرها أهلُها، وسيجلبون سكاناً جدداً ليملأوها بالسكان..

رفض والدي مشاركتي السابقة في الثورة فترة الثمانينات، رغم كل ما كان يكنه من حنق وغيظ لنظام الأسد، بل ولقد اعتبر أن العمل السياسي في هذه البلاد مضيعة للوقت، وفعل لاطائل من ورائه ولاجدوى.. كان يردد على مسامعي في خلوتنا الخاصة ـ كما المتنبىء الذاهل أمام بلورته السحرية ـ كلمات من مثل:

ـ هذه البلاد يابني فات أوان إنقاذها وتدارك مصالحها، وهي مقبلة على خراب مؤكد، وضياع كبير.. كل هذا الفساد الذي تراه يتراكم يوماً بعد يوم، وهو لا ينْحِتُ عظام المجتمع فحسب، ويفخخُها تمهيداً لنسفها ذات يوم، وإنما هو يعمل على صياغة الناس صياغة جديدة.. إنه يزرع فيهم قيماً وأخلاقاً بعد أن يستأصل كل ما كانوا قد تربوا عليه ونشأوا.. إن حافظ الأسد وسلطة البعث ليس من مهمتها فقط أن تبيع البلاد لأعدائها بالتقسيط، بل الأخطر أنها تسعى لأن تغيرَ الناس تغييراً جذرياً، أي أن تبيع الناس أيضاً.. ويوماً ما ستجد أن الناس قد ذهبوا جميعاً، أو بالإحرى قد تحولوا تحولاً كبيراً.. ستجد في هذه الرقة "شيعة"، (وقتها لم يكن في طول المحافظة وعرضها شيعي واحد).. ستجد ملحدين ماركسيين يصطفون إلى جانب سلفيين، وستجد ثواراً تقدميين يقفون إلى جانب الطغاة، ستشك بكل هذا الوجود وكل هذه الدعاوي.. ربما نصبح في النهاية غنيمة لإسرائيل، ويهود الأزمنة القادمة، وربما نصبح غنيمة لغيرها.. سنزحف على ركبنا ذات يوم بمذلة نحو إسرائيل، وسنطلب منها المساعدة، ونضرع إلى اليهود أن يقفوا إلى جانبنا، وسيرفضون.. وسنذهب إلى المستعمرين القدامى: الفرنسيين.. سنرجوهم ونحن نزحف على أقدامنا، أنقذونا مما نحن فيه، لقد كان جلاؤكم خطيئة تاريخية كبرى، ارجعوا مرة أخرى واستعمروا بلادنا فقط من أجل أن نخلص مما نحن فيه.. خذونا كسلعة تحتاجونها مقابل معجزة إنقاذنا مما نحن فيه.. فقط انتشلونا من هوة التردي والقتل والجوع والتشرد في أصقاع الأرض.. وسيرفضون أيضاً..

كنت أضحك في سري من نبوءات أبي بالطبع، وأحياناً كنت أشعر بالضيق، وينتابني شعور بأن هذا العجوز قد جُنَّ منذ زمن طويل، حيث أستمع إلى كلماته وهو يردد:

ـ سيتسابق الشرفاء الكاذبون والخونة الصادقون فيما بينهم: أيهم سيدمر أكثر، وأيهم سيخون قبل، والكل بالطبع يمضي وهو يحمل رايةً للشرف والوطنية أكبر من قامته وقامة من حوله.. كنت أرد عليه أحياناً بغيظ، وأحاول أن أشرح له ماهي الحتمية التاريخية التي ستوصل الناس إلى اشتراكية حتمية ومحققة، وأكثر عدالة وإنسانية.. وكيف سنبني فردوسنا الأرضي ذات يوم في هذه البلاد بفضل الجماهير الثائرة الصادقة المؤمنة بقضيتها.. فكم حاولت أن أقنعه وأشرحَ له أننا اليوم نعيش في عصر الجماهير، لاعصور الطغاة والعبودية، فكان يصغي إليّ بانتباه، كما يصغي طبيب نفسي إلى مريض عقلي ميؤوس من شفائه، ويهزُّ رأسه بحزن قبل أن يقول:

ـ هذا إن بقي جماهير.. هذا إن لم تعش يوماً لترى الناس وقد نهبوا المدن والقرى، وسرقوا المتاحف ودوائر الدولة، وأصبح القتل عادة يومية.. كم أتمنى لو يعاجلني الموتُ قبل أن يمتد بي العمر، وأصير إلى تلك الأيام القادمة التي أراها منذ الآن..؟

لم أفكر يوماً في أقوال أبي هذه كثيراً، ولم آخذها على محمل الجد إلا بعد اعتقالي بفترة.. في السجن، فترة اعتقالي، كنت أحياناً أسترجع كلماته وأستعيدها حرفاً بحرف، مع أنني لم أؤمن بها يوماً، لكنني كنت أتذكرها لمجرد أنها كانت لائحة إدانة لي.. بت أخشاه رغم أنه

عاش ومات وهو أرافُ الناس بي، وأحنُّهم وأحدبهم عليَّ.. لم يوبخني أو يغلظ علي في الكلام طيلة حياته، وكان يعتبر ما أؤمن به شأناً شخصياً من حقي، وجزءاً من حريتي، لكنه كان في أعماق نفسه يتمنى أن يكسبني إلى صفه.. أن يكسب أي إنسان آخر في طول هذا الوطن وعرضه ليؤمنَ بما يؤمن به هو وحده دون العالمين، بيد أنه للأسف، لم يكسب تلميذاً واحداً يصادق على هذه النبوءات المفزعة كالكوابيس، ولانصيراً واحداً مؤيداً لما كان يقول.

بعد مرور أكثر من سنتين على اعتقالي، استطاع أبي أن يستحصل لي على إذن خاص وشخصي بزيارتي، (في تلك المرحلة التي أعقبت أحداث مدينة حماة وتدميرها، كان الوضع العام متوتراً إلى درجة لا تتيح لوزير أو لضابط كبير أن يطلب إذناً بزيارة سجين سياسي، وقد يكلفه هذا الطلب اعتقالَه هو بالذات).. مع ذلك فوجئت يومذاك بنقلي من سجن تدمر إلى فرع التحقيق العسكري بغرض زيارة شخصية في الفرع حصل عليها والدي، وكنت أشد ما أخشاه وأتخوفه يومذاك أن تبدأ الزيارة وتنتهي باللوم والتقريع و"البهدلة" من طرف أبي بسبب اشتغالي في السياسة وغرقي فيها إلى حد الإدمان.. ولكن، ويالللعجب، لم يحدث أي شيء مما كنت أتخوف منه.. لم يوبخني.. لم يكثر من لومي.. بدا وكأنه يتعامل مع قضية اعتقالي بوصفها حادثة طبيعية لا تستحق منه حتى تعليقاً بسيطاً.. لم يركز النظر فيَّ، ولم يفحص ماكان يدور في قلب عيني من أفكار إلا لثوانٍ معدودة.. ربما نصف دقيقة استغرقناها في الصمت.. لخصنا في ذلك الصمت كل أقواله الكثيرة والطويلة خلال سنوات مضت، وأحسست من خلال صمته وكأنه يشمت بي قليلاً، أو ينتصر عليَّ أخيراً للحظة، ويصادق على نبوءاته التي لم أؤمن بها رغم اعتقالي ونهايتي المشهودة في سجن تدمر.. كأنما كان يذكرني بمبادئه العتيدة الدائمة.. كأنما كان يحاول أن يقول لي:

ـ **أوَلَمْ نَنْهَكَ عن العالمين..؟** ألم أقل لك لا فائدة ولا جدوى..؟ لماذا أنت عنيد؟ لماذا أنت الآن هنا، وقد انتهيتَ إلى هذا المصير.. تضحي كل هذه التضحيات وتنتهي إلى هذه النهاية..؟ أمِنْ أجل العدم مثلاً.. أم من أجل(العالَمين)الذين آمنت بهم..؟

بعد إحدى عشرة سنة ونصف خرجت من المعتقل، ولقد تفاجأت أن أبي قد كفَّ كثيراً عن ترداد ما كان يردده وما يؤمن به، وتوقف بمرور الزمن، (خُيّلَ إلي لبرهة أن أبي قد جحد ذلك اليقين القديم، أو نسيه بتقادم العمر وتغير الظروف كثيراً).. كنت أظن أنه شكك بمبادئه القديمة أو أَلْحَدَ بها، ولم يعد يقيم لها وزناً بعد اليوم، ولكن، ويالللعجب والدهشة أكثر.. لقد كان أبي قد ازدادَ يقيناً بها أضعاف المرات، لكنه يئس من ترددها ومن إيمان الناس بها، ومن برمهم وسخطهم كلما سمعوه يرددها.. ولقد كان من أول رغباتي وأفكاري بعد الخروج من المعتقل أن اقترحت عليه أن نشتري للعائلة شقة صغيرة، أو "شاليه" على البحر، في اللاذقية أو طرطوس.. فصعقني حين سمعته يعيد أقواله السابقة، وكنت أظن أنه نسيها وفات عليها الزمن، حيث قال:

ـ ولماذا تريدون شقة صغيرة أو"شاليه" في الساحل.. حيث سيأتي عليكم يومٌ ما قريب، لا تستطيعون فيه حتى مجرد السفر إلى ذلك الساحل..؟ يابني قريباً لن يكون هنالك بلاد.. ولن يكون هنالك ساحل كما تتوهمون.. تنازلنا، أنا والعائلة قليلاً.. وصرفنا النظر عن قصة "شاليه" الساحل، وحوّلنا الإقتراح إلى شقة في حلب.. حلب يا أبي.. حلب القريبة منا.. حلب التي نعدُّ الرقة حياً من أحيائها تقريباً.. لكن أبي رفض أيضاً، وأصر بعناد: حتى حلب سوف تُدَمَّرُ يابني، مثلها مثل الرقة.. مثل سائر المدن السورية.. حتى حلب لن تستطيعوا الوصول إليها.. وبعد ضغوط عليه ووساطات من الأقرباء والأصدقاء، ومساومات وتسويات شاقة، وافق راضخاً وعلى مضض.. رغم أنه لم يتراجع ولم يتنازل عن مبادئه قيد أنملة، لكن العائلة استطاعت اقناعه بشراء الشقة في حلب بالحجة التالية: مادام كل شيء في هذه البلاد سيضيع ويدمر كما تقول، فلنشترِ بيتاً في حلب، ولنعتبره مدمراً سلفاً، وضائعاً من بين الضائعين..(مع ملاحظة أن البيت الذي اشتريته في حلب بعد وفاة والدي في حي الشعار قد دُمِّرَ هو ومحيطه بعد ذلك، والمتجر الذي اشتريته في حي صلاح الدين هو الآخر قد دُمر نهائياً مع محيطه من حي صلاح الدين).

في عام 1995 توفي والدي، وفي آذار من عام 2011، بعد ستة عشر عاماً مضت على وفاته اشتعلت الثورة السورية في طول البلاد وعرضها.. بعد وفاته مباشرة بنيت له قبراً مميزاً، أحطته بسور، وجعلت له فناءً واسعاً كأفنية الدور العربية.. جعلت له باباً من الحديد بقفل ومفتاح، وأحطت سوره بسياج حديدي، وزرعت ماحوله بأشجار السرو التي أعرف أن أبي كان يحبها أكثر من أي نوع آخر من الأشجار، وبعض الدفلى والأزهار التي تحتمل العطش في تلك المقبرة المهملة حتى اليوم في(تل البيعة).. ولقد قَلَّتْ زياراتي لقبره بمرور السنوات، حتى باتت لاتتعدى المناسبات المتباعدة..

بعد اندلاع الثورة السورية، لا أدري لم خالطني شعور وكأن هذه الثورة ما اندلعت إلا"جكارة" بأبي، وتفنيداً لأقواله، وشطباً لنبوءاته وتسفيهاً لها.. انتابتني أفكار بأنه بات واجباً على أبي أن يعتذر مني اليوم.. منا جميعاً.. أخيراً انتصرت الجماهير على عجزها، وقامت الثورة.. كما قام المسيح من ضريحه بعد ثلاثة..

أثناء تشييع جنازة (علي البابنسي)، أول شهداء الثورة في الرقة، خطر ببالي أن أذهب إلى قبر أبي، وأنْ" أنَكِّدَ عليه رقدته الهادئة في ضريحه" قليلاً، بيني وبين نفسي، وفي سري الخاص.. وهو ثاوٍ في قبره.. ذهبت إلى القبر، فإذ بي أتفاجأ بالباب الحديدي الذي يُحَصِّنُ فناء القبر، وقد خُلِع من مكانه ليباعَ في سوق الحديد الخردة.. وإذ بالسياج الحديدي العالي والطويل الذي يسور القبر وقد خُلع ونُهب هو الآخر، والأشجار والأزهار حول قبر أبي كلها ذبلت وصارت هشيماً يابساً، وقد أذهبتها الريح بمضي السنين.. شواهدُ القبر تحطمت ونهبت.. ولم يبقَ إلا آثار متبقية من القبر(ولقد أكملت داعش بعد سنوات مهمة تسويتها بالأرض وإزالة كلّ أثر لأبي من على ظهرها).. مع ذلك لم أفقد حماسي، ولا خبا وميض الثورة واشتعالها في دمائي، خاصة أن المناسبة كانت جِدَّ خصوصية، حين رأيت بأم عيني قريباً من أربعمائة ألف مشيع يسيرون في جنازة الجنازات الكبرى، وأم المظاهرات النادرة في سوريا كلها: تشييع شهيد الثورة في الرقة:(علي البابنسي)..

وقفتُ على قبر أبي قليلاً، كأنني كنتُ أهمس له سراً وأحادثه بصمت:

ـ أرأيت..؟ ألم ترَ هذه الجماهير التي احتقرتَها طوال حياتك؟ كم كنتُ ألوم سوء فهمك وسوء ظنك بشعبنا الذي آمنتُ أنا به، وكفرتَ أنت به يا أبي.. هل تتذكر أقوالك لي عن" فلاحي القرى" الذين طالما نعتتهم بالخوارج وشبهتهم بالقرامطة؟ وأقوالك عن أهل البلد وعشائره الذين كانوا يتباهون أمامك بأنسابهم وقبائلهم الممتدة في الجاهلية والإسلام، وما أكثر ما كنتَ تقول لهم: أنتم لستم قرشيين، ولا من قيس، ولا من طيء، ولا من زبيد، ولا من ربيعة.. أنتم لستم عرباً حتى.. أنتم مجرد فصيل من النَوَر والقرباط العابرين، ليس لكم جذور ولا أصول، أنتم عشب طحلبي ونجيل جانبي نبت على هامش الحياة والتاريخ.. أنظرْ يا أبي حولك إلى تلك المسيرة الجبارة، وتفحص جيداً كيف اتحدَ الإسلاميون(المشايخ أهل اللحى)كما كنت تسميهم، مع الماركسيين اليساريين، مع القوميين، مع الأكراد، مع البسطاء الطيبين من أبناء شعبنا.. بل حتى مع كثير من البعثيين والأسديين من أهل النظام الذين انشقوا عنه وانضموا إلينا، ورحبنا بانضمامهم هذا.. في لحمة واحدة ونسيج واحد.. وقرروا أن يكونوا معنا عائلة واحدة في الثورة.. نساءً ورجالاً، شيباً وشباناً، مدنيين وريفيين.. وبالمناسبة يا أبي.. هل تتذكر أقوالك لي:"قريباً سيقوم خوارج وقرامطة جدد، وزطٌّ وشيعة وسنة، وطغاة وبغاة، ومؤمنون وملحدون، بنهب هذا المتحف وبيع آثاره كما تباع الخردة في سوق الجمعة..؟" ألا فاعلم أن متحفك وآثارك التي خلفتها وراءك، والتي عشت طيلة حياتك مرتعداً من الخشية عليها وعلى حفظها وصونها.. إعلمْ أننا، نحن الثوار اليوم، من سيحرسها ويحميها، ونحن من سيحافظ عليها.. يا أبي لماذا لا تريد أن تصدق أننا اليوم نعيش في ثورة.. ثورة يشارك فيها معظم من كنت تزدريهم وتحتقرهم، ويواجهون الرصاص الحي لمواجهة الدكتاتورية وإسقاطها، ويمضون بإصرار نحو بناء سوريا المستقبل.. سوريا الحرة.. سوريا الشعب الثائر الذي كنت تؤمن بنفسك فقط، ولا تؤمن به..؟

ولستُ أدري لم شعرتُ بأن عينيْ أبي قد جعلتا تشتعلان بوميضٍ غاضب، وتُحدقان بي بشعاع ثاقب من خلف أطباق تراب لحده، وتتأملان فيَّ بنظرات مُزْوَرَّة مبهمة.. كأنهما ما زالتا توبخاني بالعبارة القديمة الصامتة دوماً ـ كما كانتا في الماضي ـ :

ـ يالك من ساذَجٍ غُرّ.. **أوَلَمْ نَنْهكَ عن العالمين..؟**

---

(1) - سورة الحِجْر: 70

مدخل

.....هدرت الجبالُ الحجرية مقهقهةً، وأرجعتْ له صدى كلماتِه ذاتها: "أين أنت، يا قاراغول، أجب!.."..." أنا هنا، يا أبتاه!".. ترامى إليه فجأة صوتٌ من مكانٍ ما من حالق. نظر الشيخ إلى فوق، فرأى ابنه مثل غرابٍ على جرفٍ ساقطٍ على الصخرة العالية المنيعة. إنه يقف هناك وظهرُه إلى الناظر إلى العالم، فهو لا يستطيع الالتفاتَ أو الاستدارة.."كيف وُجِدتَ هناك يا ابني التعيس؟".. ارتعب الأب.."لا تسألني يا ابتاه!"..أجاب الابن.. "أنا هنا عقاباً على ما جنيت. لقد اقتادتني إلى هنا العنزة الشهباء العجوز، ولعنتني لعنة رهيبة. إني أقف هنا أياماً كثيرة.. لا أرى شمساً ولا أطالعُ سماءً ولا أشاهد أرضاً. ووجهك لا أراه يا أبتاه. أشفقْ علي يا أبي. فأنا أتعذبُ عذاباً بالغاً، فاقتلني.. خففْ عذاباتي، ألتمسُ رجاءك اقتلني وادفني.."

ما الذي كان الأب يستطيعه ؟ طفق يبكي، ويرتمي إلى هنا وإلى هناك، أما الابنُ فكان يتوسل باستمرار: "اقتلني سريعاً. صوب إلي يا ابتاه.. ارحمني، سددا!.".. وحتى غاية المساء لم يحزم الأب أمرَه، ولم يستقرَّ على قرار. ولكن قبيل مغيب الشمس صوبَ وأطلق. وحطم البندقية بحجر، وطَفِق يغني أغنية الوداع فوق جسم ابنه القتيل بيديه:

إني قتلتك يا ابني قراغول

وبقيت وحدي في الكون يا ابني قراغول

إن القدر قد لعنني يا ابني قراغول

والقدرُ قد عاقبني يا ابني قراغول

علامَ علَّمْتُك يا ابني قراغول

مهنةَ الصيد يا ابني قراغول

لماذا أبْدَتَ أنت يا ابني قراغول

كلَّ مخلوقٍ وكائنٍ حيٍ يا ابني قراغول؟

لماذا أفنيتَ يا ابني قراغول

كلَّ ما ظهر ليحيا ويتكاثر يا ابني قراغول

واحداً بقيتُ في الكون يا ابني قراغول

لا أحدٌ يرد عليَّ يا ابني قراغول

ببكائه على بكائي يا ابني قراغول

إني قتلتُك يا ابني قراغول

بيديَّ هاتين قتلتك يا ابني قراغول

كان" تانابای" جالساً بجنب الخيمة، وهو يسمع النواح القرغيزي القديم، ويتابع بنظره القمرَ وقد عَوَّم فوق الجبال الصامتة والمظلمة، ثم كيف تعلَّق فوق القمم الثلجية ذات الرؤوس الحادة فوق الصخور الحجرية العملاقة. وانهدَّ ثانيةً يبتهلُ إلى صديقه الراحل ويلتمسه الغفران.. أما "جايدار"، فكانت لا تزال تعزف على آلة "تمير ـ كاموز" مرثية الصياد الكبير قراغول:

إني قتلتُك يا ابني قراغول

وبقيتُ وحدي في الكون يا ابني قراغول

من رواية: (وداعاً ياغولساري)

للكاتب القرغيزي: "جنكيز ايتماتوف"

النسخة الاصلية من موقع الرأي والقنبوست

النسخة الاصلية من موقع الرقة بوست

الـــرقـــة والـــثـــورة

ـ شهادة شخصية ـ

ـ الجزء الأول ـ

مقدمة:

ثمة وجهتا نظر في المتداول، يسيران عكس اتجاه بعضهما في تقييم واقع محافظة الرقة عشية الثورة السورية؛ الرأي الأول يجد أن محافظة الرقة، بالإمكانات التي كانت عليها، وقد هبت عليها ريح التغيير التي عصفت بسوريا بأسرها، قدمت مثلما قدمت سائر المحافظات السورية، بمدنها وأريافها.. فالرقة كانت تعيش شبه عزلة عن واقعها السوري، وقد فُرِضَ عليها التجهيل والتهميش، وعانت الفقر والفساد وتلاعب السلطة لسنوات وعقود.. والرقة اختزنت مرارات تاريخية وحبستْ آلاماً باطنة من سياسات النظام مدةَ نصف قرنٍ من الزمن، وحين اندلعت أول شرارة الثورة في دمشق انكشفت الرقة على أولى المظاهرات وبواكيرها في ثاني جمعة من جمع الثورة، حيث خرجت فيها مظاهرة اشتهرت باسم مظاهرة الفردوس(1) في 2011/3/25.. ومنذ مظاهرة الفردوس والرقة تقدم من التضحيات وقوافل الشهداء على مذبح الثورة، وما تزال حتى يومنا هذا..

أما الرأي الآخر المخالف، فيرى أن الرقة قد تخلفت منذ البداية عن التفاعل الضروري في الحد الأدنى المطلوب لاحتضان الثورة، والسير في نسقها وخطها العام المتصاعد. في المحصلة العامة كان الحدث الثوري ـ الذي توافق إيقاعه الناهض في كل المحافظات السورية ـ متخلفاً في الرقة؛ فقد عانى من العجز والعطالة والنكوص، وهذا ما فتح شهية النظام على التلاعب بها بوصفها الخاصرة الرخوة التي قاتل بها واستباحها زمن الثورة، مثلما استباحها قبلها. والمؤكد، من وجهة نظر أصحاب هذا الرأي، أن الرقة قد قاومت الثورة، سواء بمقاومة صامتة مضمرة أم بمقاومة سافرة؛ عنفية وتشبيحية معلنة.. هذا الرجع السلبي، سياسياً ونفسياً، هو الذي أغرى شهية داعش لكي تفتك بها كل هذا الفتك الذريع الذي لم تهنأ به داعش في مناطق سورية أخرى، وذلك لما لمَسَتْهُ في المحافظة من بنية سكانية هشة ومتفتتة. وهو أيضاً ما أغرى العصابات القنديلية التي عبرت من جهات شتى لكي تتمدد في أرجائها وتجرب مغامراتها بحرية، وكأنها جغرافيا لا أهل لها، بل حتى حِراكها المدني الثوري ضرب أسوأ المثل، وفترة العسكرة والصراع المسلح خصَّها بأسوأ الكتائب القتالية في الصراع السوري الدموي..

رأيان سجاليان برزا منذ البداية، ومايزالا على طرفي نقيض، بيد أني أجد مجافاة الحقيقة كامنة في طريقة الوصف، لا في قدرة متمكنة من تحليل الواقع كما هو، متجرداً من كل عاطفة ومنتصفاً من كل هوى أو ميل.. إذا حَيَّدنا مبدأ قصور الرقة الذاتي والشعبي أو عدم ذلك القصور، الذي يحاول هذا الجدل التوصيفي أن يصلَ إليه أو يمسك به، فإن ثمة عناصر تحليلية مشتركة وجامعة يمكن التوافقُ عليها؛ أهمُها أن الرقة، حقيقةً لا مجازاً، تختلف في الطبيعة السكانية عن باقي المناطق السورية، وشرح الفكرة استفضتُ فيه مطولاً في دراسة بحث العشائر.. فالرقة كانت تعاني من حيث البنية ما يمكن تسميته بطبيعة عدم الإنسجام السكاني، عدا عن حقيقة تهميش السلطة للمحافظة وإفقارها ونهبها، بل وجعلها السوق الرسمية لبورصة فساد النظام.

والمؤكد أيضاً أن البعث نفسه ـ كمؤسسة شكلانية تفترض السلطة أنها تحكم باسمها ـ قد وَهَنَ عظمُهُ بعد عقود في الرقة، وتيبس خطابُهُ العام وجفت ينابيعُهُ السياسية والاجتماعية، حتى أنه حين اشتعلت شرارة الثورة في سوريا، كان قد تحول إلى حزب موميائي جاف الأحشاء، ساكن الحراك، وذي طبيعة حيوياً ميتة منذ ردْحٍ طويل.. كان الموجود الوحيد على الأرض في الرقة حصراً، فرع الأمن الجوي، ومفرزة الأمن العسكري بالدرجة الأولى، وفرع الأمن السياسي بالدرجة الثانية.. (فرع أمن الدولة كان مجمداً من قبل السلطات وقليل الفاعلية والتأثير نسبياً).. ماعدا ذلك من رموز السلطة ومؤسساتها كان هيكليا رمزياً، وبروتوكولياً تزيينياً، لا يظهر إلا في المناسبات، ولا يُعتَدُّ بوجوده إلا للتصوير التلفزيوني الذي يؤكد بأن ثمة دولة ماتزال موجودة في هذه المحافظة.

لا يجب أن نهمل قاعدة صلبة تأسست عليها المحافظة كبنية تحتية صرف، أسهمت في تكوين المدينة والريف وشاركت النظام في التأسيس المشترك للرقة الحديثة، قريباً من نصف قرن من الزمن؛ هذه البنية شكلت طبقة من "محدثي الثروة"، ومنتفعين كُثر بأعداد لا تكاد تحصى، وفي واقع سهولة كسب وإثراء متاحة بشروط العيش مع السلطة الأمنية والتوافق أو التشارك معها، وبطرق أكثر من أن تُعَد، وتحتاج إلى بحث مفصل مستقل.. هذه الطبقة من "الأثرياء الجدد"، (وأنا أسميها طبقة اجتماعية متمايزة ومستقلة)، كانت بنيوياً ـ اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً وميلاً مزاجياً بالكلية ـ قد أسست لشروط إنتاج وواقع يحيل طبيعياً إلى جانب "الفئة الأقوى"، والطرف المسيطر المتمكن، أو المتوقع سيطرته في رحلة صراعها من أجل الاستمرار والبقاء.. أو الذي يُرَاهَنُ في المنظور المشاهد على تفوقه،

ويُتَوسَّمُ في مقدرته الهيمنة ومسك القرار، الأمر الذي قطع خيار ارتباطات كتل سكانية كثيرة وقوى مجتمعية مؤثرة، وأسلمها إلى حالة من التأرجح الانحيازي وتعدد الإصطفاف والتأييد، وتركها موكولة إلى ظنونها وحساباتها حول الجهة التي سوف تميل لها كفة الظفر أخيراً، حتى أن الواقع ينطق بمئات الأمثلة عن هذا التذبذب الذي كان يتحرك وسط توتر القوى الصاعدة والهابطة، التي سيطرت لفترة على مقادير المحافظة، وهو حُكْمٌ بالضرورة سوف يجعلنا نفترض مسبقاً بأن كثيراً ممن انحاز إلى نظام الأسد، وقف مع ظنه بأن المعركة على وشك حسمها لصالح النظام، وكثيراً أيضاً من هذه الطبقة التي أصبحت واسعة ومنافسة، وذات ثقل سكاني تخلل المدينة والريف والعشائر وغير العشائر، كاثروا في فترة طارئة حركة أحرار الشام لتوهمهم بقاء واستمرار فترة سيطرة أحرار الشام المحدودة، وقد راهنت على مشروع الحركة وبيعتها. والأمر نفسه ينطبق أيضاً على كثيرين ممن انحاز إلى الثورة وإلى داعش، وإلى ميليشيات سوريا الديمقراطية مؤخراً.

كذلك لا مندوحة من الاعتراف بأن مجمل الظرف الموضوعي، اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً، إن كان قد نضج في سائر الجغرافيا السورية، وإنْ يكن بنسب مختلفة وعلى درجات متفاوتة، فإنه بالقطع لم يكن مواتياً للثورة في الرقة بصورة أخص، وإذا كانت سوريا بأسرها قد عاشت احتقاناً تاريخياً، ودرجة من التصادم وعدم التفاهم مع سلطات الأسد؛ لم ينقطع ولم يتوقف هذا الجو التصادمي المحموم، في أية فترة خلت من فترات التناقض الشعبي بين السلطة الدكتاتورية والشعب السوري، فإن هذا الجو المحتقن في الرقة قد وصل إلى تفاهمات وتسويات عبر سنوات طويلة، هذه التسويات التي تقوم على مبدأ تجميع مركزة الثروة في كل مرحلة من المراحل وإعادة توزيعها، أو الوعد والإغراء أو ضخ سيل من الإشاعات بتوزيعها، بحيث تُتْرك المحافظة وأهلها، وكأن حاضرَهم أبداً محمولٌ على أوهام بمستقبل أفضل.. هكذا عاشت الرقة على مبدأ يقوم أساساً على لعبة قمار خفية وواعدة، أساسُها ثقة بسلطات الأسد تشتدُّ وتخبو وتتناقص وتتزايد، وتضمحل وتتلاشى ثم يعاد بعثُها من جديد..

لو أمكننا أن نتصور ثورة السوريين ضد النظام الديكتاتوري على شكل انقسام شاقولي قسم السوريين إلى فئتين: "متضررين من النظام وثائرين عليه" في جهة، و"منتفعين مستفيدين منه" في جهة أخرى، لأمكننا في هذه الحال أن نجري تبسيطاً للأمور، وأن نقرأ الثورة أو نفسرها تفسيراً سياسياً واجتماعياً كلاسيكياً مكتفياً بذاته، وبما يملك من معرفة مدرسية(scholasticism)، وخبرة تنميطية سابقة، قائمة على بيانات عن كلا الطرفين: الثائرين والمؤيدين. أما وأن الحال غير ذلك إلى درجة التناقض الحاد، والتضاد المعرفي المؤكد في مجمل معلوماتنا عن جهة النظام والشرائح المصطفة معه، وعن جهة الثورة عليه ومجابهته، والشرائح التي وقفت ضده؛ فذلك وحده قمينٌ بأن يجعلنا نتريث قليلاً في تصدير أحكام ذات طابع(سياسوي/اقتصادوي)، أو اجتماعي أخلاقي مدرسي فحسب، أو تحملُ مغزىً دوغماطيقياً(جامداً) يتناول ما يحدث بالوصف دون التحليل العميق.

لا يجب أن نجهل أو نتجاهل القطاع الوظيفي الضخم، والقطاع الطلابي والتعليمي المتوسع باستمرار، كما هو حال قطاع الزراعة(بمصارفه وجمعياته التعاونية ومنظومات توزيع الأراضي والإغراء بتوزيعها وتمليكها).. كل هذه القطاعات، مضافاً إليها التجارة التي أخذت تحتل مكانة المنافس الوحيد لقطاع الزراعة في المحافظة، كانت جزءاً حيوياً من مشاريع السلطة ومؤسساتها ونفوذها وتغلغل أشخاصها الرمزيين بين الجمهور. وكل هذه القطاعات الاجتماعية، ربطت سلاسل من أجيال متعاقبة بماكينة السلطة، وجعلت مصلحة أوسع دوائر المجتمع مرتبطة في الجوهر والمصير بـ"دولة السلطة"، تدور معها حيث تدور. وهذا في الواقع أهم وسائل التسوية السلطوية مع السكان والأهلين.. بحيث يصح الوصف بأن الرقة، كمحافظة، أصبحت **(ثقب نظام الأسد الأسود)**، وصالة بازاراته الخلفية، وفضاء حركته كلما شُلَّ في بقعة أو موضع في سوريا.

والخطر الأكبر غير المشاهَد في المشهد العام، هو ذلك الانحدار المخيف من الجهل العام والخاص، الذي كانت تعيشُه المحافظة واقعاً، وانصراف أجيال متعاقبة عن المعرفة والعلوم التي كانت تترى في العالم المعاصر، وصولاً إلى مكوّن بشري اجتماعي عزف عن المعرفة الرصينة والاطلاع المعرفي بشكل تام، (وهذه واقعة اجتماعية ربما كانت قد استقرت في تطور سوريا الأخير عموماً، والرقة من ضمنها).. حيث تكفلت الفضائيات التلفزيونية، والإشاعات المترددة في المجالس، والخبرة اليومية العامة المكتسبة لدى معظم شرائح المجتمع، بتثقيف الناس وتوسل كل تطوير أو معرفة بالحياة الحديثة بتلك الطرائق الشعبوية.. بل حتى المدارس العامة والمعاهد والجامعات التي بات يتخرج منها كل عام مئات آلاف الطلبة، لم تكن تضخ ـ في ظروف بلد يمضي نحو انتحارٍ جماعي مؤكد ـ أكثر من أشباه أميين وحملة معارف تلقينية وأصحاب شهادات، كانوا يمضون بها للبحث عن الوظائف وسبل العيش وتأمين متطلبات الحياة.. حتى بات عادياً في أعراف كل الناس أن تختفي الكتب والمكتبات الخاصة من حياتهم، وأن ينقرض المسرح والسينما والمكتبات العامة،

والمحاضرات ومؤسسات البحث والندوات العلمية والتحاور الثقافي، وكل ضامن لمؤسسات ثقافية جادة؛ على المستويين الخاص والعام.. وأصبح كل بديل للمعرفة والعلم في المستوى الشعبي، تتكفل به مسلسلات التلفزيون والرياضة والنوادي المدنية ومضافات العشائر وجلسات لعب الورق والفراغ، وفي السنة ذاتها التي اشتعلت فيها الثورة سمحت السلطات بالفيسبوك ومواقع التواصل بعد حجب طويل.

هنا لا بد من التنويه بأن الواقع التعليمي الذي استمر في صيرورة هادفة طيلة حقبة نظام البعث، وخاصة الأسد الأب والابن،(وما يزال)، ربما كان أعجب العجائب في مملكة الأسدين، حيث نخر هذا النظام المقلوب المقاصد والأهداف، المجتمعَ نخراً منكراً؛ هذا النظام التعليمي كان يقسم المجتمع المتعلم/المتلقن إلى طبقات ثلاث: **الطبقة الأولى** من نخبة المتعلمين، وصفوة الأذكياء من أصحاب المواهب والتفتح العقلي، ومن ذوي النتائج المتقدمة تعليمياً، كان إغراؤها الوحيد هو الالتحاق بكليات الطب والصيدلة والهندسات المختلفة، وهؤلاء سرعان ما يتحولون إلى طبقة تكنوقراط شبه محايدة على مستوى التأثير العام، لا جاذب لهم نحو تلك الكليات إلا المظهر الاجتماعي وحسابات المدخول الجيد والناتج المادي الوفير. أما **الطبقة الثانية** من نخب المتعلمين ومتوسطيهم، فكانت تتوافر حظوظُهُم في الالتفات نحو كليات الحقوق والآداب والتاريخ والشريعة والإنسانيات العامة والجيش.. وهؤلاء كانوا النسبة العالية من حشوة السلطات والجهاز القضائي والأجهزة المختلفة، وموظفي ومدراء الدوائر الماسكين بكل تفاصيل الحياة اليومية المؤثرة في حياة الناس، أي ـ بالمختصر ـ هؤلاء حقاً كانوا هم رؤساء الطبقة الأولى.. والطبقة الأولى هي من بعض مرؤوسيهم، فهم أصحاب القرار المتحكمون والمتصرفون.. أما **الطبقة الثالثة** من المتعلمين في سوريا، فتكاد تملأ كل سواد المجتمع من الأميين وأشباه الأميين والحاصلين على تعليم أولي لا يتجاوز المرحلة الإعدادية.. وهؤلاء غالباً ما يتطيفون حول وجاهات العشائر ورؤسائها النافذين، وهم عامة رجال الدين وعناصر في الشرطة والأمن، وهم أعضاء حزب البعث والجمعيات الفلاحية ومخاتير القرى ومجالسها أحياناً، وأحياناً هم أعضاء مجلس الشعب وممثلو الأمة فيه.. وهذه الطبقة بالضرورة هي أهم من الطبقتين السالفتين، وهي المتحكم المتصرف بهما وبمستقبلهما، والحاكم الفعلي بأمرهما وعليهما.

الهيكل البنيوي المجتمعي للسوريين إذن، لم يكن تبسيطاً تلخصه دولة مخابراتية، ونظام بوليسي قمعي عَرَفَ كيف يُرَوّضُ شعباً مرعوباً مرتجفاً خلال حقبة نصف قرن من الزمن، إنما الواقع ينطق بأن النظام قد قلب الدولة التي تمثله وتختصر مؤسساته، ولا تمثل أي مصلحة للناس فيها، قد قلب هرمها رأساً على عقب.. هذا جوهرياً أملى واقعاً يؤكد بأنه لم يكن ثمة قطاعات شعبية واسعة في الرقة راغبة بالثورة أو مؤيدة لها، بل إن جزءاً من صفوة الثوار الأوائل الذين صنعوا خميرتها الأولى ومادتها المفجرة، ربما لم يعيشوا تناقضاً جوهرياً بينهم وبين النظام بالمعنى الثأري للمفهوم، ولا كان بينهم وبينه ما يوجب هذه الدموية واستحقاق المنازلة، دون أن ينفي ذلك أنهم كانوا معارضين تاريخيين للنظام، ودون أن يتناقض قولُنا بأن المعارضة السياسية التاريخية التقليدية، قد أسلمت راية الثورة إلى الشعب السوري وهي في الغرغرة والنَزْع الأخير، وقبل أن تسلم الروح وترقد عند لحظة الماضي الذي اتصل بأول أشهر الثورة إلى الأبد. هذه نتيجة يمكن تعميمُها على شرائح أوسع في باقي المدن والمحافظات السورية، كما أن عامل الصدام مع النظام بكونه طائفياً(علوياً)، كان أوهن العوامل وأضعفها، وأيسر الشؤون والشجون على قلوب الرقاويين، حتى لا يُحْمَل الدافع الطائفي ضد النظام على محمل الجد بالنسبة لمحافظة مثل الرقة، أكثر مما يحتمل أو ينبغي أن يوجب من أسباب..

الحرب ذاتٌ حية وكائنٌ مفطورٌ على تصحيح مسارات تفكير الناس، وهو شريك معهم في أخلاقهم ونفوسهم الداخلية؛ والحرب تمتلك القدرة على تصحيح مسارات التفكير أو تضليلها أحياناً، وهي بوصلة ومؤشر يوجه الأحقاد والعداوات والصداقات القديمة وجهات جديدة مختلفة، أو يعقلنها ويشذبها ويكسبها سمت الواقع المتطور واتجاهاته الصحيحة.. وفي بحث سابق حول موضوع عشائر الرقة، تناولت بتوسع كياناً قبلياً تأسس في الرقة عام 1918، عُرف باسم "دولة حاجم بن مهيد"، وذكرت في مصادري بعض تفاصيل التنظيم المدني والعسكري المقاوم للاحتلال الفرنسي، وكيف نجح هذا التنظيم الذي تضافرت على تعزيزه كل الإرادة الشعبية يومذاك، وكيف استطاع هذا البدوي الأمي محمولاً على إرادة الأهالي وإصرارهم، أن يُجَيّش جيشاً وصل تعداده إلى خمسة آلاف مقاتل، عدا المتطوعين غير الرسميين، تصدى لقوات الانتداب الفرنسي ودحرها وصولاً حتى مشارف حلب ودير الزور.. وكيف كانت المؤسسات المدنية والوظيفية الإدارية تدار بأفضل مايمكن توقعه لبلدة صغيرة، تعيش في واقع قرية ناشئة السكان، حيث لا أتوقع في أحسن الاحتمالات أن يكون سكان الرقة يومذاك ـ المحافظة بكاملها ـ قد وصلوا، أو قاربوا في التعداد السكاني نسبة الخمسين ألف نسمة.. وفي المقارنة بين واقع الرقة قبل قرن، وواقع الرقة بعد ثورة عام 2011، سوف نُدهش لكل ذلك التراجع الثوري والنكسة الروحية شبه

العدمية في التعاون على مكافحة الظلم والطغيان، والاستبداد المرير الذي حاق بالشعب من أطرافه، وقد ناف عدد سكان المحافظة على المليون نسمة ببضعة آلاف..

كل هذه الفوضى، وكل هذا التدهور الروحي والفكري والسياسي الذي انفجر إبان سني الثورة، لا يمكن تعليلُهُ أو ردُهُ إلا إلى عسف النظام المتواصل لتفريغ مضامين الحياة المجتمعية، وتجفيفها سياسياً واجتماعياً وتعليمياً.. وفكراً وثقافة شاملة عامة.. لقد أصيب المجتمع السوري عامة والرقاوي بخاصة، بتَقَزُّعٍ وجدب أنضبَ فكرة خلاصه واختناقاته، حيث سادت الأثرَة الشخصية وروح التكسب وفقدان روح الجماعة والتنظيم، وشيوع الأنانية والهمجية في أقبح ما يمكن تصوره.. لم تعد الرقة بعد نصف قرن من سطوة نظام البعث والأسد، لقمة صلبة تحتاج إلى قضم نواجذ حادة، وجهد ازدرادٍ بين أنياب النظام المفترس أو الغزاة الذين جاؤوا بعده؛ داعش وقسد والميليشيات المختلفة وأمراء الحروب، بَلْهَ الغزاة الدوليين، بل ساغت لكل الآكلين وسَهَلَ افتراسُها أمام كل طامع.

في التطبيق المعرفي لتطور النفس الجمعية للرقة، سوف نلحظ أن ليس ثمة اختلاطاً أو كسلاً عملياً أو تهافتاً وطنياً، إنما الأصح أن النفس المجتمعية العامة قد شهدت انشطاراً حاداً بين ما تشاؤه هذه النفس المجموعية وبين ماترغب في الإقدام عليه، وبين الواجب والإرادة من جهة، وبين الإرادة وسطوة الضمير العام من جهة أخرى.. وفي الخط البياني للتاريخ الصاعد، يصح القول في تنضيد هذه الخلاصات العامة في حقل واحد، يفسر لنا بأن الرقة في أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي كانت في عافية مجتمعية ومناعة وطنية، بل ونشاط مدني وتوقٍ إلى الترقي والتمدن، أفضل مما وصلت إليه الحال في سبعينيات القرن الماضي، ومجتمع السبعينيات كان بالقطع خيراً من مجتمع التسعينيات، ولن يصعب علينا الحكم بأنه حين اندلعت الثورة في عام 2011، كان المجتمع الرقاوي، مدينة وريفاً، في أسوأ مراحل الرثاثة وأشدها تهافتاً، فلا علم ولا ثقافة ولا سياسة ولا حتى مقومات أو ركائز مجتمعية تضمن استمرار روح الجماعة التي كانت تندثر وتتلاشى، حيث أن الثورة السورية حين شَبَّ أوارُها بعد ذلك القحط المجتمعي العام، لم تكن الرقة وسكانُها أثناءها أحسن حالاً من مشاعر وافدين غير مستقرين؛ ولا معنيين بالمكان أو يحملون في مشاعرهم قيمة الرمز الذي يمكن أن ينطوي عليه مفهوم الوطن والوطنية.. لقد اقتحمت داعش الرقة واستولت عليها، واستبدت أقبح استبداد يمكن للعقل أن يتخيله؛ ومع هذا لم يقف في وجهها من أهل المحافظة التي ربت على المليون وبضعة آلاف أكثر من ثلاثمائة شاب صمدوا بسلاحهم في الدفاع عن مدينتهم حتى الطلقة الأخيرة، ولقمة الخبز الأخيرة.. ونصف هذا العدد في منطقة كبرى كتل ابيض وريفها، وربعه في منطقة كبيرة كالطبقة وريفها. أما في ريفها الشرقي،(خط ناحية الكرامة) فلم يقاوم المحتلين المتوحشين منهم أحد..

هذا التجمع لأمراض مجتمعية مزمنة وتفكك غير محسوس لم يكن العضال الاستثنائي الذي أفقر عافية الرقة وحدها، بل الأصح أنه كان داءً عاماً عانت منه سوريا وشعبها، وتدهوراً يُلحظ يومياً دون حصر أسبابه والوقوف على مجمل تشخيص العلية التي تقف وراء هذا الانحدار الشامل؛ وإن تكن الرقة قد عاشت استثناء الاستثناء دائماً في الخروج على القاعدة.. وهذا ما يجعل رئيساً كبشار الأسد يختارها في مناسبة أول عيدٍ أتى على الشعب السوري بعد انفجار الثورة، لكي يصلي أمام عدسات الكاميرات وبين الناس، كما جرت العادة في هذه المناسبة، وهو في شروط أمان في المسجد لم يكن ليأمن فيها في بقية الجغرافية السورية المحتقنة.(2)

عوامل مساعدة على الثورة:

في استرجاعاتي الذهنية، أفترضُ الآن محاوراً لي سوف يتساءل: إذا كان الوصف العام لواقع البلد والناس هو كما ذكرت، فلِمَ إذن شجعتم على هذه الثورة، ولِمَ تورطتم فيها؟ ألم يكن ذلك فعلاً طائشاً غير مسؤول؟ وعملاً لا أخلاقياً رتّب في سلم الخسائر في الأرواح والبشر، من الفداحة مادَّمر كل مستقبل الناس وأقفل باب الأمل بلا عودة؟ ألم تكونوا على علم بأن الناس لم يكونوا على الهيئة والاستعداد الكافي لخوض غمار مغامرة لم تُحتسب عقباها كما يجب؟ ثم ألم يكن بقاء النظام أهون الشرور التي رتبتها النتائج التي تلت فيما بعد؟ أوليس عدلاً وانتصافاً أن المطلوب اليوم هو اعتذار من الثورة والثوار عن هذه الكارثة الأممية غير المسبوقة، لا في هذا العصر ولا فيما سبقه؟ وهل وصلت القناعات بعد، أو استعد الضمير ليجابه أخلاقياً الجائحة غير المسبوقة، بما يجب مواجهته قولاً وفعلاً؟

لقد حشدتم رِعاع المدن وصعاليك الأرياف تحت مسميات مختلفة.. كتائب، ومجالس، ومؤسسات إغاثة وغيرها.. كلُّ ذلك حدث باسم الثورة ونيابةً عن شعب دفع ثمنَها أبهضَ مما دفعته أية أمة من الأمم في مثل هذه الظروف المشابهة، وحين خطف الساسة الذين يفترشون الفنادق الفخمة ثورتكم وورثوها، وراحوا يتاجرون بها في المحافل الدولية، لم تفعلوا غير أن تطلقوا الحسرات والزفرات،

وتُصَعِّدوا الشكوى والاتهامات.. وهل تبادل الاتهامات بينكم وبين نظام الأسد،(أو تقاسُمُها)، بعد كل هذه الجداول من الدماء والشهداء والخراب التام، بات اليوم مجدياً أخلاقياً، أو هو عامل مساعد على التنصل من المسؤولية؟

أعترف بدايةً بأنني لست مؤهلاً ـ كفردٍ من الأفراد ـ لأن أجيبَ جواباً تاريخياً شاملاً على كل هذه الأسئلة، ونيابة عن الثورة وأهلها، لكنني سأكتفي بقناعتي الفردية المتجردة من كل عاطفة أو ميل، وسوف أردُّ بدايةً بأنني لم يساورني شعور بالندم قيد شعرة عما أقدمتُ عليه وابتدرته، وكنت مستعداً أن أدفع الكلفة من حياتي وحياة عائلتي لو اقتضى الأمر ذلك،(وما أزال على هذا الشعور الذي لم يتزحزح)، ولو أن الزمن رجع أدراجه لما فعلتُ شخصياً أكثر مما فعلت، ولما أخترتُ غير خياراتي نفسها..

وفي الرد على هذه الأسئلة المتهِمة، وهي عموماً متداولة وشائعة وليست افتراضية كما قد يُظَن، أجيب بأن ثمة نقطتين مهمتين يجري الخلط بينهما، ولا بد من الفصل النظري الواضح الذي يضع محددات ماجرى ويجري على الأرض السورية عامة، فالثورات عبْرَ كل التاريخ البشري، ما كانت يوماً، نزهة لذيذة وترفاً رغبوياً في التغيير، كما أنها ـ في القانون الطبيعي العام ـ كانت تفصل مرحلياً، بحزم وبحدة، بين مرحلة تدمير النظام القديم والاستيلاء على كل مكونات الماضي قبل تغييرها، وتشليع جذور الشجرة الضاربة في عمق التربة دون النظر إلى فضلة رونقها وبقايا خضرتها..

حقيقة الفصل النظري هي حتماً بين مرحلة تستهدف تدمير نظام عتيق متأبد لا أمل في زحزته أو تطويره أو إصلاح بنيته، وهو يمتلك الحاضر والمستقبل بقوة الحديد والنار، وبين ما يوجب القول بأنه لابد قبل تنظيم وترتيب أوراق العمل الثوري، وإعادة تعريف المصطلح والهدف ومحدداتهما النظرية، من تصويب الهدف الأول الذي لا يمكن تجاوزه أو تحقيق مابعده إلا بإنجازه كاملاً؛ لغاية التأكد من أن النظام المتهالك قد أُثْخِنَ بإصابة قاتلة لن تتيحَ له أملاً أن يستعيد عافيته أو يتربعَ على سلطاته من جديد، إذ أن معنى الثورة كلَّه يتكثف في اللحظة التي يتم فيها الإعتراف بأن سوريا القديمة قد مضت دون رجعة، وأن وطناً جديداً وأمة جديدة لابد أن تولد من جديد، وأن تُبنى مهما تعاظمت التضحيات..(ولقد أنجزت الثورة هذا الشق كاملاً وبالمطلق). أما المرحلة التالية التي يستهدفها هذا الفصل، (والتي لما تنجزْها الثورة السورية بعد؛ لا في الرقة ولا في سائر سوريا)، وهي مرحلة العمل على تعريف الحرية والوطنية والدولة المدنية الحديثة، والنضال والتزاحم من أجل هذا الهدف، فهي مناط الرأي والاختلاف، وهي الفضاء المفتوح على مرحلة نضالية وسجالية قد تمتد عقوداً.. فالثورة هي السياسة نفسها، ولكن في ثوبها العنيف ومعناها الاجتثاثي.

كانت الثورة ابنة وطنٍ عشش الاحتقان فيه حتى بات انفجارُه قانوناً طبيعياً.. تعاظمت أورام، وازداد الفوات الحضاري والمجتمعي بين سوريا وبين جوارها الإقليمي والدولي، حتى استوطن كلَّ امرىء فينا شعورٌ باطني بأن هذا الوطن تُسَيّرُه قاطرة الجنون واللامعقول بسرعتها القصوى نحو الاصطدام بجبل نهايات الأشياء المتوقعة، كان كلُّ شيءٍ في سوريا يثور على نفسه: الحجر والشجر والبشر، وكلُّ شيء يبحث عن خلاصه بطريقته الخاصة، بالهجرة والبحث عن الرزق، بالفساد الذي استحال إلى منظومة قاهرة ومالكة ومتحكمة، ولم تعد حتى السلطة بقادرة ـ فيما لو أرادت ـ أن تجدَّ حلولاً لها تمكنها من السيطرة عليها أو الإمساك بطرفِ حلٍ.. فقد فات أوانُ كلِّ شيء، وصار كلُّ شيء رهنَ ماضٍ متأبدٍ متعفن، غرق عبر عقود دولة الأسد الطويلة في بحرانٍ من الظلام، والتفَّ الشوك وحبالُ عنكبوتٍ حول أعناق الجميع ـ بمن فيهم أزلام السلطة وسدنة قلعتها الجحيمية ـ فتكبلت أجيال وراء أجيال بأمراس اليأس واللامعنى وفقدان الأمل.. لم تُنادِ الثورةَ أحداً ولم تنتخِ بأحد، بل استجاب لها من استجاب لنداء القلب، ولبى نداءَها كلُّ من عاش في سوريا ومايزال يملك بقايا قلب، وأصمَّ أُذُنيه عنها من مات قلبه وانطفأت فيه شعلة الروح والحياة، فعاش جسداً يتحرك بإيحاء البهيمية الفطرية، ليأكل ويشرب وينام، فأصبح الاستمساك بشعار(كنا عايشين) ديناً يدين به من أَلِفَ السَبات وحَيَّ حياةَ النبات.

كنا نعيش حالة العذاب غير المحسوس به بسبب الإدمان عليه، لأننا لم نعد نعرف أو نتعرف على حال آخر مختلف، إلا مانحن عليه من فقدان التوازن جرَّاء المساواة التامة في إحطاط كرامة جماعي شارَكَنا نظامُ الأسد فيه واشترك هو أيضاً معنا.. وهل نحن سوى مجرد شعوب يحكمها خونة منذ عشرات السنين، ولاؤهم المطلق لأجهزة الاستخبارات التي أوصلتهم إلى سدة السلطة بنسبة100%، وهم يتحكمون بمصائر فُتات شعوب هامشية مرهقة جداً ومُجَهَّلة ومُضَيَّعة، أتعبتها مصائرُها الفردية وخلاصُها الجنوني بطريقة ما، شعوب تقول كثيراً من الكلام، لكنها لا تفعل شيئاً ذا قيمة، وحتى حين تقرر ـ أو يقرر بعضُها ـ أن يفعل شيئاً، فإنها تفتقر إلى حاسة التنظيم، والعمل المخطط العاقل المكفول بالتعاون والتكافل الحي البناء.. بل إن الفعل نفسه غالباً ما يتحول إلى كلام حماسي غايته الادعاء الشخصي والتعاظم والتعبير عن الذات.. لافكرة واضحة لدينا عن الوطن، ولا نعرف ماهي الدولة التي ننشدها، ولا كيف تُبنى العلاقة

بين السلطات والمواطنين. أما "كمسيونجيي" العلاقة المتبادلة بين فقراء الناس ومهمشيهم، وبين أهل الثراء والنفوذ، وأصحاب الأصوات المرتفعة ـ المصطفين دوماً في الصفوف الأولى ـ فهم في الغالب مجاميعُ من نخب السياسة والثقافة، والنخب الدينية والعشائرية.. إنهم أنبياء الخيانة، وسدنة الغدر، وفرسان الغارات في الخسارات.

في تلك اللحظات المضطربة الأولى من عمر الثورة، كانت مدينة الرقة تبحث عن نواة أولى تحقق لها مرتكز بداية في انطلاق العمل الثوري والتأسيس له، والأجوبة على الأسئلة الصعبة التي شكلت استعصاءً في السلوك وشَلَلاً في الحركة.. يمكن للطفل الصغير أن يتدرب على خطواته الأولى في المشي بتلقائية غير مُخططة، ودون تعليمات أو حاجة إلى وصفة تعليمية مسبقة، غير أن العجوز الخمسيني الذي لم يألف السير على قدميه طوال حياته لا يفعل الشيء عينَه، وبذات الارتجال والعفوية التي يمتلكها الطفل.. كان الشعب السوري كلُّه طاعناً مكدوداً إزاء فكرة الاحتجاج أمام سلطة حيوانية وباطشة، لا ترجو ثواباً ولا تخشى عقاباً، ولا تحسب حساباً لشيء، ويستوي في قيَمِها وأخلاقها التي أعتدناها البشرُ والحجرُ والحيوانات.. كان الجميع يفكر تفكيراً كظيماً، ويطرح على نفسه أسئلة، ويتصور الأمور كما ينبغي لها أن تكون، وهذا بحد ذاته مُربك، وعامل تبكيت يضعف الأداء ويقهر كل خطوة تلقائية مطلوبة للمستقبل.. لم تكن الغالبية تعلم ماهي الثورة، ولا ماذا تريد منها بالضبط، وكان حجم الغضب واليأس والإحباط هو الدافع الأكبر المعوَّل عليه في توجيه الحركة..

كان ثمة أجيال من السوريين الذين ولدوا في حقبة الأسد الأب، وصولاً إلى زمن الأسد الابن، قد نبتوا في فضاء معزول عن العالم الذي تطور مئات السنوات ونحن لا نشعر به، فقد كنا مجرد نبْتٍ فطريٍ في غابة مجهولة، وكانت الأمية الثقافية تضرب المجتمع حتى قعر عظامه الداخلية، وحتى الفئات المتعلمة لم تكن حظوظُها الوافرة من المعرفة أكثر من أكوام من المعلومات المتخشبة التي تناولتها بطريقة آلية في مراحل الثانوية والجامعات، كان التعليم في سوريا(ومايزال) مصلحة مثل مصلحة السباكة والنجارة والحدادة، لايُنتفَعُ منه إلا لكسب العيش وحصد لقمة الخبز، فلم تترك مملكة الشيطان الأسدية خلال نصف قرن فروقاً تُذكر بين الطب والهندسة والحقوق والعلوم الإنسانية والمجتمعية والفنون على سبيل المثال، ما يجعلها تنأى في المسافات عن مصالح الإرتزاق وتحصيل لقمة العيش؛ ففي سوريا وحدها يقاس الفارق بين بائع الخضار وبروفسور الجامعة، وبين سائق التكسي العمومي والمفكر الكبير بما يكسب كلٌّ منهما، ومايحصل عليه أحدهما من راتب آخر الشهر، ومن تحصيل معاشٍ يكفي ويستكفي فيه أول العمر الثقيل وآخره..

إضافة إلى كل ماسبق، تضافرت حزمة من عوامل طبيعية على تهيئة مسرح الثورة في الرقة، في نوع من فضاء ذهني وحركي بطيئ نسبياً، منها أن المساحة الجغرافية الواسعة للمحافظة، واتصالها بالحدود التركية وبعدها النسبي عن مركز السلطة، كانت عاملاً جيداً وفرصة للثوار لا للنظام في الحركة، وفي أكثر من اتجاه مديات حرة ومقبولة. كذلك ظهر نوع من تعاطف الناس وميل أوَلي غامض الطابع ببذل كل تضحية وحماية. بعض تلك المواقف المفاجئة والتي كانت مرتجلة وجرت دون محاكمة أو تخطيط مسبق، كان من الممكن أن تسبب لبعض باذليها أذى كبيراً، كالاعتقال والتعذيب وربما الإعدام، ومع ذلك لم يبخل كثيرٌ من الأهالي في بذلها وتقديمها للثوار تحت وطأة أي خوف من أي سبب ممكن.. كذلك فإن معرفة الناس في محافظة الرقة ببعضهم بعضاً، منحت حرارة من الثقة والإقدام وعدم التردد في الحركية والعمل. وهو أمر قد تفتقده، أو تفتقد بعضَه، كثيرٌ من المحافظات السورية الأخرى، وغالب مدن سوريا الكبيرة والصغيرة.. مع العلم أن السلطة كانت قد استبقت انفجار الثورة بأشهر، ومنذ نهايات عام 2010، بتحزيم الشوارع والمؤسسات وجميع قطاعات المجتمع بأحزمة من المخبرين المتجهزين على هيئة" باعة متجولين من قطاعات خدمية مختلفة"، أو "أكشاك مراقبة" صغيرة، كما تسميها الأفرع الأمنية، للمشتغلين في تسيير الخدمات والمعاملات لدى الدوائر الرسمية، إذ كل ماكان يتحرك على الأرض كان مرصوداً ومراقباً بعناية فائقة(3).

وكان واضحاً منذ البداية أن جمهور غالبية الناس، والسلطة معهم، قد بالغوا توهماً بقوة القوى البشرية الحقيقية التي تعمل الثورة بها في المحافظة، وهو أمر أضاف قيمة إعلامية ودعاية مجانية لم نكن نتوقعها، إذ ظهر منذ البداية بأن الثورة والثوار ـ وهم يَحْبون حبواً بالممكنات المتاحة بين أيديهم، على ضآلتها ـ يحاولون أن يظهروا بمظهر "البطل"، وهم واقعاً وفعلاً إنما كانوا يتحركون في موقع "المُكْرَه".. زد على ذلك، فإنه لابد من الإقرار بأن تركيز النظام على كامل محافظة دير الزور، التي انتفضت مبكراً وبعرام هائل منذ بواكير الأيام الأولى للثورة، قد خطف الأنظار عن الرقة، ومنح تراخياً وانصرافاً في جهد السلطة وأجهزتها الأمنية القمعية عن الاكتراث كثيراً بالرقة، أو التركيز عليها ومراقبة ماكان ينضج ببطء في عالم خفائها وباطن واقعها المشاهد، أما إذا أضفنا إلى كل هذه العوامل السابقة تاريخاً مميزاً، هو واقعة **تحرير تل أبيض** التي كانت أول جغرافيا في المحافظة تعلن سقوط نظام الطاغية، ورفع علم

الثورة فوق أرضها، فقد أهدت تل أبيض المحررة مسرحاً للحدث الثوري في الإطار العام، لم يكن متاحاً إلا على سبيل الحلم والتمني، فكان تحرير تل أبيض فتح فتوح الثورة في محافظة الرقة، ومفتاح نصرها وتحريرها الأكبر الذي لن يطول لاحقاً..

لكن كبريات التفاصيل الهامة التي أشرعت الأبواب للثورة، ومنحتها في الرقة رأسمالاً واسعاً بلا حساب، فكانت مظاهرة الشهيد **علي البابنسي**، شهيد الرقة الأول ورمزها الأكبر، والتي كان مضمونها وجوهرها الحقيقي يتكثف في إعادة اختبار ثقة الناس بأنفسهم، وتماسك إرادتهم بعد فقد تلك الثقة وتلك الإرادة لعقود طويلة من حكم البعث والسلطة الدكتاتورية، التي نجحت في تنويمهم مغناطيسياً، وأسلمتهم إلى رقاد وسبات وشلل إرادة تاريخي مزمن.. لن أسمح لنفسي أن أبتسم اليوم استخفافاً بما حدث، فما حدث كان جليلاً وعظيماً بشكل لا يُصدق..

لقد كان ثمة حدثان من حيث الأهمية، شكّلا تحولاً نوعياً على المستوى الاستراتيجي في مستوى تطور الواقع العام، وكيفية صناعته وإدارته بين قوى كثيرة متصارعة، بعضُها مُشتهِر ويسمع الناس بتفاصيل أخباره اليومية، وبعضُها مستتر لم يكن الجمهور يراه ولا يدرك قدرته على صناعة الحدث، ولا تأثيره المباشر والمستقبلي بما آلت إليه الأمور لاحقاً في الرقة: الحادثة الأولى هي استشهاد الشاب"علي البابنسي" في إحدى المظاهرات، والحادثة الثانية كانت تحرير مدينة تل أبيض من قبضة نظام الأسد بتاريخ 2012/9/18(4).

ربما حفرهذان الحدثان المفصليان، والمهمان في تاريخ الثورة، وفي يوميات الرقة وتطور الأحداث فيها، التقدمة الأساسية التي التفَّتْ حولها جميعُ الأحداث اللاحقة.. بما فيها تحرير الرقة المدينة فيما بعد، وما ترتب على هذا التحرير وانتزاع المحافظة بكاملها تقريباً من قبضة النظام، من إعادة تجميع جديدة لقوى جديدة، وخلطها في مراحل متفاوتة من حياة الرقة.

في البدء كان المدنيون:

علي البابنسي شاب من مواليد عام 1996في الرقة، كان يدرس في مدرسة (ابن خلدون التجارية) في الرقة، ولديه خمسة أشقاء جميعهم اعتقلوا لفترات خلال أشهر الثورة الأولى، ولعدة مرات. وعندما بدأت الثورة كان من أوائل المعارضين للنظام الأسدي، حيث اشترك في معظم المظاهرات السلمية، وكان من الشباب المتحمس للخروج والمطالبة بإسقاط النظام.. أول مظاهرة شارك فيها انطلقت من شارع الوادي واتجهت باتجاه شارع تل أبيض، وكان البابنسي مشاركاً فيها، حيث ظهر أن عدد المتظاهرين يميل إلى التزايد، بعدها اشترك الشاب البابنسي مع مجموعة من الشباب في تشكيل (تنسيقية طلاب الرقة)، التي ضم أكثرُها طلاباً من مدرسة ابن خلدون ومدرسة التجارة ومدرسة الرشيد(وجميعها مدارس المرحلة الثانوية)، وكان لهذه التنسيقية دور في زيادة النشاط الثوري في المدينة.. وبتاريخ يوم الخميس في 2012/3/15 خرجت مظاهرة قوية في شارع الكنيسة بجانب حديقة الرشيد، فهاجمها عناصر الأمن العسكري المسلحين بأسلحة نارية رشاشة بوحشية وشراسة، وأطلقوا الرصاص الحي على المتظاهرين فأصيب الشاب علي في صدره، وبسبب عدم السماح له بدخول المشفى وإسعافه بالسرعة المطلوبة، فاضت روحُه فكان الشهيد الأول الذي تسجله المحافظة في المظاهرات، الأمر الذي أحدث هزة وجدانية وعاطفية عميقة في وجدان كل سكان المدينة والريف على حدٍ سواء، وفتح استشهاده باباً في تاريخ المدينة، ومراحل الصراع مع السلطة الاستبدادية الغاشمة، لم يعد بالإمكان إغلاقه أبداً، وأحدث جرحاً لا شفاء له في تاريخ الصراع مع النظام في مقبلات الأيام التي تلته.

كان الصباح التالي الذي أعقب استشهاد البابنسي حاسماً ومفصلياً ومشحوناً بالمفاجآت.. لقد تطَيَّف المشهد في الأخيلة والأذهان، حتى اختلطت فيه حدود الحلم والخيال بقسوة المشهد الواقعي.. كانت موجة من الحزن والغضب الشامل قد اجتاحت المدينة، وخرج الناس فرادى وجماعات في تصميم غير مألوف ويصعب تفسيره صباح اليوم التالي لاستشهاده، وكل فرد من أبناء الرقة قد حسب بأنه جاء وحده يشيع شاباً يافعاً في ريعان العمر قتل بدم بارد، ولم يكن في مخيلة أحد أن يتعدى التشييع الحدود لأية جنازة عادية.. وقد زكى هذا التصور أن الشهيد ـ رحمه الله ـ كان من عائلة صغيرة جداً في الرقة، لاعشيرة له ولا جموع معزين من أقرباء، كما يمكن أن توحي به وقائع الأمور مبدئياً..

كبرت الكتلة التي تجمعت في الصباح لتشييع البابنسي وتكاثرت، وكلما مضت دقائق ولحظات كانت تتضاعف، وجاءت البلاغات من أهالي الريف البعيد والقريب تطلب التريث والتمهل في انطلاق الجنازة نحو المقبرة، ريثما يتسنى لهم الوصول من قراهم البعيدة والقريبة، وما إن سارت الجنازة حتى أذهل منظرُها كلَّ من شارك وحضر.. لقد تحولت إلى مظاهرة نوعية على مستوى سوريا وثورتها، في حركة احتجاج غير مألوفة لمدينة صغيرة لم تتشرب روح الاحتجاج والتمرد على السلطة طيلة تاريخها، فقد بلغ عدد المشاركين الذين ساروا في موكب التشييع قرابة المائتي ألف مشيع أو يزيد،(على اختلافات في التقديرات العامة لعدد المشاركين)، وفي محافظة لم يتعدَ عديدُ سكانِها يوماً المليون والمائة ألف نسمة، محتسبين في ذلك النساء والأطفال الرُضع والشيوخ وغير المقيمين والمهاجرين خارجها.. وبهذا المعيار يمكن وصف المشهد بأنه كان استثنائياً وإجماعاً منقطع النظير، وتصويتاً شعبياً احتجاجياً لصالح الثورة ضد النظام، جمع كل سكان المحافظة أو معظمهم، في صعيد واحد ومشهد واحد.. وهو أمر لم تعرفه الرقة في تاريخها لا من قبل ولا من بعد..

كانت خاتمة المشهد أبلغ ذروة في تطور الحدث الدراماتيكي غير المألوف والمتوقع، فبعد قفول موكب المشيعين وعودتهم من المقبرة، بلغ الغضب العارم لدى البعض منتهاه، وقرروا ـ متواصلين بالهتافات التي لم تنقطع، لا في طريق المقبرة ولا في طريق العودة منها ـ أن يزحفوا نحو تمثال الديكتاتور حافظ الأسد المنتصب وسط أكبر ساحات المدينة من أجل هدمه وتحطيمه، ومركز التمثال كان في جوار مبنى المحافظة. وهناك كانت مجاميع من قوى الأمن والجيش قد حسبت حسابها للنية التي بَيَّتَها المشيعون، وقررت المواجهة الدموية بأعلى أشكالها وأكثرها إجراماً.. انهمر الرصاص على المقتربين من تمثال الطاغية، وحدثت مجزرة نوعية في تفاصيلها، سقط على إثرها أربعة عشر شهيداً من طليعة شهداء المدينة، وخيرة شبابها الثائرين المتظاهرين؛ بتلك الرعونة وبذلك الإجرام غير المسبوق فتحت السلطة أمام الرقة وأهلها جميعاً باباً دموياً لاعودة فيه ولارتق لصدعه ..لقد تحطم الزجاج، زجاج السكونية السالبة والمترددة التي حكمت المدينة وأهلها لعقود، وانتثرت شظاياه في كل أرجاء المحافظة.

أما الحادث الثاني، فكان تحرير مدينة تل أبيض الذي سبقته مقدمات كانت أساساً موضوعياً رجَّح ميزان القوى لاحقاً لصالح الثورة والثوار.. أهم هذه المقدمات كانت معركة (بيرعاشق)، التي اندحر فيها النظام وقواه العسكرية، وغنم الثوار أسلحة منه لأول مرة، واستطاعوا إعادة تجميع قواهم وتكتيل أنفسهم في مواجهته، والأهم من ذلك كله كان للصدى النفسي لدى القوى الشابة المترددة، في مواجهة النظام بالسلاح وكسر شوكته، من الترجيع الحسن وكسر جدار الخوف، الذي كان عملياً أقوى رصيد لدى السلطة تعتمد عليه في مواجهة الهَبَّة الثورية المتصاعدة، خاصة لدى الجيل الجديد الشاب، الأمر الذي حفز الكثير من الشباب المتأثر والمتردد، أن حسم تردده لصالح الإنخراط المباشر في الكفاح القتالي المسلح في مواجهة النظام دون أي خوف أو تردد..

معركة بيرعاشق كانت هي ضربة الإزميل الأولى في الصخرة الصماء التي تقرر أن تتحول إلى تمثال، فإذا كان التمثال هو الثورة(في طورها المسلح)، فإن معركة بير عاشق هي أولى ضربات نَحَّاتها في الجسد الأصم، أما هيولى الصخرة الأولى ـ أو مادتها الخام ـ في تلك المعركة المسلحة مع النظام، والتي بدأت مع نظام الأسد، ولم تقف عند حد أو نهاية حتى كتابة هذه السطور، فكانت شيئاً أطلق عليه يومذاك، في شباط من عام 2012 اسم(كتيبة القادسية).

سبق تشكيل كتيبة القادسية تأسيس الجيش الحر وجبهة النصرة، فكانت في بداياتها ملاذاً واجتماعاً تلاحمياً عفوياً، حَشَدَ خليطاً من متعجلين للقاء قوات النظام، والمنازلة معها في ساحات العمل المسلح تحت اسم جامع، إضافة إلى مجموعات صغيرة من متدينين شعبويين وبسطاء السلفيين، وجعلت القوى الداعمة للقوى الأصولية تنظر إلى هذه النواة المبكرة بعناية واهتمام خاص، رغم أنها جمعت أشخاصاً من كل حدبٍ وصوب، ومن شتى الأطراف والبيئات والمواضع في محافظة الرقة؛ كانت معركة بيرعاشق صدمة الصدامات القادمة وحركتها التي ساعدت بنيان ومستقبل الحراك العسكري المتعثر فيما بعد، ومنحت الرقة النتائج التي ترادفت وترتبت على تسلسل الأحداث ومنطقيتها، أو لامنطقيتها.. لقد انحلت تالياً كتيبة القادسية، ودخلت دخولاً جماعياً في جبهة النصرة بعد وقت قريب، حالما تم الإعلان عن تأسيس النصرة، وبانحلالِها أُعلِن عن تشكيل الكتائب: الجيش الحر وجبهة النصرة. أما المقدمات التاريخية التي أسست لتشكل القادسية فيمكن إجمالها في الخطوط العريضة التالية:

في تسعينيات القرن الماضي انتسب أحد أبناء عشيرة العكال، "هادي العكال"، إلى الثانوية الشرعية في الرقة، وقد بدأ يتخلق لديه ميل خاص إلى دعوة سلفية بسيطة التفكير، كانت تتلمس طريقها بصعوبة في المحافظة، وهي تحبو بطيئة في جو ديني في الرقة، يقع في منتصف المسافة بين اللاتدين والبساطة الإيمانية وقليل من التصوف التقليدي. وقد تأثر الشاب هادي العكال قليلاً بصحبة الشيخ سالم الحلو، لكنه حين انتقل إلى دمشق فيما بعد لمتابعة دراسته في كلية الشريعة، اتسعت مدركاته ومفاهيمه السلفية في أوساط الدعوة السلفية الدمشقية، بعد أن لم تُشبِعْ ميوله ما تعلمه في المدينة الشرقية المحكوم عليها بالبدائية والإعدام البطيء والجهل، وهنالك في دمشق منحته السلفية الجهادية بعض مفاهيم جديدة ما كان ليعرفها في قريته النائية.

برز نجم هادي العكال بعد عودته إلى القرية، كأحد السلفيين المشتهرين في منطقته، وبما حَصَّله في دمشق من ثقافة شرعية ومقدرة على الجدال والإقناع، واستطاع أن يؤسس حلقة ضيقة(لا تتعدى الخمسة أو الستة أشخاص)، من سلفيين جهاديين على شاكلته، ومُفَصَّلة على أفكاره التي استوعبها أثناء إقامته في دمشق. ورغم أن كثيراً من هؤلاء السلفيين الجدد في سوريا قد حفَّزهم وأغراهم الغزو الأميركي للعراق عام 2003 بالسفر وعبور الحدود السورية لقتال الأمريكان، إلا أن هادي العكال لم يسافر، ولم يلتحق بالجهاديين الجدد في العراق، بل آثر البقاء في القرية. لكنه، وفي حزيران من عام 2008، فكّر بتنفيذ عمل أخرق أبله لا يُدرى ماهي دوافعه، حيث أقدم، هو وبعض شبان قريته "كنيطرة" المتأثرين به، على ركوب دراجات نارية والهجوم على مخفر مدني في بلدة الزيدي(التي تبعد 50 كلم جنوب سلوك)، ولم يكن في المخفر يومئذ سوى شرطي حارس، فأسروا الشرطي الحارس، واستولوا على أسلحة المخفر ثمَّ لاذوا بالفرار. ولم تمضِ ساعات على الحادث حتى ألقي القبض على المجموعة كلها، وسيقوا إلى سجن صيدنايا قرب دمشق، ومنذ تلك الحادثة لمع نجم هادي العكال في كل المنطقة المحيطة بقريته ـ كنيطرة ـ ومنطقة تل أبيض عموماً.

بعد رحلة تحقيق طويلة في أفرع المخابرات، ومكوث في سجن صيدنايا، لم يخرج العكال من المعتقل إلا في خريف عام 2012، وبعد مضي أكثر من عام على انطلاقة الثورة السورية، حيث سيق إلى الخدمة العسكرية التي تخلف عنها مباشرة، وهناك تمكن من الانشقاق، والالتجاء إلى بلدة" تسيل" في محافظة درعا، ولم يعد إلى قريته سلوك إلا بعد تحرير مدينة تل أبيض، فعاد ضافراً إلى منطقته التي كانت قد تحررت، وهنالك أسس أول هيئة شرعية في كل محافظة الرقة بعد عودته بقليل.(أو ثاني هيئة شرعية بعد الهيئة الشرعية التي أسستها جبهة النصرة الحديثة العهد في المنطقة).

اتضحت حالة من التنافس بين الهيئتين الشرعيتين، هيئة هادي العكال والهيئة الثانية التي هيمن على قرارها أبو لقمان وأبو ماريا القحطاني، الشرعي العام لجبهة النصرة. وبقية الأشخاص الذين أرسلهم خليفة داعش إلى بلدة سلوك، إثر الانتصارات التي أحرزها الجيش الحر في منطقة تل أبيض بعد انطلاق الثورة. وفي شهر شباط من عام 2013، قتل هادي العكال في إحدى الغارات التي استهدفته في منطقة المنخر، شرقي الرقة، وتمكن أبو لقمان من اغتيال خليفته المدعو أبو علي كجوان بنفسه، ليخلص من مزاحمته وتأثيره القوي على أهل المنطقة.. لم يُعرف في منطقة سلوك قبل الثورة أي سلفي جهادي سوى هادي العكال وخلف الحلوس وشابين أو ثلاثة من أقاربهما، تأثروا على البعد بهادي .إضافة إلى شخصين آخرين ذهب أولهما إلى العراق وعاد سلفياً منطوياً على نفسه، وآخر، وهو معلم مدرسة، اعتقل لعدة أشهر.. وقد انخرط بعض هؤلاء بعد اندلاع الثورة في كتيبة القادسية التي تأسست باتحاد عدد من المجموعات في شباط عام 2012.

ولسوء حظ هذه الكتيبة تولى المدعو فيصل البلو، ابن تل أبيض المجاورة، وأحد سجناء صيدنايا المطلق سراحهم قيادتها، إلى جانب قائدين آخرين قتل أولهما، وهو معلم المدرسة السلفي المذكور سابقاً، بعد أيام من تأسيسها، وقتل الآخر بعده بقليل.. وقد ساير البلو مقاتلي القادسية بتبنيه الظاهر لعلم الثورة، قبل أن يجرّهم بالتدريج نحو حركة أحرار الشام طمعاً بالاستفادة من دعمها المالي، ومخفياً ميوله الحقيقية نحو جبهة النصرة التي تأسست لأول مرة في سوريا في ريف دير الزور، نهاية عام 2011، أو بداية عام 2012.. ظل البلو قائداً للقادسية التي أخذت تتآكل بتأثير منه ومن رفاقه الآخرين لصالح جبهة النصرة، التي اتخذت من قرية بير محيسن مقراً لها.. إلى أن انحلت كتيبة القادسية بعد تحرير مدينة تل أبيض في أيلول عام 2012. وحينها أسفر البلو عن وجهه الحقيقي وأعلن بيعته السابقة لجبهة النصرة . فالتحق الجزء الأكبر من عناصر الكتيبة بالجبهة، فيما انضم الباقون إلى حركة أحرار الشام فيما بعد.

في الأشهر السابقة على تحرير سلوك ثم تل أبيض، في شهري آب وأيلول من عام 2012، بنت جبهة النصرة سمعة أكبر من حجمها،(كانت أعدادها حوالي 30 عنصراً تقريباً). لكن البطش والجرأة على القتل، إضافة إلى صرامة التنظيم ومركزية القرار والمال الوفير الذي كانت تتحرك به، فضلاً عن العمل الأمني المنظم، عززت من صورتها كفصيل ذي وزن . كما أسهم في تعميق حضور النصرة هو هيئتها الشرعية ذات الأحكام القاسية على جنود جيش النظام المستسلمين، وعلى مختَطَفين بتهمة التشبيح ظلماً أو بحق، وحسب هوى الحلوس، المهووس بالخطف والتربص بالموظفين الحكوميين على الحواجز شمال مدينة الرقة، قبل أن يُرمَوا في حفرة الهوتة، واستباحة الممتلكات العامة كغنائم.. هذا ما جعل من النصرة موضع اهتمام خاص لم تنله هيئات شرعية أخرى، فصارت محكمة شعبية عامة، تُرفع إليها الشكاوى، وتفضّ فيها الخصومات بين كتائب الجيش الحر.

لقد تزود الحراك العسكري من معين الثورة، ومن شعاراتها وحواملها الغضبية التي قامت عليها، وأعاد إنتاج الغضب الكامن منذ سنين في صدور الناس ونفوسهم على هيئة كفاح مسلح منذور لأهداف محددة، ومنح المحافظة قضية جديدة هذه المرة، قضية ثورية في الأصل، لكنها بدأت تفرز المادة الأولى لتلك الطبقة العسكرتارية المستأثِرة من المسلحين العشوائيين، والتي ستحكم منطق الأمور لاحقاً، وستديرها بقوة السلاح، وكذلك ستسحب شيئاً فشيئاً قضية الثورة وأهلها، والاحتجاجات السلمية والمظاهرات التي نشطت واصطخبت في كل المحافظة مدينةً وريفاً، وستُنَحيهم جانباً قبل أن تبعثرهم وتعمل على تهميشهم واعتقالهم، ولاحقاً اغتيالهم لصالح دعاوي إسلاموية أصولية جديدة، بدأت تظهر خجولة في البداية، ثم تمددت وارتفعت لها رايات وأصبح لها غايات، وبدا جلياً أن الأمور أخذت تدخل مساربَ مختلفة، وتسير وتعمل لصالح قوى ظلامية منظمة وممولة، وهي في كامل الأهلية والاستعداد للعمل، لا على تدمير الثورة وأهلها فحسب، بعد أن عجز النظام عن إنجاز هذه المهمة، وأعيته الحيلة والوسائل رغم كل آلة البطش ووسائل الترهيب التي مارسها، بل وعلى الفتك بالمجتمع السوري عامة، والرقة على وجه أخص.

دائماً وفي كل الثورات والتحولات الإجتماعية الكبرى والخطيرة، هناك أقلية مخربة تستطيع أن تدمر المشروع وتستأثر بالفكرة لمصلحتها، وتفكك الإحتجاج والرفض العام لصالح فوضى شاملة تعيد إنتاج الطغيان وهيمنة الأجهزة والمؤسسة الظلامية التي تكون غالباً قد وصلت إلى حد النخر والتفكك، ووشك الوصول إلى حالة من التداعي الكامل.. الخطر أيضاً يظل قائماً في أن تتحول هذه الأقلية إلى أكثرية مُدمرة بعد أن تتمكن من إزاحة الأغلبية الثائرة المحتجة، وتنجح في تنفيذ إبادتها بالتقسيط، أو دفعة واحدة.. هذه الطبقة

الأقلية غالباً ماتكون مولودة في أوساط اجتماعية مغيبة ومنبوذة منذ أن استولى البعث على السلطة، حيث عمل على التخطيط لسياسة الإفقار والتجهيل، خاصة في تلك الأرياف التي بدأت تذوي وتنحل إلى بدائية وهامشية وكأنها ترتدُّ قروناً إلى الوراء..

كان هذا الوسط(الريفي) الساكن ـ وحتى المديني جزئياً ـ سهلَ الإستقطاب بطرق كثيرة، على رأسها الإغراءات المادية والمال، فضلاً عن إغراء تظهير تلك الشخصيات المهمشة بصفات اعتبارية طالما عاشت تحلم بأمثالها وتعطشاً لها، (كأن يُسمى المستقطب لصالح التنظيمات الأصولية الوليدة أميراً وقائداً وشرعياً ودعوياً وشيخاً خطيباً ومعلماً ومسؤول عشائر ومالٍ عام وعلاقات ومجاهداً من المجاهدين..الخ..)، في زمنٍ حصر فيه البعث الإعتبارات كلها واحتكرها لصالح (فرع الحزب والشعبة والمؤيد المتعاون والموظف الهام ومسؤول الجمعية والمخبر..الخ..) ثم شيئاً فشيئاً بدأ يسحب حتى هذه الإعتبارات القليلة والضئيلة ممن اختصهم بها، وعمل على تضييق الامتيازات الممنوحة لفئة نخبوية محيطة به وإماتتها بتقادم الزمن.

قاطرات الغضب:

قامت مركزية الحركة الأولى على تأسيس تنسيقيات، وعلى حاضنة ملتفة حول فكرة التظاهر ليس لها قوام منظم، وكان الفيسبوك هو من يتولى تنظيم وتحديد مواعيد ومكان التظاهر، أمّا ما أقصر الفيسبوك في تبليغه فكان يتم تداركه بالمشافهة وتبليغ الدعوات بشكل مباشر وعبر العلاقات الخاصة.. وقد تم تأسيس التنسيقيات كسياق خاص ومبتكر في طرائق التنظيم التي استولدتها الثورة السورية، وذلك للعمل على متابعة الحراك المدني والتظاهر السلمي، إضافة إلى مجموعات متفرقة منفصلة شكلاً، ومتواصلة فيما بينها، ومع بعضها في سياق عمل التنسيقيات، كل ذلك مع انفصال كل هذه الجزر تنظيمياً عن بعضها.. (تنسيقية ثوار الرقة) و(تنسيقية شباب الرقة)(5).. وعدد من التنسيقيات الأخرى، مع بقية المجموعات التي تجمعت ووطدت صلاتها على مبدأ المعرفة الشخصية والثقة المسبقة، والقرابة العُمْرية أوالصداقة الشخصية أوزمالة الحي أو العمل، أو واحدية المستوى الاجتماعي والثقافي، أو تماثل وتشابه الأمزجة والصلات الشخصية..

كانت هذه المجموعات تتواصل بطرق معينة متعددة ذات كيفية منحصرة بها، فتنسق عمل وتنظيم المظاهرات وفق اجتماعات أو تفاهمات خاصة سريعة.. ولا أعتقد بأنني قادر على الشهادة عن الثورة في الرقة إلا بمقدار خبرتي الخاصة في المجموعة والوسط القريب الذي عملت من خلاله، أو كنت من بعض فريقه، وهو ما أطلقنا عليه يومها مسمى تنسيقية ثوار الرقة. والتي كانت متوزعة بين فرعين: فرع الرقة المدينة من أبرز ناشطيه: نبيل الفواز ـ مصطفى سليمان ـ ثامر الطحري ـ عبد الكريم الناصر ـ حمود ومعه مجموعة شباب متظاهرين كبيرة ـ "خ غ"(6) ـ "م د"، (في مناطق سيطرة داعش الآن)، ناصر الخلف،(استشهد فيما بعد، لروحه الرحمة)، علي السهو(وقد ترك التنسيقية باكراً وانضم إلى جبهة النصرة بعد تشكيلها، ثم التحق بداعش فيما بعد).. ثم فرع الرميلة: أحمد العلوش"أبو عيسى"، ومعه مجموعة كبيرة، "ع ش"(معتقل حتى الآن لدى النظام)، "م"(معتقل حتى الآن لدى النظام)، أبو علي الحليبي(استشهد أثناء المعركة الأخيرة مع داعش، رحمه الله)، احسان الفصيح ـ قاسم البلص ـ أبو جبل ومعه مجموعة كبيرة.. و بعض شبان آخرين لم تعد تحضرني أسماؤهم اليوم.. كانت كلمة السر في الموبايل يومياً بيني وبين أبو عيسى(للتأكيد على أن أحدنا لا يتحدث في الهاتف تحت ضغط أو رهن الاعتقال) هي العبارة، أو كلمة سر الأمان: "مشان السالفة اللِكْ خبَرها".. وكان أحمد العلوش أو أبو عيسى يتحرك في مناطق الرميلة باسمه الحركي "أبو دعبش"، فاقترحتُ عليه بعد شيوع الاسم والتأكد من وصوله إلى الأمن أن يتم تغييره إلى لقب جديد هو "أبو عيسى"، وتم تغييره بناء على هذا الاقتراح..

كانت هذه الطريقة ذات فوائد ومضار في آن، فهي من جهة الفوائد نزعت كل صفة تنظيمية عن الأفراد، وشكلت حماية خاصة من بطش الأجهزة التي كان يهمها البحث والتفتيش عن مخططين وتنفيذيين لتستكمل بهم ادعاءها بوجود"عصابات منظمة"، ذات رؤوس وأهداف خاصة، وصفة التنظيم وحدها كانت كافية لتمنح الأجهزة القامعة حجة مكتملة الشروط أكثر من اعتقال متظاهر عشوائي، قد لا يعرف أحداً ولا يعرفه أحد. فضلاً عن التعليمات التي كانت تُزوَد بها أفرع الأمن بأن يُنظموا ضبوطاً للموقوفين في المظاهرات، تؤكد على حيازتهم حبوب هلوسة كالـ"كبتاغون"، وأن يتضمن تقرير التوقيف هذه الحبوب وعددها من بين محتويات أغراض الموقوف وأشيائه الخاصة(7).. ومن جهة أخرى تجاوزت هذه الطريقة أغلال الطرق التنظيمية التقليدية، وحررتها من أسلوب التنظيم الهرمي، ما منحها فرصاً ثمينة لفحص الاحتجاجات وإعادة تقييمها، ودعم نقاط الضعف المحتملة وتدارك نقائص أداء الشبان المتظاهرين..

منحت هذه المجموعات التي كانت تعمل بطريقة وأداء كاسر لأي قالب جامد، حيوية متطورة لحركة التنسيقيات، وحاضنة شعبية واسعة وصلبة، كافية لتكون نواة وافرة يُعتد بها، لكن الخطر كان كامناً في كونها باتت مجالاً مفتوحاً لأطياف من منضوين مجهولي النوايا، بل وحتى لعملاء مرتبطين بمخابرات النظام ولقوى الثورة المضادة..(والتي كانت يومذاك احتمالاً بعيداً غير مفكر فيه، ولا بحجم قواه أو مآلاته ومقاصد تخطيطه وسعيه في تلك المرحلة المبكرة).. عموماً كانت الثورة أوسع من مجرد إسلامويين قاصري التفكير ومحدودي الأهداف، وهم ينتظرون بفارغ الصبر فرصتهم ـ بعد إشعال الشارع وتثويره وتسخين المجتمع على نار بطيئة ـ ليأتوا متأخرين، فيقطفوا ثمرة انتصار الجماهير العنيدة المكافحة والمضحية، لصالح منفعة خاصة فردية أو جماعية باتت تحرضهم وتشجعهم عليها قوى خارجية نافذة، ذات أهداف بعيدة ومقاصد لم تكن مفهومة في البدايات.

كان صيف عام 2011 حتى نهاية خريفه، هو زمن توسع قاعدة الثورة وصعودها الحقيقي. وخلال الأشهر التي سبقت مظاهرة البابنسي كانت موجات عديدة ومهمة من قطاع الشباب قد بدأت تلتحق وتتحمس للبذل في سبيل الثورة. تلاحقت المظاهرات السلمية المنددة بالنظام صعداً، وراحت تتسع دون التزام بتوقيت يومي محدد، ولكن غالب الوقت كان يجري إطلاقها في الأصائل والمساءات على اختلاف التوقيت بين يوم وآخر، مع ترادف البدء بالتظاهر في مكانين مختلفين، وبدأ الشباب ينحتون مصطلحاتهم الخاصة بالعمل الثوري؛ مثل مصطلح"المظاهرة الكذوبية"؛ وهي محاولة لتضليل عناصر الأمن وجرهم إلى أقصى نقطة بعيدة عن مكان التظاهر الحقيقي، والإعلان عبر الفيسبوك عن المكان، بحيث يكون معظم الجهاز الأمني قد استعد لملاقاة التظاهرة وقمعها في المكان المعلن عنه تمويهاً، لتفجيرها في نقطة تظاهر قد تبعد عن المكان المشتهر بضعة كيلومترات.

كما بدأ السعي إلى تحضير غرفة مشفى ميداني، وقد صادفنا بيسر نجاحاً في ذلك.. فقد تطوعت إحدى الأخوات التي كانت تعمل قابلة قانونية، أن تحول منزلها إلى مشفى ميداني في شارع هادئ وخالٍ نسبياً من الحركة، والقريب من معظم نقاط التحرك الحساسة.. ولقد تم تجهيزه ببعض الإمكانات الطبية الضرورية والبسيطة، حتى أصبح في حال يبعث على الاطمئنان النسبي، وإن صادفتنا لاحقاً بعض المشاكل الإسعافية والتقنية في سرعة الحركة، وهي مشاكل لا علاقة لها بوفرة الدواء أو ندرته، بقدر ماكانت ترتبط بالسيارة المسعفة غالباً، ودورة حركتها وتجوالها في المدينة وصولاً إلى المكان المطلوب لإسعاف المتظاهر الجريح.. في العموم كانت التنسيقية تمتلك ثلاث سيارات تعمل على خدمة التظاهرات ليل نهار، إحداهن سيارة أبو لؤي ثامر الطحري، وسيارة عبد الكريم الناصر وسيارتي . مع توافر عدد آخر من السيارات والفانات والسوزوكيات التي كان يمكن الاعتماد عليها بشكل متقطع حسب توافر حضورها القريب. أما القسم الآخر من التنسيقية، جناح الرميلة، فكان يتوافر على عدد من الآليات والسيارات أكثر من تنسيقية الثوار في المدينة.

بالعودة إلى موضوع الإنفاقات المالية، وتوفير كافة متطلبات العمل الثوري وحاجاته اليومية الماسة، فقد تم حل المشكلة عن طريق الإنفاق الشخصي من الفاعلين المقتدرين من دائرة الحراك الثوري حصراً.. لم نحتج إلى مساعدة مالية أو نستعن بأحد على النفقات اليومية، ولم نطلبها من أحد، ولا تبرع أحد من خارج مجموعات النشاط الثوري بأية تقدمة أو مساعدة بهذا الخصوص.. وفي واقع الأمر يمكن القول إن الضرورات المادية، فترة الحراك المدني طيلة العام الأول، لم تكن ملحة وماسة قدر ما أصبحت ضاغطة وحرجة بعد التحول إلى الواقع العسكري القتالي.. وقد وقع أكبر حصص الإنفاق المالي على أبوعيسى والمجموعة القريبة منه، وعليّ شخصياً، وعلى عبد الكريم الناصر و ثامر الطحري و" م د"، وبعض الأخوة الآخرين الذين كفلوا وحملوا عبء بعض ما ترتب من التزامات.. غير أنه تجدر الإشارة بأننا (في واقع تنسيقيتنا ومبلغ علمي وحركة نشاطي العام)، لم نتلقَ يوماً أي دعم أو مساعدة من أية جهة داخلية أو خارجية، فردية أو مؤسساتية، سواء في ذلك ما كان مرتبطاً بمؤسسات الثورة ونشطائها في داخل البلاد أو في الخارج، وإنما كان الاعتماد على أنفسنا وتبرعاتنا الشخصية بنسبة 100%.. هذا مبلغ علمي الخاص فيما يتصل بمجمل حراكنا الثوري في الرقة حتى ساعة خروجي من سوريا إلى تركيا بعد ثلاث سنوات، وعلى المستوى الشخصي فقد اضطررت إلى بيع عدد من مقاسم الأراضي العقارية التي أملكها، والتي أنفقتها على الحراك، (ولقد قدرتها تقريباً بما يصل إلى حوالي مبلغ بين الأربعة ملايين ونصف إلى الخمسة ملايين في تلك الآونة)، حتى أنني في مرحلة التحضير للحراك العسكري لم تكف كل هذه المبالغ، ولحقني بعض الدين الشخصي جراء ذلك.

بدأ التفكير يميل إلى التواصل مع وجهاء المحافظة، وإلى القوى الاجتماعية الفاعلة من كافة الفعاليات والقطاعات، وذلك لحشد رأي شعبي عام والتأثير في الكتلة المجتمعية الصلبة لجذبها إلى صفوف الثورة إن أمكن، أو على الأقل لكسب مواقفها المبدئية وضمان وقوفها ـ ولو في الحدود الدنيا أو في الموقف العام ـ ولقد تم التفرغ وتوزيع المهام بين مجمل النشطاء، كل حسب إمكاناته ومديات

حضوره وتأثيره وقدرته في التواصل مع أفراد أو كتل مؤثرة، ولقد كانت النتائج مُرضية حتى ذلك التاريخ.. كذلك فقد لمسنا تعاطفاً وتشجيعاً من العاملين في المحاكم المدنية، من قضاة ومحامين وموظفين عدليين، وشكل اعتصام المحاكم القضائية واحتجاجاتهم المتكررة قوة ضغط شعبية جديدة.. حيث كان لوجود المحامي الأستاذ عبد الله الخليل، أبرز نشطاء المعارضة، في مبنى دائرة القضاء العدلي أكبر وأهم التأثير الذي ساعد على التدخل من أجل متابعة قضايا الموقوفين ومعتقلي المظاهرات، ونجحنا في تشكيل صندوق خاص لدعم الموقوفين على ذمة التحقيق في التظاهر والاحتجاجات..

في أحد الأيام زارني في منزلي ثلاثة من أبرز نشطاء الاحتجاجات والمظاهرات، وأبلغوني بأنهم يفكرون في عمل كبير، وقد رسموا خطة مُحكمة سوف ينفذونها من أجل التقدم في الحراك العام للثورة ودعمها مالياً؛ ودون مقدمات مطولة شرحوا لي بأنهم يفكرون في الهجوم على المصرف العقاري ونقل كل مودعاته ووضعها تحت تصرف لجنة خاصة من لجان تنسيقيات الثورة بغية تحقيق قفزة نوعية في النشاط العام.. كانوا متحمسين جداً للفكرة، ويبدو أنهم قد اشتغلوا على التفكير في الخطة مطولاً، وناقشوا أدق التفاصيل، ثم وصلوا إلى قناعة متقدمة فيما كانوا يفكرون فيه.. وعلى الفور كان ردي حاسماً في رفض الفكرة من أساسها؛ كما نجحت في إقناعهم بأننا اليوم في طور اكتساب الناس وجذبهم إلى صف الثورة، فكيف يمكن أن يستقر في وعي الناس من أفكار وقناعات، وأن يروا ظاهر الثورة النقي فيما لو سجلنا سابقة في أولى خطوات العمل في التصدي لمجابهة النظام الفاسد، وذلك حين يخطر بالبال مجرد خاطر أن نسرق مصرفاً للدولة؟ وكيف يمكن في الوعي الشعبي العام أن يكون رجع مثل هذا الفعل ومفاعيله النفسية، وصدى تأثيره على الرأي العام الشعبي والوطني..؟

اقترحت عليهم بدل تلك الخطة التي جاؤوا بها بديلاً أفضل؛ وهو أن نضع خطة لتعليق علم الثورة على عارضة الجسر العتيق الشرقية.. سوف تكون حادثة غير مسبوقة، ولسوف تهز كيان الأمن العسكري هزاً عميقاً. كما أنها ستكون درساً في اختبار الشجاعة والطاقة الشخصية لبعض شباب الحراك. وافق الشباب على الفكرة وتحمسوا لها.. وفي اليوم التالي تم تأمين راية بطول يقرب المتر والنصف، وعرض أقل من متر. وتمت دراسة مدى حركة المرور على الجسر ووضع بعض الشباب كمراقبين تحت الجسر لمراقبة الحركة التي تكثر عند شاطئ الفرات، وخلال اليوم الثاني نجح الشباب في رفع علم الثورة على الجسر ليلاً، وبقي معلقاً حتى ساعات الصباح المبكرة، حيث عثرت دوريات الأمن عليه، وبلغ الغضب بهم مداه من هذا التطور المفاجئ؛ ونسي الشباب في غمرة النشوة والفرح والنجاح الذي صادفوه خطة السطو على المصرف العقاري نهائياً.

ومنذ أواسط عام 2011 وحتى ربيع العام التالي، بدأت موجة طاغية من الانشقاقات بين صفوف عساكر النظام، لم تنقطع أبداً.. كانت تشتد وتضعف حسب كل مرحلة من مراحل الثورة، لكنها لم تتوقف. وكان انشقاق أي مجند أو متطوع في صفوف قوات النظام يعد كسباً مهماً للثورة والثوار، رغم أنه رتب أخطاراً وأعباءً إضافية لم تكن بالحسبان. فمن جهة كانت بعض محاولات الإنشقاق تحدث تحت توجيه وبتخطيط مباشر من الأجهزة الأمنية وضباط النظام، وبالتفاهم التام مع العسكري الذي يمثل دور المنشق، وذلك لاستعماله كمصيدة لكل ثائر يفكر في الاقتراب منه أو من قطعة أو مؤسسة عسكرية ليغري أفرادها بالانشقاق، أو يشجعهم على ذلك. حدثت مجموعة من الحوادث المتفرقة انتهت إلى اعتقال كثير من الشباب الذين حاولوا شق عساكر النظام، وأذكر على سبيل المثال حاجزاً للجيش عند تقاطع باب بغداد، أول طريق المشلب، حيث وضِع مجند من ريف درعا كان دائماً يتجول إلى جانب الحاجز، ويعرض رغبته بالانشقاق على كل من يستطيع الانفراد به من المدنيين لكي يساعده على الانشقاق. ولقد ابتلع كثير من ذوي النوايا الحسنة الطعم ووعدوه بمساعدته، واتفقوا معه على خطة الانسحاب وتأمين اختفائه داخل المدينة.. فلم يلبث أن تسبب باعتقال حوالي 16 شخصاً خلال أشهر، تبرعوا لمساعدته في(تمثيلية) محاولة الانشقاق المزعومة تلك..

كما أن الانشقاقات التي كانت تحدث في المحافظات السورية الأخرى كانت ترتب مشقات أخرى؛ فقد كان مجندو وعساكر وضباط أبناء محافظة الرقة الذين تعاونوا مع بعض الناشطين في أماكن خدمتهم العسكرية على الانشقاق من صفوف جيش النظام، يتواصلون مع ناشطي الرقة وثوارها لتأمين وصولهم إلى أهاليهم، وكانت المشكلة تكمن في تجاوز كل هذا العدد الكبير من الحواجز العسكرية والأمنية، وصولاً إلى بر الأمان حتى حدود المحافظة.. هذا إن كانت رحلة العسكري سوف تنتهي عند حدود محافظة الرقة، أما إن كان العسكري من أبناء محافظتي دير الزور أو الحسكة، ومروره عبر الرقة عابراً كممر إجباري يجب أن يجتازه للوصول إلى محافظته، فقد كانت المهمة أشق وأصعب؛ إذ كان يتوجب تأمين نزوله وتنقله الدائم من منزل إلى آخر حفاظاً على أمنه الشخصي وحياته، توصلاً

إلى تأمين التوقيت المناسب لعبوره وسفره حتى حدود محافظته، مما يعني أن الخطورة في تأمين العساكر المنشقين من غير أبناء محافظة الرقة كان خطراً مزدوجاً..

في المرحلة التالية بعد أن تعسكرت الثورة وتشكلت كتائب الجيش الحر، أصبحت مهمة تأمين هؤلاء العساكر المنشقين أسهل وأقل مشقة، حيث أصبح الاعتماد بالكامل على كتائب الجيش الحر في ضم العساكر المنشقين إليهم أو تأمين سفرهم إلى ذويهم، إن لم يرغبوا بالانضمام إلى الجيش الحر والقتال ضمن صفوفه، أما قبل مرحلة العسكرة هذه فقد توجب علينا، نحن المدنيين، أن نأخذ على عاتقنا كل موجبات ومشقات هذه المهمة، بكل ما تحمله من مخاطر شخصية على الحياة قد تؤدي إلى الاعتقال أو ربما الى إطلاق النار مباشرة، والقتل دون تردد من قبل الأمن أو الجيش المتربص بالجنود المنشقين.. ناهيك عن مخاطر وأعباء تأمين منازل للسكنى المؤقتة للعساكر، وتأمين كل مستلزماتهم المعاشية حتى ساعة مغادرتهم المحافظة..

في ذات مساء زارني صديق في التنسيقية، اسمه"م"، وبادرني فوراً ودون مقدمات، بأن هنالك مجنداً درعاوياً في الفرقة 17 يرغب بالانشقاق، حيث يتم نقلهم من الفرقة 17 كل يوم، وعلى نوبات خلال النهار والليل، ليرابطوا عند الحاجز الأكبر في المدينة، حاجز دوار تل أبيض، وأن هذا العسكري جاهز للانشقاق هذا اليوم بالذات، وبعد منتصف الليل بأكثر من ساعتين، وإذا لم ننجح في مساعدته على الانشقاق في الموعد المحدد، فقد لا تسنح له فرصة أخرى في النزول إلى المدينة والمرابطة عند حاجز تل أبيض لعدة أيام أخرى، وقد لا تسنح الفرصة أبداً مرة ثانية بعد اليوم.. سألته عن العسكري، وكيف تعرف عليه، وكيف تم الاتفاق معه على خطة الانشقاق؟ ولماذا لا يفترض بأن موضوع انشقاقه هو طُعم، أو فخ مبيت، مثل غيره من الحوادث المتصلة، فأنباني بأنه لم يتحدث إلى العسكري حتى الآن، وإنما تواصل مع أهله في درعا،(عن طريق النت)، وأن العائلة معروفة بالنسبة له وموثوقة جداً، وثمة صلة صداقة تجمعه بها، وإنهم هم من رجوه بإلحاف وطلبوا منه أن يساعد ابنهم على الانشقاق، وتأمين وصوله حتى الحدود التركية فقط، وهم سوف يتدبرون بقية إجراءات وصوله إلى منزله في درعا.

طلبت من أحد الشباب المساعدة فوراً، فأبدى ترددا ثم رفضاً صريحاً للموضوع، وذلك لما تنطوي عليه العملية من مخاطر مؤكدة؛ فدوار تل أبيض كان مسوراً بعدد من الحواجز المتشابكة على شكل سواتر مرفوعة من أكياس رملية، لا يقل عدد الجنود خلف كل ساتر رملي عن ست عساكر مدججين بكامل الأسلحة، فضلاً عن دوريات راجلة أو محمولة على عربات، وهناك فوق الأسطحة المطلة على الدوار عدد غير معلوم من القناصين المراقبين لكل حركة صغيرة أو كبيرة تحدث في محيط الدوار.. مايعني بالمؤكد الصريح أن الاقتراب من هذه البؤرة ليلاً أو الاحتكاك بها، قد تكون إحدى نتائجه المحتملة بقوة هي فتح نيران الجحيم على أي شخص كان.. والأمر كله في النتيجة لا يحتمل إلا نهايتين مؤكدتين: إما النجاح في التقاط العسكري على وجه السرعة، وفرص هذا النجاح جِدُّ ضئيلة، أو الاستعداد لتلقي نيران عشرات البنادق والقناصات خلال ثوانٍ معدودة وفي وقت واحد..

قلت لصديقي"م": الفرصة في النجاح شبه معدومة، والعملية مخيفة حقاً، وفي منتهى الخطورة.. أجاب ببرود وثبات: ليس أمامنا خيارات أخرى.. ولا وقت طويل للتفكير.. فسألته كيف يمكن أن ننجز عملية كهذه برأيه..؟ قال: اركب سيارتك فوراً، وسنذهب أنا وأنت في جولة لاستطلاع كل نقاط الموقع، ولندرس الشوارع الفرعية التي تتقاطع مع دوار تل أبيض..

درنا دورة بطيئة حول الدوار قريباً من المغرب، واحتفظنا بذاكرتينا بجميع المشاهدات والملاحظات بعد تلك الجولة. وبعد تدارس ونقاش طويل، تم الاتفاق على أننا نحتاج إلى سيارة ثانية لتسير أمام السيارة بمسافة فاصلة بين السيارتين لا تتعدى السبعين متراً، لكي تستطلع الطريق أمام السيارة الخلفية، أي السيارة الأولى التي ستخطف العسكري بسرعة لا يجب أن تتجاوز النصف دقيقة بأي حال من الأحوال.. كما يجب أن نحضر في السيارة الأولى ثياباً مدنية؛ كنزة عادية وكلابية.. على أن يقوم العسكري باستبدال ملابسه العسكرية داخل السيارة فور انطلاقها وهو في مقعده الخلفي..

تم الاتفاق على الخطة التالية: عند أول زقاق ضيق بعد الدوار على اليمين، سوف أقف بسيارتي وأطفأ جميع الأنوار، وأنتظر لدقيقة واحدة، في حين يكون العسكري قد أخذ علماً بمكان السيارة التي تنتظره عن طريق الموبايل قبل حوالي ربع ساعة على الأقل، ثم عليه أن يتظاهر بأنه يبحث عن مكان جانبي معتم لقضاء حاجته، وما إن يدلف في الزقاق حتى يركض بكل مايملك من قوة وسرعة جري، حتى يصل السيارة ويجلس في المقعد الخلفي، حيث سيجد الباب الخلفي مفتوحاً في وجهه.. طلبنا منه مسبقاً أن يحضر معه البارودة

الروسية وجميع ما بحوزته من ذخيرة ومخازن، وكررنا عليه التأكيد بأن يسرع في تغيير ملابسه العسكرية بالسرعة القصوى وهو في مقعده..

ذهبنا بعد المساء، وكان علينا مهمة أخرى لاتقل صعوبة؛ وهي تأمين مكان مبيت العسكري ومكان آخر لإخفاء سلاحه.. وخلال أقل من ربع ساعة تواصلت مع أحد الأصدقاء، وطلبت منه بعد شرح موجز أنني سوف أحضر ضيفاً إلى منزله حتى الصباح، حيث سأقوم بنقله صباحاً إلى مكان آخر.. ورحب الصديق بكل سرور، ولم يتردد.. بعد ساعة من الزمن اتصل بي"م "، وأخطرني بتغيير طفيف على الخطة، لكنه بحق كان يزيد من احتمالات الخطورة أكثر؛ فقد تواصل مع العسكري المجند، فأخبره هذا الأخير بأن نوبته عند الدوار سوف تبدأ من منتصف الليل وتنتهي في الساعة الثانية.. بناء على هذا التغيير، وقد كنا مطمئنين بأن العملية سوف تنفذ بعد الثانية فجراً، حيث الحراسة والعساكر في أكثر ساعات الليل تراخياً ونعاساً، وشيئاً من قلة المراقبة والانتباه.. فإن ساعة منتصف الليل وما يليها بالذات أشد الساعات مدعاة لليقظة والانتباه الشديد.. اتفقنا أنا وصديقي بأن وقت التردد قد مضى، وعلينا أن نستعد للأسوأ مهما كلفت النتائج..فأخبرني بأن السيارة الثانية قد أصبحت على أهبة الاستعداد، وسوف يصحبه فيها أحد أصدقائه الموثوقين، بحيث سيكون صديقه هو السائق..

بعد منتصف الليل بربع ساعة تقريباً، سارت السيارتان في رتل يفصل بيننا أقل من سبعين متراً. دخلتُ الزقاق الضيق، وعلى مسافة تقارب الخمسين متراً من شارع تل أبيض ركنت سيارتي على الجهة اليسرى من الزقاق، وفتحت الباب الخلفي وأنا أتابع ماخلفي بواسطة مرآة الباب الأيمن. لمحت العسكري وقد سَدَّ بجسمه الزقاق من بعيد، ثم أطلق ساقيه للريح وبارودته تتأرجح في يمينه، وخلال ثوانٍ رمى بنفسه على الباب الذي كان مفتوحاً ينتظره. انطلقتُ بسرعة متوسطة لا تلفت الانتباه، وأنا أمضي في طريقي لا أرى من العالم مما حولي إلا السيارة الأخرى التي تشق الطريق أمامي لتستطلع أية مفاجأة محتملة، وخلال أقل من دقائق توقفت السيارتان أمام منزل صديقي، الذي خرج إلينا على الفور مرحباً.. عرَّفناه على الضيف فأدخله بسرعة إلى فناء المنزل، حيث رأينا تفاصيل ملامح وجهه لأول مرة، (كان العسكري من شدة هلعه قد لبس الكنزة بالمقلوب دون أن ينتبه).. تركناه في منزل صديقي الذي ذهب يحضر له الحمام والعشاء ومضينا، فسارت السيارتان نحو المنزل الآخر الذي أودعنا فيه البارودة الروسية ومعها خمسة مخازن مليئة بمائة وعشرين طلقة.. كانت هذه البارودة، وهذه المخازن الخمسة، هي أول قطعة سلاح سوف تحوزها وتتجهز بها كتيبة الناصر صلاح الدين بعد بضعة أشهر،(والتي أصبحت "لواء الناصر صلاح الدين" بعد حوالي سنة ونصف، بعد أن زاد عديدها على المائتين وخمسين مقاتلاً)..

خلال الليل، وكنت قد ركنت سيارتي بعيداً بعداً نسبياً عن منزلي، خشية أن يكون أحدٌ ما قد لحظها أو سجل رقمها أثناء انصرافنا من جانب الدوار، ورحتُ أراقبها كل ساعة حتى الصباح، وفي اليوم التالي قمنا بتأمين العسكري في منزل آخر، وخلال خمسة عشر يوماً كنا ندرس طرق الخروج من الرقة إلى تل أبيض عن غير الطريق الرئيسي، وعبر الطرق الترابية المتعرجة التي تلتف حول جميع حواجز الأمن والجيش المرابطة عبر طريق تل أبيض.. بعد أكثر من أسبوعين، انطلقت نفس السيارتين، سيارتي وفي مقعدها الخلفي العسكري، والسيارة الأخرى تسير أمامي لتستطلع الطريق.. وقبل مسافة قصيرة من تل أبيض اتفقنا على نقطة سوف ينزل العسكري عندها ويستقل سيارة أخرى ويفارقنا.. توقفت عند حافة الطريق، ونزلت من السيارة ونزل.. طوال تلك الأيام لم أكن قد سألته عن اسمه الكامل بعد. فتعانقنا عناق الوداع الأخير، وهنا قلت له بعد أن ركبت سيارتي: لا أدري إن كنا سوف نلتقي بعد هذا اليوم أم لا.. ألا يجب أن نتعارف كما يجب؟ ابتسم بحبور وصفاء، وهو ما ينفك يلهج بشكري وشكر" م" على ما بذلناه وما قدمنا له .. وأجاب: اسمي (خالد البلخي).. من حوالي بصرى الشام .. فلوحت له مودعاً وأنا أقود سيارتي عائداً إلى الرقة..

هوامش الجزء الأول:

(1) - الراجح أن قرار الإسهام الأول في الانخراط في الثورة السورية، كان توافقاً كاد أن يرقى إلى مستوى من التحالف بين كوادر من حزب "الاتحاد الإشتراكي وحزب "الشعب الديمقراطي"، للدفع بتثوير الشارع الرقاوي. ومظاهرة جامع الفردوس كانت المدارسة الأولى لنواة هذا التحالف المعبر عن اصطفاف معارضة سياسية حزبية سبقت الحراك المدني الثوري، وأسست له.

الاجتماع الأول الذي انعقد في منزل "معاذ الهويدي"، جمع من كوادر حزب الاتحاد الإشتراكي من الشباب: أحمد الحجي، قصي الهويدي، محمد زكي الهويدي، وبعض الموقعين على إعلان دمشق، ومن حزب الشعب الديمقراطي: معاذ الهويدي وخليل الحاج صالح وعلي الدرويش، وآخرين. تم الإعلانُ المسبق وبث الدعاية بأن المظاهرة سوف تبدأ من جامع الحميدية الكبير، وحين حشد الأمن عناصره وشبيحته وراح يراقب قريباً من الجامع، فوجيء الجميع بخروجها من جامع الفردوس. فكانت المحاولة الأولى المشجعة، وأمثولة نواة سوف يبنى عليها مستقبلاً. مما أربك أداء الأمن وفرض إعادة خطط وتفكير احتوائي جديد لاحتمالات التصعيد.

(2) رابط فيديو لبشار الأسد، في 2011 /11/6 حيث قام بزيارة الرقة ، وصلى صلاة عيد الأضحى في جامع النور:
https://www.youtube.com/watch?v=ghJZHOMjW0E
مع هذا فلم تتوقف التظاهرات الغاضبة والمنددة بخطوة بشار الأسد في الإقدام على إقامة صلاة عيد الأضحى في الرقة، ولم تمنع من خروج ثلاث تظاهرات غاضبة في يوم واحد، ومن ثلاثة أماكن تظاهر في وقت واحد تهتف ضد زيارة الديكتاتور للمدينة بعد المجازر التي ارتكبها ضد المتظاهرين في عدد من المدن والقرى السورية الأخرى. رابط إحدى المظاهرات في هذه المناسبة في الفيديو التالي:
https://www.youtube.com/watch?v=B8bFIHathKE

- (3)

النسخة الاصلية من موقع الرأي والرقة بوست

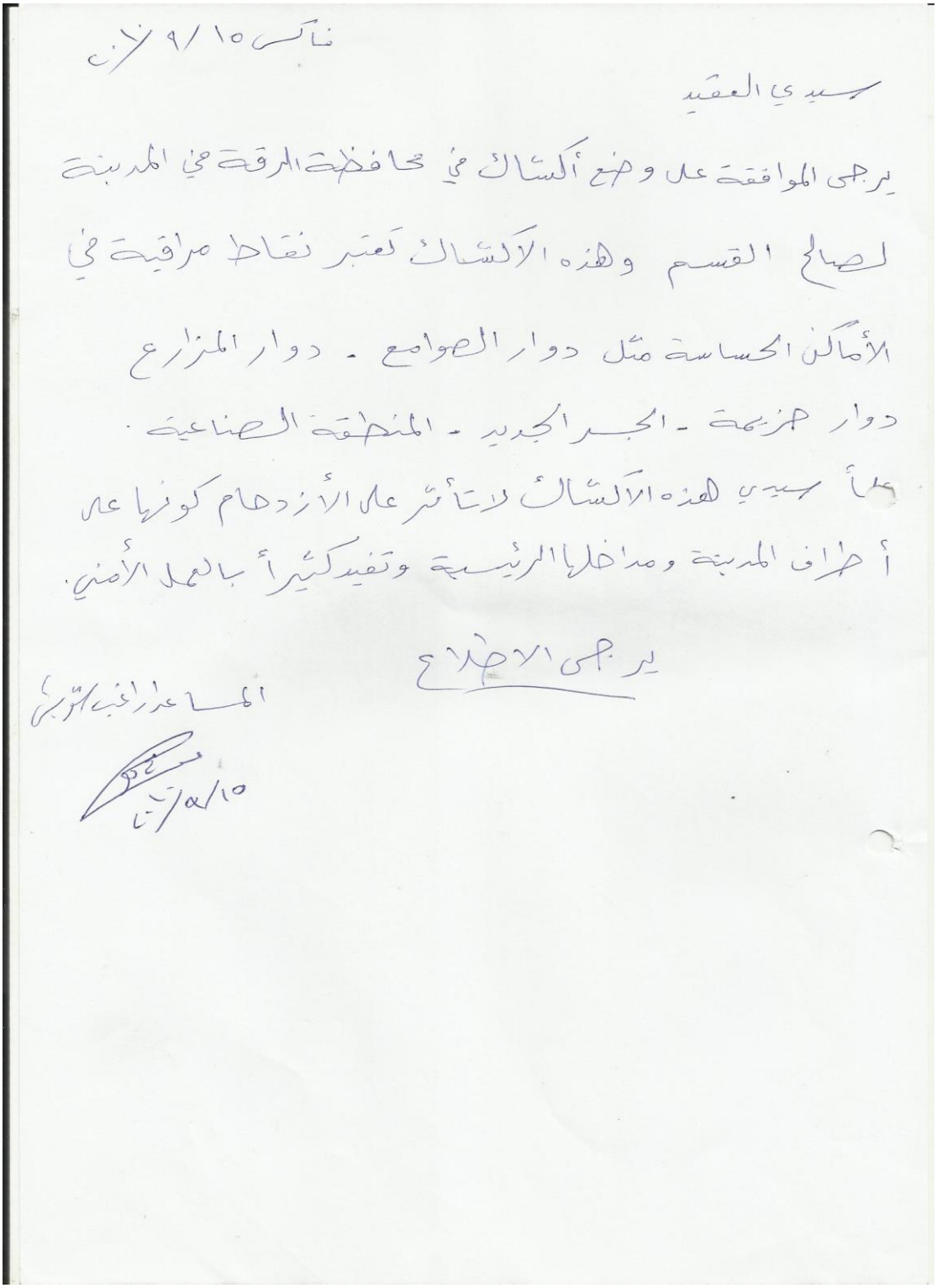

نائب ٩/١٥ ل

سيدي العقيد

يرجى الموافقة على وضع أكشاك في محافظة الرقة في المدينة لصالح القسم وهذه الأكشاك تعتبر نقاط مراقبة في الأماكن الحساسة مثل دوار الصوامع - دوار المزارع دوار جزيمة - الجسر الجديد - المنطقة الصناعية.

علماً سيدي لهذه الأكشاك لا تأثر على الأزدحام كونها على أطراف المدينة ومداخلها الرئيسية وتفيد كثيراً بالعمل الأمني.

يرجى الاطلاع

المساعد راغب الرشيد

١٥/٩/نائب

(4)- رابط فيديو لتحرير تل ابيض على يوتيوب https://www.youtube.com/watch?v=iywVnu9zZzk

(5)- بعض وثائق نشاط تنسيقية شباب الرقة المبكر:

نشر **تنسيقية شباب الرقة** ملاحظة.

8 أبريل، 2011، الساعة 01:40 ص ·

بيـان إلى الشعب السوري العظيم إلى أهلنا في محافظة الرقة الأكارم

بسم الله الرحمن الرحيم

على اثر الاحتجاجات التي شهدتها محافظة درعا والتي امتدت لتشمل اللاذقية وحمص وريف دمشق وبقية المحافظات السورية وما رافقها من عمليات قتل واعتقال وبلطجة شنتها قوات الأمن بكل شراسة على جموع المواطنين العزل الذين وجدوا أنفسهم في قلب هذه الحركة العربية التواقة إلى التحرر من الاستبداد والطغيان ، والمتطلعة إلى فجر جديد من الحرية ، تلك الحركة التي انطلقت شرارة ثورتها الأولى من تونس الخضراء إلى مصر واليمن وليبيا ، لتعم أثارها كافة أرجاء الوطن العربي الكبير.

لهذا، وانطلاقاً من إحساسنا الوطني والأخلاقي بالمسؤولية التاريخية إزاء أهلنا وشعبنا، ومن إيماننا الراسخ بان الحرية حق إنساني وقانوني يؤخذ وليس منحة أو صدقة تعطى ،وان من حق الشعب السوري أن يعبر عن نفسه بكل الطرق السلمية ،فقد وجدنا أنفسنا نحن الشباب في محافظة الرقة في قلب الحدث وكان لزاماً علينا أن نحدد موقف من هذه الأحداث والتطورات، وبعد اللقاء والتداول .

نؤكد مايأتي:

1- اطلاق حركة الاحتجاج الشبابية السلمية على مستوى المحافظة تحت اسم (تنسيقية شباب الرقة) واعتبار هذه الحركة جزأ لا يتجزأ من الحراك الوطني العام .

2- التأكيد على مشروعية وقانونية المطالب الشعبية العامة،وعلى تبنينا لهذه المطالب .

3- إدانة كل أساليب القمع الهمجية التي تنتهجها السلطات السورية في مواجهتها للاحتجاجات الشعبية السلمية.وتحذرها من الاستمرار في ممارسة سلوك الحشد في المساجد والشوارع وتشجيع البلطجة والتحريض ضد المتظاهرين لما له من عواقب اجتماعية لا تحمد عقباها.

ضرورة عدم الانجرار وراء محاولات تزوير الحقائق والحشد والتحريض التي تمارسها الأجهزة الأمنية ، والتي تهدف إلى الالتفاف على المطالب المشروعة للشعب السوري وخلق حالة من الفتنة بين أبناء هذا الشعب.

4- إنشاء صفحة على الفيس بوك باسم "تنسيقية شباب الرقة "لاستمرار عملية الحراك والتواصل.

5- فتح ملف اسود بقائمة أولية على صفحة الحركة تضم توثيق لأسماء أبرز الجهات والأشخاص في محافظة الرقة "ممن يقف وراء أعمال القتل والقمع والبلطجة والتحريض .

6- التأكيد على تضامننا الكامل واللا محدود مع عائلات شهداء الحرية الذين سقطوا في درعا واللاذقية وحمص وريف دمشق وبقية المحافظات،وحقهم في لجان تحقيق شفافة ونزيهة تكشف وتلاحق وتحاكم كل من شارك بأ لتحريض والتوجيه والقتل.

تحية إجلال وإكبار إلى شهداء الحرية الذين سقطوا أصالة ووكالة عن الشعب في كل أرجاء سورية.

تحية إلى شباب سورية الأحرار .

الخلود لله وحده

عاشت سورية، الحرية والمجد للشعب السوري

الرقة في 7/4/2011

تنسيقية شباب الرقة

عاشت سورية، الحرية والمجد للشعب السوري

الرقة في 7/4/2011

تنسيقية شباب الرقة

بسم الله الرحمن الرحيم

بيـــــــــــان

إلى الشعب السوري العظيم

إلى أهلنا في محافظة الرقة الأكارم

على اثر الاحتجاجات التي شهدتها محافظة درعا والتي امتدت لتشمل اللاذقية وحمص وريف دمشق وبقية المحافظات السورية وما رافقها من عمليات قتل واعتقال وبلطجة شنتها قوات الأمن بكل شراسة على جموع المواطنين العزل الذين وحدوا أنفسهم في قلب هذه الحركة العربية التواقة إلى التحرر من الاستبداد والطغيان ، والمنطلعة إلى فجر جديد من الحرية ، تلك الحركة التي انطلقت شرارة ثورتها الأولى من تونس الخضراء إلى مجر واليمن وليبيا ، لتعم أنارها كافة أرجاء الوطن العربي الكبير.

لهذا، وانطلاقاً من إحساسنا الوطني والأخلاقي بالمسؤولية التاريخية إزاء أهلنا وشعبنا، ومن إيماننا الراسخ بان الحرية حق إنساني وقانوني يؤخذ وليس منحة أو صدقة تعطى ،وان من حق الشعب السوري أن يعبر عن نفسه بكل الطرق السلمية .فقد وجدنا أنفسنا نحن الشباب في محافظة الرقة في قلب الحدث وكان لزاماً علينا أن نحدد موقف من هذه الأحداث والتطورات، وبعد اللقاء والتداول .

نؤكد مايأتي:

1- اطلاق حركة الاحتجاج الشبابية السلمية على مستوى المحافظة تحت اسم (تنسيقية شباب الرقة) واعتبار هذه الحركة جزأ لا يتجزأ من الحراك الوطني العام .

2- التأكيد على مشروعية وقانونية المطالب الشعبية العامة،وعلى تبنينا لهذه المطالب .

3- إدانة كل أساليب القمع الهمجية التي تنتهجها السلطات السورية في مواجهتها للاحتجاجات الشعبية السلمية،وتحذرها من الاستمرار في ممارسة سلوك الحشد في المساجد والشوارع وتشجيع البلطجة والتحريض ضد المتظاهرين لما له من عواقب اجتماعية لا تحمد عقباها.

4- لفت انتباه بعض الإخوة والرفاق في حزب البعث العربي الاشتراكي إلى ضرورة عدم الانجرار وراء محاولات تزوير الحقائق والحشد والتحريض التي تمارسها الأجهزة الأمنية ، والتي تهدف إلى الالتفاف على المطالب المشروعة للشعب السوري وخلق حالة من الفتنة بين أبناء هذا الشعب.

4- إنشاء صفحة على الفيس بوك باسم "تنسيقية شباب الرقة "لاستمرار عملية الحراك والتواصل.

5- فتح ملف اسود بقائمة أولية على صفحة الحركة تضم توثيق لأسماء أبرز الجهات والأشخاص في محافظة الرقة "ممن يقف وراء أعمال القتل والقمع والبلطجة والتحريض .

6- التأكيد على تضامننا الكامل والا محدود مع عائلات شهداء الحرية الذين سقطوا في درعا واللاذقية وحمص وريف دمشق وبقية المحافظات،وحقهم في لجان تحقيق شفافة ونزيهة تكشف وتلاحق وتحاكم كل من شارك با لتحريض والتوجيه والقتل.

تحية إجلال وإكبار إلى شهداء الحرية الذين سقطوا أصالة ووكالة عن الشعب في كل أرجاء سورية.

تحية إلى شباب سورية الأحرار .

الخلود لله وحده

عاشت سورية، الحرية والمجد للشعب السوري

نشر **تنسيقية شباب الرقة** ملاحظة.

25 أغسطس، 2011، الساعة 04:12 م ·

قائمة بأسماء 17 محاميا معتقلاً.

الرقة: 25-8-2011، القائمة النهائية بأسماء المحامين المعتقلين في الرقة إثر اعتصام "محامو سورية من أجل الحرية" في 22-8-2011، وبعد الإفراج عن المحامين محمود الهادي ورنا نيسام إبراهيم الخليل وريمة الشناعة:

1- أسيد الموسى.

2- فهد البيرم.

3- فرحان النعيمي.

4- سامر قنبر.

5- علي الفارس.

6- صالح العلي.

7- قيس الكربو. (وقد ذُكر سايقاً بالخطأ أنه "قيس الكلمد").

8- عمر محمد علي.

9- غالب أمين.

10- محمود دالي.

11- محمد الشلاش.

12- عبدالله الخليل.

13- محمود عبد العيسى.

14- عبد الرزاق السطم.

15- محمد جاسم اسماعيل.

16- محمد اسماعيل الإبراهيم. (وقد ذُكر سابقا بالخطأ أنه "محمد إبراهيم علي").

نشر تنسيقية شباب الرقة ملاحظة.

22 أغسطس، 2011، الساعة 01:04 م ·

الرقة: 22-8-2011، إعتقال محامين إثر اعتصام "محامو سورية من أجل الحرية" اليوم.

الرقة: 22-8-2011، اعتصم حوالي مئة محامٍ في مقر نقابة المحامين داخل القصر العدلي في الرقة تلبية لدعوة "محامو سورية من أجل الحرية". ورفع المحامون المعتصمون لافتات صغيرة كُتب عليها عبارات تدعو للحرية ولنصرة المدن الجريحة وتطالب بسيادة القانون والحرية.

وبدأت أجهزة الأمن في الرقة باعتقال عدد من المحامين حال انتهاء الاعتصام من أمام البوابة الرئيسة للقصر العدلي وتحت كاميرات المراقبة التي تنقل مجريات الحركة اليومية داخل وأمام القصر إلى مكتب المحامي العام. جرت الاعتقالات بأسلوب عنيف ومهين تحت أنظار باقي المحامين والقضاة والمراجعين. وقد عُرفت، حتى الآن، أسماء ستة من هؤلاء :

1- رنا نيسام إبراهيم الخليل.

2- ريمة الشناعة.

3- محمود الهادي.

4- محمود العيسى.

5-أسيد الموسى.

6- صالح العلي الصالح.

7- علي الفارس.

8- محمد الشلاش.

9- فهد البيرم.

(6) ـ أسماء الأشخاص الذين مازالوا يقيمون حتى ساعة كتابة هذه السطور في مناطق سيطرة النظام أو داعش أو قسد، أو أجهل اليوم مكان إقامتهم، سأقتصر على ذكرهم بوضع الأحرف الأولى من الاسم حفاظاً على أمنهم الشخصي.

(7) -

استلمت المبرز ضمن كيس الصادر
وعددها ٧٧ قطعة كما هو موثق بالمحاضر
المرفقة ضمن المذكرة ومحضر الضبط
نقطة بلير
الرتيب محمد عبدو

محضر ضبط بالأغراض والأموال الموجودة مع الموقوف

المستند : .....

في يوم الخميس الواقع في ١٧/ ٥/ ٢٠١٢ الساعة ١٤,٠٠

تم (توقيف مطلوب ☐ توقيف متظاهر ☑ مداهمة منزل ☐ تحري وتفتيش ☐)

الاسم والشهرة ناصر الشيخ ..... اسم الأب علي اسم الأم آمنة مكان وتاريخ الولادة حمص ١٩٧٤/١/١٢

العنوان : محافظة الرقة منطقة ..... قرية ..... حي ..... شارع البطار ..... بناء فلين للزيت

رقم هاتف خلوي ٠٩٦٥٦٤٥٦٥٦ هاتف منزلي ٠٤٦٠٢٩٠٢٩ هاتف عمل .....

الأشياء والأغراض الموجودة مع الموقوف بما فيها الأوراق الثبوتية والنقدية --- الخ تذكر بالتفصيل

١. بطاقة شخصية عائدة للموقوف ناصر الشيخ
٢. مذكرة سوق عمومي مع بطاقة نقابة
٣. دفتر خدمة العلم
٤. عقد شراء سيارة نوع كيا ريو لون
٥. مبلغ من المال وقدره ١٠٠/ ليرة سورية فقط مائة ليرة سورية
٦. هاتف خليوي نوع نوكيا عادي
٧. حبوب مخدرة نوع كبتاجون عدد ٢٠٠/ فقط مائتان وعشرون حبة
٨. .....
٩. حبوب مخدرة نوع كبتاجون عدد ٢٠٠/ فقط مائتان وعشرون حبة
١٠. ٢٠٠/ فقط مائتان وعشرون حبة
١١. حبوب مخدرة
١٢. .....
١٣. فقط سبعة آلاف ليرة سورية

نحن الموقعين أدناه على المحضر نصرح بان الأشياء المذكورة أعلاه هي المواد المضبوطة فعلا

اسم قائد الدورية	اسم الموقوف	المحقق	رئيس المفرزة
كنان سمر	ناصر الشيخ	المساعد كنان سمر	العقيد عبد الحكيم العبد الله

النسخة الاصلية من موقع الرأي والفتوى

ـ الجزء الثاني ـ

كتائب وثوار "أبو جاسم الأمن العسكري":

لم تكن الثورة السورية ابنة شرعية لمؤآمرة خارجية، وإن كانت المؤامرة قد سافرت معنا وإلى جانبنا في نفس القطار.. لقد كان هناك متآمرون كثرٌ ولايزالون، لا إنكار ولاجدال في ذلك، بيد أن نظرية نظام الأسد المشتقة من فكرة أن كل ماحدث ويحدث في سوريا، كان فعلاً شريراً، وتدبيراً كيدياً معادياً، دُبِّر في ليل ضد بلدٍ مستقرٍ آمنٍ يمكن البرهنة على سقمِها وتهافتِها بالتوثيق المؤكِّد، لقد كان الاحتقان أبرز العلامات المَرَضية في الجسد السوري الشديد التورم والازرقاق، وكانت شروط الثورة على هذا النظام مستكمَلة وفائضة عن الحاجة إلى مزيد من الشروط والأسباب، ولاتحتاج إلا إلى أدواتها المادية الضرورية وحاملها المجتمعي والسكاني وتوقيتها المناسب. وكان النظام قبل غيره يعلم علم اليقين أنه يقود مركبة سترتطم بمنتهى العنف بحائط المستقبل، وأنه يقود البلاد ـ عن وعيٍ تام ـ إلى هاوية.. لقد كانت السلطة موجودة، والثورة تنتظر اختمار ظروفها، والهاوية موجودة.. وكل حديث بعد هذا عن متآمرين مرتبطين بقوى خارجية أوقدوا نار الثورة السورية في ظلمة ليلٍ من المؤمرات، ليس سوى تخرصاتِ نظامٍ أدمن الكذب واعتاده في كل لغة خطاب يخاطب بها الأحياء وكأنهم أموات..

يستطيع الخائن والمتواطىء مع الثورة المضادة أن يستنعم أو يخشوشن بمصطلحات وكلمات كما يشاء ويحلو له.. وكما ينحل السمك ذو الرائحة الكريهة وينغمر بالخلِّ والملح تهرباً من رائحته الخادشة للحاسة.. يستطيع أن يتماهى بالموقف، وأن يَصْدُر صدوراً تبريراً إسلاميَ الطبيعة والخطاب، أو علمانياً أو مدنياً ديمقراطياً ليبرالياً، أو غير ذلك. أو يدَّعي ذلك لمجرد التمثيل واستوهاب هوية شخصية وتاريخ مُضَلِل على هامش الحدث العاصف بسوريا اليوم، أو لمجرد لغو الادعاء أمام وطنه ومواطنيه ليصنع تاريخاً شخصياً يحسبه مجيداً، أو ـ في أحسن الأحوال ـ ليهرب فِراراً أمام ضميره الذي يلاحقه.. هكذا فإن توثيق الأفراد والجماعات ليس توثيقاً جنائياً غايته استحضار محاضر ادعاء واتهام، (وإن كان ذلك لا ينفي أهمية هذه المهمة الأخيرة في لحظات الحقيقة والمواجهة القانونية)، بل هو إعادة الوظيفة للضمير الوطني والمجتمعي والثوري، بجعلها أحد حقول التاريخ المعفو عن الاكتراث بها، والمتجاوزَة في سُلَّم الاهتمامات..

كان عام 2012 بكامله، وحتى الربع الأول من عام 2013، تاريخ تحرير الرقة، أول محافظة سورية تسقط من قبضة النظام صبيحة يوم 2013/3/4، والذي حكمها ثلاثة وأربعين عاماً. كان عام توسع القاعدة الجماهيرية للثورة؛ فقد منحت الثورة الناس قضية لأول مرة، واستفزت الأسئلة الخبيئة في صدورهم عن مستقبلهم المجهول، فشرعت قطاعات واسعة من أجيال مختلفة، عامتها الفئة العشرينية من العمر تنحاز إلى الثورة، كما أن حادث مظاهرة البابنسي والمجزرة التي تلتها، تركت مفاعيل غير مستبانة الوصف، لكنها حطمت واقعاً مستنقعاً تصلَّب بمرور الزمن، وبات من المحال العودة إلى الوراء تحت أية تسوية أو خطة أو إغراء بالتراجع إلى ذلك الموات السكوني الذي كانت تحيا فيه المحافظة بأسرها.

لست أذهب بوصفي السابق إلى التلميح بأن موازين القوى على الأرض قد مالت، أو شرعت تميل لصالح الثورة، فالمؤكد أن ميزان القوى كان مايزال مختلاً حتى تاريخ سقوط النظام في المحافظة، وهو يعمل على عدة محاور لصالح النظام ولصالح الثورة المضادة. والخارطة كما هو واضح لم تكن تميل لصالح الثوار منذ البداية.. حتى تحرير المدينة من قبضة النظام لم يشفع لثوارها، ولم يشِفَّ بصورة صريحة إلا بأنهم كانوا حينئذ أضعف حلقاتها وسط قوى الثورة المضادة التي طمت من كل جانب. والمعركة كما هو واضح بدأت تتحول وتستعر بين بقايا قطع النظام العسكرية التي ما زالت متحصنة لم يتم القضاء عليها نهائياً، في الفرقة 17 واللواء 93 ومطار الطبقة العسكري، وبين بقية القوى المنتفضة في مواجهة النظام، دون أن يمنع ذلك من أن الاحتياطي الكبير الذي ثبت بأن النظام ما يزال يحتضنه، ظاهراً أو مخفياً، كان أكبر من كل التوقعات والمراهنات؛ كتائبه السرية الخاصة، وعملاءه السريين من الدفاع الوطني، وهم مدنيون مسلحون تابعون لأفرع مخابرات النظام، ومنظمة نصف مدنية ونصف مسلحة تحت مسمى بصمة شباب سوريا، كما اعتمد النظام بعد سقوطه على جيش ضخم من المخبرين السريين الذين اخترقوا تقريباً معظم فصائل الثورة وتحركاتها وتجمعاتها،

غير النقاط الأمنية السرية التي كانت تدير وتدبر حركة كل هذه الجموع الكبيرة التي كانت تتحرك على الأرض في كثير من الثقة. أما الثورة المضادة، فكانت تعمل بتوجيهات من قوى عديدة، من داخل صفوف الثورة ومن خارجها، ولقد أثبتت قادمات الأيام والأحداث أنها أوسع وأخطر مما كنا نظن ونتوهم بكثير، وأن النظام واحتياطه الخبيء والسري، ربما لا يكاد يساوي شيئاً بالقياس إلى احتياطيها المتعدد المشارب.

كانت التحضيرات للانقلاب على الثورة قد بدأت واقعاً فعلياً بعد التحرير، وسعى النظام سعياً حثيثاً ومخططاً لربط حلف الأصولية الدينية ببعض قطاعات العشائرية المرتبطة به، إذ يسعني التأكيد في هذه النقطة على أن العشيرة الرقاوية والتجمعات العائلية ـ إن كان لهذا المصطلح من مدلول ـ قد لعبت دوراً رجعياً، ومارست تشبيحاً وتقلباً ونفاقاً، وانحطاطاً قيمياً غير مسبوق، إلا في حدود دنيا واستثنائية، (وسوف أفصَّل لاحقاً حول هذه النقطة في فصل: الثورة والعشائر)، ولقد سهَّل اتحاد حلف الأصولية الدينية بحلف العشائرية على رفد الثورة المضادة بنسغ الاستمرار قبل ظهور داعش، وربما تمهيداً لظهورها، زيادة على ذلك ظهر بأن النظام قد أعد خطة مسبقة في منتهى الكيدية والخبث، ألا وهي تجميع"شبيحة"وأعوان ومناصرين له بأعداد كبيرة، ودفعهم بين صفوف الثوار، خاصة بعد تشكل الكتائب العسكرية وظهور الجيش الحر، وقد تناهى إلى علمنا مبكراً أن عدداً لا يستهان به من تلك الكتائب قد تمَّ تمويلُها والإشرافُ على تشكيلها من قبل فرع الأمن العسكري، تلك الكتائب التي سوف أنحو إلى تسميتها بعد هذا التاريخ باسم" كتائب وثوار أبو جاسم الأمن العسكري".

"أبو جاسم" هو لقب استفحل شيوعُه على ألسنة الناس كافة في الرقة.. وقد أُطلِق على أحد أشهر الشخصيات الأمنية في المحافظة، هو المساعد أول المدعو (محمد معلا)، من ريف جبلة، ولقد كان هذا الرجل بالنسبة للدائرة الأمنية العميقة في السلطة يعسوب القوم وآلة حركتهم الدؤوبة، وعقلُه ذو الذاكرة النشطة في كل الاتجاهات، فهو كرت الذاكرة الأكبر في كومبيوتر كل السلطات والأجهزة الأمنية التي تَجَهَّزَ بها النظام في محافظة الرقة. فمنه تبتدئ كل الخيوط المخابراتية وعنده تنتهي جميعاً.

لا ينام، أو بالأحرى لا يُعرف متى ينام، ولا أين ينام، يتحرك دون مراجعة أحد، إذ يبدو أنه ـ بحكم الخبرة الطويلة ـ قد تجاوز الخطط الشكلية المحددة والضابطة له كضابط صف يعمل تحت إمرة ومراجعة ضباط كبار في جميع أجهزة الأمن؛ بل الأحرى أن الضباط هم من كانوا يشورونه ويرجعون إليه في كل صغيرة وكبيرة ويعملون برأيه، إن لم يكونوا جزءاً من بعض خرائطه الأمنية ومخططاته التي لا تنتهي.. مع ملاحظة أننا حاولنا على فترات مختلفة مراقبته، وتجشمنا عناءً في سبيل الوصول إليه أو الإيقاع به، أو حتى اغتياله إن أمكن، ولقد كانت كل محاولاتنا تذهب سدى وتنتهي إلى فشل مؤكد. وملاحظة أخرى، لحسن الحظ، أن مفكرة يومياته الخاصة به، والتي يُدَوِّن بها كل صغيرة وكبيرة، قد وقعت في أيدينا بعد اقتحام مفرزة الأمن العسكري، ورغم حرص جبهة النصرة على التحوط على كامل الملف الورقي التابع للأمن العسكري في المفرزة، ومنع أيٍ من الثوار من الاقتراب منه.

ذات يوم من نهاية عام 2012، اتصل بي أحد أعضاء التنسيقية، وطلب التحدث إليَّ خارج أماكن الاجتماعات المعتادة، وحين التقيته كان برفقة شقيقه الذي تربطه، بحكم صلاته التجارية الواسعة صلة صداقة مع أحد المستثمرين من أصحاب المال والأعمال،(اسمه ف ـ ز)، ولقد أفضى رجل الأعمال" ف ز" إلى شقيق صديقي بحديث مطلق السرية قبل ليلة سابقة، وانبأه بأنه كان قد استدعي قبل يومين إلى مفرزة الأمن العسكري، واجتمع به كلٌ من "العقيد سمير" رئيس المفرزة، والمساعد أول "محمد معلا أبو جاسم"، وبعد حديث طويل ومقدمات مستفيضة، بادراه بطلب غريب فاجأ الرجل حقاً وبَهَتَه، حتى أنه لم يُحرِ جواباً ولم يدرِ بمَ يردُ أو يتعامل مع طلبهم هذا؛ لقد نصحاه فيما يشبه الأمر المبطَن والمُلزِم بأن يبدأ منذ اللحظة بتشكيل كتيبة مسلحة مقاتلة في الجيش الحر، (ويُفضَل أن تحمل اسماً إسلامياً أو تتسمى بأحد أسماء الصحابة)، وأنهم منذ الآن يضعون كل إمكانيات فرع المخابرات العسكرية وخبراته اللازمة تحت تصرفه. ونصحوه أن يبدأ بتحشيد ما استطاع من شبانٍ ثائرين، والشروع بتسليحهم ونقلهم إلى أماكن مخصصة للتجمع في منطقة تل أبيض وشمال الرقة سوف يحددانها له لاحقاً..

لم يتمهل رجل الأعمال" ف . ز" في المسارعة إلى نصح صديقه، شقيق صاحبنا في التنسيقية، والتشديد في تحذيره من أن "أبو جاسم" ماضٍ في عزمه على إغراق المحافظة بخلايا وكتائب "ثورية"، تعمل بإمرته وتتلقى تعليماتها منه مباشرة عبر الموبايل. ومع أنَّ "ف.ز" لم يجب على مطلب العقيد سمير و"أبو جاسم"، واقترح فرصة للتفكير والتريث للعمل على تصفية أمواله وأعماله، إلا أنه بعد بضعة أشهر قليلة، غادر المحافظة إلى جهة مجهولة، ولم أسمع عنه خبراً بعد ذلك اليوم.

بات جلياً إذن بأن الاتجاه الماضي نحو العسكرة، والتهيئة للقوة المسلحة أصبح قراراً لا رجعة عنه، وهو في الحق كان قراراً أشبه بردة الفعل العضوية الشرطية، والتي لا تخضع منعكساتها للتفكير والتخطيط ومراجعة صحة القرار أو عدم صحته. إن العسكرة باتت منا أقرب شبهاً برفع اليدين التلقائي فور تلقي ضربة حاسمة تُصَدِّع كامل الجسم، والذي لا يقف وراءه التخطيط والعقل، أو لا وجه للجدال فيه؛ هل كان قراراً حكيماً رزيناً متسق الهدف والتفكير، أم أنه يحتاج إلى ريث وتمهل. وكان واضحاً بأن الثورة قد تعسكرت دون أن نسعى لعسكرتها، وأنها، لو لم تبادر إلى السلاح في تلك اللحظة، فإن أكثر من قوة مسلحة سوف تلتهمُها بلا شفقة، ربما يكون النظام أضعف تلك القوى وجزئية فيه، وهو ما أثبتت الأيام بعد ذلك صحته.

خيار القتال والمواجهة المسلحة أصبح إذن ممراً إجبارياً لا مندوحة عنه، وإن كان خياراً كدواء سُمّيّ الطبيعة، خاصة بعد أن توسعت قاعدة الثورة الشعبية وازداد رصيدُها الأهلي، وبدأ يتكامل محيط حواملها المجتمعية وقطاعاتها عبر كل مفاصل المجتمع. لقد كان التحول بالفاعل المدني الثوري إلى فاعلين مسلحين خطراً مؤكداً ومغامرة غير مضمونة،لا لأنه سيُضَيّق دائرة اتساع الاحتجاج المدني لصالح فاعل عسكري عنفي الطبيعة، سري النوايا والأهداف غالباً، ومجهول التكوين والمدد اللوجستي والدعم. بل إن الخطورة قائمة أكثر في تصدّر المسلحين مسؤولية الحراك الثوري من جهة، والاضطرار للبحث عن داعم عسكري يمكن أن يُحدثَ نوعاً من التوازي أو التغيير في موازين القوة من جهة أخرى، هو أسوأ الخيارات، بعد أن كنا في حال من الاستغناء والاكتفاء بالإمكانات الذاتية قريباً من سنتين..

التسلح كان يعني تجريداً نخبوياً لفئة قادرة على إدارة العنف والتحكم به، وسلبه من المدنيين المحتجين، بل وسلب كل ذلك الزهو الثوري الذي أضفى معنىً جديداً على حياة الثوار المتظاهرين ضد النظام.. فأنْ تفقد الثورة جوهرها الإنساني لصالح الصدام المسلح، (الذي كان النظام هو الأخبر به دائماً، والأمثل تجربة وحنكة منذ ثمانينات القرن الماضي)، لن يعطي للسلاح الكلمة الفصل والقبضة العليا فحسب، بل كان يعني أن جبهات جديدة، لم تكن في الحسبان سوف تنفتح في وقت لم يكن الواقع يحتمل إلا ثنائية الصراع المستديم مع السلطة، ولسوف يدخل الدين والقوى الإسلامية إلى مركز الصراع من نوافذ الفوضى بعد أن ظلت تشارك على هامشه طيلة تلك الفترة، وهذا ما سوف يمنح بعداً جديداً وتعريفاً جديداً للصراع، أقل ما يقال فيه أنه الحرف الضروري لقطار الثورة عن خطها الذي مضت فيه، حتى تجد نفسها وقد أصبحت شيئاً آخر مختلفاً عما كانت عليه، وعما ابتدأت سيرَها على هداه. أسلفتُ بأن خيار التسلح أصبح ضرورة وخياراً قاهراً لم يعد بالإمكان التراجع عنه أو اتخاذ قرارٍ مُباينٍ فيه، ومن العدل أن أضيف بأن خيار التحول إلى التسلح لن يمنح ضمانات للثورة بالنصر، بكل أسف.. كما أن "أسلمتها" تعني التبرع برصيدها المطلبي السياسي، وشعاراتها الإنسانية الرافضة للظلم والقهر والاستبداد، وكذلك بيع جزء من أنصارها وطاقاتها البشرية.. والتنازل عنهم بالمجان..

بدأ التحرك نحو العسكرة وأخذ استعدادات جادة في تصورات أولية لمرحلة مجهولة وغامضة البنية والتصاريف، إذ لم يكن متصَوراً كيف يمكن أن تسير عليه الأمور بعد ذلك، ولا كيف يمكن التحكم بها وإدارتها. كان واضحاً بأن النظام يسعى إلى المواجهة العسكرية بشهية لاتفوقها أية رغبة أخرى تسيطر عليه، وكان واضحاً أيضاً أن القوى الخارجية التي تراقب ما يحدث بصمت، تستعد للحظة حاسمة لكي تتدخل لصالح جماعات دون جماعات. هذا الحسم النظري في تصور الأمور بات معروفاً في التنسيقية من خلال اطلاعنا على الخطوات الأولى في سبيل تسليح وتقويم كيان عسكري أولي، بدأت تفاصيل هذا التشكل الأول تستبان تدريجياً تحت مسمى **كتيبة حذيفة بن اليمان**، التي سأتناول الحديث عنها فيما بعد، والتي كانت أول كيان عسكري مغلق ومتكتم، وغير واضح الهدف الذي يسعى إليه.

كان التظاهر والاحتجاج المدني قد وصل إلى ذروته القصوى، وإلى انغلاق تام. ولم يتعهد الحراك المدني بأن يطور نفسه أو أن يبتكر وسائل مستجدة لإدارة الصراع على الأرض، فضلاً عن أن روح التشرذم والشللية وعدم القدرة على التنظيم، وفقدان البرنامج وخطة العمل الموحدة، كانت سمة غالبة ورئيسية، وأخطر ما في الأمر أن كل المشاركين الحقيقيين في العمل الثوري، لم يجتمعوا على رأي واحد وحوار هادئ متزن للتباحث في كل هذه التطورات المستجدة. لقد بقيت روح الفرد/الأفراد، والمجموعات المنقطعة عن بعضها هي الفاعل المسيطر، ففي وقت كان كلُّ من حولنا ينظم نفسه ويتمركز ملتفاً على أهدافه، لبث التحرك الجمعي العام متجمداً عند لحظة الغضب ومزاج الانفعال والنأي عن المشورة، وفحص مجمل ماكان يتطور ويحيط بنا من أخطار، بعد أن بات تكاثر الأعداء نوعياً وفصائلياً وكثير الألوان والأهداف والمقاصد.

بدأ التفكير في التوجه نحو تنظيم كفاح مسلح عبر تشكيل نواة لتجمع رديف للثورة، وكانت منطقة الطبقة قد سبقت المدينة بتشكيلها كتيبة أويس القرني(لواء أويس القرني فيما بعد)، ومنطقة تل أبيض كان لها السبق في تجمع عدد من الكتائب قبل أن نخطو الخطوة الأولى في المدينة. فقد تشكلت كتيبة حذيفة بن اليمان، ولست أدري لم انطبع في مخيلتنا بأن هذه الكتيبة ذات النوعية المناطقية والخلفية الأصولية، لن تكون تعبيراً حقيقياً عن التنسيقيات ولا عن الثورة. كنا نُلم بكثير من التفاصيل عن الحياة الداخلية والتنظيمية للكتيبة التي لعبت دوراً هاماً على فترات مختلفة فيما بعد. والمهم في الأمر أنني حين فاتحت أحمد العلوش(أبو عيسى)، وبادرته بما يجول في تفكيري، وجدت لديه استعداداً وحماساً منقطع النظير، وصارحني بأنه يفكر في الأمر نفسه، وأنه بات على وشك أن يستكمل انتقاء عناصر كتيبته التي يزمع تشكيلها، وأن يشرع في خطوة واسعة ومصعِّدة في هذا الاتجاه. راجعت صديقي "م" الذي بات أقرب أصدقاء التنسيقية إلي في جميع حركاتي، فوجدت لديه ذات الميول والاستعدادات، وقررنا أن نضع تفصيل أولي للتحرك المسلح، وأن نشرع فوراً فيه، ولكن بحذر وببطء شديدين.

كل هذا الوهن النوعي والتضعضع الرتيب الإيقاع، كان يتمادى قبل أن تظهر جبهة النصرة، وبالطبع قبل ظهور تنظيم داعش بأشهر طويلة، وكان النظام قد شرع مبكراً في استمالة العشائر ومن يُدعَون رؤوس المجتمع ووجهائه، ولقد تأكد لنا مبكراً أنه أرسل مبلغاً من المال يفوق العشرين مليون ليرة سورية، وزعت كهدايا ومنح لشخصيات عشائرية نافذة، مقابل أن يسعى هؤلاء الوجهاء إلى تطويق التظاهر والناشطين المدنيين، وبالقدر الذي يستطيعه أولئك الوجهاء العشائريين من قدرة على التأثير على جمهور الحراك الثوري، والحدّ بقدر من المظاهرات، وأن يدفعوا بكل طاقتهم لتنشيط حركة جيش الدفاع الوطني الذي تم اختيار موظف نشيط وكفوء من خارج دائرة النظام الأمنية، ومتزوج من امرأة رقاوية، لكي يقوم على تجهيزه وتسليحه ووضعه موضع المتراس في مواجهة الثورة، موظف اسمه أحمد منصور..

هؤلاء الأوباش هم الحقيقة

كانت خطة أبو جاسم الأمن العسكري خطة بسيطة التخطيط والتنفيذ، لكنها في الحق ذات فاعلية وتأثير تدميري شمولي على الثورة، وقد تركت صدوعاً في جسد الثورة العام لايمكن رأبها بسهولة. مقتضى تلك الخطة يمكن تلخيصه بما يلي:

ـ تجميع عملاء لأجهزة أمن النظام، أو تحشيد لفيف من اللصوص والحثالات من أصحاب السوابق، بعد إحكام السيطرة عليهم والتحكم بهم عن طريق متعاون موثوق مع جهاز أمن النظام، وليس مطلوباً من هؤلاء إلا أن ينتشروا بين الأهالي والمدنيين ويعملوا ما استطاعوا على الخطف والاعتداء على الناس، وطلب الفديات المالية بذرائع أن المخطوف شبيح أو عميل للنظام، أو علوي أو شيعي أو مسيحي أو غير ذلك.. وأحياناً كان يُحتَجُّ بأن والد المخطوف صفته كذا، وأخوته كذا، بل وزوجته وأخوة زوجته كذا.. وبكل طاقة العنف الممارس ضد المدنيين، من أجل ابتزازهم أو التنكيل بهم بأية طريقة من الطرق، كانت تلك الممارسات تفتك بالناس والمجتمع المسالم والبريء الذي أُقحِم في دوامة من التشوش الذهني، فلم يعد يتماسك أو يقف موقفاً واضحاً وهو يرى كل هذه الحثالات البشرية وهي ترفع شعارات الثورة وعلمها خفاقاً فوق مقرّاتهم، ولا يفعلون في النتيجة أكثر من الفتك الممنهج والمُدمِر لحياة الناس وأموالهم وأعراضهم وأمنهم الشخصي، وذلك في استعراض قوتهم على المستضعفين من الأهالي..كانت رسالة **الدولة العميقة** التي يتحرك أبو جاسم الأمن العسكري في دائرتها، ويحركُ شبكته العنكبوتية في سياقها وتحت إشارتها وتعاليمها واضحة: أرأيتم إلى أين أوصلكم وماذا فعل بكم أهل شعارات الحرية بعد أنْ انسحبنا من حياتكم؟ فانظروا وقارنوا ورُوا رأيكم بعد ذلك.. حتى كان شعار"الجيش الحر حرامي، بدنا الجيش النظامي" هو ثمرة نشاط استخباراتي دؤوب وتحصيل حاصل، أوعزت به دوائر الدولة العميقة، وتلقفته بعض الحناجر البريئة أحياناً تنادي وتصدح به.

ـ الخطوة الثانية في مشروع كتائب أبو جاسم الأمن العسكري كانت إغراق الحراكين معاً: المدني والعسكري، بالشعارات الدينية والصيحات الطائفية المحاجِجة بالغضب العام من العلويين والشيعة، واستبدال شعارات المدنية والحرية والديمقراطية بدويٍّ طائفي وفئوي تغطى بأسماء الصحابة وبالرموز الإسلامية ذات الوقع الشعبوي المستحسن، والمكانة القدسية ذات الأثر العاطفي لدى عامة الناس.

وشيئاً فشيئاً بدأ النظام يتخلص من عبء المطالبة بالحرية، والتخلص من الوقع المناهض للاستبداد والمصادمة معه، من أجل استعادة القرار الوطني وتعويض كرامة الناس المهدورة، بحصر المشكلة بينه وبين الثورة بمجرد هجس طائفي يقوده متدينون لديهم قلق ديني

خاص بهم، ولا مشكلة حصرية لديهم مع الدولة والنظام إلا ببعض الخلاف الأصولي العقدي، أو الفقهي الذي تغذيه وتموله دول رجعية، عريقة في التخلف وفي الخطاب البعيد كل البعد عن روح الحضارة المعاصرة والمدنية الحديثة.. فالمسألة كلها لا تبعد كثيراً عن خلاف علي ومعاوية، ومَنْ أحق بالخلافة والحكم: العلويون أم السنة؟ هكذا تمَّ اختزال واختصار الثورة.. وهكذا نجح النظام جزئياً في تسويق هذا الخطاب المُفَكِّك والمدمر للثورة عالمياً، حتى بدا للرأي العام، الإقليمي والدولي، أن مشكلة سوريا لا تختلف كثيراً إلا في بعض التفاصيل عن مشكلة طالبان مع مجتمعها الأفغاني، ولقد ساعدت هذه الكتائب على بث هذه الدعاية وهذا الخطاب على الوجه الأكمل.

ـ الخطوة التنفيذية الثالثة التي كان يستهدفها مشروع كتائب أبو جاسم الأمن العسكري هي قاصمة الظهر حقاً، وهي رصاصة الرحمة الأخيرة في جمجمة الثورة التي تهشمت تقريباً أو باتت على مسافة قابٍ من التهشم.. وهي الإيعاز إلى القوى الدينية المتطرفة المسلحة، باستهداف كتائب الأوباش والحثالات واللصوص، (أي كتائب أبو جاسم الأمن العسكري نفسها، التي تمَّ الاشتغال بصبر طويل على تأسيسها)، ثم مهاجمتها واعتقالها أو تصفيتها بالتدرج المطلوب، ثم ظهور تلك القوى المُنقِذة(وأبرزُها داعش وجبهة النصرة وحركة أحرار الشام)، أمام المجتمع المدني بمظهر المنقذ المخلص، لمنح الناس ثقتهم المطلقة بها بعد ما بذلت وعملت بكل جهدٍ ودأبٍ حثيث على توفير بعض ما يحتاجه الناس من فضلة الأمان والتنظيم المجتمعي.. وهكذا تم استبدال الجيش الحر والثورة بكامل كادرها وجمهورها العام وحواضنها ومؤيديها، بما يشبه تكوينات ونوى إمارات طالبانية، مثلُها الأعلى في إدارة الواقع على الأرض هيئات شرعية تستلهم خبرة مجتمعات الفوضى والتفكك، وتستقي أمثل تجربتها من الصومال وإفغانستان..

هكذا تم تشكيل كتائب أبو جاسم، ونجحت زراعتُها لا على شكل كتائب صغيرة مستقلة فحسب، بل وأحياناً زرعُها كفصائل ملحقة ببعض الألوية والكتائب المسلحة المشتهَرة بسمعتها الثورية وولائها للثورة.. فكانت مهام تلك الكتائب تشبه كثيراً مهام أعواد الكبريت التي تحترق لتنير للنظام الطغياني الشيطاني دربه وسط غابة الاحتجاج الكثيفة التي أطبقت عليه في الظلام، وقد نجحت كتائب أبو جاسم أيما نجاح، وساعدها في نجاحاتها تلك كثير من القوى الإقليمية والدولية الداعمة لتقويض فكرة الثورة من المبدأ، كما ساعد ما يسمى بـ(الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة)، بصفته كياناً عدواً للثورة والشعب السوري، على هذا التحطيم المروّع والممنهج لكل نشاط مدني أو عسكري عمل الثوار على تأسيسه والسير به.

من ذكريات الرقاويين التي ماتزال مشتعلة بتلك الخبرات والتجارب، ماسمي يومئذٍ بـ"لواء القسام"، الذي كان يتحكم به المدعو"ضياء الحرامي"، وهو ضابط شرطة ادعى انشقاقه مبكراً عن النظام.(أقدمت داعش فيما بعد على تغييبه، وقيل إعدامه)، ولهذا الشخص ذكريات شائنة لاتفارق من الخطف والتعذيب وكثير من السوابق الجرمية والانتهاكات. كذلك ما دُعي وقتذاك بـ"لواء الرحمن" الذي كان يتزعمه شخص يدعى سليم الكظيب وأشقاؤه الثلاثة، وكان هذا التجمع العصاباتي المسلح قد اتخذ من مبنى الإتحاد النسائي السابق مقراً مركزياً دائماً، وظائفه الإجرامية أكثر من أن تُعَد وتحصى، فهو يرابط على نقطة مخصصة له عند الفرقة 17، لتسهيل انتقال الضباط والعناصر من داخل الفرقة وإليها، وتأمين كل ما يطلب منه من حاجات ومستلزمات لعناصر الفرقة. فضلاً عن مهامه الإستخبارية في جمع المعلومات، بل والمشاركة مع عناصر جيش الدفاع الوطني الذي يقوده المدعو أحمد منصور في قصف المدينة والمدنيين بمدفعية الهاون. وقد تم اكتشاف أنشطة هذه العصابة المسماة"لواء الرحمن"، ومهاجمتها واعتقال أفرادها كافة. وبعد أن وقعوا جميعاً في أسر الجيش الحر، تدخل تنظيم حركة أحرار الشام في القضية، بذريعة إعادة التحقيق معهم ومحاكمتهم على ما اقترفوا من جرائم، وبعد أيام قليلة أطلق سراحهم، (كما جرت العادة دائماً، وتكررت مثل هذه التجارب مع حركة أحرار الشام)، لينتقلوا بعدها إلى حاجز أثريا العسكري، الذي يسيطر عليه النظام جنوبي الطبقة، وليظهروا ظهوراً جديداً مثل كبار القادة المسلحين في جيش الدفاع الشعبي..

ـ ومن أكبر أهداف ومقاصد خطة أبو جاسم الأمن العسكري، كان ثمة مسلك جرى تنميطه في مخيلة وذهنية عامة الناس، بحكم استهداف القوى الأصولية لتلك **الكتائب الشيطانية القذرة..** هذا التخييل التنميطي العام الذي رسب في الأذهان ووقر في العقول، أن تلك القوى الأصولية لا تستهدف إلا مشبوهاً عميلاً للنظام، أو لصاً أو قاتلاً أو مذنباً كبيراً أو غير ذلك في هذه السلاسل الإجرامية.. وهذا المدخل الخطير أعطاها صكاً مفتوحَ الرصيد وغير مباشر، وبلا عقد مع المجتمع، ترخيصاً في أن تبحث تلك القوى عن الأفراد الفاعلين في الثورة، والمؤثرين فيها لتختطفهم او تعمل على اغتيالهم، تحت غطاء فكرة مسبقة ومتشبعة في خيال عامة الناس: من يتم استهدافه أو اغتياله من قبل داعش أو جبهة النصرة أو أحرار الشام فهو مذنب حكماً، وإن لم يتمَّ التعرف على ذنبه.. وهو مجرم خطير وإن لم نعثرعلى فحوى وطبيعة تلك الإدانة .. إذ يكفيك أن تُستهدَفَ من قبل **أولياء الله ووكلائه على الأرض السورية** حتى تكون مداناً مجهول الجرم. ومن هذا المدخل الخطير بدأت تلك القوى تعمل على استهداف قوى الثورة شيئاً فشيئاً، وفيما يشبه أن يكون تصفية

صامتة تحدث في ليلٍ من العماء، بدأت تتلاحق يومياً أو شبه يومي في عمليات تصفية مباشرة للثوار واحداً إثر آخر.. بدأتها داعش باغتيال (عجيل الكديم أبو الزين)، قائد كتيبة عائشة في تل أبيض، (والذي أطلق عليه النار أبو لقمان بنفسه أثناء مروره بسيارته أمام نزلة الكنيسة، وقتله مباشرة).. ثم استطالت السلسلة حتى أصبحت تعد بعشرات المخطوفين والمقتولين من خيرة الثوار(1)..

كان أحياناً يتم زج كتائب متنقلة بين دير الزور والرقة، وفي الأسابيع القليلة فترة ماقبل تحرير الرقة، ظهرت كتيبة تسمي نفسها (غضب الفرات)، أو شيئاً قريباً من هذه التسمية، وقد عُرفت في الرقة باسم كتيبة أبو ياسين، جاءت من ريف دير الزور الغربي، وصحبها بعض عناصر لواء آخر من قطاع الطرق يسمي نفسه لواء(يا أله). احتلت كتيبة أبو ياسين هذه لها موقعاً في منطقة أبو قبيع في مركز مداجن الرقة، وبعد أن أمعنت نهباً وسلباً في دائرة المداجن وتجهيزاتها، والفيلات المشادة على شاطئ الفرات في منطقة السحل وأبوقبيع، طفقت تلك الكتيبة تعمل على قطع طريق المسافرين وتنهب وتسلب كل من يعبر الأوتستراد الرئيسي الذي يصل حلب بالرقة، بباقي مدن الجزيرة الأخرى. ولا زلت أذكر حتى اليوم كيف أقدم هذا المدعو أبو ياسين على نهب مزرعة أحد أبناء عمومتي بعد اعتقاله وسلبه أسلحة صيد وأموال، وكثير من الأغراض الثمينة داخل المزرعة. وحين أرسلت إليه بعض الشباب من الثوار يستفسرون منه عن دوافع هذا السلوك الشائن الذي أقدم عليه، أجابهم بالقول:

ـ نعم لقد سلبته أمواله.. أخذناها غنيمة للمسلمين ..وأنا من أمرتُ باعتقاله ومصادرة كل محتويات المزرعة.. أتدرون لماذا؟ قالوا: لا ندري لماذا؟ أجاب: لأنه لا يصلي.. إنه لايؤدي الصلاة التي فرضها الله علينا نحن المسلمين.. وحين قيل له: ولكن الشاب يصلي..؟ أجاب: نعم.. هو يصلي الفروض فقط ولا يصلي النوافل والسنن.. ولا يصوم الاثنين والخميس..

بمثل هذه الحثالات الإجرامية الساذجة كانت **الدولة العميقة** تتحرك وتضبط حركة الثورة المضادة التي تقودُها، وفق خطة مدروسة ومحسوبة الأهداف والمقاصد.. فبعد أن يدعر هؤلاء المجرمون، ويُمعنون إثخاناً وإهانة وتحطيماً لكرامة مجتمعهم وأهلهم، يأتي دور القوى الرئيسية المتجهزة للخطوة اللاحقة.. وبالفعل، لم يمضِ الأسبوع الأول على تحرير الرقة حتى بدأ أبو لقمان الخطوة الأولى في برنامجه الطويل، والمسبق الإعداد، حيث قام باعتقال أبو ياسين وسلبه كل ماجمعه من مسروقات خاصة وعامة، ثم أطلق سراحه لأيام معدودة،(حتى يبرئ ذمته من ثأر عشيرة أبو ياسين؛ بوسرايا قرية المسرب)، قبل أن يرسل مساعده عبد الرحمن الفيصل،"أبوفيصل" فيما بعد أيام تلت، ليقنص الرجل غيلة بقناصته بالقرب من منطقة الكسرات، ثم أشاعت داعش في اليوم التالي أن كتيبة "أبو الشيخ" المتمركزة في مزرعة علي الشعيبي، وكتيبة "أبو اصطيف" المرابطة عند طرف الجسر العتيق هي من قامت بتصفيته.

حين أفاقت المدينة صبيحة يوم التحرير في 2013/3/4 على أول يوم بعد التحرير، والسقوط المدوي لدولة الأسد المخابراتية، كان القلق الأكبر لدى أكثر الأطراف هو أن يُعثر على المساعد أول محمد معلا، أبو جاسم، فهو الصندوق الأسود وشيفرة معظم المعلومات الأمنية المخزنة في ذاكرته عن المدينة وريفها. وذلك لتصفيته جسدياً قبل أن يصل الآخرون إليه. وفي أجواء هوسية سادت روح المدينة بعد أن فرَّ عددٌ كبيرٌ من عناصر الأمن العسكري، وانتشروا داخل المدينة، فاختفوا بين ثنايا المنازل والمزارع المحيطة؛ بعضهم جرت تصفيته، وبعضهم تمكن بمساعدة آخرين من الخروج من المحافظة واللحاق بأهله في الساحل، لكن جميع المطاردِين لم يكن حاضراً في مُخَيِّلتهم إلا أبو جاسم الأمن العسكري. والأغرب في منطق الأمور أن أبو جاسم لبث يراهن على "هؤلاء" حتى بعد أن أصيب بجرح بليغ قاتل، ألجأه إلى مبنى مهجور ـ مقابل مبنى مؤسسة الثروة السمكية ـ كان قيد الإعمار فيما مضى، وراح يراسل أصدقاء الماضي الأوفياء وخلان الأمس القريب. ولم يَدُرْ بخلده يومئذٍ أن جِراء الأفاعي والذئاب التي رَبَّاها وسمنها لهذا اليوم القاصم الحاسم، هي التي ستسارع إلى التهامه أولاً، خوفاً على نفسها ودرءاً لانكشافها.

أخيراً تم العثور عليه في ذلك المبنى المحاصر وهو لايقوى على النهوض بسبب جرحه القاتل، وبدلاً من أن يكون أوجب الواجبات معرفة بعض التفاصيل منه عن شبكات الدولة العميقة وفك شيفرة أسرارها واختصار طريق طويلة من التيه والحيرة والتخبط، أسرع الجميع إلى المبادرة والإجهاز عليه.. والغريب في الأمر أن الذين ادعوا بأنهم هم من أجهز عليه وقتله تجاوزوا العشرين شخصاً، مع أن قاتله الحقيقي كان شاباً صغيراً من دير الزور، يدعى (أبو شادي)، واسمه عبد العزيز. شاباً هادئاً كثير الصمت، متخرجاً من قسم اللغة الإنكليزية، انتسب لفترة قصيرة إلى كتيبة الناصر صلاح الدين بواكير تأسيسها ثم تركها وتنقل في عدد من الكتائب. وقد حرص أشد الحرص ـ بعد أن تأكد لي تأكداً قطعياً بأنه هو قاتله دون ريب ـ أن لا يعرفه أحد، وظل محتفظاً بصمته ورباطة جأشه وقد سرَّه

كثيراً ادعاء الآخرين بأنهم هم من أجهز على الرجل الجريح المحتضر.. وقد التحق هذا الشاب فيما بعد بجبهة النصرة في نهاية مطافه.(2)

أحمد منصور وميليشيات القتل:

أحمد منصور. غازي عبوش. عبد الرزاق الكَرّيم ومحل القزاز. فواز سرور. أبو لقمان. شركات القتل المنظم. كتائب الإجرام والتخريب والخطف والابتزاز والنهب. كتائب فرع الجوية والأمن العسكري. كل ذلك أمام واقعٍ مُتَردٍ ومتدهور، وإزاء انحلال عمل التنسيقيات المنظم، وانحدار الثوار المدنيين وتفككهم، وسيادة الشللية والأثرة الشخصية، وتدخل مؤسسات مشبوهة خارجية ـ كالائتلاف ـ تراقب الأوضاع عن كثب، وتعمل من خارج البلاد وخارج الثورة، أصيبت بفصام مزمن بينها وبين الواقع، وتعرَّت من كل بقية من أخلاق أو وطنية أو شعور بالعزة والأنفة..

أحمد منصور، لا يعرفه أحد في المدينة، ويعرفه الجميع تقريباً. يصفونه بأنه ودود وخدوم، ومقارب في العلاقات إلى حد أن أي شخص يجد مسافة ما من الود بينه وبين هذا الرجل. ماذا كانت وظيفته؟ مؤسسة حوض الفرات.؟ أراضي الري؟ توزيع الأراضي المستصلحة؟ علاقات زراعية.. علاقات وظيفية كثيرة.. عرَّاب صفقات ورشاوي..؟ لديه كلُّ شيء ماعدا أن يظهر بمظهر الحزبي أو العلوي. ولا يهتم بالسياسة، أو هكذا يحاول الظهور أمام الناس. وهو مرتبط بشبكة علاقات فاسدة مخيفة لاحدود لها. وكل صفوة عائلية أو عشائرية له من ودها نصيب. هو الموظف(العلوي) البسيط، المتخفي الشخصية.. ذكي جداً، ويعرف المدينة وأهلها منذ سنوات طويلة، فهو يعيش فيها مثل أي رقاوي مقيم منذ سنين طويلة. ومتزوج من امراة رقاوية، اسمها خولة الكواتي.. كنت أسمع بهذا الاسم لثاني أو ثالث مرة، وقد تردد على مسمعي كثيراً فيما بعد.. ولم تنهض في ذاكرتي أية انطباعات أو ذكريات تُذَكِّر به.. قلت لصديقي"م"، وقد شرعنا في متابعة أخباره اليومية التي كانت تصلنا كل لحظة ـ قبل التحرير ـ : لم ألتقِ به ولا مرة واحدة، وكم تمنيت أن أعرفه ولو بالشكل الخارجي.. وقالت لي صديقة مقربة من زوجته"خولة الكواتي"، حيث زاملتها في العمل طويلاً: زوجته مثله تماماً، تعبده عبادة، وتعبد النظام مجسداً فيه. ولا تتنفس إلا لتحقيق مآربه.. وهو كريم ولطيف ومضياف.. لديه سيارة"كيا" حديثة بيضاء اللون، لا يبخل بها على أحد من مقربيه، فهو لا يتردد في إعارتها لأي كان..

رجع صديقي"م" بعد عدة أيام ليقول لي: سوف يتم دمج جميع أجهزة الأمن الثلاثة مع الميليشيا الحزبية(جيش الدفاع الوطني)، وإعادة توزيعهم على شكل خلايا أمنية ومجموعات صغيرة، مهمتها الخطف والاغتيال. ثم أضاف: لقد وقع اختيارهم على شخص لا يعرفه أحد ولا يلفت انتباه أحد.. وليس في وارد أن يشك بشخصيته أحد.. أحمد منصور.. ثم أضاف: القرار اتخِذ منذ يومين خلال اجتماع سري بين القيادة القطرية والقيادات الأمنية العليا على أعلى المستويات في البلاد، وبتوجيه من بشار الأسد وضباط إيرانيين. وسألته إن كان يملك تأكيداً على صحة المعلومة، فأجاب: 100%..

تأكدت المعلومات التي نقلها لي صديقي"م" يوماً بعد يوم، وأدركت بطرقي الخاصة أن الرجل مرشح من قبل النظام ليكون الشخصية العسكرية والأمنية الأولى، حتى على مستوى قيادة الفرقة 17 وقيادة مطار الطبقة العسكري وفرع الحزب، وجميع أفرع الأمن وشبكة المخبرين التي عمل النظام طويلاً على تنظيمها.. وبالمختصر كان أحمد منصور مرشحاً ليكون حجر الزاوية في الدولة العميقة التي سأفصل الحديث عنها لاحقاً. وقد تناقشنا أنا و"م" طويلاً حول مسألة قرار استلام أحمد منصور لملف الرقة الأمني كاملاً، والصلاحيات المطلقة والتفويض المطلق الذي عاد به من دمشق. وقد ألمح ذلك الصديق إلى ملاحظة مهمة يومذاك، وجديرة بالاهتمام، قائلاً: أحمد منصور يسكن اليوم في شقته التي تعرفها عند النزلة الضيقة التي تؤدي إلى ثانوية ابن خلدون.. شقة متواضعة وشارع لا يلتفت إليه أحد، ولا يكاد يستثير انتباه أحد.. هل تعتقد أن الحال سيبقى على ماهو عليه بعد خمسة أيام أو أسبوع بعد هذا اليوم..؟

ـ تقصد أنه سينتقل من بيته هذا بصورة مؤكدة..؟

ـ أكيد.. إذا صحت توقعاتنا بأنه مشرف على أن يكون القيادي الأمني الأول في المحافظة ـ على الأقل من حيث الظاهر المعلن ـ لا أستبعدُ أن إجراءات انتقاله قد بدأت منذ اليوم.. وأتوقع أن يتم نقله هو وعائلته إلى مكان ما في قلب الفرقة 17، أو مطار الطبقة العسكري..

سألته: تتوقع أم أن هذه معلومة؟

ـ لا.. مجرد توقع شخصي مني..

الأحداث اللاحقة أثبتت أن صديقي"م" كان على حق في كل ما قال، وقد سألته بعد ذلك الحديث الأخير:

ـ وما رأيك النهائي أنت.. ما الذي ترى أن نفعل..؟

وبلهجة حاسمة يبدو أنه قد تفكر فيما سيقوله مطولاً: أرى أن تتم تصفيته واغتياله قبل أن ينتقل من بيته هذا ويفلت منا إلى الأبد.. هو الآن مجهول الدور كشخص. بيته مجهول إلا لقلة قليلة من معارفه. ويعيش بلا حراسة. لكنني لا أتوقع أن الأمر سيكون كذلك بعد أسبوع واحد فقط على الأكثر.

قلت له قبل أن أودعه: سأفكر في الأمر اليوم ملياً.. ولم ينس أن يبدي هذه الملاحظة ونحن نفترق: أرى أن يبقى الأمر سراً بيني وبينك.. لا تفتح الموضوع حتى أمام أقرب المقربين إليك من الشباب، لكيلا ينتشر الخبر احتمالاً..

تلك الليلة، تجولت بسيارتي لأكثر من ساعة، وأنا أحاول أن أحفظ بذاكرتي كل تفصيل يحيط بشقة أحمد منصور، وكل الشوارع الرئيسية والفرعية التي توصل إليه.. بعد يومين سألت صديقي: هل مازال الرجل مقيماً في شقته؟ أجاب وكأنه ينتظر تفاصيل مني: نعم .. حتى هذه الساعة.. وقد بتُّ متأكداً من كل معلومة حول الرجل..

بعد يومين قدمت خطتي المقترحة. العملية تحتاج إلى أربعة شباب فقط، بالطبع بعد أن يتم التأكد بالقطع من وجوده داخل البيت، لأن إمكانية الفشل كلها سوف ترتبط بعدم وجوده أثناء تنفيذ المهمة.. اثنان من الشباب الأربعة سيرابطان للحراسة عند مدخلي الشارع الضيق الذي تقع شقة أحمد منصور فيه، والثالث عند مدخل البناية.. والرابع سوف يصعد الدرج إلى شقته، فيسأل عنه بحجة أن له قضية قديمة معه مرتبطة بتوزيع أراضي حوض الفرات، وما إن يخرج الرجل إلى الباب حتى يبادره بثلاث طلقات في الرأس.. بعدها يهبط الشاب ومرافقه المرابط عند باب البناية ويستقلان دراجة نارية يحضرانها سلفاً، ويعودا الأدراج إلى فناء دار بناء عربية قديمة في الرميلة. أما أنا فسوف أكون حاضراً بسيارتي قرب الشقة، وبعد أن تنطلق الدراجة النارية بالشابين، يصعد معي الشابان الحارسان عند مدخلي الشارع، ونرجع معاً إلى حوش الرميلة للقاء الآخرَين.. والعملية كلها يجب أن تستغرق مابين خمس إلى عشر دقائق لا أكثر، والتوقيت عند الثامنة مساء، حيث الكهرباء مقطوعة عن الحي، وأصوات المولدات الكهربائية العالية الضجيج من حول المكان سوف تتكفل بالتغطية على كل حركتنا.. وفي وقت ذروة حضور الناس في الشوارع والطرقات.. لأن ذلك الشارع الذي تقع فيه الشقة يظل خالياً حتى في وقت الذروة، وهذا يسهل على الدراجة النارية والسيارة أن تتحرك وسط الناس دون أن يلحظ أحد شيئاً.. ثم بعد ذلك ـ في نفس الليلة ـ يتم دهن صاج الدراجة الخارجي بلون مختلف، وتغيير كل مواصفاتها الخارجية لكي لا يتم التعرف عليها فيما لو لحظت من أحدٍ ما احتمالاً..

اليوم حين أجلس إلى الكتابة، وأتذكر كم بقي عالقاً من تلك الذكريات..؟ كان كلُّ شيءٍ يومذاك يعبق برائحة الارتجال والتلقائية والصمود العنيد. فكيف ضاعت تلك الروح، وأين تسربت تلك الرائحة وتبددت..؟ كل شيءٍ كان قد ترتب خلال يومين، بدت العملية سهلة ومضمونة، ولا احتمالات مخاطر فيها، ولا توقعات مرتابة، مالم تحدث مفاجأة طارئة ليست في الحسبان أبداً.

بعد يومين قابلت"م". وسألني: ماذا جهزت للأمر..؟ أخبرته فوراً أن كل الأمور قد تحضرت، ونحن جاهزون للتنفيذ منذ اللحظة، بل إننا على أتم الاستعداد للانتهاء من عملية اغتيال أحمد منصور خلال ساعات، وفور ما يحل الظلام دون تردد. ورحت أشرح له الخطة بالتفصيل، وأجبت عن بعض أسئلته الاستفسارية الصغيرة. صمت قليلاً، وكأنه يرتب أفكاره ويعيد ترتيب الحدث وتركيبه كما يجب أن ينبغي. ثم تساءل أخيراً: ومن اخترت لتنفيذ العملية؟ فأجبته: وقع اختياري على"الذيب" و"حمود" و"أمين" وشاب رابع لا تعرفه، سوف يرافق "حمود".. ثم أضفت: "أمين" والشاب الرابع سيرابطان عند زاويتي الشارع للحراسة، و"حمود" سوف يتلبث عند مدخل البناية، و"الذيب" هو من سوف يصعد إلى الشقة ليطلق عليه النار وينفذ فوراً.. والعملية لن تطول إلا مدة مابين الخمس دقائق إلى العشر في أبعد التقديرات.. أخذ نفساً عميقاً قبل أن يسأل السؤال الأخير: الشباب جاهزون جميعهم..؟ قلت: ومتحمسون.. ودون تردد.

بعد الظهر كان قد بقي على تنفيذ عملية اغتيال أحمد منصور قرابة الست ساعات، وحين اتصل بي"م" وطلب لقائي لضرورة طارئة، وفور أن اجتمعنا بادرني القول: اقترح تأجيل تنفيذ الخطة مدة 48 ساعة أو أكثر قليلاً لأمر طارئ وضروري.. وحين تساءلت ماهو الطارئ والضروري الذي حدث؟ قال: أنت تعلم بأن هناك سبعة ضباط متعاونون مع الثورة من داخل الفرقة 17، على رأسهم شقيق أبو علي(فلان)، وهؤلاء منشقون منذ وقت طويل، إلا أنهم ظلوا يعملون في مهماتهم العسكرية من داخل الفرقة برغبة مشتركة، لم يخالفهم فيها أحد. وهم مصدرُنا شبه الوحيد في كل ما يحدث ويُخَطط له من داخل الفرقة. وتعلم أيضاً بأنه تم اكتشاف أمرهم من حوالي عشرة أيام، واعتقلوا جميعاً وأدلوا ببعض الاعترافات على بعضهم تحت التعذيب..

الجديد الطارئ في الأمر أن اجتماعاً كبيراً عُقد البارحة في المشلب، في أوضة شلاش المجحم الهويدي، بين مجموعة من زعامات العشائر ووجهاء البلد، وبين ممثلين عن السلطة، بعضهم حضر مخصوصاً من دمشق لحضور هذا الاجتماع. ولقد جرى حديث مطوَّل عن الوضع العام في البلد وعن الثورة والمظاهرات وكل هذا الاحتقان والوضع المتفجر.. الوجهاء اشتكوا كثيراً من ممارسة السلطة وفجورها وتعديها الزائد عن الحد، وممثلو النظام وعدوا بأن يدعموا شيوخ العشائر ومطالبهم في مهمة التهدئة والمصالحة والضغط على أبناء عشائرهم لكي لا يشاركوا في الاحتجاجات أو التظاهرات، أو يفكروا في الالتحاق بالجيش الحر.. والذي دعا الطرفين إلى هذا الاجتماع والخروج بهذه التوافقات هو أحمد منصور نفسه، والذي كان موجوداً على رأس من حضر الاجتماع، وهو من كان يدير الحوار ويضمن النتائج بين الطرفين.

المهم في الأمر أن وضع الضباط السبعة الذين اعتقلوا بحجة التآمر مع الثوار كان حاضراً بقوة في اجتماع المشلب، ولقد طالب الوجهاء المجتمعون مع ممثلي النظام بقوة وبصرامة وحسم أن يفرج عن الضباط السبعة، حتى لا تخسر السلطات موقف عشائرهم إلى الأبد، وبلَّغوا ممثلي النظام أن هؤلاء الضباط أبرياء من التهمة المنسوبة إليهم، وإنما تمَّ استهدافُهم لأسباب طائفية لاغير، وأن السلطة تبحث عن ضحايا لتفتك بهم كي تؤدب بهم من يفكر في الانشقاق عنها، وأن هؤلاء الضباط مجرد ضحايا..إلى آخر الحديث الطويل.. أخيراً، وبعد استطالة الحديث عن مسألة الضباط السبعة، وقف أحمد منصور، وضع يده على المصحف وأقسم بالله العظيم ثلاثاً، وبشرفه، ثم"أمسك شاربه" لتوكيد تعهده وتغليظه، بأن هؤلاء الضباط سوف يُفرَج عنهم خلال مدة لا تتجاوز الثلاث والسبعين ساعة في أبعد تقدير، وأنه أخذ عهداً ووعداً من القيادة في دمشق بهذا الشأن، وهو ضامن لتعهده مقابل وعد من وجهاء البلد يعطونه للضيوف المجتمعين بهم أن يقفوا جميعاً، وبمنتهى الصلابة والوفاء إلى جانب النظام.. وقد وعده الوجهاء بأن يبذلوا كل ما في وسعهم، وأن يقفوا وقفة رجل واحد وعلى قلب واحد مع النظام، إذا ما أنجز وعده الذي قطعه وتمَّ إطلاق سراح الضباط خلال يومين أو ثلاثة..

قال"م" مختتماً: أحكمْ على الأمر بنفسك.. لو افترضنا، على سبيل الفرض لا غير، أن أحمد منصور قد فعلها ونجح مسعاه في الإفراج عن العسكريين السبعة، فإن تصفيته اليوم، وقبل أن تنتهي المدة التي وعد بها لتحقيق مهمته وإنجاز شرطه الذي تعهد به لشيوخ العشائر.. ماهي نتائجه برأيك ..؟ قلت: نتائجه بكل تأكيد هي التضحية مجاناً بالضباط جميعاً.. ولكن ماذا لو كان مخادعاً وكاذباً..؟ قال: في هذه الحال لن نخسر شيئاً من انتظارنا لأيام، وسنمضي في تنفيذ الخطة كما هي بعد مضي مدة الوعد، وكما تم الاتفاق عليها دون تغيير.

توافقنا على تأجيل التنفيذ لخمسة أيام، ووضعنا في حسباننا أن الرجل قد وعد بيومين أو ثلاثة، وقد يكون من الحكمة أن ننتظر مدة إضافية وافية، ونفترض ظروفاً معيقة قد تضطره إلى تمديد مهلته ليومٍ أو يومين آخرين. وعلينا أن ننتظر خبر الإفراج عن الضباط خلال هذه الأيام الخمسة بصبر وترقب، وقمنا بإبلاغ الشباب الأربعة بتأجيل الخطة لخمسة أيام قادمة اضطراراً.. وبعد مرور الموعد دون نتائج، ودون الإفراج عن الضباط، (والذين لم يُفرج عنهم النظام حتى ساعة كتابة هذه السطور)، تلاقينا على أن نستعد لإمضاء ماصممنا عليه قبل أيام خمسة، وحين جاء اليوم الموعود للتنفيذ تأكد لنا أن أحمد منصور كان قد ترك الشقة التي يقطنها بجانب ثانوية ابن خلدون، وانتقل هو وعائلته إلى قلب الفرقة 17.. كما كان متوقعاً منه..

أمامي الآن عينة عشوائية من أسماء جيش الشبيحة الذي سعى النظام، تحت قيادة أحمد منصور هذا، منذ أول أيام الثورة إلى تسليحهم والدفع بهم إلى قتال أهلهم بمغريات وظيفية ومالية. (راجع الجدول رقم ـ أ ـ والجدول رقم ـ ب ـ)..وهنالك أضعاف هؤلاء من المسلحين والشبيحة غير المسلحين والمرجفين بالإشاعات والخرَّاصين.. وعشراتُ أضعافهم ممن جذبته حلاوة الإغراءات بالشعارات الدينية والهلوسات المعتقدية ممن خان الثورة، فاجتُذِبُوا كالمجذوب أو المسرنم الذي يمشي وهو نائم، من حيث يدري أو لا يدري، ليقايض

فكرة الحرية وإسقاط النظام واستقلال الوطن، والانبثاق المجتمعي ووضوح المستقبل بالبقاء تحت أحذية قوى متخلفة ومتوحشة، وطغاة ومسيطرين أياً كانت تسميتهم، وممن باع الأمل إلى الأبد، وقايضه ببعض مال أو كسبٍ شخصي رخيصٍ أو أحلام وردية مؤقتة . وممن أطفأوا نور الشمعة التي اتقدت في عموم أرجاء سوريا، وآثروا بحار الظلمات التي كنا وما زلنا نخوض لُجَجَها العاتمة.

ولابد من التنويه، للأمانة التاريخية، بأن هذه الأحداث وهذه الكتائب المسلحة ـ أو الجيش الشعبي ـ قد مضى عليها اليوم ما يقرب السبع سنوات.. بعض هؤلاء المسلحين ربما دفعه الغباء وقلة الوعي والجهل المطبِق والمفرِط إلى الانتظام دون دراية أو احتساب لخطورة ما أقدم عليه، ولعل بعضَهم قد انسحب مبكراً من هذه المطحنة الجهنمية والمباءة الملوثة بعد أولى خطوات إقدامه وانغماسه فيها، وبعضَهم ظل سادراً في دياجير ظلامه حتى اليوم.. ثمة منهم من تورط وسفك دماً، ومنهم من عفَّ قلبَه ويدَه أن يقتل ثائراً من مواطنيه لمجرد أن هتفت حناجرهم تصدح مطالبة بالحرية والديمقراطية وحق الناس أن يحيوا في أوطانهم بكرامة وعزة، لاسلطان عليهم إلا سلطان القانون العادل الذي يلظم الناس وينظمهم في خيط واحد من العدالة، وإلا سطوة الضمير والواجب العام. ومنهم من باع سلاحَه، أو ردَّه إلى الجهة التي سلحته به.

(الجدول رقم ـ أ ـ)

الاسم والنسبة	الأب	الأم	العنوان	الهاتف	رقم السلاح	نوع السلاح
احمد النادر	محمد	حليمة		0955637180	411513	بارودة
محمد الحسين	عبد الكريم	جياس	جانب مدرسة ابن خلدون	238356	612674	بارودة
احمد الكنيفذ	عماش		جانب جامع الشهداء	239729	14467	بارودة
عيسى الطه	حسين	عوش	جانب مدرسة اسامة بن المنقذ	0944859813 268788	518512	بارودة
رائد حاج	حمود	عفيفة	جانب الاتحاد النسائي	241971 09922008782	0411208	بارودة
سمير الجرف	إسماعيل	نسهيلة محفوض	مساكن حوض الفرات	242458	315868	بارودة
محمود الموسى	علي	ذيبة		224224	811080	بارودة
محمد حيدر	شيخ	آمنة	الفردوس	243743 0933941512	410453	بارودة
فياض العبدالله	محمد		جانب مدرسة طارق بن زياد زور شمر	213664 0933320964	515054	بارودة
موسى المحمد أغا	محمد امين	شقرة	جانب الحديقة البيضاء	246900 0944816727	514956	بارودة
محمد جيجان	شاهر	مريم	الرقة جانب بناية الجميلي	263186	599907	بارودة
عيسى الصالح المطر	طركي	غزالة	الرقة جمعية الصحفين	280177		بارودة
اسماعيل العلي	خليل	عفاف	الرقة جنوب الانطلاق	280421	812274	بارودة
أحمد ميمة	علي	سيفان	ع باسل فوق صيدلية باسل البرازي	245801	587785	بارودة
جميل الخلف الابراهيم	صلاح	منتهى	الرقة جنوب حديقة البستان	222226	416503	بارودة
احمد الحمد	شبوط	فاطم	الرقة المشلب	216005	113843	بارودة
حسن الصالح الحمد	علي	يازي	شارع الوادي مقابل المخبر الكندي	0991921362	415697	بارودة
احمد الفاقي	حمدو	فاطمة	الرقة مدير معمل السكر			بارودة
عامر الحسين	خلف	زهية	الرقة شارع سيف الدولة	0943822170	415297	بارودة
محمد الحسن	احمد	بهية	الرقة مساكن حوض الفرات	245536	611388	بارودة
أنور العليوي	ناصر	سامية		0933942480	979994	بارودة
أحمد الخليفة	محمد	مسعودة	الرقة جانب جامع النور	241004 0930240392	410715	بارودة
عبدالله العبد	خليف	خديجة	جانب جامع النور	261718 093166529	410575	بارودة
ناصر علي العابد	علي	شمسة	شارع النورجمعية تشرين السكنية	0942246800	612006	بارودة
عيسى العلي	حسين	فضة	حي جامع العلو	216350 0933031410	411410	بارودة
سليمان العبدالله	فياض	فريدة	زور شمر	411633 413664	987822	بارودة
امين اليوسف	عمار	فطومة	مقابل كلية التربية	239661	416476	بارودة
كريم المحمد	اسماعيل	ستة، أو صيتة	الرقة جنوب جيقة البستان	228277	513916	بارودة

ياسر العلي	خليل	عفاف	الرقة شارع المنصور	221019	512959	بارودة
عبدالكريم الخضر	عبد الله	يازي		247257 0968383680	315849	بارودة
محمد الحمود	احمد	صبحة	الرقة		315062	بارودة
محمد الفرج	علي	اميرة	حمرة بويطية	254174	410586	بارودة
تمام المحمد	حسين	شمسة	الرقة مساكن الحوض		943888	بارودة
احمد المحمد	حروش	صبحة	السباهية	236246	429839	بارودة
محمد السباكة	سليمان	شمسة	الرقة		411917	بارودة
صالح المصارع	عبد الله	خديجة	الرقة	224383	410658	بارودة
عليوي العبد العساف	ابراهيم	زكية	الرقة		514558	بارودة
احمد الاحمد	حمود	خود	رقة سمرة		7113020	بارودة
خالد العبيد	موسى	فضة	الرقة الخربة بئر ظاهر	0932361444	415236	بارودة
احمد الجاسم	حسن	مريم	الرقة جانب جامع المصطفى	218078	414479	بارودة
خضر الكراش	احمد	مطرة	الخاتونية		73085	مسدس
احمد احمد حجي حمدي	خضر	حليمة	التوسعية شمال التعمير	242288		مسدس
مرعي الشويش	حسن	عمشة	غرب الفروسية			بارودة
سهيل العبدالله	ذياب	لطفية	الدرعية	235674	312503	بارودة
ياسر العسكان	علي	زهرة			314246	بارودة
خالد الجمعة	ابراهيم	حليمة	الرقة	239551	7114705	بارودة
محمود العبد الله	عبد الله	يازي	الرقة	0933356734	977380	بارودة
ابراهيم الناهض	محمد	خنسة	الرقة		314408	بارودة
حسين المصطفى	احمد	يازي	جانب جامع الشهداء	239420	716628	بارودة
ياسر خضر الحجي	خضر		الرقة		414525	بارودة
زاهد الشواخ	محمد الشواخ	رابعة	مدير مصرف			بارودة
عيسى الخليل	حسن	مريم	امين فرع الحزب الاسبق			بارودة
خضر الساحلي	احمد	مريم			614005	بارودة
فرج العليوي	سامر	سامية	مساكن حوض الفرات	236823	444219	بارودة
اسماعيل الخضر	حسن		الرقة			بارودة
ايهم العلي	عبد الرزاق	كفاء	شارع سيف الدولة			بارودة
مثنى العلي	عبد الرزاق	كفاء	شارع سيف الدولة			بارودة
فاضل باكندي			الرحبي	251359		بارودة
حسين العابد			امين فرع الشبيبة			بارودة + مسدس
محمد محمود الرحال	محمود					بارودة
خليل حسين الرحال	حسين					بارودة
محمد حسين الرحال	حسين					بارودة
علي الرحال						بارودة
مصطفى كمال			عضو مكتب تنفيذي			بارودة
ابراهيم العبد الغني			رئيس نقابة عمال العتالة والخدمات			بارودة
لؤي الطه			رئيس نقابة عمال المواد الغذائية			بارودة
خالد الجمعة			رئيس نقابة عمال الطباعة والاعلام			بارودة
محمد العاني			رئيس نقابة عمال التنمية الزراعية			بارودة
علي المحمد الحبيب	محمد		مسؤول امني			بارودة
خضر الصالح			عضو مجلس شعب			بارودة
دحام محمود العمر	محمود		عضو اتحاد الفلاحين			بارودة
حسين المحمد	علي		رئيس اتحاد عمال محافظة الرقة			بارودة
علي الحسين	خطاب	فاطم	مزرعة بدر			بارودة
ثامر الطعمة	عبد اللطيف	تمام	الرقة			بارودة
محمود العلي الموسى	علي		مدير مؤسسة المياه			بارودة
عبدالفتاح الحمود	صالح	نوافة	مساكن الدرعية	235265	517407	بارودة
عيسى الابراهيم	طه	زلخة	رقة سمرة	221762	314899	بارودة
عيسى الموسى	احمد	عفتة	تل السمن		412269	بارودة
علي المرزوك	محمد	حربة	الرقة		415939	بارودة
منصور الشيخ	محمد	نورية	الرقة	212010	812048	بارودة
عبد العزيز الكشة	خليل	وضحة	خنيز		510509	بارودة
ابراهيم السباكة	خلف	عمشة	الرقة		511079	بارودة
محمد الاحمد	صايل	فطوم	شعبة الحوض	363065	988484	بارودة
عبد الحكيم العبد	عواد	خاتون		341273	416151	بارودة
محمد خرفان	احمد	نجمة			416555	بارودة

سعد الدبس محمد انور	محمد انور	عطرية	مقابل الملعب البلدي	231141	516925	بارودة
سعد العنتر الدالي	عبيد	فاطمة	شعبة الحوض		411726	بارودة
علي خلف العسكان	خلف		المشلب	224480	941266	بارودة
حسين منوخ الشيخ	منوخ		الرقة			بارودة
عبد القادر الموسى الشبلي	كريم	فهمية	حارة الشبلي السلامة	0969982285	615523	بارودة
وائل جلالي	حسن	سهيلة		217666	612179	بارودة
المنتصر الخضر	عبد الله	يازي			871531	مسدس لاما
عبد الاله الموسى	محمد	خديجة	الرقة		416557	بارودة
عبد الرحيم اسماعيل الخضر	اسماعيل		مسؤو ل امني في شركة السكر		412522	بارودة
احمد البورسان	جدوع	فاطم	مستجد نكيب		411799	بارودة
المهيمن العلي	عبد الرزاق	كفاء	سيف الدولة	224431	415494	بارودة
ايمن العلي	عبد الرزاق	كفاء	سيف الدولة	281781	410775	بارودة
محمد العلي المسلم	عدنان	صبحة	الرقة			مسدس تشيكي
محمود شحادة	محمد زهير	حميدة	الرقة			مسدس تشيكي
مهنا مبيض			الرقة طبيب			بارودة
خليل الشيخ	اسماعيل		امني في مصرف التسليف الشعبي		711710	بارودة
اسامة العزاوي			مدير مصرف التسليف الشعبي		515389	بارودة
عبد الجواد محمد	محمد	ريمة	مستجد نكيب	220626	816132	بارودة
صالح الاحمد	احمد	وضحة	مستجد نكيب	226620	414603	بارودة
جاسم العكلة	عكلة	رابعة	مستجد نكيب	208228	440771	بارودة
احمد الاحمد	عبد الجواد	شمسة	مستجد نكيب	220626	518627	بارودة
عبد الحسين	احمد	فضة	مستجد نكيب	241876		بارودة
محمد عيد الجاسم	عبد الرحيم	سارة	الرقة تل ذبان	253296	814292	بارودة
خالد العبيد	موسى	فضة	الخربة بير ظاهر	0932361444	415236	بارودة
محمود العلي الفواز	حمود	كرجية	110332122		716239	بارودة
اسعد العمر المحمود	محمود	خنسة	11030009790			بارودة
امير انفيفة	عقل	زينب	05140032341			بارودة
الحسن عبود	عبود	نورة	1103008303	420226	314893	بارودة
زمزم العبد	واصل	رابعة	11010167318	341306	411287	بارودة
بدر الجاسم	حسن	ضحية	11030011310		315625	بارودة
بسام بكور	محمد	مريم	05100044436	717080	312421	بارودة
سوري السوري	محمد	آمنة	11030012764	445042	412435	بارودة
علي العساف	حسين	فوزة	11010011754		315812	بارودة
حسان العلي	علاء	عيدة	القصبي1995		314798	بارودة
سلمان الموسى	عساف	فاطمة	11020063333	247257	315972	بارودة
علي عبد الحميد	محمد	مريم	11070007133		971607	بارودة
جمعة عبو	عبو	خلفة	11010164207		315812	بارودة
علي سلمان السباكة	سليمان	شمسة	11030003605	257013	411944	بارودة
عمر الاحمد العبود	محمد	زهية	11010091597		518974	بارودة
رمضان العجل	محمد	صنعية	11030033530		415296	بارودة
حسن الحسن	محمد	عوش	المنصورة	727894	314624	بارودة
يوسف قدار	احمد	عرنة	الطبقة	714042	416374	بارودة
حافظ عبد الله	ابراهيم	وجيهة	الطبقة	718945	611789	بارودة
خضر الصالح	موسى	زهية	الكرين	210945	611222	بارودة
حسن خضور	سالم	خضرة	الطبقة	712458	141046	بارودة
عمار اسعد	حبيب	سميرة	الطبقة		416277	بارودة
احمد الحسين	محمد	تركية	الطبقة	712650	611093	بارودة
علي سمية	ابراهيم	زهرة	الطبقة	710194	314140	بارودة
عبدالله العبدالله	موسى	هدلة	الطبقة		203702	مسدس
ابراهيم العلي	محمد	مريم	الطبقة	0955285818	443844	بارودة
ابراهيم الابراهيم	سلوم	فطومة	الطبقة		411799	بارودة
عبد الناصر المحمد	شاووش	نجود	الطبقة	711745	810657	بارودة
غسان ابراهيم	ديب	رضا	الطبقة		412927	بارودة
عبد الكريم الدرويش	حسن	فاطم	هنيدة	727912	615800	بارودة
محمد العبد	علي	زينة	هنيدة	720925	811864	بارودة
... معروف باسم(ابن نظيرة)			الطبقة	712805	414789	بارودة
علي الدندل	ابراهيم	وضحة	حزيمة		315270	بارودة
طلال عايد	محمود	شمسة	تل ابيض		614924	بارودة

حسن حمد	حمد	زركة	تل ابيض	358450	411770	بارودة
علي الحمادة	حسن	خاتون	الشيخ حسن	0969946118	411915	بارودة
حسن الرحال	علي	زهرة الشيخ	الاسدية	390049	441055	بارودة
اسحاق الدندل	فرحان	سودة	الرحيات	0944793707	440950	بارودة
محمد الابراهيم	عيسى	كطنة	تل السمن		314580	بارودة
ندى الابراهيم	عيسى	كطنة	تل السمن	255615	514365	بارودة
ادهم الدندل	فرحان	سودة	الرحيات	377188	516197	بارودة
عبد العبد	شحاذة	نجمة	البوحمد	445244	517988	بارودة
نجم المطر	عبد الله	زريفة	البوحمد		417500	بارودة
عبد الحمد الجاسم	علي	خلفة	البوحمد	445245	8113272	بارودة
محمد السيد	علي	عدلة	البوحمد		513463	بارودة
حمود الجرجيس	محل	غمر	البوحمد		511249	بارودة
محمود الظاهر	عيسى	خاتون	البوحمد	445991	714612	بارودة
عسكر الحسين	سليمان	فطيم	معدان		415656	بارودة
سالم ربيع الجاسم الاحمد	عمر	فلة العكلة	البوحمد	445036		بارودة
معبد سليمان	سليمان	رحمة	البوحمد	218500	415352	بارودة
علي الخلفان	احمد	حليمة	الجابر		984025	بارودة
حسين الاحمد	علي	زكية	الجابر	420322	980543	بارودة
محمد خير	صالح	امينة	معدان		8110704	بارودة
حسين السليمان	علي	فطيم	معدان		711221	بارودة
فواز الساير	سليمان	هدلة	معدان	257367	510735	بارودة
احمد سوادي عواد	عواد	خلفة	معدان		416304	بارودة
فرحان الشنخر	جاسم	يازي	النميصة	420064	517679	بارودة
محمود العبدالله	حسين	حليمة	التبني		512977	بارودة
ابراهيم الابراهيم	عيسى	جهيدة		360552	412371	بارودة
عبد الله الظاهر	صالح	شاهة	النميصة	420239	985842	بارودة
ابراهيم العلي الشريدة	حمد	خضرة	الجابر	420777	313636	بارودة
عيد شنخر	جاسم	يازي	النميصة	420435	516818	بارودة
احمد العثم	عبد الله	وامنة	النميصة		815399	بارودة
محمد الرجا	علي	حبشة	معدان	257567	613035	بارودة
محمود الحسن	عبود	نورة	معدان	0932086747	314893	بارودة
خلف السالم	عبد الله	حليمة	النميصة	420225	416507	بارودة
احمد خرفان	سليمان	زكية	الجابر	420719	314295	بارودة
انور العباس	عبد الله	جياس	السويدة			بارودة
محمد خير العبد	عبود	فطيم	السويدة	257610	313881	بارودة
عبد الله الاحمد	عبد	فاطمة	السويدة		312167	بارودة
بدر العبدالله	شمس الدين	نايفة	الجابر	420733	972223	بارودة
ميلاد سليمان	سليمان	رحمة	الجابر		416000	بارودة
بهاء الدين العبدالله	شمس الدين	نايفة	الجابر	420733	979069	بارودة
ايهم سليمان	احمد	عزيزة	الجابر		413097	بارودة
محمد زياد سليمان	سليمان	رحمة	الجابر		411900	بارودة
احمد الاحمد	علي	زكية	الجابر		315318	بارودة
علي محمد	ابراهيم	مطرة	الجابر	420964	958110	بارودة
محمد العثم	عبد الله	امنة	النميصة	420223	985706	بارودة
محمد الكدرو	محمود	صباح	الجابر		443827	بارودة
محمد الاحمد	علي	زكية	الجابر	420322	116400	بارودة
ابراهيم سباكة	حسين	كحلة	الجابر		410543	بارودة
احمد الجراد	محمد	خنسة	النميصة		982677	بارودة
احمد السليمان	علي	فطيم	الجابر		411170	بارودة
محمد سليمان	علي	فطيم	الجابر	485637	410535	بارودة
اسماعيل شنخر	محمد	حليمة	النميصة	420575	516305	بارودة
محمود سباكة	حسين	كحل	الجابر	420120	911535	بارودة
خلف خرفان	هواش	زهية	الجابر		412642	بارودة
عيد الاحمد	شحاذة	ربت	الجابر	420641	989937	بارودة
بشيرالسفيرة	علي	فرطوسة	التبني	0955546016	415558	بارودة
حسين السليمان	علي	فطيم	معدان		7112210	بارودة
عبدالله نور	ابراهيم	فطيم	الجابر		314976	بارودة
عبد الرجا	علي	حبشة	البوحمد		813104	بارودة

عبد الحميد الحرناوي			معدان		276479	7115106	بارودة
فارس حسن المصطفى	حسن		الخميسية		310029	313801	بارودة
عيسى المحمد	احمد	فطومة	مدلج معدان	0944885242ت358370		7116243	بارودة
سطام الشديد	ابراهيم	جميلة	الخميسية			616219	بارودة
شكري الحمد الشديد	فارس	امونة	الخميسية			315706	بارودة
شعبان العبد العلي	موسى	عيدة	الخميسية		310005	415482	بارودة
محمد العلي العيسى	حمد	خديجة	الخميسية			412797	بارودة
محمد العيسى	حمود	ريمة	الخميسية		257561	417536	بارودة
حميد الموسى الشحاذة	ثلاج	حليمة	الخميسية			416999	بارودة
احمد المصطفى	حسين	امنة	الخميسية			411064	بارودة
جمال المحمود	شكري	يازي	الخميسية			313844	بارودة
بدر الخلف	عبد الله	صبحة	الخميسية			510808	بارودة
فواز العلي	محمد	فتية	الخميسية		257386	8113443	بارودة
محمد العبد	خليف	خديجة	الخميسية		257831		بارودة
خالد حسين المصطفى	حسين	هدلة	الخميسية		310758	314294	بارودة
فرحان المصطفى	حسين	هدلة	الخميسية			594674	بارودة
جاسم العلي	محمد	فتية	الخميسية		257386	988557	بارودة
اياد المصطفى	احمد	خضرة	الخميسية		257386	984457	بارودة
علاء الدين السفيرة	خلف	عزيزة	القصبي			517276	بارودة
سليمان سليمان	عجيل	فضة	مغلة كبيرة			416229	بارودة
عبد الله السليمان	سلامة	عكية	مغلة كبيرة			519049	بارودة
انور المحمد	يوسف	خاتون	مغلة صغيرة			311682	بارودة
محمد الموسى	اسماعيل	صبحة الاسود	مغلة كبيرة			413879	بارودة
كامل المحمد (معلم مدرسة)			مغلة كبيرة				بارودة
عبد الستار رفاعي	حمود	حليمة	مغلة صغيرة		420274	594679	بارودة
عبد الله رفاعي	حمود	حليمة	مغلة صغيرة			987309	بارودة
حسين الحسين	حسناوي	فضة	مغلة كبيرة		421421	443773	بارودة
خلف العلي العثم	عواد	عائشة	مغلة كبيرة		420020	415006	بارودة
صالح الحسن	ذياب	فاطمة	مغلة صغيرة			518549	بارودة
خميس المحمد	محمد	زعلة	مغلة صغيرة		420069	518380	بارودة
عبد الكريم سليمان	محمد	وضحة	مغلة كبيرة	0944441571		6111868	بارودة
صالح سالم	علوش	وضحة	مغلة كبيرة			8111054	بارودة
فرهود الاحمد	جابر	وضحة	مغلة كبيرة	0955502823		314170	بارودة
محمد الاحمد	علي	نجود	مغلة صغيرة			986629	بارودة
محمود السباكة	سليمان	شمسة	الجابر		420730	415352	بارودة
خليف رجا	رجا	وضحة	مغلة كبيرة			719465	بارودة
صالح الحمود	حسين	فطيم	مغلة كبيرة		420339	985772	بارودة
ابراهيم العمر الحسن	عبد	غزالة	مغلة كبيرة		420100	587534	بارودة
خالد الحسين	حسناوي	فضة	مغلة كبيرة		420178	599323	بارودة
اسماعيل المحمد	محمد		مغلة كبيرة		فلاح		بارودة
احمد المحيمد	محمد	خلفة	النميصة		420868	988552	بارودة
ابراهيم المحمد	عبد المجيد	صبحة	مغلة صغيرة		420176	412447	بارودة
مهيدي السباكة	صالح	فاطمة	مغلة كبيرة		257103	410622	بارودة
محمود الحمادة	حسين	فضة	مغلة صغيرة			6110290	بارودة
محمود سليمان	علي	فطيم المحمد	مغلة كبيرة			411837	بارودة
حسن الحسين	حسن	نجمة	مغلة كبيرة		420177	443274	بارودة
ياسين سوعان	حمود	خرمة	مغلة كبيرة		420013	443738	بارودة
عبد الرزاق المحمد	عبد الله	مريم	مغلة كبيرة		420339	595697	بارودة
احمد العلي	حميد	زهية	مغلة كبيرة		-420510	7112691	بارودة
جاسم الاحمد المحمد	ابراهيم	خزنة	مغلة كبيرة		420088	988889	بارودة
سحمان الخليفة	موسى	غزالة	مغلة كبيرة		420714	315128	بارودة
عبدالمدكوك رمضان	رمضان	حليمة	مغلة كبيرة		420702	812960	بارودة
احمد المحمد الجراد	محمد		المغلة				بارودة
احمد عواد السواري	عواد		المغلة				بارودة
فيصل احمد الجراد	احمد		المغلة				بارودة
عبد الكريم محمد الموسى	محمد		مغلة كبيرة		264614	1341868	مسدس تشيكي
بدر حسن الجاسم	حسن		فرقة الحمدانية				بارودة
عبد الله صالح الظاهر	صالح		المغلة				بارودة

محمد عبد الله العثم	عبد الله		المغلة			باردة
محمد حمد العيسى	حمد		الخميسية			باردة
شكري فارس الحمد	فارس		الخميسية			باردة
سطام الشديد	ابراهيم		الخميسية			باردة
خليل الحمود	ابراهيم	نوفة	تل ابيض	253551		باردة
احمد العايد			تل ابيض		416001	باردة
مهند الغانم	عبد	حليمة الغانم	تل ابيض	730162	614939	باردة
عدي العيسى	محمد	فضة	تل ابيض		613992	باردة
ثائر محمد الخلف	فواز	عيدة	تل ابيض عين العروس		314028	باردة
عبد الحاوي	حسن	حليمة	تل ابيض مشرفة الحاوي	-386719		باردة
مراد الغانم	فياض	فريدة	تل ابيض	731815	314602	باردة
محمود حاج عبدالله	حميدي		تل ابيض	731707	314139	باردة
رمضان العباس	سعيد	حورية	تل ابيض عين العروس	0988734123	510983	باردة
احمد الابراهيم	حمد	دونة	تل ابيض	0945201511	412148	باردة
ياسر العريف	محمد	فضة	تل ابيض	730215	416136	باردة
سلوم العبد بن مصطفى وحبشة	مصطفى	حبشة	تل ابيض حارة الجسر	730393	517808	باردة
مصطفى الباكو	علي	خود	تل ابيض شريعان	440599	515891	باردة
بشار العبود	محمد	سعدة	تل ابيض المنبطح		515058	باردة
بشار الموسى	محمد	عوض	تل ابيض طاش باش	731914	518408	باردة
حسن الفارس	علي	امينة	تل ابيض	0933636761	411552	باردة
احمد المحمد	محمد	وضحة	تل ابيض كرمازة	0955634502	515261	باردة
فاضل الشبلي	اسود	لعوب	تل ابيض حويجة عبدي	0957968099	8112946	باردة
رضوان العريف	محمد	فضة	تل ابيض		415665	باردة
محمود العبدالله	حميدي	امنة	تل ابيض المنارة	740753	596816	باردة
ياسر الكدرو	محمد	عوش	تل ابيض باغ يرنة	440253	973920	باردة
جاسم الابراهيم	محمد	فاطمة	تل ابيض	730781	810342	باردة
بسام العبود	محمد	سعدة	تل ابيض	730197	415869	باردة
محمد الشبلي	اسود	لعوب	تل ابيض	440095	972609	باردة
شويش البطحاوي	محمد	مطرة	تل ابيض	730482	817407	باردة
فراس الشبلي	فاضل	فاطمة	تل ابيض	440281	314056	باردة
حسن الغانم	محمد	فاطمة	تل ابيض	730406	315977	باردة
عساف العباوي	محمد	فاطم	تل ابيض	731690	412261	باردة
فياض الشبلي	اسود	لعوب	تل ابيض	0988977792	413242	باردة
حسن العبود	محمد	سعدة	تل ابيض	730197	412674	باردة
عبد الرزاق الخميس	احمد	وزنة	تل ابيض	0944040011/441666	314201	باردة
علي العنتر	حسن	نجمة	تل ابيض		977292	باردة
قاسم العريف	محمد	فضة	تل ابيض	730269	415689	باردة
موسى العريف	عبيد	فاطم	تل ابيض	731927	415232	باردة
محمد الشبلي	بري	مريم	تل ابيض	731203	314098	باردة
ياسر الابراهيم	حسن	دونة	تل ابيض	730600	811759	باردة
عبد العلي	احمد	طرفة	زور شمر	410605	987093	باردة
عزيز الصالح	جاسم	يازي	زور شمر		414363	باردة
موسى الاحمد	محمد	حمدة	زور شمر	233666	412082	باردة
فايز الجاسم الشحاذة	محمد	عمشة	زور شمر	410376	314253	باردة
محمد الشباط	صالح	سارة	الغانم العلي	0932743509	7118631	باردة
محمد العساف	حسين	رثعة	الجبلي	251754	415391	باردة
محمود العلي السلمان	حسن	خاتون	الجبلي	410922	518854	باردة
صالح العكلة	احمد	زهرة	العكيرشي		810370	باردة
زكريا علي	محمد	حليمة	السبخة		314375	باردة
ثامر سوعان	عبد الرزاق	وثنوة	العكيرشي	415013	518793	باردة
محمود العلي المحمد	احمد	امنة	الرحبي		7119358	باردة
عبد الهادي العجيل	محمد	دنيا	صفين	415244	416476	باردة
حماد الدهش	عواد	عبرة	البديع	0992424084	415310	باردة
محمد علي الزعزوع	محسن	ميرة	البديع	0932203299	613860	باردة
سامي الوردي	عبد الله	خولة	البديع	09311424558	616107	باردة
محمود المحمد	سليمان	عوش	مزرعةالرشيد		512876	باردة
صالح العلي	موسى	حمرة	مزرعةالرشيد	0955632381-363381	8112761	باردة
سعيد حسون الصالح	حسون	ثلجة	مزرعة الرشيد	363053	415040	باردة

محمد الصالح	سليمان	غبنة	مزرعة الرشيد	363046	7113020	بارودة
موسى محمود	حمود	مريم	مزرعة الرشيد	363033	512959	بارودة
صالح الناصر	علي	زغيرة	مزرعة الرشيد	363228	415297	بارودة
عجاجد الحمادة	محمد	عدلة	مزرعة الرشيد	363152	311937	بارودة
سلمان الصبر	سالم	زيادة	مزرعة الرشيد	363445	415615	بارودة
علي العلي	موسى	حمرة	مزرعة الرشيد	363150	977909	بارودة
مصطفى الناصر	علي	زغيرة	مزرعة الرشيد	363020	612273	بارودة
سليمان حمود	سالم	زغيرة	مزرعة الرشيد	363386	985986	بارودة
علي الحمد	موسى		مزرعة القحطانية			بارودة
صادق العلي الفرج	داود	زينة	العطشانة	445092	416366	بارودة
احمد الحمد الجاسم	علي	فرطوسة	العطشانة		412357	بارودة
حسين الجاسم	حسن	ضحية	العطشانة	امين فرقة البوحمد	612139	بارودة
عبد الحمد	عيسى	عيدة	العطشانة	445283	412679	بارودة
حمود الخضر	مخلف	فطيم	النزازة		413911	بارودة
احمد الصالح	جاسم	عفرة	النزازة		313854	بارودة
تركي الخضر	مخلف	فطيم	النزازة		311617	بارودة
عبد الصالح	جاسم	عفرة	النزازة		414975	بارودة
عبد العلي العبد	علي		عطشانة			بارودة
حمود علو	حمدان	زكية	السلحبية الغربية	405512	411729	بارودة
حسين العلي الحمد	علي		السلحبية الغربية	0956233078	513112	بارودة
خالد علو			السلحبية الغربية	0991941027	413572	بارودة
ابراهيم علو	حمدان	زكية	السلحبية الغربية			بارودة
محمود العضيب			سلوك ـ الفليو			بارودة
حمود عبدالله الغشام	عبد الله		سلوك ـ الفليو			بارودة
متعب الهلال	احمد		سلوك ـ الفليو			بارودة
حميد حميد العضيب	حميد		سلوك ـ الفليو			بارودة
عبد الحميد العضيب	صالح		سلوك ـ الفليو			بارودة
محسن الزعزوع	زعزوع		سلوك ـ الفليو			بارودة
حماد عواش الدهش	عواش		سلوك ـ الفليو			بارودة
عيد عبدالله الهلال	عبد الله		سلوك ـ الفليو			بارودة
خالد عبيد			سلوك ـ الفليو			بارودة
عيسى عبيد العلي	عبيد		سلوك ـ الفليو			بارودة
سامي عبد الله الوردي	عبد الله		سلوك ـ الفليو			بارودة
عبد الكريم طه العايد	طه		سلوك ـ الفليو			بارودة
سعود محمد العواد	محمد		سلوك ـ الفليو			بارودة
صالح حميد			سلوك ـ الفليو			بارودة
فواز علي الحميد	علي		سلوك ـ الفليو			بارودة
صالح احمد الهلال	احمد		سلوك ـ الفليو			بارودة
كفاش الزعزوع			سلوك ـ الفليو			بارودة
عكاش الغشام			سلوك ـ الفليو			بارودة
وائل محمد الصالح	محمد		سلوك ـ الفليو			بارودة
ماجد محمد العضيب	محمد		سلوك ـ الفليو			بارودة
حماد حمد العواد	حمد		سلوك ـ الفليو			بارودة
محمود الوردي			سلوك ـ الفليو			بارودة
محمد حميد العضيب	حميد		سلوك ـ الفليو			بارودة
عبيد عبد الله الهلال	عبد الله		سلوك ـ الفليو			بارودة
صالح احمد العضيب	احمد		سلوك ـ الفليو			بارودة
علي الخلف	محمد	عوش	سويدية كبيرة	1101052187	315164	بارودة
عيسى المنوخ	محمد	وضحة	سويدية كبيرة	11010064856	313891	بارودة
حميد العبدو	عبد الله	خديجة	سويدية كبيرة	11010048651	314273	بارودة
صالح المنوخ	محمد	وضحة	سويدية كبيرة	341154	416356	بارودة
حميدي العمر العيسى	نايف	خود	سويدية كبيرة	341340	313873	بارودة
حامد الحاج عبو	ابراهيم		الجرنية			بارودة
حسن السلوم	حسين	شمسة	عايد صغير	0997467037	314295	بارودة
احمد السلوم	سلوم	دلة	عايد كبير	11040017676	816071	بارودة
ابراهيم السلوم	حمادي	فاطم	عايد كبير	11040017655	411912	بارودة
عيسى المحمد	عليوي	ليلى	عايد كبير	11040022317	410227	بارودة

فيصل الابراهيم	جمعة	عدلة	عايدصغير	11040022345	412495	بارودة
حسن النافع	علي	حارة	كديران	361196	314660	بارودة
خلف السلوم	حمود	عدلة	كديران		619393	بارودة
حمود الحمود	عبود	عدلة	اليمامة	0966278793	596556	بارودة
احمد المحمد العبد	حاج محمد	فاطمة	كديران		313884	بارودة
محمد الحمود	شحاذة	زريفة	كديران		415561	بارودة

(الجدول رقم - ب -)

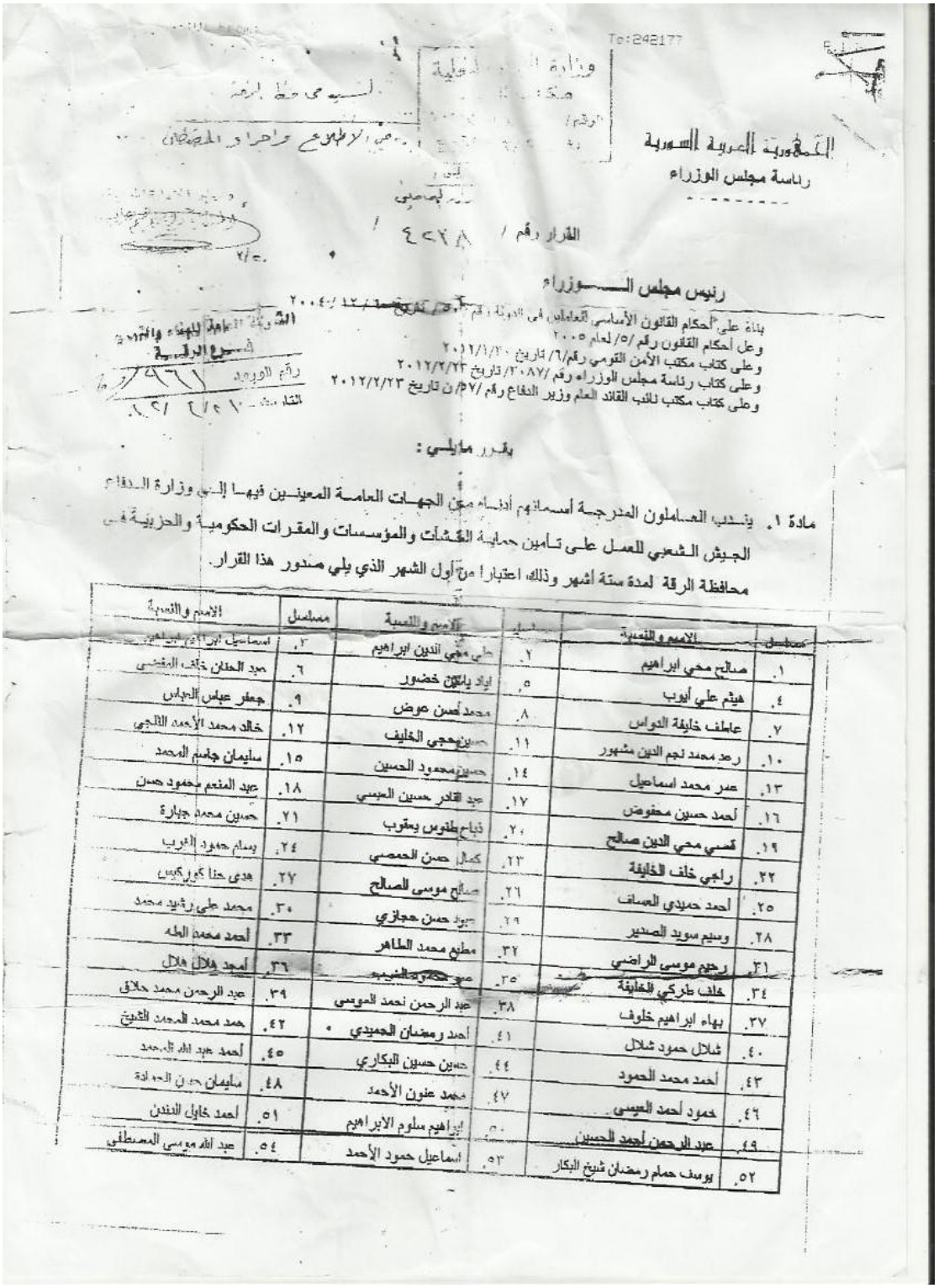

الجمهورية العربية السورية
رئاسة مجلس الوزراء

القرار رقم / ٤٧٨ /

رئيس مجلس الوزراء

بناء على أحكام القانون الأساسي للعاملين في الدولة رقم ... تاريخ ٢٠٠٤/١٢/...
وعلى أحكام القانون رقم /٥/ لعام ٢٠٠٥
وعلى كتاب مكتب الأمن القومي رقم/٦/ تاريخ ٢٠١١/١/٢٠
وعلى كتاب رئاسة مجلس الوزراء رقم /٢٠٨٧/ تاريخ ٢٠١٢/٢/٢٣
وعلى كتاب مكتب نائب القائد العام وزير الدفاع رقم /٢٧/ ن تاريخ ٢٠١٢/٢/٢٣

يقرر مايلي :

مادة ١. يندب العاملون المدرجة أسماؤهم أدناه من الجهات العامة المعينين فيها إلى وزارة الدفاع - الجيش الشعبي للعمل على تأمين حماية المنشآت والمؤسسات والمقرات الحكومية والحزبية في محافظة الرقة لمدة ستة أشهر وذلك اعتبارا من أول الشهر الذي يلي صدور هذا القرار.

مسلسل	الاسم والنسبة	مسلسل	الاسم والنسبة	مسلسل	الاسم والنسبة
١.	صالح محي ابراهيم	٢.	علي محي الدين ابراهيم	٣.	اسماعيل ابراهيم ابراهيم
٤.	هيثم علي أيوب	٥.	اياد ياسين خضور	٦.	عبد الحنان خالد المفضي
٧.	عاطف خليفة الدواس	٨.	محمد حسن عوض	٩.	جعفر عباس العباس
١٠.	رعد محمد نجم الدين مشهور	١١.	حسين محي الخليف	١٢.	خالد محمد الأحمد اللاجي
١٣.	عمر محمد اسماعيل	١٤.	حسين محمود الحسين	١٥.	سليمان جاسم المحمد
١٦.	أحمد حسين محفوض	١٧.	عبد القادر حسين العيسى	١٨.	عبد المنعم محمود حسن
١٩.	قسي محي الدين صالح	٢٠.	ذياب طنوس يعقوب	٢١.	حسين محمد جبارة
٢٢.	راجي خلف الخليفة	٢٣.	كمال حسن الحمصي	٢٤.	بسام حمود العرب
٢٥.	أحمد حميدي العساف	٢٦.	صالح موسى الصالح	٢٧.	هدى حنا كوركيس
٢٨.	وسيم سويد الصدير	٢٩.	سويد حسن حجازي	٣٠.	محمد علي رشيد محمد
٣١.	رحيم موسى الراضي	٣٢.	مطيع محمد الطاهر	٣٣.	أحمد محمد الطه
٣٤.	خلف طركي الخليفة	٣٥.	عبد الكريم الشيمه	٣٦.	أمجد هلال هلال
٣٧.	بهاء ابراهيم خلوف	٣٨.	عبد الرحمن أحمد الموسى	٣٩.	عبد الرحمن محمد حلاق
٤٠.	شلال حمود شلال	٤١.	أحمد رمضان الحميدي	٤٢.	حمد محمد المحمد الشيخ
٤٣.	أحمد محمد الحمود	٤٤.	حسين حسين البكاري	٤٥.	أحمد عبد الله المحمد
٤٦.	حمود أحمد العيسى	٤٧.	محمد عنون الأحمد	٤٨.	سليمان حسن الحمادة
٤٩.	عبد الرحمن أحمد الحسين	٥٠.	ابراهيم سلوم الابراهيم	٥١.	أحمد خليل الندين
٥٢.	يوسف حمام رمضان شيخ البكار	٥٣.	اسماعيل حمود الأحمد	٥٤.	عبد الله موسى المصطفى

رئيس مجلس الوزراء

بناء على أحكام القانون الأساسي رقم /50/ تاريخ...

وعلى أحكام القانون رقم /5/ لعام...

وعلى كتاب مكتب الأمن القومي رقم/6/، تاريخ 2012/1/20

وعلى كتاب رئاسة مجلس الوزراء رقم/ / تاريخ 32/ 2/ 2012

وعلى كتاب مكتب نائب القائد العام وزير الدفاع رقم/57/ ن تاريخ 23/ 2/ 2012

يقرر ما يلي:

مادة 1 : يندب العاملون المدرجة أسماؤهم أدناه من الجهات العامة المعينين فيها إلى وزارة الدفاع، الجيش الشعبي، للعمل على تأمين حماية المنشآت والمؤسسات والمقرات الحكومية والحزبية في محافظة الرقة لمدة ستة أشهر، وذلك اعتباراً من أول الشهر الذي يلي صدور هذا القرار:

مسلسل	الاسم والنسبة	مسلسل	الاسم والنسبة	مسلسل	الاسم والنسبة
1	صالح محيى ابراهيم	2	علي محيى الدين ابراهيم	3	اسماعيل ابراهيم ابراهيم
4	هيثم علي ايوب	5	اياد ياسين خضور	6	عبد الحنان خلف المفضي
7	عاطف خليفة الدواس	8	محمد حسن عوض	9	جعفر عباس العباس
10	رعد محمد نجم الدين مشهور	11	حسين حجي الخليف	12	خالد محمد الاحمد الثلجي
13	عمر محمد اسماعيل	14	حسين محمود الحسين	15	سليمان جاسم المحمد
16	احمد حسين محفوض	17	عبد القادر حسين العبسي	18	عبد المنعم محمود حسن
19	قصي محيى الدين صالح	20	ذباح طنوس يعقوب	21	حسين محمد جبارة
22	راجي خلف الخليفة	23	كمال حسن الحمصي	24	بسام حمود الغرب
25	احمد حميدي العساف	26	صالح موسى الصالح	27	هدى حنا كوركيس
28	وسيم سويد الصدير	29	عبود حسن حجازي	30	محمد علي رشيد محمد
31	رحيم موسى الراضي	32	مطيع محمد الطاهر	33	احمد محمد الطه
34	خلف طركي الخليفة	35	عمر حمود الغرب	36	امجد هلال هلال
37	بهاء ابراهيم خلوف	38	عبد الرحمن احمد الموسى	39	عبد الرحمن محمد حلاق
40	شلال حمود شلال	41	احمد رمضان الحميدي	42	حمد محمد المحمد الشيخ
43	احمد محمد الحمود	44	حسين حسين البكاري	45	احمد عبد الله المحمد
46	حمود احمد العيسى	47	محمد عنون الاحمد	48	سليمان حسن الحمادة
49	عبد الرحمن احمد الحسين	50	ابراهيم سلوم الابراهيم	51	احمد خليل الدندن
52	يوسف حمام رمضان شيخ البكار	53	اسماعيل حمود الاحمد	54	عبد الله موسى المصطفى

كتيبة "حذيفة بن اليمان" والبدايات :

كتيبة حذيفة هي واحدة من أوائل الكتائب العسكرية التي تشكلت في الرقة بعد ستة أشهر من بدء الثورة، وكانت في عمومها مكونة من عناصر شابة، أغلبهم من أصول تاذفية، نسبةً إلى بلدة تاذف الواقعة في ريف حلب الشمالي الشرقي، وهم من بيئات مغلقة ومتدينة تديناً تقليدياً، والمؤكد أن حزب الأمة الكويتي وجبهة الأصالة والتنمية الكويتية ـ وهي تنظيم غامض الأهداف، مؤسَس من قبل رجال أعمال ودين كويتيين ومصريين قريبين من نهج وفكر الأخوان المسلمين بطبعة سلفية وسطية ـ هم من بدأ بتشكيل هذه الكتيبة، وهم من أطلق عليها هذا الاسم وفرض على قادتها فرضاً الالتزام به وعدم تغييره مستقبلاً، ولا يفوتنا أن نذكر أن ما يدعى بتنظيم الأصالة والتنمية الكويتي ظل مثابراً على دعم هذا التشكيل العسكري حتى بعد كل مانُسِب إليه من انحرافات وجرائم، ولم يصدر موقف علني بالتبرؤ من حذيفة ووقف دعمها إلا بعد أن وقعت المعركة النهائية بين تنظيم داعش والثوار في الرقة، حيث بلغ الحرج بالأصالة والتنمية ذروته الفاصلة: إما أن تُصَنَّف قانونياً ودولياً ومصادر مالية بأنها تنظيم إرهابي، أو داعم للإرهابيين.. أو تُضطَر إلى وقف كل أشكال الدعم المقدم لكتيبة حذيفة التي انحازت أخيراً،

وبسفور مطلق، إلى جانب تنظيم داعش ضد الثورة وأهلها، وضد سكان المدينة البسيطة التي احتضنت أبناء وآباء وأجداد عناصر حذيفة، وعطفت عليهم وربَّتهم، وكان لهم منها ومن أهليها كل المعاملة الطيبة، فكوفئت منهم بخيانة ثورتها وإطلاق النار على ثوارها.

اعتمدت كتيبة حذيفة بن اليمان على مجموعة دينية سلفية خليجية تتحرك بين دول الخليج ومصر، وقد أطلِعْنا مبكراً على الشخص الذي كان مصدر الصلة الأول بينها وبين الأصالة والتنمية. كان شاباً يدعى "ع ش"، من خيار الثوار،(ولقد وقع في قبضة النظام واعتقل في الفترة المبكرة بعد ذلك، وسوف أتحدث عن اعتقاله لاحقاً). كما أن النظام قرر باكراً أن يزجَّ بكامل طاقاته البشرية من الشبيحة والمؤيدين فيما سمي لاحقاً بالدفاع الوطني، وأن يضع كل متعاون ومؤيد له تحت السلاح، وهذا سوف يفتح الباب واسعاً حتى لكثير من الباحثين عن مكاسب مادية أو عشائرية أو نفوذ اجتماعي للانحياز لتشكيله الجديد، لأنه سيكون خياراً سهلاً وكسباً مريحاً ومربحاً للنظام: يقمع الثورة ويجهضُها، ويثير الفتن والعداوات بين الناس، ولا يكلف النظام أن يدفع بكامل قواته النظامية في المعركة إلا في حالات الاضطرار، أي أن يذبح الناس بعضُهم بعضاً ويبقى هو المتفرج بسرور على"المشهد الدموي الممتع".

كان قائد الكتيبة في أول تأسيسها شاب متحمس ومقدام يدعى مصطفى الشيحان(أبو حمزة)(3)، ولقد استشهد الشيحان ـ رحمه الله ـ في وقت مبكر، وفيما كان تأسيس الكتيبة في مراحله الأولى وفي ذروة نشاطاتها ونجاحها، وذلك أثناء محاصرة الجيش الحر للفرقة 17، حيث جرت معركة شهيرة مع قوات النظام عند مؤسسة الأقطان المقابلة للفرقة، وقد استمر الاشتباك عند الأقطان عدة أيام، وشارك فيه عدد غير قليل من كتائب الجيش الحر، فكان من نتائجها مقتل الكثير من عناصر النظام واستشهاد العديد من الثوار المهاجمين، من أبرزهم مصطفى الشيحان قائد كتيبة حذيفة، تم بعدها اختيار أحد أبناء عمومته من أقربائه(اسمه محمد الضاهر)، ويلقب أبو مصعب حذيفة، وهو شاب حديث عهد بالعمل الثوري، وذو خبرة عسكرية وسياسية متواضعة.. وقد سبق وصول هذا الشاب إلى قيادة كتيبة بات لها من قوة وتسليح وعدد غير قليل من المقاتلين، فترة البروز الأول ـ غير المعلن ـ لتنظيم داعش، وصعود التنظيم السريع في الرقة، وكان المدعو موسى العصيدي المعروف بلقب أبو حمزة الشامي هو من يُعدَّ الرجل الثاني في قيادة حذيفة، بعد أبو مصعب، والأول في قياداتها الميدانية.

لابد من التنويه وإنصاف إحدى كتائب حذيفة بن اليمان المهمة، والتي لعبت دوراً متميزاً في قتال النظام منذ التأسيس، وهي كتيبة "رجال الحق" التي تزعمها خالد علواش، المعروف بلقب"أبو المثنى"، والتي وقفت على الحياد خلال كل تاريخ كتيبة حذيفة الحافل بالتحالفات الأصولية المشبوهة، كما اعتزلت كتيبة"رجال الحق" القتال بين الثوار وداعش في كانون الثاني 2014، وآثرت المرابطة عند الفرقة 17، وقتال النظام حتى نهاية المعركة التي انتهت باستيلاء داعش على المدينة، وعلى كامل المحافظة، واضطرار لواء ثوار الرقة إلى الإنسحاب منها،(في تفاصيل سأذكرها فيما بعد)، في حين كان مقاتلو حذيفة في طليعة المقاتلين مع داعش أثناء المعركة، والتي قُتِلَ فيها أبو حمزة الشامي عدداً من الثوار(وكان قناصاً ورامي رشاش دوشكا تنقل في عدد من المواقع أثناء المعركة)، في الوقت الذي أصر فيه أبو المثنى، خالد علواش، على موقفه الرافض لقتال الثوار، والرافض أيضاً لبيعة داعش، مما دفع داعش إلى تجريده وكتيبته من السلاح بعد معركة الرقة، وقد تكرر اعتقاله والتحقيق معه من قبل داعش أكثر من مرتين، وأخضِع لمراقبة أمنية شديدة، حتى تمكن أخيراً من التسلل إلى خارج المحافظة والفرار إلى تركيا.

الشخصية السيكوباتية حين تفتكُ بالثورة والمجتمع

السيكوباتي هو أخطر المعتلين نفسياً. والخطر يكمن في صعوبة التعرف عليه وتمييزه بين الأفراد الآخرين، حيث أن المعتلَّ نفسياً(السيكوباتي) يجيد تمثيل دور الإنسان العاقل والطبيعي والشديد الاستقامة، مع إدراكه في العمق أنه ليس كذلك، وأن شيئاً ما خطيراً، غير مشعور به يخدعه دائماً، ويؤكد له أنه على مايرام، وأنه محض شخص طبيعي كالآخرين. هو يتعيش على هذا التخبط بين المعاني وأضدادها؛ مع أن له القدرة على التأثير على الآخرين والتلاعب بأفكارهم, وهو يتلذذ بإلحاق الأذى بمن حوله.. هو عذب الكلام، يعطي وعوداً كثيرةً براقة، ولا يفي بأي شيء منها عند استحقاق وعده.. وربما يُبهِر الآخرين بلطفه وقدرته على استيعاب والتلطف بمن حوله، وبمرونته في التعامل، وبشهامته الظاهرية المؤقتة ووعوده، ولكن حين تتعامل معه لفترة كافية أو تسأل أحد المقربين منه عن تفاصيل تاريخه في العمق، تجد حياته شديدة الاضطراب، ومليئة بتجارب الفشل والتخبط والأفعال المشينة..والسيكوباتي مستغل للآخرين، وهو كذاب يعدُّ كذبه نوعاً من السجايا الحميدة. ولا يفي بوعوده. وغالباً ما يصل سلوكه إلى ارتكاب الجرائم.

والسيكوباتي في الأغلب خرج من دركات المجتمع المنحطة وقيعانه السفلى، وهو يُرَكِّز في كل مسالكه ومراحل حياته على جمع المال والشهرة الشخصية، مع توقع كل احتمالات الجرائم والتدمير الذي قد يكلفه باهضاً في سبيل تصنيع تاريخ شخصي مزوَّر، وكثيراً ما يتعهد ويعد ويخلف. والسيكوباتي شخصية لا يهمها إلا نفسُها وملذاتُها فقط. بعضهم ينتهي إلى السجون، وبعضهم يصل أحياناً إلى أدوار قيادية في المجتمع نظراً لأنانيتهم المفرطة وطموحهم المحطِم لكل القيم والعقبات والتقاليد والصداقات في سبيل الوصول إلى ما يريد. هذه الشخصية المريضة تضعف لديها وظيفة الضمير كثيراً، وهذا يعني أنه لا يحمل كثيراً في داخل مكنونات نفسه من الدين والأخلاق أو فضائل العرف المجتمعي إلا بالقدر الذي يستفيد منه. بالتالي فإننا نتوقع أن مؤشر خواتيمه ومساعيه سوف يرجح دائماً لميل مستمر نحو غرائزه المنفلتة، ونحو تحقيق ما تصبو إليه النفس دون شعور بالذنب أو التأنيب الذي يشعر به أي إنسان طبيعي إذا وقع في مساحة الخطأ.

موسى العصيدي،(4) أو أبو حمزة الشامي كما سمى نفسه منذ أوائل الثورة، لعله الشخصية الأكثر نمذجة في الطابع الإجرامي العام بين عناصر حذيفة الذين اختارتهم داعش عن دراسة مستفيضة وفهم عميق لباطن شخصيته، والذين تم الاعتماد عليهم لنهمة الفتك والإجرام التي تتملكهم، للبطش بالرقة وأهلها وثوارها وناشطيها المدنيين، كما يتهم هذا الرجل بمعظم جرائم الاغتيالات والتصفيات وعمليات الخطف التي وقعت للناشطين أو لثوار الجيش الحر.

بدأ ظهوره على ساحة العمل العسكري وذاع صيته بوصفه أحد القادة العسكريين لكتيبة حذيفة بن اليمان، وتألق اسمه في الفترة التي سبقت دخول الجيش الحر إلى الرقة، وفي فترة صعود جبهة النصرة كان هناك اتفاق سري يقضي بدعمه سراً من قبل الجبهة،(وبوصف أدق، بين القوى التي كانت تتحضر للإعلان عن بروز تنظيم داعش من بين القيادات والفاعلين داخل جبهة النصرة، وتستعد لهذا الإعلان)، على أن يبايع جبهة النصرة سراً، أو بيعة نصرة وليس بيعة إمارة كما يصفونها ويشرحونها، مع بقائه في صفوف كتيبة حذيفة، والتي كانت مقربة جداً من جبهة النصرة وكل الفصائل الإسلامية الأصولية ـ كأحرار الشام ـ ثم ازداد تقاربها فيما بعد مع داعش فور ظهورها، الأمر الذي انتهى بهذا التقارب التدريجي فيما بعد، بانضمام كتيبة حذيفة إلى تنظيم داعش انضماماً كاملاً واندماجاً كلياً في داعش، ومبايعة كل أمراء وقيادة حذيفة لداعش.

أبو حمزة الشامي، الشخص الضخم الجثة، شبه الأمي، وذو السوابق الجرمية المشينة قبل الثورة، والحافلة بالدخولات المتكررة على السجن بتهم مختلفة. استقل شيئاً فشيئاً بمجموعته الخاصة عن كتيبة حذيفة، وأصبح يعمل تحت إمرة داعش كالقاتل المأجور، يمارس الاغتيالات والخطف، ويندر أن تكون هناك عملية تصفية أو خطف إلا وكان هذا الشخص هو من يقف وراءها، يساعده في كل هذه المهام القذرة التي ينفذها معاون من نفس المستوى الأخلاقي المنحط يدعى (عصفور)، واسمه الحقيقي عبد العزيز جبارة، وهو أيضاً ذو تاريخ وسوابق مشابهة لتاريخ أبو حمزة الشامي.

يتهم أبو حمزة الشامي بأنه هو وعصفور من قاما بخطف الصحفيين الفرنسيين: نيكولاس إينان، وبيار توريس، في يونيو(حزيران) من عام 2013، كما يتهم بلائحة طويلة من عمليات الخطف والاغتيالات: مهند حبايبنا، ابراهيم الغازي، ورئيس المجلس المحلي لمحافظة الرقة الأستاذ عبدالله الخليل. وثمة ثلاثة من أخوته هم أبرز مساعديه في جرائمه: الأول يدعى أبو الزهرة، والثاني (عمار)، ويدعى أبو حذيفة. والثالث(عبدالله)، و يدعى أبو موسى، إضافة إلى عديله وقريبه المدعو عمار حمو، ويلقب بـ" أبو حذيفة"، والأخوة عصيدي أصبحوا بعد فترة من دخول الجيش الحر لمدينة الرقة وتحريرها من الأثرياء الكبار، خاصة بعد أن تمكنوا من سرقة خزنة من المال من الأمن الجنائي بعد تحرير الرقة تم نقلها إلى منزلهم، كما وضعوا أيديهم على كميات هائلة من السلاح حازوها من المبنى السابق.

قام أبو حمزة بتهريب كثير من ضباط النظام، أشهرهم ضابط الأمن الجنائي والمسؤول الأول فيه، في الرقة، المدعو(مصعب أبو ركبة)، مقابل مبلغ من المال، أصيب أبو حمزة في بدايات عام 2014 بإصابة بليغة في تفجير استهدف معمل ومستودع عبوات ناسفة خلف منزله الثاني، وهناك تسريبات غيرمؤكدة أن إحدى يديه قد أصيبت بعاهة دائمة، حيث عملت داعش على إدخاله سراً إلى الأراضي التركية ومعالجته في أحد المشافي هناك بأوراق ثبوتية مزورة واسم مستعار.

ظل أبو حمزة الشامي يتنقل داخل الأراضي التركية، في عدة مدن: أورفا، أضنة، مرسين، استنبول.. وكان يتنقل وبحوزته مبلغ مليون دولار،(كما صرح هو بنفسه لبعض جلاسه)، وزعم بأنه استولى على المبلغ من التنظيم قبل فراره من الرقة، وكان يتحرك على الأرض التركية بحرية يغبط عليها حقاً، رغم كل ملفاته الإجرامية التي تؤهله لأن يصنف كقاتل دولي من الدرجة الأولى، حيث كان يصرح في مجالسه الخاصة والعامة بأنه ينوي الاستقرار في تركيا، وأن يبدأ عملاً تجارياً بهذا الرأسمال الضخم الذي جمعه من السرقات و"غنم بعضه من غنائم الأخوة"، في عدد من المهام التي أوكلها التنظيم له، فسطا على المبالغ وفرَّ إلى تركيا. وعموماً فإن ظهور الدواعش والتجاءهم إلى تركيا بعد انتهاء مهمتهم داخل التنظيم، تسجل لهم كظاهرة عامة مشهودة، فهم ـ حتى كتابة هذه السطور ـ ينتشرون على مساحة المدن التركية بعشرات الآلاف.

اختفى أبو حمزة الشامي بعد أن كثر اللغط حوله، وبعد أن بدت حريته وعدم مساءلته من قبل الأمن التركي والأجهزة الحكومية التركية، قضية مفروغ منها وإن تكن حالة صادمة لكل الرقاويين الذين اشتهر وذاع صيته وصيت جرائمه بينهم.. ولقد تردد حديث أشبه بالإشاعة أنه وضع نفسه تحت تصرف جبهة النصرة، وبايع الجبهة مجدداً في ريف حلب الشمالي، على أن يتوب ويخضع لمحكمة شرعية قبل إعادة تأهيله وزجه في صفوف النصرة من جديد.. وغالباً ما يُتوقع أن تكون هذه الشائعة مصدرُها أبو حمزة نفسه، أو الجهات التي خططت لحمايته وتغيير مكان إقامته وتذويب شخصيته داخل تركيا.

كتيبتا "شهداء الرقة" و"الناصر صلاح الدين":

الشهور الأربعة التي أعقبت المجزرة التي تلت مظاهرة الشهيد علي البابنسي، منذ منتصف ربيع عام 2012 وحتى منتصف الصيف من ذلك العام، كانت قد استفرغت كل إمكانية للعزوف عن التفكير في التأسيس القتالي، المقاوم والمسلح، والانفلات من عبئه. وكل مشاورات التحضر والاستعداد لأخذ قرار بالمبدأ والفكرة كانت تحدث بسرية وتردد. الخيار بحد ذاته متعدد الصعوبات ومختلف

المخاطر، ويحتاج كفاءات خاصة وإمكانات وخبرات عالية لم نكن نمتلكها، لا كلاً ولا جزءاً. فضلاً عن أن الانحياز إلى التسلح لن يتيح وجودياً على المستوى الفردي، للعقل والنفس معاً، إلا مواجهة مؤكدة مع الموت غير قابلة للتأويلات والاحتمالات، والحق الذي لا مفر من مواجهته أن أجواء التردد والتريث كانت أكثر طغياناً من خيار الحسم. حتى تلك القابلية الثورية التي انبذرت بذرتها في النفوس خلال عام مضى، لم تكن قد نضجت لتقبل فكرة مواجهة قاتلة وغير متكافئة مع النظام.

اليوم أجلس وحيداً مع نفسي، أتأمل واسترجع الذكرى، لقد كنا نواة من أحد عشر فرداً تجمعت بعد اصطفاء طويل مضى عليه أكثر من خمسة شهور، ولو فاض بي الخيال اليوم، وتأملت أصدقاء وأخوة شاركوني التجربة ذاتها، وطلبت منهم أن يستعيدوا روايتها تاريخياً استعادة محايدة متجردة، فلربما خرجنا بتدوينة تروي أحد عشر رؤيا تاريخية للتجربة، لا تاريخاً واحداً لحادثة واحدة.. وهل كان التاريخ يوماً غير مجرد رؤى مشاهَدة من زوايا خاصة، وبشهادات ذات أمزجة مختلفة، وميل خاص لرؤية العالم أو الحدس به من زاوية عقلية ونفسية موحدة؟ إن تاريخ الإنسان في هذه الحياة ماهو إلا"وجهة نظره هو" من هذا العالم.. لاغير..

كانت اللقاءات حتى ذلك التاريخ فردية وسرية، وكنت أنا وصديقي"م" من نتولى عملية المشاورات والربط والاتصالات، للخروج بتشكيل أول كتيبة مقاتلة للجيش الحر في مدينة الرقة، (بعد تشكيل كتيبة حذيفة بن اليمان طبعاً، والملابسات والغموض الذي رافق ظهورها المتكتم والمغلق)، فكان أول اجتماع مباشر جمع اثني عشر فرداً(انسحب عضو واحد من الكتيبة في اليوم التالي، واقتصر العدد الحقيقي في التأسيس الأول على أحد عشر عضواً)، وجهاً لوجه، وأمام بعضنا البعض بصورة مباشرة، بعد ترتيبات متعددة، في الحويجة القريبة من شاطئ الفرات المجاور للجسر القديم.. هنالك؛ بين أشجار الزل المتطاولة والمتشابكة، والتي تنهض عالية كأنها جدرانٌ من الخضرة النجيلية التي وهبتها الطبيعة لشواطئ الفرات أينما انسربت، وهي تحمل رائحة النهر، والنهر يحمل رائحتها حيثما سار.

قطعنا النهر خوضاً بثيابنا من ممرات مخصوصة قليلة العمق، تسمح بالعبور إلى تلك اليابسة الخضراء التي نسميها في الرقة باسم الحويجة، ثمة افترشنا الرمل الناعم، ولبثنا قريباً من الساعتين نتبادل التعارف والتحاور حول الثورة والأوضاع العامة وتطوراتها في المحافظة، وحول تقسيم العمل الداخلي الذي سيحكم واقع الكتيبة، وفي اجتماع الحويجة الأول تمَّ إطلاق الاسم الذي اقترحته على الكتيبة:(الناصر صلاح الدين)، والذي وافق الأعضاء عليه بالإجماع، وتم إقراره منذ تلك اللحظة.

خرجنا من ذلك التشاور الأول بتقسيم بعض المهام الأولية المبدئية، حيث أوكل إلي أن أعمل على ملء الفراغ وتحمل أعباء العمل السياسي في كل ما يختص بشأن الكتيبة، وتأمين موارد وحاجات الكتيبة اللوجستية بكل ماتحتاجه مؤقتاً، كما أوكلت مهمة الناطق الرسمي والمتابعة الاعلامية ونشر البيانات والفيديوات وأخبار الكتيبة على صفحات التواصل لصديقي"م"، على أن يسمى الأخ أحمد العايد، أبو محمد النشمي، قائداً عسكرياً للكتيبة، (وقد تمَّ خطفُه من قبل تنظيم داعش وإعدامه قبل المعركة الأخيرة مع التنظيم، رحمه الله..أعدمه أبو لقمان بنفسه حسب تصريح نسب له)، كما تمَّ انتخاب الأخ محمد إقبال، أبو يزن، قائداً ميدانياً، والموجه الرئيس في كل المواجهات القتالية الميدانية التي يمكن أن تقتضيها الضرورة مستقبلاً. وبقية الاعضاء يتم توزيع المهام القتالية عليهم حسب الظروف والاحتياجات والموقف المطلوب..

المبادىء الأولية العامة التي تم الاتفاق عليها هي أن تكون توسعة قاعدة الكتيبة وانتساب أعضاء جدد يجب أن يخضع لموافقتنا نحن الأربعة؛ أنا و"م" وأبو محمد النشمي وأبو يزن، ويحق لأحدنا أن يوكل غيره في التصويت والمداولات إذا لم تُتِحْ له ظروفه أن يتواصل مع الجميع. كما تم الاتفاق على نقل جميع أعضاء الكتيبة إلى منطقة تل أبيض للتدرب على المهام القتالية الأولى، والمشاركة مع بقية كتائب الجيش الحر في فتح جبهة مناوشات لاستنزاف قوى النظام. لقد كان التفكير في السابق، قبل تاريخ تحرير تل أبيض أن يتم نقل الكتيبة إلى ريف حلب الشمالي للتدرب والتزود بالسلاح. أما إعفاء قائد الكتيبة أبو محمد النشمي من مهمته وتعيين آخر سواه، فيجب أن يتم بالتصويت والحصول على أغلبية أعضاء الكتيبة، مالم يتخذ هو قراراً شخصياً بالاستقالة من مهمته التي كُلِّفَ بها..

لستُ أنكر أن بعض المشاكل الشكلية كانت تقع من وقت لآخر، خاصة أن طبيعة الانسجام بين شخصية النشمي وأبو يزن قد أخذت بعض الوقت لإحداث ما يمكن ان أدعوه تسوية وحسن إنسجام. وخلال المرحلة التي تلت ذلك، اعتمدتُ على وجود أبو عيسى وكتيبته الناشئة حديثاً ايضاً، في تذليل كل العقبات وتسوية كل المصالحات التي قد نضطر إليها، وسوء الخلاف الذي كان ينشب بين الجميع،

حتى مع أبو عيسى نفسه. وكان من حسن الطالع أن الكتيبتين قد استقرتا على مبدأ التشاركية في السلاح والذخيرة والطعام والشراب ووقود الآليات، وكل مايصادف من عقبات أو مشاكل لوجستية ويومية طارئة.

وحتى ذلك التاريخ، كان التنسيق مع المجموعة القتالية الأخرى متواصلاً، مجموعة أعضاء الرميلة المرتبطين بصورة مباشرة مع أبو عيسى، وكان التواصل حصرياً بين الكتيبتين حتى ذلك الوقت، محصوراً بي وبصديقي"م"، وبعد طرح مشروع فكرة جمع الكتيبتين في كتيبة واحدة تكون نواة الجيش الحر في المدينة، لم يكن لغالبية أعضاء الكتيبة رأياً قاطعاً في هذه الخطة الإندماجية، لأن جميع أعضاء الناصر صلاح الدين ـ باستثنائنا أنا و"م" ـ لم يكونوا قد التقوا أبو عيسى شخصياً أو أحداً من مجموعته حتى ذلك التاريخ ولا فكرة نهائية لديهم أو انطباعاً عن أولئك، وتم إرجاء القرار في هذا الموضوع وترحيله إلى ظروف لاحقة.

ناقشنا قضية تصوير فيديو يوثق كل الأعضاء،(وهم ملثمون بالطبع)، ويعلن عن تشكيل الكتيبة رسمياً، ويتضمن كلمة مختصرة في ذلك الإعلان عن الأسباب والدوافع، وأهداف تشكيل الكتيبة، وتعهدتُ بتأمين الأقنعة التي سترافق التصوير وأعلام الثورة، وكذلك إهداء الباردة الروسية ومخازن الذخيرة الخمسة التي خبأناها أنا و"م" حتى ذلك التاريخ، بعد حادثة انشقاق المجند خالد البلخي التي مر ذكرُها في فصل سابق، على أن نشترك جميعاً في دفع ثمن شراء باردة ثانية للكتيبة قبل موعد التصوير، وتُرك خيار دفع المال والمشاركة في ابتياع الباردة الثانية حراً دون تكليف أو إحراج لأحد، كما تم الاتفاقُ على البتّ في قرار اختيار المكان الذي سوف يتم اختياره لتصوير الكتيبة، والإعلان عنها خلال أيام قليلة قادمة. ولقد تحقق بالفعل تأمين شراء الباردة الثانية من السوق السوداء خلال أيام قليلة، وأصبحت إكسسوارات التصوير الضرورية قيد الاستخدام في أي وقت نشاء.. وخلال العشرة الأيام التي تلت اجتماعنا في الحويجة، توافقنا على أن يتم تصوير الفيديو في منزل علي العايد(أبو محمد النشمي)، وكتبتُ كلمة موجزة تم تدريب أبو محمد النشمي على تلاوتها أثناء التصوير، ختمتها بأبيات الشاعر المصري"محمود حسن اسماعيل":

نُفِخَ الصُورُ فانتبهْ منْ سُبَاتِكْ * أيها الشعبُ تلك أولى حياتِكْ

وتحركْ فإنَّ ركباً من الغِيـ * ـلانِ قد سارَ في حُشا طُرقاتِكْ

وفي ليلة الثامن من آب، عام 2012، تم تصوير فيديو الإعلان عن تأسيس كتيبة الناصر صلاح الدين(5).

بعد أقل من أسبوع مضى على تأسيس الناصر صلاح الدين، تم التشاور في أول بنك الأهداف التي تم اقتراحها.. كنت يومذاك مسافراً خارج المدينة، وقبيل المساء قام عضوان في الناصر صلاح الدين بمتابعة المدعو"غازي عبوش"، وهو قائد رئيسي وقيادي بارز في تأسيس ميليشيات الدفاع الشعبي، وأبرز التنفيذيين في مشروع تسليح الشبيحة في المحافظة، الذي تولاه المدعو فواز سرور، ولاحقاً أحمد منصور، وكان يعمل على تسليح كتائب الدفاع الشعبي تحت ذريعة منظمة مدنية مشبوهة تسمى "بصمة شباب سوريا"، وقبل حلول المساء، تمكن الثوار من اللحاق به وهو يمضي بجانب الملعب البلدي غربي دوار النعيم، وأطلقوا عليه النار، ولقد أسعف فوراً إلى المشفى ونجا من الموت بعدها.. فكانت تلك العملية أول عمل عنفي يجابه عنف النظام قامت به كتائب الجيش الحر في مدينة الرقة بداية الثورة..

أما الكتيبة الأخرى، شهداء الرقة، فكانت قد سبقت الناصر صلاح الدين في الإعلان عن التأسيس بحوالي العشرين يوماً، وذلك في 18 تموز من عام 2012(6) ، وقبل ذلك جرت لقاءات واجتماعات امتدت قريباً من أربعة شهور، فكان من رأي أبو عيسى أن الطبيعة الاجتماعية لغالب الشباب، أعضاء شهداء الرقة، وبحكم المزاج التكويني والمتن الإجتماعي الذي يتكئون عليه ويتعارفون تحت سقفه ـ وقد كان معظمهم إن لم أقل جميعهم من حي الرميلة ـ قد يصعب عليهم الانسجام وتبادل التوافق والتخالف كثيراً مع أبناء المدينة، مما قد يولد نفوراً وتبايناً فيما بينهم بسبب اختلاف المعشر. واقترح أبو عيسى، بدلاً من فكرة الإندماج الكامل أن يتم تعاون ثوري وقتالي على جميع المستويات، بما فيها السلاح الذي سيكون شركة ولمصلحة العمل المشترك. وكذلك الحوائج المعاشية الضرورية، كالمأكل والملبس والمصروف اليومي الاعتيادي.. وذلك ما كان واستمر قريباً من العام الذي تلا ذلك..

لقد سرَّعت المجزرة التي ارتكبها النظام بالمتظاهرين المدنيين عقب مظاهرة البابنسي بتشكيل الكتيبتين في وقت واحد، مامن شك في ذلك. ولولا تلك المجزرة فلربما تأخر الاستعداد والحماس للعمل العسكري أشهراً أخرى بعد ذلك التاريخ.

هوامش:

(1) ـ بعض صور وأسماء شخصيات ثورية رقاوية تم خطفهم أو اغتيالهم في الرقة:

حامي الأستاذ عبد الله الخليل(رئيس المجلس المحلي بالرقة	الثائر المختطف فراس الحاج صالح	الثائر المختطف ابراهيم الغازي

(عجيل الكديم ـ أبو الزين)، قائد كتيبة عائشة في الجيش	الثائر الشهيد مهند حاج عبيد "مهند حبايبنا"	(2)ـ أبو شادي عبد العزيز

(2) ـ مصطفى الشيحان " أبو حمزة" ، استشهد في عام 2013

(4) ـ موسى العصيدي (أبو حمزة الشامي) وعبد العزيز جبارة(عصفور)

(5) ـ رابط فيديو تشكيل كتيبة الناصر صلاح الدين على يوتيوب:

https://www.youtube.com/watch?v=LerbgDy0ngs

أعضاء الكتيبة المؤسسون كما ظهروا في الفيديو:

{ 1 ـ أحمد العايد، (أبو محمد النشمي): وهو الذي يتلو في الفيديو بيان التأسيس.. من اليمين: 2 ـ شاب اسمه محمد، وينادى حمادي، وهو قريب محمد إقبال" أبو يزن"... 3 ـ "وليد". 4 ـ "ع" العضو الذي انسحب في اليوم التالي بعد التأسيس(وقد انضم إلى كتيبة أخرى بعد حوالي أكثر من سنة، وقام تنظيم داعش بخطفه وتصفيته بعد شهور)... 5 ـ "وليد"... 6 ـ "م" صديقي في تنسيقية ثوار الرقة 7 ـ أبو علي "أيوب عطار" (وقد ظل يقاتل في صفوف الناصر صلاح الدين حتى تمت تصفية النشمي من قبل داعش، ومحاولة اغتيال أبو يزن، حيث انفرط عقد الناصر صلاح الدين قبل المعركة الأخيرة واضطروا إلى تسليم أسلحتهم لداعش، فالتجأ إلى أمني داعش المدعو أبو حمزة رياضيات لحمايته من التصفية، فوعده بالعفو عنه إذا قبل بيعة التنظيم والقتال في صفوفه. وقد بايع تنظيم داعش بالفعل وقاتل إلى جانبه في معركته الأخيرة، وقتل بعض الثوار بقناصته. وقد أصيب بجراح بليغة من قذيفة هاون وهو على ظهر بناية مؤسسة الكهرباء ثامن أيام المعركة ضد تنظيم داعش، فأسعفه التنظيم إلى تركيا، وبعدها انقطعت أخباره. ويقال بأنه طلب اللجوء السياسي في ألمانيا)8 ـ خالد أبو عمارالسمين ـ كما كان يلقب ـ (في الخلف).. 9 ـ محمد إقبال أبو يزن... 10 ـ "محمد" 11 ـ "م"، وهو قريب صديقي "م" عضو التنسيقية، 12 ـ مصور الفيديو، وهو كاتب السطور.

وترى البندقيتان الوحيدتان اللتان كانت تمتلكهما الكتيبة على الطاولة أمام أبو محمد النشمي، الأولى هي التي حُزناها بعد حادثة انشقاق المجند خالد البلخي، والثانية هي التي تم شراؤها شراكة من عدد من أعضاء الكتيبة}.

(6) ـ رابط الاعلان عن تشكيل كتيبة شهداء الرقة:

https://www.youtube.com/watch?v=seWxvepBwHw

ـ الجزء الثالث ـ

" أبو عبد الله المنبجي" وكتيبة " أحرار منبج":

كلُّ شيء كان يجري مجراه الطبيعي في الرقة، السلطة والثورة والناس من كل الشرائح والفئات والطبقات.. كلُّ شيءٍ كان يشرح نفسه بنفسه؛ ماعليك إلا أن تكون قارئاً ماهراً، أو على الأقل، أن تكون قد جاوزت مرحلة الأمية حتى تستطيع قراءة كل ماكان يتحرك على الأرض.. تجدُ نفسك أحياناً وقد حوصرت بأشخاص لا تغمرُهم إلا الانفعالات والأحاسيس الشخصية المترفعة والحدِّية الطبع، ويُفترض بهؤلاء الأشخاص الذين يكونون مادة الثورة واحتياطيها البشري وكأنهم لافكرة لهم عن المستقبل، إلا ما توحيه تلك الشعارات التي أطلقتها الثورة في عمرها المبكر.. وحين تنتهي المسائل غالباً عند"اللاشيء" تجابهك عزيمة تستنزف نفسها يومياً لأن تبدأ مرة أخرى من الصفر لإنتاج ذلك الشيء الذي لا يُدرى ماهو على وجه التحديد..

أحد معارفي المقربين كان اسمه"حسين"، وكان من سكان حي الرميلة. ربطتني بهذا الشاب عدة أواصر ممهدة لهذه الصداقة الوطيدة؛ أهمها تجارة العقارات في الحي الذي كان يسكنه، فقد كان يعمل دَّلال عقارات وتاجر في الوقت نفسه. فضلاً عن ذلك ارتبطنا بصلة صداقة حميمة بسبب نشاطه الدؤوب والمتواصل مع متظاهري حي الرميلة وحماسه المنقطع النظير للثورة. ولقد أسدى لي هذا الرجل كثيراً من الخدمات الجليلة مما كنت أحتاجه في متابعة الحراك، خاصة في منطقة حي الرميلة ومحيطه كله، ما زلت أحفظها له جميلاً، وأعترف بها شاكراً.

ذات يوم أقبلَ عليَّ متوتراً منقبض الصدر، وأنبأني بأنه على معرفة قديمة وصلة صداقة ابتدأت من أعمال تجارية بسيطة، ثم انتهت إلى علاقة وصداقة مع رجل من أهل منبج. هذا الرجل، صديق حسين، يدعى أبو عبد الله،(عرَّفَهُ لي بأنه قائد كتيبة أحرار منبج)، كان من أول المؤسسين والمشاركين في الأعمال العسكرية في منبج ومحيطها، وهو اليوم يتزعم كتيبة قتالية ذات عددٍ وافر من المقاتلين في ريف حلب، ولقد سلَّح كتيبته وذَخَّرها بأكثر مما كانت تحلم به كتائب الجيش الحر في الرقة. كما أن له أخوين، أحدهما قائد الكتيبة الشهير، الذي عُرِف بلقب"البرنس" بعد تحرير تل أبيض، وأخ آخر غير شقيق أيضاً؛ والأخوة الثلاثة كانوا قادة كتائب عسكرية في الجيش الحر.. أما أبو عبد الله، صديق صديقي حسين، والذي عاش فترة قصيرة في الرقة ولم ينقطع عن تبادل الزيارات والاختلاف إليها في كل مناسبة، فقد أقنع أخويه بأن يستقرا في تل أبيض، أو في أي مكان آخر يرغبان به، لكنه بالتهديد والترغيب وكثير من المفاوضات والتلميحات أفهمهما بأن الرقة "له وحده"، وأنه "سيحررها بنفسه"، هو وكتيبته التي جاوزت الثلاثمائة مقاتل، ولديه إمكانيات واستطاعة ـ حين يُتخذُ القرار والإعلان عن تحرير الرقة وإسقاط النظام في المدينة ـ أن يجمع ويستدعي أكثر من مائتي مقاتل آخر، إحتياطاً زيادة على أعداد مقاتليه الملازمين معه دوماً.

أضاف حسين: إن الرجل لم يعد يتشهى شيئاً في هذه الحياة الدنيا إلا اقتحام الرقة واحتلالها،(أو تحريرها إذا شئت).. لأن الرقة برأيه، مليئة بالإمكانات والثروات والغنائم، وأنه لن يخرج منها بأقل من"بضعة مليارات من الغنائم".. وكان حسين يردد دائماً على مسمعي: لقد اتخذ قراراً وعَزَمَ عزماً لارجعة عنه، على أن يحرر الرقة ويستولي عليها، ويسلبها ما استطاع من الغنائم.. فهو"جحش حقيقي"، وحين يعزم على شيء فإنه ينفذه.. إنه أغبى قائد عسكري في الجيش الحر، مع أن عناصر كتيبته مغرمون به، وهم ينظرون إليه نظرتهم إلى داهية خطير التفكير..

وللأمانة فإنني لم أعبأ كثيراً بكلام حسين، ولم آخذ برمَه وضيقَه من ذلك الشخص المنبجي مأخذ الجد. بل وَقَرَ في نفسي أن شيئاً من الزخرفة والمبالغات قد خالطت روايته. مع ذلك، وحين فاتحت أحد أصدقائي في التنسيقية بما سرده حسين على مسامعي قال لي: أطلب من حسين أن يدعوه إلى وليمة غداء في بيته، وأن يدعونا نحن الاثنين إليها. وبلِّغْه بأننا في شوق للقائه والاجتماع به، والاصغاء لأفكاره وما ينوي عمله.. وحين فاتحت حسين بهذه الرغبة، أبدى ترحيباً ولم يتردد في القول: تماماً.. الرجل سيزورني في البيت غداً، أو بعد غد.. ولسوف أدعوه إلى وليمة، وأخبره بدعوتكما معاً؛ أنت وصديقك..

كانت دعوة ووليمة فاخرة. وكان الرجل، أبو عبد الله، قد وصل إلى منزل حسين قبلنا، وحين دلفنا المنزل وبادرنا بالتحية الضيف وصاحب المنزل، ألفيتُ أمامي رجلاً طويلاً عريضاً سميناً، ضخمَ الأعضاء عبلَ المفاصل والأطراف. ويحمل بين كتفيه رأساً يعدل بحجمه ضعفي حجم الرأس البشري الطبيعي.. وحين جلسنا وسلّمنا، جبهني صوتُه الرقيق المهذب المتطامن، وهدوءَه وقلة حديثه الذي ينحو إلى الخجل والحرج.. وأثناء الطعام جعل الحديث يتقلب ويقلبنا شتى، في كل الاتجاهات.. بادرناه بالأسئلة مثل محققين يستجوبونه، فكان يجيب برصانة وأدب جم، ودون تردد أو ارتباك. حَدَّثنا عن طفولته وشبابه وأعماله والمهن التي اشتغل بها، وبعض أطراف من سيرة والديه وعائلته.. أخبرَنا بأن البرنس، وهو قائد كتيبة سيئة السمعة اشتهر كثيراً بعد تحرير تل أبيض، وأخوهما الثالث ـ وهو أيضاً قائد الكتيبة في منبج ـ هما أخواه من أبيه، وأن له أخاً شقيقاً لم يشاركهما العمل في الثورة والقتال مع الجيش الحر.

جاء دورنا في الكلام، فتحدثنا أنا وصاحبي حديثاً طويلاً عن الثورة والمظاهرات والاحتجاجات وضرورة العمل بكافة الوسائل المتاحة على إسقاط النظام القائم، ثم أفضنا في الحديث والشرح بأن مهمة الجيش الحر والقوى المسلحة هي حماية المتظاهرين المدنيين، وضرب المثل الأعلى والأمثولة في الخلق والانضباط الثوري. وتجنيب المدنيين بطش النظام بشتى الوسائل، لا الاستقواء عليهم والهجوم على الملكيات الخاصة والعامة ونهب دوائر الدولة.. أصغى أبو عبد الله جيداً إلى حديثنا حتى النهاية. كان يبدو مستمعاً جيداً، وتبدت عليه علائم الاهتمام والتأثر، بل والدهشة مما نقول، فقد استمع بشغف ونهم إلى درجة القداسة. ولاح لنا وكأنه يسمع بالثورة والمتظاهرين والعمل على إسقاط النظام"لأول مرة"، أو كأن هذه المفردات غير ذات أهمية بالنسبة إليه. أخيراً، وبعد أن انتهينا من الشرح والتفصيل الطويل، أجاب بأنه مستعد أن يغادر الرقة، هو ومقاتلوه، إذا وجد من الفصائل والكتائب المسلحة من "يشتري منه الرقة مقطوعة" بدون بازار، وأن يدفع له"فيها" خمسين مليون ليرة سورية مقابل "تخليه عن تحريرها"..

لعل أبو عبد الله قد حسب بأننا مندوبين عن كتائب، وأننا ما حضرنا للقائه إلا بغية جس نبضه أو الدخول معه في بازار جدي عن الرقة، ولكن لم تنته الجلسة والحديث الذي امتد لأكثر من أربع ساعات، إلا بعد أن تراجع عن كل هذه الأقوال والنوايا، وأبدى تفهماً وحسن استعداد للعمل مع كل الثوار في الرقة من أجل تحريرها من النظام في المستقبل، ودون أي مطمع أو نية كسب. ولقد جامَلَنا الرجل خير مجاملة فيما حدثناه فيه. وإن ظل يردد على مسامعنا عبارة مكرورة بين فينة وأخرى، قائلاً:

ـ لا تنسوا ياشباب أن ورائي كتيبة تحتاج إلى مصروف أكثر من مائتي ألف ليرة سورية يومياً.. هذا فقط للطعام والشراب والتنقل ووقود السيارات.. ولن أتحدث عن كلفة الذخيرة وأثمان السلاح الذي نحتاجه دائماً..

وفي اليوم التالي أخبرني حسين أن أبو عبدالله قد نكث بوعوده جميعها، وتراجع عما وعد به، وهو مصمم على مهاجمة الرقة والاستيلاء عليها مهما كلفه ذلك من ثمن. كما أخبرني بأنه مضى برفقته عبر معظم شوارع المدينة ومعالمها الرئيسية، وكان يشير له إلى النقاط التي يعتبرها منذ اللحظة قد دخلت في حوزته: من دوار تل أبيض حتى دوار الساعة "لي"، والجنوب من مبنى المحافظة حتى الجسرين "للنظام".. باب بغداد وماحوى السور لي، شرقاً، نقاط التماس وخطوط القتال بيني وبين النظام مناصفة..إلخ.. وظل يخطط ويرسم حتى تفارق هو وحسين. روى لي حسين ماجرى من تطوافه مع أبو عبد الله في الليلة الفائتة، وهو يدمدم بذهول:

ـ يعجبُني في هذا الرجل ثلاثُ خصال: الحماقة والسفاهة والجهلُ المُطْبِق.

ثم أبلَغَنا حسين بعد أيام، أن أبو عبد الله قد شرع في نقل المسلحين من كتيبته هم وسلاحهم، وتَشَرَهم على امتداد شاطئ الفرات في محاذاة السلحبية الشرقية.. لكن شيئاً ما تغير فجأة، فقد لبث أبو عبد الله بضعة أيام، هو وبعض المقاتلين من كتيبته، يتنقلون على شاطئ الفرات القريب من المدينة، ولأسباب غير معروفة، ودون سابق إنذار، ترك المحافظة وانتقل إلى ريف حلب الشمالي.

وفي الأسبوع الأول بعد تحرير الرقة، رأيت أحدهم قد خط على أحد الجدران اسم كتيبته كالتالي: كتيبة الشهيد أبو عبد الله المنبجي، وحين اتصلت بصديقي حسين مستعلماً، أنبأني بأن الرجل أصيب إصابة مباشرة من قصف إحدى الطائرات التي كانت تقصف المدينة بعنف آنذاك بعد التحرير، وقد توفي إثر إصابته تلك، وأن أفراد كتيبته قد أبدلوا اسمها إلى(كتيبة الشهيد أبو عبد الله المنبجي).. رحمه الله..

تلك الليلة الطويلة

استقبلْنا يوماً جديداً. كان لديَّ معلومات ومراسلات من سابق مع موظف حكومي عجوز متعاقد مع شركة الكهرباء لحراسة مركز تحويل، يبدأ دوامُه في المركز مساءً وينتهي عند الصباح. ولقد زوَّدَهُ جيش الدفاع الشعبي ببارودة روسية لحراسة غرفة تحويلة أو مولدة الكهرباء تلك، والسهر مع بارودته طوال الليل عليها.. تواصل الرجل مع الثوار، وواجَهَنا عدة مرات ليطلعنا على رغبته في ترك عمله، مؤكداً في كل مرة على رغبته بتسليم بارودته والفرار بمساعدتنا من مقر عمله في ذلك المركز.. وقد كلفت ذات صباح ثلاثة شباب؛ أبو الذيب وأبو عمر وحمود، بالذهاب إلى مقر عمله وجلب البارودة معهم، وانصرفت بعد الظهر إلى اجتماع هام في شقة قريبة من دوار الإدخار.

خرجتُ من الاجتماع قريب المساء. وكان في رفقتي صديقي"م" وابني حسام. وما إن وصلْنا الشارع بعد قليل، حتى رنّ تلفوني، وجاءني من خلاله صوتٌ وانٍ ضعيفٌ نصف ميت.. نطق الصوتُ بهذه الكلمات كأنه ينطق بها من داخل قبر: "عمو.. أنا مصاب الآن، تعال اسعفني بسرعة".. عرفتُ فيه صوت أبو الذيب الذي لا يخفى عليَّ. فأجفلتني المفاجأة غير المتوقعة، وتذكرت في تلك اللحظة موعد اليوم، وحكاية البارودة، وظننتُ أن مفاجأة من نوعٍ ما قد حصلت. سألتُه على الفور:" حدثَ معكم شيء بشأن موضوع البارودة؟".. أجاب: "لا.. موضوع البارودة انتهينا منه قبلَ الظهر.. كنا عائدين ببيكاب عمار أنا وحمود بعد العصر، وقد أصرّ عمار على أن يجتاز الطريق مروراً بدوار تل أبيض، وهناك كان الدوار ممتلئاً بأكثر من خمسين عسكرياً من الجيش، كأنهم كانوا ينتظروننا أو كانوا ينتظرون أحداً.. أنزلونا من البيكاب، وفوراً بدأوا بالضرب بأعقاب البنادق والهراوات على رؤوسنا.. أشبعونا ضرباً إلى حد الإغماء.. وقد أفلتُّ من بين أيديهم بسرعة، وسحبتُ مسدسي، فأطلقتُ عليهم بضعة طلقات لأمنح نفسي فرصة للفرار، وقد تمكنتُ من الفرار من بين أيديهم.. فأطلقوا عليَّ النار وأصابوني.. اعتقلوا عمار وحمود، وأنا تمكنتُ من دخول أحد البيوت المجاورة للدوَّار واختبأت فيه.. مازالوا حتى الساعة يفتشون المنازل عني.. عمو أنا الآن أنزف، وقد تسببتُ برعبٍ شديدٍ للعائلة التي استقبلتني.. أريدُك أن تأتيَ فوراً لإنقاذي وإسعافي.." سألته السؤال الأخير: "أين أنت الآن بالضبط حتى أصل إليك؟" أجاب: "تعالَ أمام فرن العاني.. ستجدُ رجلاً طويلاً ضخمَ الجسم ينتظرُك على الرصيف. هذا هو صاحب البيت الذي أختبئ فيه الآن".

من سوء الحظ أن سيارتي كانت في ذلك اليوم متعطلة، وسوف تبقى متوقفة في الصناعة حتى اليوم التالي. فاستقلينا، نحن الثلاثة، سيارة أجرة وانطلقنا باتجاه دوار تل أبيض. كان الظلامُ يُطبق بسدوله على المكان حتى أبعد نقطة، ولا إنارة في الشوارع أو كهرباء في الدوار وما حوله من شوارع محيطة به. نزلتُ أنا وابني من سيارة الأجرة بعد أن اتفقت مع صديقي"م" على أن يتابع السير بنفس السيارة نحو منزل أو عيادة الدكتور عماد حديدي ـ أحد أهم أطباء الثورة في مدينة الرقة ـ فذهبَتْ السيارة بصديقي"م"، واتجهنا أنا وابني إلى جانب الدوار الذي كان يغص بالعساكر وكأنه ساحة حرب حقيقية. ومن خلال الظلام وبعض بطاريات البيل وبطاريات الموبايلات، لمحتُ الجنود وقد تكوموا جماعةً كبيرة حول شخص وهم ينهالون عليه ضرباً بمقامع حديدية وأعقاب البنادق.. وفجأة، لم تمضِ دقائق على وصولنا، حتى أبصرتُ الشخص الذي كان يصرخُ بصوت عالٍ تحت هراواتهم وأعقاب بنادقهم، وقد انفلتَ منتفضاً وانطلق يعدو كالسهم وسط الظلام. فما كان منهم إلا أن فتحوا النيران جميعاً مصوبين ناحية الجهة التي أفلت وهرب منها.. أيقنت من خلال مظهره الشبحي وسط الظلام أنه حمود بشكل قاطع ويقيني. فتبعه العساكر راكضين في الاتجاه الذي فرَّ منه، ولم يتوقف إطلاقُ النار الذي كان ينصبُّ مثل زخَّ المطر من كل زوايا الدوار نحو جهاتٍ لم أعد أميزُها أو أدرُكها من هول المفاجأة. ورأيت المارة الذين كانوا يعبرون الشارع وقد لطأ بعضُهم مستجيراً بجدران المحلات و بمداخل البنايات المحيطة، فألتجأنا راكضين أنا وابني مع مجاميع الناس التي جعلت تلوذ بالمداخل خوفاً من الرصاص الطائش.

هدأ الرصاصُ قليلاً، وظلَّت رشقات متقطعة تنطلق على فترات من هنا وهناك، وببطءٍ شديد، كنتُ قد وصلت في قلب الظلام إلى أمام فرن العاني. فلمحتُ رجلاً طويلاً ضخم الهيكل يرتدي كلَّابية، وقد التصق جانب الجدار المقابل وراح ينظر إلي بإمعان مقصود. دنوتُ من الرجل، فسألني على الفور:"أهو أنت.؟؟" قلت: "نعم.. أنت صاحب البيت.؟" أشار إليَّ وهو يتحرك أن اتبعني.. فتبعته بصمت، ولحق بي ابني من خلفي..

كان بيتُه لا يبعد عشرة أمتار عن مكان وقوفه، وما إن دلفنا داخل المنزل الغارق في العتمة بسرعة حتى أقفل الباب خلفنا، وقادنا إلى حجرة جانبية وهو يقول: صاحبك هنا.. دخلتُ الحجرة مسرعاً، فإذا بي أفاجأ بفراش بسيط، وإلى جانبه قنديل يشتعل بالفتيل والبترول

وعلى الجدران تتوقد بعض الشموع، وأبو الذيب مضطجع نصف اضطجاعة وهو يتلوى من الألم، والدماء تسبح من حوله في كل مكان، وقد لفَّ له الرجل صاحب المنزل راحة يده ومعصمه بقطع قماش تخضبت بالدماء. لم ألمحْ في عيني أبو الذيب خوفاً أو فزعاً، وإنما كان يبدو متحرجاً وجزعاً على مصير الرجل صاحب المنزل، وعلى عائلته التي أمرها أن تتجمع في غرفة أخرى مجاورة.

هدَّأتُ من روع أبو الذيب، وطمأنتُ الرجلَ صاحب المنزل فوراً بأننا سنغادر خلال دقائق، وأننا ننتظرُ سيارة طبيبٍ سوف تصل للتو، وهي في الطريق إلينا.. فأخبرني الرجل بأن الجنود ربما شكُّوا بالمنزل بعض الشكوك، وأنهم طرقوا الباب مرتين، لكنَّه أصرَّ على عدم إجابتهم، وعلى التكتم والصمت في قلب العتمة المحيطة. فطلبتُ منه أن يخرج إلى الشارع لكي يرى هل انصرف العساكر إلى قرب الدوار، أم أنهم مايزالون يتجولون في الشارع نفسه أمام الباب. خرج الرجلُ لثوانٍ وعاد، فأخبرني بأن معظمهم رجع باتجاه الدوار، وإن ظلَّ بعضُهم يتجول حول المكان ويعود ليراقب الشارع. أضاف أبو الذيب معلقاً: "عمو، في مثل هذه الحال هم يعيشون خوفاً، تحسباً من المفاجآت، فلا يقتربون في العتمة لأن الكهرباء مقطوعة عن المنطقة..".

كما أن الموت يرتعُ في مملكة الصدفة، فإن الخوفَ أيضاً لامسكن له ولا حدود. كلُّ شيءٍ كان يمكن أن يُرديك قتلاً بصدفة طائشة. وكلُّ لحظة كانت تختزن احتمال وقوعِك في أيدي الجنود المدججين أوعناصر المخابرات. لن يقف الأمر عند تخطيطٍ أو ذكاء، فالتخطيط والذكاء لا دورَ له في متاهة الموت الدائب الدوران في كل الإتجاهات.. رنَّ الموبايل، وكان المتصل صديقي"م" بعد بضعة دقائق مضت على افتراقنا. وأخبرني أنه لم يعثرْ على الدكتور عماد حديدي، لكنه استقدم معه الدكتور واثق البطران، وأنهما في الطريق إلينا بسيارة الدكتور واثق. فأشرتُ له على موضع المنزل وعنوانه بدقة، وطلبتُ منه أن لا يقتربا من الباب إلا حينما يبتعد العساكر نهائياً، ويصبح وقوف السيارة أمام الباب معدوم المخاطر. وقد ظل إطلاق الرصاص المتقطع يأتي بين فينة وأخرى..

وبعد دقيقة أو دقيقتين رنَّ الموبايل مرة أخرى. كان لمجرد رنته أن تثير قشعريرة مجهولة السبب. وكان المتصل هذه المرة صديقي حسين دلَّال العقارات في الرميلة، وقد كان من عادته أن يتصل بي يومياً عدة مرات ليسألني عن شؤون تتعلق ببيع عقار أو شرائه أو أسئلة من هذه الخصوص.. أغلقت الموبايل، وقطعت الاتصال فوراً. فرجع يرنُّ بإلحاح وتواصل مرة أخرى. ففتحتُ الخط وأجبته في شيءٍ من نزق ونفادِ الصبر أنني سأتصل به لاحقاً، لأنني الآن في وضعٍ لا يسمحُ لي أن أستوعبَ منه شيئاً من مشاكل العقارات.. أغلقتُ الموبايل، فرجع يرنُّ بتواصل وإصرار على أن يكلمني، وما إن فتحت الخط حتى أسرع يبادرُ بالقول: يجب أن تحضر إلى منزلي على الفور.. الأمر خطيرٌ جداً. لقد دخل بيتي صديقك حمود قبل بضعة دقائق. أوصله رجلٌ على دراجة نارية، فارتمى أمام باب المنزل، ومضى صاحب الدراجة بعد أن قرع الباب لينبهنا إلى وجوده على الرصيف.. لم يتكلم حمود معنا، فلقد دخل في غيبوبة. إنه متورم من الضرب الشديد، والدماءُ تسيلُ من كل عضوٍ في جسده.. أسرعْ فإنني أخشى أنه يُحتَضَر في النزع الأخير.. وقد يموتُ على الفور.

كان صديقي"م" قد وصل وصار داخل المنزل. فسردتُ عليه فورَ دخولِه ما أخبرني به حسين. ولا أدري لِمَ شعرتُ بالخوف والحزن من أن يكونَ حمود حقاً في النزع الأخير، وأنه قد يموت قبل أن نصل إليه، مع أنه غشيني الكثيرُ من الارتياح النفسي لكونِهِ استطاع فعلاً أن ينجوَ من قبضة الجنود الذين كانوا يتحلقون حوله بالعشرات.. كيف وصلَ إلى صاحب تلك الدراجة النارية؟ وكيف خطر بباله منزل حسين في هذه اللحظات، وهو الذي دَخَلَه مرة واحدة دخولاً عابراً برفقتي ذات مرة منذ أسابيع؟ كيف تذكر تفاصيل المنزل وعنوانه بالضبط وهو على هذه الحال..؟ كنتُ أسبحُ في بحرٍ من الحيرة وفقدان اليقين ومعنى مايدورُ حولي، وأسئلة كثيرة راحت تساورني وتتقلبُ في ذهني. ولكن المهم الآن، وأوجب الواجبات المُلِحّة هو أننا لا يجب أن نبقى في هذا المنزل لفترة اطول، حيث العساكر لا يبعدون عنا إلا مسافة بضعة أمتار.

ساعدْنا أبو الذيب على الوقوف، ولففنا كامل جسدِهِ بفروة رقيقة تناولتُها من مضيفه صاحب المنزل، لأتمكن من إخفاء يده النازفة، والخِرَق الكثيرة المخضوضبة بالدماء التي كانت تلفُّها. الدكتور واثق بقي في الخارج وراء مقود سيارته التي كانت متوقفة في الشارع، فدنونا قرب الباب، ولما تأكدنا من خلو الشارع تماماً من المارين، خرجنا ومعنا أبو الذيب، ودلفنا جميعاً في سيارة الدكتور، ثم رجعتُ لأعيدَ الفروة لصاحب البيت ـ الذي لا أعرفُ اسمه حتى اليوم ـ بعد أن شكرناه وأثنينا على صنيعه وجميل استقباله للشاب الجريح، وهي مغامرة كانت لتكلفه حياته، لو انكشف الأمر للعساكر، وقد تتسبب في تدمير مستقبل أسرته بكل تأكيد.

بعد أن أسرعتْ السيارة تغادر المكان، كانت رشقات الرصاص ماتزال تُسمع.. هل أطلقوا النار علينا بعد أن مضينا في السيارة، أم أنهم كانوا يطلقون عشوائياً؟ لستُ أدري حتى اليوم. وكنا خلال دقيقتين نجتاز كورنيش السور الفاصل بين السور وحي الرميلة، حتى وصلنا دوار البتاني. وما إن دخلتْ السيارة في شوارع الرميلة الضيقة والمظلمة حتى شعرت براحة نفسية، وبدأت أستعيد روعي شيئاً فشيئاً. وجهْنا سيرَ الطبيب/السائق نحو عنوان منزل حسين، وما إن توقفنا حتى خرج حسين علينا، فارتعب أكثر مما كان مرعوباً من منظر الضيف الذي آواه قبل قليل في منزله، حين وَجَدَنا نحتملُ مصاباً آخر معنا، وكان يعرف أبو الذيب جيداً في الأيام الأخيرة.

مدَّدْنا أبو الذيب فوراً على فراش بجانب حمود، والتفتنا جميعاً نعاينُ أماكن إصابات حمود الذي كان فاقد النطق ومغمى عليه، كانت ملامح وجه الفتى وعيناه قد انقلبت وانطمست من الوذمات والتورم الفظيع. وبقعٌ حمراء وزرقاء ملأت معظم الجسم، حتى ليوحي منظره وكأنه قد خضع للتعذيب والضرب مدة شهر كامل، لا بضعة دقائق. وقد تجمد الدم في كل مساحات رأسه لكثرة ما تلقى من الضرب بالهراوات وقضبان الحديد وأعقاب البنادق. بدأ الطبيب يتمعن في عينيه وأنفه وكل تفاصيل جسمه، وراح يجري فحصاً سريرياً سريعاً لكامل جسم الشاب الذي كان يصحو من إغمائه كلما لمسه الطبيب ليأخذ في الصراخ قليلاً من شدة الألم قبل أن يعاود الإغماء. بينما زرق الطبيب الشابين بإبر مضادة للكزاز، وقام ببعض الإجراءات الضرورية السريعة، ثم أعلن بعد قليل: أحتاج إلى فحصهما فحصاً دقيقاً في العيادة.. يجب إحضارهما فوراً إلى عيادتي بعد قليلٍ من الوقت.. كما أن الصور الشعاعية للاثنين لا غنى عنها.. يجبُ أن نستقصي ونحقق إنْ كان ثمة كسورٌ في رأس أو جسم حمود، وكذلك ما خلفته الرصاصة التي اخترقت كف أبو الذيب، وبعدها سوف نقرر ما سنفعله؛ إن كانا بحاجة إلى عملٍ جراحي فوري أم غير ذلك.

ودَّعْنا الدكتور واثق حتى الباب، وشكرناه على الجهد والعناء الذي احتمله هذه الليلة، وتواعدنا على اللقاء في عيادته في مدة أقل من ساعة إن أمكننا ذلك. وبعد مغادرة الطبيب بدقائق هُرِعتْ إلينا إحدى الطفلات في المنزل، لتُبَلِّغنا نبأً جديداً: هناك بيكاب مليء بالمسلحين مرَّ تواً من أمام باب المنزل.. ركض حسين باتجاه الباب، ومن خلال ظلام الشارع لمح البيكاب الذي احتوى على ظهره عدداً كبيراً من مسلحين ملثمين، وهم يجوبون الشارع بأقل سرعة بطيئة محتملة للبيكاب.. رجع حسين فوراً وهو في غاية الذعر، وهتف يقول: هذه دوريةُ مسلحين للأمن العسكري على ما أعتقد.. يبدو أن الحي مطوق بالدوريات.. مرورُهُم الآن في الشارع يعني في المؤكد أنهم اشتبهوا بأن أحداً ما من المطارَدين قد دخل في شارعنا.. يبدو أنهم خائفون من الترجل، أو غير متأكدين من البيت تماماً.. جعلنا نتلفتُ في كل الاتجاهات ونتطلع إلى أنفسنا.. ما العمل الآن؟ وما الذي يجب فعله؟ بادرنا بدايةً إلى الخرق والشراشف الملوثة بالدماء وبقايا الضمادات التي استخدمها الطبيب قبل قليل، والتي توزعت في المكان، فالقينا بها في الغسالة الآلية، ووضعنا فوقها كومة من الثياب المتناثرة قرب الغسالة، وقمنا بتشغيل الغسالة فوراً، فلم يبقَ أثر لشيء فيه بقعة دم في الغرفة. وقال صديقي"م": يجب أن نغادر المكان بأسرع ما يمكن. ولكن كيف؟ بيكاب الدورية وصل إلى نهاية الشارع وكأنه يزحف كالسلحفاة. ثم استدار قريباً من الشارع الآخر، المتقاطع مع شارع المنزل الذي كُنَّا فيه، وأطفأ الأنوار وتوقف. يبدو أنهم سيمكثون هنالك عند التقاطع لفترة غير قصيرة. والخروج شبه مستحيل، ومعنا جرحى يحتاجون إلى حملٍ بأيدٍ قوية والإسراع في الشارع.. أصبح الأمل بالنجاة شبه معدوم. إذ قد ينزل المسلحون الملثمون من البيكاب فجأة، ويهاجمون باب المنزل خلال ثوانٍ لا أكثر، وعندئذٍ لن يكون في قبضتهم الشابين المطارَدين فحسب، بل أنا وابني حسام و"م" وحسين وشقيق زوجته الذي كان موجوداً بالصدفة في المنزل أثناء الحدث.. ومن يدري، فقد يعتقلون زوجة حسين أيضاً وأطفاله، وليس ذلك عنهم ببعيد.. في هذه اللحظة شعرتُ ببعض العزاء والراحة لأن الدكتور واثق كان قد غادرنا قبل دقائق، ولم يتعرض للخطر الذي وقعنا فيه.

لم أترددْ طويلاً، اتصلت على الفور بأحد أصدقائي القريبين من منزل حسين، وكنا نناديه أبو الفوز. وشرحتُ له الموقف بسرعة وعجالة، وطلبتُ سيارته لكي تنقلنا بعيداً عن تلك الدورية التي رابطت على مبعدة أمتار قليلة من المنزل. أجابني أبو الفوز بأن السيارة معطلة وخالية من البنزين. فصرختُ فيه بغضب أن يبحث عن أية سيارة أو آلية مهما كانت، وعلى وجه السرعة. تردد قليلاً، قبل أن يقول: عندي زائر من أقارب زوجتي في المنزل، ولديه شاحنة سوزوكي صغيرة وقديمة، "جربانة" وصوتها له جعيرٌ عالٍ، ولا تشتغل إلا على الغيار الثالث، فجميع غياراتها متعطلة.. هذا إن كانت شغالة بالأصل.. هتفتُ به أن يحضرَها على الفور.. وحقاً، لم يستغرق الوقت أكثر من دقائق حتى كان أبو الفوز قد أوقف "السوزوكي الجربانة" ودخل المنزل، وما إن رأى المشهد أمامه حتى أصيب بالخوف وأرتاع كثيراً.. وكنت قبل وصوله قد أحضرتُ عباءة نسائية من زوجة حسين، لففت بها كامل جسد حمود، وخمَّرتُ رأسه ومعظم وجهه بخمار نسائي أسود، حتى لم يعد يُستبانُ منه شيء، بينما لففت أبو الذيب بفروة كانت موجودة في منزل حسين.

نهضنا جميعاً، وقد أخذنا نستعد للمغادرة. أعلن أبو الفوز من شدة ما انتابه من وجل أنه لن يقود"السوزوكي الجربانة"، فقلت له بأن هذه ليست مشكلة، وأنني أنا من سوف أتولى قيادتها. وهي سوف تتسع حصراً للسائق والمصابَين، بينما يجب على الآخرين أن ينسلّوا بسرعة من البيت، وأن يغادروا سيراً على الأقدام. وكنتُ قد همست لصديقي"م" بالوجهة التي أنوي التوجه نحوها. أخرجنا حمود وأبو الذيب، وأركبناهما في الشاحنة المتداعية القديمة، وعلى الفور ركبتُ خلف المقود وانطلقت بها على الغيار الثالث، فجعرتْ في منتصف ذلك الليل محدثةً صوتاً عالياً يوشك أن يوقظ كل النيام من أهالي حي الرميلة، وراحت السوزوكي تخبط في الشوارع المليئة بالمطبات والحفر، فأخذ حمود يُصَعِّدُ الشكوى ويتأوه من تخبط سيرها المترجرج، بل يكاد يصرخ من الألم لفظاعة السواقة في تلك الشاحنة، وقد انطلقتُ بها بكل ما تحتمله من سرعة، بينما لمحتُ الرجال الأربعة، ابني وصديقي"م" وحسين وأبو الفوز وقد ساروا خلف الشاحنة يتبعونها.

ما حدث بعد ذلك أن بيكاب الأمن العسكري المليء بالمسلحين الملثمين قد أسرع بالتحرك ما إن سمع عناصره جعير الشاحنة العالي الصوت، وأدركوا أنَّ شيئاً غير طبيعي قد حدث. وحين قاموا بالدوران في الشارع والتوقف قبالة المنزل الذي غادرناه للتو قبل ثوانٍ، هجموا جميعاً على المنزل كما توقعنا، وفجأة فتحوا النيران في الهواء، وراحوا يطلقون في كل الاتجاهات(ربما ليفرغوا روعهم وليؤنسوا خوفهم بأصوات رصاصهم)، حتى استيقظ حي الرميلة تقريباً على مصادر النيران التي بددت هدوء الليل، فتصدى لهم الشاب ـ نسيب حسين ـ (وقد كان اللقب الدارج عليه هو:"البَطْحْ"، لأنه كان يفتتح محل تصليح دراجات نارية في الرميلة لتصليح ذلك النوع الخفيض نحو الأرض من الدراجات، والذي يسمونه في المحلة"موتور البطح"). وحاول"البطح" أن يمنعهم من دخول المنزل وقد أخذ يصرخ في الوجوه: كيف تقتحمون بيتاً صاحبه غير موجود، ولا يوجد فيه إلا امرأة وأطفالها.؟ فسألوه: ومن تكون أنت..؟ قال: أنا صهر صاحب المنزل شقيق زوجته. فسألوا: وما قصة السوزوكي التي مضت قبل قليل من أمام البيت. أجاب: إنها لقريب لنا، وقد أقلت أختي الصغرى وهي مصابة بأزمة سكر شديدة، وتحتاج إلى جرعة أنسولين مستعجلة.. لقد ذهبتْ بصحبة قريب لنا للبحث عن مستوصف أو صيدلية مناوبة، وهي في حالة إسعاف خطرة.. لم يقتنعوا كثيراً بإجابات"البطح"، فاقتحموا المنزل عنوة وراحوا يفتشونه غرفة غرفة، وقد أحضروا معهم أنواراً ساطعة تعمل بالبطارية، ثم صعدوا الدرج والأسطحة، وفتشوا البيت تفتيشاً دقيقاً لأكثر من نصف ساعة.

سأل المسلحون"البطح": من يكون صاحب هذا البيت؟ أجابهم: فلان.. قالوا: وأين هو الآن؟ أجاب: إنه مداوم على رأس عمله في مؤسسة الكهرباء، فهو يعمل ليلاً حتى الصباح لثلاثة أيام في الأسبوع. قالوا: أعطنا رقم تليفون النقطة التي يعمل بها، نريد أن نتأكد بأنه الآن في مركز عمله. قال: موبايلي ليس عندي، تركته على الشاحن في البيت.. ولكن بيتي يبعد من هنا بضعة أمتار، إذا انتظرتوني سأذهب دقيقتين وآتيكم به فوراً. قالوا له: إذهب بسرعة.. ذهب"البطح"، وعند زاوية الشارع اتصل بحسين وأخبره بأنهم يريدون الاتصال بمؤسسة الكهرباء للتأكد بأنه الآن في مركز عمله، ثم قفل إليهم راجعاً. فأسرع حسين فوراً في الاتصال بزميله المناوب في المركز، وبلَّغه بأنه "كل من يتصل ويسأل عني أخبره أنني موجود الآن.. وأخبرهم بأنني لا أستطيع الرد عليهم لأنني بعيد عن الهاتف، وأراقب حرارة محرك المولدة"..

لبث المسلحون بضعة دقائق أخرى، بعد أن اتصلوا بدائرة الكهرباء طبعاً، وتحققوا من وجود حسين على رأس عمله في مؤسسة الكهرباء حسبما جاء في الرد المباشر على سؤالهم في التليفون، فاستقلوا البيكاب وانصرفوا عائدين من حيث أتوا. وبينما كنت أجوب بـ"السوزوكي الجربانة" شوارع الرميلة المظلمة الضيقة، والتي أعرف جميعَ مداخِلِها ومخارِجِها جيداً، اتصلت مباشرة، وفور مغادرتي منزل حسين، بأحد أصدقائي القاطنين قريباً من المكان الذي كنا فيه، الحاج وليد المبروك، وهو من رجال الثورة الأوائل وأبناؤه جميعاً من خيرة شباب الثورة، وأخبرته أنني قادم إليه ومعي شابان جريحان.

رحب الحاج وليد باستقبالنا، وأبدى لهفة وتعاطفاً شديدين، وحثَّنا على القدوم بسرعة. كنتُ أعلمُ بأن منزل الحاج يحتوي على كاراج داخلي بجانب فناء الحوش خاص بسيارته، فطلبتُ منه أن يفتح باب الكاراج على الفور.. وحين وصلنا، أدخلتُ الشاحنة التي كنا نستقلُها، والتي كانت كومة من حديد خردة لا أكثر، والتأم شملُ عائلة الحاج وتجمعوا على الشاحنة فورَ وصولِنا، حيث تعاونّا جميعاً على نقل الجريحين إلى الصالون الواسع. وبعد لحظات قليلة وصل الأصحاب الأربعة إلى منزل الحاج، فسلمتُ الشاحنة إلى أبو الفوز وشكرته على معروفه، وانصرف إلى منزله.. وقضينا حوالي أكثر من أربع ساعات في صالون المنزل ننتظر بزوغ الفجر.

أصبحت الحجرة الواسعة تغص بالحاضرين بعد قليل، فقد انضم إلينا حينئذٍ سائرُ عائلة الحاج وليد، وأتيح للشابين أن يرتاحا ويتخلصا من جو القلق والخوف والمطاردة المتلاحقة. وراحا يسردان تفاصيل الحكاية كما بدأت منذ بدايتها، ويفصلان ما الذي جرى بالضبط. كان شبحُ اعتقال رفيقهما الثالث عمار يخيمُ على الجو العام، فما الذي سيطلعُ علينا به هذا الصباح، وبماذا سيعترف عمار؟ وهل نحن الآن جميعاً في منجاة من عقابيل ما جرى رغم التوفيق النسبي الذي أحرزناه، والنجاة المؤقتة من براثن الاعتقال أو الموت المحقق؟.. قمنا بالاتصال بعائلة عمار وأبلغنا أهله بكل التفاصيل، وقد كانوا على علمٍ بكل ماجرى، مع فارق أنهم كانوا على اعتقاد بأن الثلاثة قد وقعوا في أسر الجنود عند الدوار. وقد حضروا جميعاً إلى منزل الحاج وليد ليطَّلعوا على تفاصيل مجريات الحدث، واطمأنوا من جهتهم وهنأوا بسلامة الشابين، وظلوا معنا إلى قريب من طلوع الفجر.. ثم كان أول اتصال تليفوني لي بعد عائلة عمار أن بلَّغنا الدكتور واثق بأننا لا نستطيع في هذا الليل أن نُحضِر الجريحين إلى عيادته لأسباب قاهرة، وأن موعدنا سيكون غداً في الظهيرة، فطلب منا أن نذهب من فورنا إلى عيادة الأشعة وتحضير التصاوير قبل حضورنا، وقد تدبرنا خطة الدخول إلى عيادة الأشعة في الصباح الباكر، بمساعدته ومساعدة أطباء آخرين من الأصدقاء.

ارتاح الجريحان قليلاً، وبدأ حمود يصحو من إغماءته ويستعيد وعيه رويداً رويداً، وتناولنا وجبة طعام خفيفة في منزل الحاج وليد، وبعض الشاي والقهوة، وتسامرنا طويلاً حتى مطلع الفجر.. وبعد أن طلع النور وبدأت الحركة تتعالى في الشوارع، أصبح متاحاً أن نقوم بنقل الجريحين، فتمّ اختيار منزل في أقصى شمال الملعب البلدي لابن اخت صديقي"م"، فتطوع الحاج وليد بنقلنا بسيارته الخاصة إلى المنزل مع الشابين الجريحين، وهنالك أُفرِدَتْ لهما غرفة تمّ تجهيزُها تجهيزاً أشبه بغرف المشافي، وتولى المضيف الجديد وزوجته القيام بواجباتنا، وكل ما يحتاجُه الجريحان من عناية خاصة لمدة خمسة عشر يوماً تالية، حتى تعافيا وشفيا نهائياً.

ظهر اليوم التالي استطعنا تأمين أوراق دخول بأسماء مزورة إلى العيادة الشعاعية، ونقلتُ الجريحين إلى العيادة بسيارتي، حيث تم تصويرهما بسرعة، وبعد فراغ العيادة من كافة زبائنها المرضى، عدتُ بهما إلى مكان إقامتهما. وفي المساء أعلن الطبيب بأن وضع حمود قد أخذ في التحسن، وأنه لا يحتاج إلى أكثر من الراحة وبعض الغذاء والمقويات، إذ لا يوجد كسور أو نزيف أو ما ينذر بالخطر على حياته. أما وضع أبو الذيب، فقد كان سيئاً حسب الطبيب؛ فعدا عن أن الرصاصة التي اخترقت الرُسْغَ وجزءاً من راحة الكف قد أحدثت عدداً من الكسور ونزف شرياني داخلي، فإن ثمة ماهو أسوأ؛ حيث المؤكد بأن الأربطة والأعصاب قد تمزقت، وهي تحتاج إلى عمل جراحي عاجل(مع تخدير كلي للجسم)، وإلا فإن ثمة إنذارات خطر بإصابة اليد بعطب أو شلل كامل مدى الحياة.

في نفس اليوم تم الاتصال بالدكتور اسماعيل الحامض وبعض الأصدقاء الآخرين، ووضعنا خطة مفصلة لتحضير غرفة العمليات في مشفى الشفاء الجراحي، وقد كان رأي الأطباء مُجمعاً على أن المريض يحتاج إلى بضعة ساعات من المكوث في المشفى ـ أقلها ساعتان ـ بعد الخروج من العملية، وذلك من أجل استقطاع الوقت الكافي للإنعاش من البنج وتقليص السيرومات إلى الحد الممكن، لكننا أصررنا على أننا سوف ننقله فور خروجه من غرفة العمليات إلى سيارة سوف تكون محضرة وجاهزة عند باب المشفى، لعلمنا المسبق بأن دوريات الأمن تجوب المشافي جميعها بصورة دورية، وهي تتفقد كل حركة الداخلين والخارجين من زوار المشافي، ابتداءاً من لوائح المسجلين من المرضى وانتهاءاً بغرف المرضى والإسعاف والعمليات.

نجحنا في مساء اليوم نفسه في إدخال أبو الذيب إلى غرفة العمليات، وأيضاً هذه المرة بأوراق مزورة وبيانات دخول استطعنا الحصول عليها. ولن ننسى للدكتور اسماعيل الحامض، أحد أهم أطباء ثورتنا في الرقة، الفضل الكبير والمغامرة الجسيمة التي تجشّمها في سبيل نجاح رحلة المخاطرة في الدخول والخروج من المشفى، حتى تمام الانتهاء من العملية الجراحية.(والذي خطفته داعش بعد ذلك وما يزال مغيباً حتى الساعة)، ولم نجد أية صعوبات أو مفاجآت حتى لحظة خروجه من غرفة العمليات وهو في كامل التخدير، وبعد خروجه من الغرفة داهمتنا دورية للأمن ـ كما كان متوقعاً ـ مكونة من عدة مسلحين جعلت تجوب المشفى غرفة غرفة، حيث تفقدوا الأوراق ومسحوا كامل بيانات المرضى داخل المشفى، فاضطُررنا إلى إخفائه في غرفة جانبية غير مشغولة على جانب صالون المشفى، وبعد خروج الدورية، حملناه وهو في كامل الخدر من البنج، بأجهزة السيروم المعلقة في ذراعه، وعلى الفور تمّ إدخالُه داخل السيارة التي كانت تنتظر، وعدنا إلى المنزل الذي ظل الجريحان يستريحان فيه لأسبوعين قادمين.

أخيراً سوف أذكر لتمام القصة، بأن عمار ـ رفيقهما الثالث ـ نُقل بعد اعتقاله إلى الفرقة 17، وهنالك جرى التحقيق الأولي معه، حيث ظلوا يعذبونه لأكثر من أسبوع، وتسببوا في عدة كسور في ركبتيه وقدميه من شدة الضرب. لكنه احتمل كل ذلك التعذيب، وأصر على

رواية وحيدة؛ وهي أنه كان يسير بسيارته وحيداً عندما أشار إليه الشابان اللذان كانا ينتظران من يُقلهما إلى مكان داخل المدينة، وما إن توقف حتى شهرا في وجهه مسدساً وطلبا منه توصيلهما إلى وجهتهما بالقوة، وأنه لا يعرفهما ولم يرَهما قبل الحادثة. تم تسليمه للأمن العسكري بعد الانتهاء من التحقيق معه في الفرقة 17، وهنالك أعادوا معه نفس التحقيق، وكرر نفس الأقوال، واحتمل نفس العذابات في الأمن العسكري.. وحين يأسوا من انتزاع أي اعتراف مفيد منه أحيل إلى القضاء العسكري، فسارع أهلوه إلى دفع رشوة قريباً من مليون ليرة سورية للقاضي العسكري، الذي أخلى سبيله بعد ثلاثة أسابيع مضت على الاعتقال.. حيث التأم شمل الأصحاب الثلاثة من جديد.

الثورة والدولة العميقة:

ما الدولة العميقة؟ الحقُّ أنني لا أملك تعريفاً جاهزاً لهذا المصطلح. خاصة في واقع شديد الاختلاط والتعقيد في مثل الظروف التي مرت بها الرقة ابتداءاً منذ لحظة اندلاع حريق الثورة وحتى اليوم. وإن يكن الأمرُ قد مرَّ مروراً مريباً في البدايات، حيث لا يمكن الاشتباه بما تَصَمَّمَ منذ سنين طويلة، ولا بشيءٍ مما يحيط ذلك الوسط؛ هنالك السلطة ممثلة بفروع الأمن الأربعة الرئيسية في المحافظة:(العسكري والجوي والسياسي وأمن الدولة).. وهناك كتائب الدفاع الوطني أو الجيش الشعبي الذي بدأ يتكون من بعثيين ومؤيدي النظام، وهناك أيضاً جيش المخبرين والمؤيدين سراً أو جهاراً، فضلاً عن القطع العسكرية النظامية التي كان النظامُ يحتفظ بها حتى مرحلة مابعد التحرير؛ الفرقة 17 واللواء 93 ومطار الطبقة العسكري.. هل ثمة شيءٌ غير هؤلاء؟..على أساس هذا الفهم لتوزع القوى جرى التعامل مع الأحداث على توالي الظروف.

ربما كان لما بعد تحرير الرقة وسقوطها في عام 2013 وما تلا ذلك، أن صادف بداية ظهور علامات، أو إشارات تستثير الإنتباه بقوة، وتشدُّ التفكير إليها وإعادة فحصها من جديد. لم تكن تلك المؤشرات بالطبيعية قطعاً، ولكن لم يكن بالإمكان في ظروف كتلك الظروف الوصول إلى أجوبة، بل ولا حتى إلى مراجعة أولية لما كان يحدث.. كانت فكرة الإختراقات والخيانات والتواطؤ مع النظام، فرادى أو من قبل جماعات معينة مخصوصة، فكرة طبيعية وعادية جداً ومحتملة.. لم تكن الأمور بالخطورة التي تستثير خيالاً أبعد من الخيال العادي. ماذا تعني هذه الحادثة؟ وبمَ يمكن تفسير تلك الظاهرة؟ كان ثمة دائماً سيلٌ من التبريرات التي تواجه أي استعصاء أو خلل يومي أو أي أمر مستنكر.. وكل تلك الأسباب والموجبات، كانت تُفَسِر نفسها على أنها ترتدّ إلى الحرص على الثورة وأمنها، والحذر الشديد من عملاء النظام والشبيحة والطابور الخامس كما يسمونه، ومن كان سيخطر بباله في تلك المرحلة، أن بعض هؤلاء كانوا يتغلغلون سراً لصالح قوى أكثر إجراماً حتى من النظام، وأشدُّ عتواً وعداوة منه، وبتنسيق وتخطيط مبيت مسبقاً معه؟ كل ذلك كان يحدث تحت غطاء "الإسلام" و"الانتصار لدين الله" وشعارات "نصرة دين الله ورسوله".. وكنا وقتذاك نفسر كل ردود الأفعال الدينية وارتداداتها كظاهرة طبيعية شعبوية، وكونها رداً على طائفية النظام وممارسته الإجرامية التي نسمع عنها يومياً، فلا يملك سائر الناس وعامتهم إزاءها إلا تصعيد لهجة دينية طائفية بموازاة نظام أفحش في ممارساته البغيضة إلى حدٍ أوصل المجتمع كله إلى الانفلات من عقاله، وأفقده رصانته ومنطقه وصبره.

كانت طبيعة التدين الريفي، نصف البدوي ونصف المديني، هي الغالبة على التدين الرقاوي، فكل مجتمع المتدينين من سلفيين وغير سلفيين في محافظة الرقة، لم يكونوا بالأهلية التي تجعل منهم مادة جيدة للانتظام في منظمة أو تجمع إرهابي، وربما كان للذهنية المسبقة التشكيل، اجتماعياً وعشائرياً، ولطبيعة الفكر الديني في الرقة في كل تجلياته وظهوراته المستقلة، دور حاسم في تلك الطمأنينة، وبرودة القلب بأن الرقة ـ خاصة ـ ودون كل المدن والقرى السورية، تقع في أبعد المسافات عن الإتجاهات الأصولية التي يمكن، ولو احتمالاً، أن تتغول على الثورة، وأن تركب متنها أو تفسدها.. هكذا لم أفكر حتى نهاية العام الأول ونصف العام الثاني من عمر الثورة، ولا خامرتني أية شكوك على المستوى الشخصي، (بل و لاأظنُ بأن الآخرين القريبين مني أيضاً، فكروا غير تفكيري)، أن تياراً ما، دينياً أو غير ديني، يمكنه، أو يستطيع أن يزعزع مبدأ الثورة من أساسه، أو يزرع بذرة الثورة المضادة داخل شعاراتها، دون أن نشعر به، أو نكتشفه واقعاً، أو أن يتحول إلى طرفٍ عدوٍ في قلب الإعصار الذي يشتد ويعصف يوماً بعد يوم، حيثُ لا عدو قبل نظام الأسد أو بعده.

شيءٌ ما بدأ يثير الريبة في حفائظ القلب المستترة، ولم يكن بالوسع والمتاح البرهنة على أن المشهد المشهود يخالف المشهد المحفوظ في الذاكرة، ولسوف تمرُّ أكثر من ثلاث سنوات إضافية تالية بعد هذا التاريخ، حتى أتمكن من إعادة تركيب الصورة البانورامية المتباعدة

والمفخخة بمضامين يصعب تركيبها، والاستبانات المختلطة وغير المفهومة، ابتداءاً من تاريخ سقوط النظام وتحرر المحافظة، وصولاً إلى مرحلة الظهور الأولي لداعش، حتى اليوم.

كان السؤال الكبير الذي وَقَرَ في نفسي كالصخر الأصم دون جوابٍ شافٍ هو: كيف استطاع تنظيم داعش، على معرفتي وخبرتي العميقة بكل تفاصيل واقعه الداخلي، أن يهزم الثورة والثوار في المحافظة، وكيف استسلمت له قريباً من مائة وخمسين كتيبة مسلحة، معظمُها تملك من الإمكانات ما يفوقُهُ عدةً وعدداً وجاهزية. وإلى أن تكتمل الصورة في مساحة المنطق الذي يجب أن يشتفي بجواب صارم وواقعي، وقابل لأن يصح تبنيه موضوعياً، كان عليَّ أن أستفيد من مجموعة خبرات مختلفة في زمانها ومكانها، هذه الخبرات هي نقاط التماس التي تمنح الغموض شكلاً نهائياً وتضفي على الاستقراء الناقص كمالاً معقولاً وسمة موضوعية.. والخبرات المختلفة كان يجب عليَّ قراءتها بتمعن، وعبر ربط موضوعي ليكتمل معنى المشهد الملتبس في مخيلتي، وقد جاءت متسلسلة، وإن يكن ملف المدعوة"وردية خوشابا، المعروفة باسم أم رشا"، هو الأهم والأخطر من بين كل ما مر بي خلال أحداث الثورة المتعاقبة.

لست أنفي أيضاً أهمية ملف أسرى داعش بعد آخر المعارك مع التنظيم، في حرب الثلاثة عشر يوماً التي انتهت بهزيمة لواء ثوار الرقة وانسحابه من المحافظة، وسيطرة تنظيم داعش على كامل المحافظة.. هؤلاء الأسرى الذين وقعوا في قبضتنا من عناصر التنظيم، والذين توليت بنفسي مهمة استجوابهم والتحقيق معهم، هم من أوصلني بأول الخيوط، رغم أننا أوشكنا على الوصول إلى نهاية أثمرت عن خروجنا النهائي من الرقة، (ومن سوريا كلها)، وقد اضطُرِرْنا ـ أو اضطر معظمنا ـ أن ندخل الأراضي التركية مغادرين بلدنا وأهلنا ووطناً ولدنا فيه، وعشنا طيلة العمر في كنفه، لا نعرف ولم نعرف سواه وطناً بديلاً حتى تاريخه.. ولا سوى شعبه وناسه أهلاً وموئلاً نؤول إليه..ومن هذا الملف الأخير سوف تكون البداية، ومنه ستثمر الحكاية.

لن أتطرق إلى كل التفاصيل التي مرَّت بي أثناء التحقيق الذي قمت به مع عناصر داعش، الذين وقعوا في قبضة الثوار بعد تلك المعركة، وذلك تجنباً للإطالة التي قد تكون بلا فائدة. لكنني سوف أتوقف عند حديث طويل جرى بيني وبين أحد عناصر داعش، وهو المعروف بلقب"أبو ذياب"، حيث كان هذا الرجل هو وابنه ومعه بضعة عناصر، مكلفين من قبل التنظيم بحماية وحراسة المقرّ الذي كان معروفاً باسم"مقر المركبات"، وكان سجناً سرياً كبيراً بجانب مقام أويس القرني، حوى عدداً من الثوار وعناصر الجيش الحر، وكثيراً من الأهالي المدنيين الأبرياء. كثيرٌ من سجناء مقر المركبات هذا كان تنظيم داعش قد بلَّغهم الحكم عليهم بالإعدام رسمياً، وهم ينتظرون التنفيذ بهم بين يوم وآخر. وبعد أن تمّ الهجوم على مقر المركبات، وتحرير كافة السجناء منه، ألقيَ القبضُ على أمير المقر، أبو ذياب وابنه، وجميع العناصر الذين كانوا معه في المقرّ..

لم يكن أبو ذياب رجلاً حاد الذكاء، الأصدقُ أنه كان أصولياً متكتماً، وهو متدين تقليدي شديد الغموض. وكان يعيش آنئذٍ حالة يأس مُفظعٍ وإحباط شديد. مع اعتقادٍ وتوهمٍ مسبق بأن نتائج المعركة كانت تسير لصالحنا ضد التنظيم حتى ذلك التاريخ، أي في الأيام الأخيرة للمعركة. وللأمانة فإن هذا الاستجواب ماقبل الأخير، الذي أجريته معه في **مقر مدرسة البحتري**، حيث كنا نحتجز أسرى داعش الذين وقع معظمُهُم في قبضة الثوار في الأيام الأربعة أو الخمسة الأولى من بدء المعركة، وحيث كانت النتائج الأولية لسير القتال ضد التنظيم توحي وكأن التنظيم قد استسلم، أو بات على وشك الانهيار والتسليم حتى اليوم الخامس أو السادس من بدء القتال.

كان أبو ذياب، وبقية الأسرى الآخرين معزولين عن آخر الأخبار وتطور سير القتال خارج المبنى، ومستسلمين لفكرة أن التنظيم قد بات على وشك الاندحار والتسليم، مع أن الحقيقة كانت عكس ذلك تماماً، فقد كنت أنهي استجواباً سريعاً معه ومع بقية الأسرى على وجه السرعة، ونحن في لواء ثوار الرقة نتحضر ونتجهز للانسحاب من المدينة، بل ومن المحافظة كلها بعد أن تمَّ حصر كل مجموعاتنا و قوتنا في مكان تجمع واحد في حي الرميلة شرقي المدينة، وحيث كانت ذخيرتُنا قد نضبت أو أوشكت على الانتهاء. كان العالم ـ الذي يدعي محاربة داعش اليوم ـ كله يرقب المعركة عن كثب، وخلال ثلاثة عشر يوماً في قتال متواصل لم يُقدَّم للمقاتلين رصاصة واحدة، ولا لقمة خبزٍ واحدة، فضلاً عن خيانة تنظيم أحرار الشام وجبهة النصرة وخذلانهم لنا، وانسحابهم المُبَيَّت سراً مع داعش، (وهذا موضوع آخر سوف أتحدث فيه لاحقاً).. ثمة كان هذا الحوار المثير في ذلك الظرف الاستثنائي والشديد الخصوصية.. وكنتُ حينئذٍ في حالة من المشافهة الصريحة والمباسطة الخالية من كل تكلف، أردد أمام أبو ذياب: أنت رجلٌ كبير السن. مؤمن بالله، وقضيتَ عمراً في الإخلاص للدين والعمل من أجل الآخرة، فكيف ارتضيتَ بأن تكونَ جزءاً من آلة إجرام وقتل لأهلك والناس في محيطك؟ كيف تقبل بتكفير أبناء شعبك واعتقالهم وتعذيبهم وإعدامهم كم كان يفعل النظام بالضبط، وقتال ثائرين تصدوا لنظام الأسد الباغي المجرم؟ لماذا

تهادن وتسكت على هذا البغي الصريح.. ولماذا دمرتم هذه الثورة وقتلتم خيرة ثوارها؟ ما الغاية التي جنيتموها من كلِّ هذا الذي أقدمتم عليه واجترحتموه بحق البلد والثوار والناس جميعاً..؟

كنتُ أردِدُ على مسامع أبو ذياب هذه المعاني، فإذا به فجأة يتغير، ويسألني بخوفٍ ووجلٍ: هل نحن وحدنا في هذه الغرفة؟ قلت: أجل، لا يوجد سوانا في الغرفة.. أنا وأنت فقط.. قال: أريد أن أُسِرَّ لك بسر خاص.. وأدركُ سلفاً أنك لن تصدقني.. إنني أخاف منهم أكثر منكم. أجبته بلامبالاة: هذا حديث ضعيف يا أبو ذياب ولم يعد له أية فائدة أو معنى، وأساليب مستهلكة تفوح منها رائحة المكر.. قال: أعلم بأنك تتوقعُ مني حيلة ما، أتدبرها لكي أنجو بنفسي، وأحب سلفاً أن أطمئنك بأنني لا أتوقع نجاةً لنفسي بعد الآن، وأعلم مسبقاً بأنني ميّت لا محالة، وأنني انتهيتُ مرة واحدة وإلى الأبد. لا أطالب بشفقة من أحد ولست أفكرُ بمصيرٍ آخر سوى الموت.. لم يعدْ كلُّ ذلك مهماً بالنسبة لي .. مايهمني الآن هو أن أنصحكم جميعاً بأن تنسحبوا وتتجنبوا قتالهم. لا أمل لكم، ولن تنتصروا مهما فعلتم..

أظهرتُ برود مقصوداً وأنا أستمعُ إلى كلمات أبوذياب، رغم الغيظ الشديد الذي خلَّفته كلماته في نفسي. وأردتُ مجابهته وأن أناكفه بنفس الطريقة المغيظة التي يتعمدُها، فقلتُ: لقد قُضِيَ الأمر وانتصرنا.. هُزِمَت داعش، ونحن الآن في الساعات الأخيرة قبل انتهاء المعركة.. أجاب بثقة مطلقة: لا أعتقد ذلك.. لن تهزموهم، لأنك لا تعلم من يقفُ وراءهم.. قلتُ: بلى أنا على دراية تامة بمن يقف وراءهم ؛ النظام وإيران والخليج وتركيا وأمريكا و و..كل العالم تقريباً.. هل تريد أن أعدد لك من يقفُ وراءهم ويساندهم؟ ثمَّ ما شأنُ تلك الغرفة الخاصة في مبنى المحافظة.. المحرم الدخول إليها حتى على الوالي وكبار الأمنيين والأمراء..؟ والتي تُدار منها كل العمليات السرية وتَصْدرُ الأوامر إلى الأمراء وإلى الولاة وإلى جميع القادة.. قال: لا أعلم شيئاً.. أجبته برِقّة: أبو ذياب، لا تذهبْ إلى الموت وأنت تكذب.. فهتف منفعلاً: إسأل قريبك وصديقك أيسر.. ثم عقّب بالقول: لقد كان قريباً من النصرة وموضع أسرار أبو سعد الحضرمي، ومن المؤكد أن أبو سعد قد حدثه بهذه التفاصيل قبل استشهاده.. خُيِّلَ إليَّ للحظة أن أبو ذياب يريد أن يلقي بسره من طرْفٍ خفي دون أن يتركَ مستمسكاً يدينه أو أثراً يخلفه أو يدل على شهادته. فأجبته ببرود مستفز وأقرب إلى الاستخفاف: أبوذياب.. أنت تعلم أن أيسر قد هرب من المحافظة كلها منذ أن قتلتم أبو سعد الحضرمي .. وتريد أن تبعد شاهدك كثيراً.. أجاب بثقة حسدتُه عليها يومئذ: على أية حال أيسر لم يجاوز تركيا، ولن يذهب أبعد منها. وأورفا أوعينتاب ليستا على ظهر المريخ، وهي على مرمى حجر منك، فأي شاهدٍ أريد أن أبعده..؟ قلت: حسناً.. هل تصادق على ما سوف يصارحني به أيسر.. هذا على فرضية أنني عثرتُ عليه يوماً ما، وعلى فرض أنه رضي بأن يفاتحني بـ"سر مبنى المحافظة الكبير".. أجاب بسرعة: نعم.. سأشهد له بكل مايقول.. وما سيقوله لم يعد سراً على أية حال، إذ كل سرٍّ جاوز الثلاثة شاع.. فكيف إذا جاوز السبعة أو العشرة ..؟ وأنا على ثقة بأنه سوف يقول كل شيء.. أجبته ضاحكاً: أما زلتَ مرعوباً أن يُصفيك (سيادة المقدم أبو لقمان) إذا اتضح له بأنك أفضيتَ إليَّ بسره الكبير؟ تظاهر أبو ذياب بأنه لم يسمع العبارة الأخيرة، أو أنه لم يفهمها جيداً.. ثمَّ قال: سبق أن قلت لك، أعلم بأنني انتهيت.. في السابق.. نعم.. كنتُ وما زلتُ مرعوباً أن انتهي على يد أبو لقمان. إذ يكفيه أن ينطق بالحكم عليَّ ويسلمني إلى أبو أنس العراقي أو خلف الحلوس.. ولقد قالها الرجل لي صراحة، ومواجهة صبَّها في مسمعي.. قال: أبو ذياب، بينك وبين"الهوتة" ليس أكثر من أن تنطق بحرف أو كلمة قد تؤذي التنظيم.. وأولادك وعائلتك أولى بك من"الهوتة" فانتبه لنفسك جيداً.. اليوم أنا لستُ خائفاً، لا من أبو لقمان ولا من غيره.. فالاستعداد لتَقَبُّل فكرة الموت والنهاية تحررك من جميع الأوهام..

الثورة في الرقة بين "المخابرات الجوية" و"داعش"(1)

مضينا بعد هذا الحوار بيني وبين أبو ذياب بيوم أو يومين باتجاه بلدة"صرين"، في ريف حلب المتاخم للحدود التركية، واصطحبنا الأسرى معنا. تنقلنا بين منبج وصرين، ثم اتخذتُ خلال أيام قراراً بدخول الأراضي التركية لمساعدة أسرتي على الخروج من الرقة، وبعد حوالي أسبوع سلَّمتُ الأسرى وكل مافي عهدتي للواء، ودخلتُ مع بعض شباب اللواء إلى الأراضي التركية.. مضت أشهر بعد ذلك، وأنا أفتشُ عن أثر يوصلني إلى أيسر، وأنا أستعد للقائه، وحقاً لم يذهب تفتيشي عن مكان إقامته سدى، فقد التقينا بعد ذلك، وصارحته بارتيابي ومبعث قلقي الخاص دون أن آتي على مجرى الحديث والمحاورة الأخيرة بيني وبين أبو ذياب، ولحسن الحظ فقد قرر أيسر أن يتحدثَ أخيراً في الموضوع.. وهذا ملخص روايته كاملة، أرويها كما سمعتها منه:

قال: كنتُ مقرباً من جبهة النصرة بحكم صداقة وثيقة ربطتني بشخص أبرز مؤسسيها وأميرها في الرقة، ابراهيم العبد الله المعروف لدى الجميع بلقبه "أبو سعد الحضرمي"(2)، الذي تولى الإمارة فيها في الفترة التي سبقت ظهور داعش، وبعد ظهورها ببضعة اسابيع.

وكان أبو سعد بالنسبة لي أكثر من صديق شخصي، وأكثر من أخ روحي.. وحين تولى الإمارة على النصرة في الرقة لم تنقطع أسباب تلك الأخوة والصداقة القديمة فيما بيننا.. طلب مني أبو سعد في وقت مبكرٍ أن أتولى مهمة تولي مكتب الحبوب في العراءات وصوامع الحبوب في المحافظة. وكانت مهمتي سهلة وبسيطة، كنتُ موظفاً في مهمة أمين مستودع، وكل مهمتي أن أتلقى أوامر صرف الكميات المطلوبة، وتسليم كميات الحبوب الممهورة بأختام الأمير المسؤول عن عراءات الحبوب في المحافظة، ثم توقيع والي المحافظة شخصياً، والذي كان حتى ساعتئذٍ هو أبو سعد الحضرمي نفسه..

في هذه الفترة وصل أحد التجار من حلب.. كان ذلك التاجر من معارفي القدامى، وقد عرفته سابقاً بصفته سمساراً يعمل لدى جميع دوائر الحكومة، وكل الأجهزة الأمنية في تخليص مهمات مستعصية وخاصة، كتسريح عسكري من الجيش مثلاً، أو نقل عساكر في الخدمة الإجبارية من قطعة إلى قطعة، وتسوية أوضاع مهربين ومجرمين محكومين من سائر الأحكام القضائية، وسائر الإشكالات القانونية لدى الدولة والأجهزة المدنية والعسكرية. اتصلتْ معرفتي القديمة بالرجل بعد أن توكَّلَ لي في مهمة سابقة، قبض عمولتها كالعادة، وأبلغني أنه موفد من قبل الفصائل المقاتلة، ومجلس محافظة حلب في مهمة رسمية لشراء كمية كبيرة من الشعير والحنطة. استقبلتُ الرجلَ استقبالاً حسناً، وقدمتُ له السعر المكلف بعرضه من قبل جبهة النصرة لكل راغب بالشراء..

اتفقنا على السعر، وحساب الكمية المطلوبة، والثمن الإجمالي المترتب على البضاعة، ووعدته بتأمين سيارات الشحن والحمالين صباحاً لنقل كميات الحبوب وتهيئتها، قبل انطلاقها إلى حلب منذ باكر صباح اليوم التالي، ثم وقعت له العقد، وطلبتُ منه أن يتوجه إلى المحافظة، ليوقع على موافقة المسؤول وأمير المحافظة.. وأخبرتُه أنني سأنتظر عودته لنشرع في البدء بتحميل الكمية.. وذهب الرجل متجهاً إلى مبنى المحافظة.. غاب قرابة أقل من ساعة زمنية، وما لبث أن عاد مسرعاً إليّ.. لكنه عاد بغير الوجه الذي ذهب به.

عادَ مُصفرَّ السحنة مرعوباً، يتخبط في السير ويتأتىءُ في الكلام، وبدا جلياً أنه لم يكن على مايرام، وأن حدثاً جللاً قد ألمَّ به بعد رحيله إلى مبنى المحافظة.. فسألتُه مستفسراً متعجباً من حاله، فقال فيما يشبه الرجاء والضراعة: (لا أريد الحبوب كلها.. إنسَ الصفقة والعقد والبضاعة.. أريد منك ياصديقي أن تخدمني هذه الخدمة الأخيرة التي لن أنساها لك ماحييت، وهي أن تؤمنَ لي السفر فوراً، وفي التو إلى حلب.. وأريدُ السفر مع شخص موثوق تضمنه.. ولن نخرج بالطبع من مداخل المدينة المعتادة، بل يجبُ أن يلتفَّ السائق بي عبر طرق غير مألوفة وغير متوقعة، لأن حياتي أصبحت بعد الآن في خطر كم أعتقد.. أتوقع أن تتمَّ تصفيتي اليوم، أو بعد ساعات قريبة.. إنك لا تستطيعُ أن تستوعب حجم الخطر المُهدِّد، ولكن ثق أنني أصبحت منذ اللحظة في حكم الميت..).

هدأتُ من روع الرجل، وأكثرتُ من لومه على هذه المخاوف التي لامبرر لها ولا مسوغ، وطمأنتُهُ بأنه في أمان وخير ولن يصيبه أي مكروه.. ثم أحضرتُ له الطعام والشاي، وجلس الرجل المرتعد يروي لي ما الذي حصل له بعد أن فارقني منذ أكثر من ساعة، وغاب في ردهات مبنى قصر المحافظة.. حيث الإمارة الإسلامية والأمراء، وحيث "دار الخلافة التي يُدار حكم الله على الأرض منها، وتتحققُ حاكميته خارج جدرانها وداخلها".. أتوقع اليوم، أن الرجل قصَّ عليَّ ماحدث له ولم يكتمني من الأمر أي تفصيل، حتى لو كان صغيراً، لأنه بات على ظن يشبه اليقين بأنه أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، أو أنه مقبل على تصفية جسدية وشيكة. ولذلك أراد مني أن أكون آخر الشهود، فيما لو حصل له مكروه بغتة.. قال الرجل، بعد أن هدأ روعُهُ قليلاً:

وصلتُ إلى مبنى المحافظة كما أرشدتني.. لم تصادفني أية عقبات، واتجهتُ مباشرة إلى غرفة الأمير المسؤول عن المصادقة على بيع الحبوب في عموم المحافظة، ولقد وقَّع لي العقد بهدوء، وطلب مني أن أنتظر لحظات في الممر، ريثما يفرغ الوالي، أبو سعد، أو نائبه المكلف، فيصادقَ لي على أمر الصرف وتحميل الكمية، ويختمه كي أمضي عائداً إلى عراء الحبوب لاستلام بضاعتي وتحميلها من عندك كما اتفقنا .. في هذه الأثناء ارتكبتُ خطأً فظيعاً وغير مقصود ياصاحبي.. لا أدري حتى اللحظة كيف بدرَ مني ذلك التصرف، غير أن الأمر مضى بقضاء الله وإرادته، وحصل ماحصل..

وجدتُ جانباً غرفة نصف مغلقة، وكنتُ قد ظننت أنها الغرفة التي يجب عليَّ أن أدخلها لأقابل الوالي الذي سيوقع لي عقد شرائي للحبوب.. فتحتُ الباب صدفةً، فإذا بي وجهاً لوجه أمام صديقي القديم: "اللواء أديب نمر سلامة، رئيس فرع المخابرات الجوية في سوريا"، وأشهر ضابط استخبارات فيها.. والمصيبة كانت أنني أعرف الرجل منذ سنين طويلة، والرجل يعرفني حق المعرفة.. إذ طالما زرتُهُ وجالستُه في مكتبه، ودعوته إلى ولائم وأهديته الهدايا.. إنني أعرفُ الرجل لكثرة معاملاتي، معه، وما أكثر مالبى لي من عشرات الخدمات مقابل عمولات فيما بيننا.. لا، بل أكثر من ذلك إنني أعرف الرجل, وأعرف أسرته الصغيرة فرداً فرداً لكثرة ترددي عليه في

الماضي، وكما أعرف ابني أو زوجتي، وكما أميز وجهُ أبي من بين آلاف الوجوه .. وهو يعرفني أيضاً بنفس الدرجة.... كان بيننا حديث وصداقة في الماضي إلى حد رفع الكلفة.. وقد عرفني الرجل الذي كان يجلس خلف مكتبه في تلك الغرفة وعرفته، وسلمتُ عليه وسلَّمَ عليَّ.. كان قد أطال لحيته إلى مافوق السرة بقليل، وقد ظهر لي في تلك اللحظة بذاك الزي الأفغاني الغريب المظهر، والعمامة التي أتوقعُ أي إنسان في هذا الوجود ان يعتمرها إلا "سيادة اللواء أديب سلامة"، وخلف مكتبه تمتد "راية الدولة الإسلامية"، على امتداد الجدار، وتغطي جدرانها بالسواد.. اللواء أديب نمر سلامة رئيس الاستخبارات الجوية، والرجل الأول استخباراتياً في سوريا كلها، هو أمير الدولة الإسلامية(3).. وهو من يقودها من تلك الغرفة، ولا أظنُهُ سوف يسمح بهروبي أو يتركني على قيد الحياة بعد أن كشفتُ سرَّه ورأيتُ مارأيت.. لقد رأيته ياصديقي ورآني، وانكشفتُ له وتكشفَ لي.. وما أحسبه إلا قاتلي الليلة هذه، فأنا أعرفه جيداً، وأعرف هؤلاء القوم كيف يفكرون وكيف يتصرفون..ما من شكٍ عندي..

هدَّأتُ الرجل، ونبّهتُهُ بأن ما يقوله ربما يكون كلُّه اختلاطات وهلوسات أو سوء تقدير، أو في أسوأ الأحوال، ربما خُيِّل إليه أو شُبِّهَ له بشخص آخر، وكم يوجد في هذه الحياة من مصادفات مناطُها الشبهُ الشديد بين الناس.. أجابني الرجل برجاء ولهفة: أخي أنا أريد العودة فوراً إلى بلدي.. في التو والساعة.. وبعد ذلك، لتحسبني مهلوساً أو مشتبِهاً به أو بغيره، لا يهم.. ما أريده هو النفاذ بجلدي والنجاة بحياتي..

اضطُرني الرجل نتيجة إلحاحه أن أتصل بأحد معارفي من سائقي سيارات الأجرة، وحضر السائق بعد قليل، فأوصيته بالرجل خيراً، وأوصيته أن يتلطف بالخروج من المحافظة إلى حلب ما أمكنه، وأن يؤمن وصول هذا الضيف إلى أهله بسلام.. وبالفعل، ركب الرجل السيارة وغادر، ولم أطمئن إلا بعد أن اتصل بي بعد ساعات، بأنه وصل إلى بيته بأمان وسلام، وشكرني على معروفي وحسن استقبالي وتوديعي له.

بعد مغادرة الرجل اتصلت بـ"أبو سعد الحضرمي" مباشرة، وأخبرته بأن هناك أمراً جللاً لابد من مقابلته لعرضه عليه ومناقشته، فطلب مني أبو سعد الحضور فوراً، وذهبت إليه.. ذهبتُ وأنا غير مقتنع ومستيقن من رواية التاجر الحلبي، وأغلب ما ساورني من شكوك وقتها أن الرجل قد ظن ظناً أوتوهم توهماً، وأن حالة من اختلاط الشبه بين الأشخاص قد ساورته للحظات وأرعبته كل هذا الرعب الذي انتابه..

وحين اجتمعت بـ"أبو سعد الحضرمي"، وقصصتُ عليه بالتفصيل كل الذي جرى وسمعته على لسان ذلك التاجر الحلبي، توقعت مبدئياً أن أجد علامات الاستغراب والدهشة وقد أخذت ترتسم على وجهه أو تطفو على ملامحه، لكن الذي زاد استغرابي أن "أبو سعد" سمع روايتي بهدوء شديد.. لم يتفاجأ بحرف مما رويت، وبدا لي وكأن الأمر كان عادياً بالنسبة إليه، أو أكثر من عادي، أو كأنه مطلع على هذه المعلومة منذ زمن بعيد، فهي من منسياته كما يقول المثل.. أخيراً فتح أبو سعد فمه، وأجابني بهدوء: "الرجلُ كان صادقاً في كل ما روى وشاهد.". أجفلتُ من جواب"أبو سعد"، وهالني ما أسمع.. فهتفت بلا دراية أو احتشام في الكلام: "ماذا تقول يارجل..؟ اللواء رئيس المخابرات الجوية هو..؟؟؟".. هز أبو سعد رأسه، وابتسم بمرارة وقال: "قريباً ستسمع الكثير.. وستفاجَأ بالكثير.. سأهمس لك حين يحين الأوان المناسب بما لا تستطيع تصديقه". قلت: "والآن.. ما العمل؟ هذا يعني أن مبنى المحافظة لم يُحرر.. وأن النظام ما يزال يحكم الرقة من داخله.. فقط الخطة هي وحدها ماتغير.. وأنت.. أنت ماذا ستفعل؟" أجاب أبو سعد بهدوء: "أنا ليس أمامي إلا خيار وحيد: هو أن أفرَّ من هذا المكان، أنا ومن معي من الشباب.. وقد حسمنا الأمر وجهزنا خطة الرحيل.. المصيبة أنهم باتوا يعلمون بأنني أصبحتُ مطلعاً على سرّهم الكبير، بل على بيادر عالية من أسرارهم الخفية التي ستهز العالم..".

ثم أردف بعد صمت قصير: وأنا أعلم، كما تعلمُ ويعلمُ غيرك، أنهم لن يسمحوا بذيوع هذه الأخبار وإباحة هذه الأسرار.. الموت هو القرار الوحيد الذي ينتظر كل من اطَّلَعَ على تلك الغرفة السرية في مبنى المحافظة، وعَرَفَ أسرارها ومن تضم وماذا تحتوي.. وكاشفُ سر داعش لن تحويه أرض ولن تتسع له سماء.. سأحدثك بالحديثِ مطولاً.. ولكن فيما بعد..

ولم يحدثني أبو سعد بعد هذا اللقاء؛ ولم نلتقِ قط بعدها.. بعد أيام قليلة خرج هارباً إلى قلعة جعبر، ومعه قريباً من أربعين شاباً حيث تحصَّنوا فيها.. وبعد حوالي السنة من ذلك التاريخ، تمكنوا من خطفه بحيلة، وقاموا بإعدامه على وجه السرعة.. وكلُّ ما استطعتُ أن استزيدُهُ من قول عقب ذلك اللقاء الأخير، هو سؤالي له: وأبو لقمان.. والي المحافظة، وأميرُها، ونائب الخليفة في الرقة كما يزعمون..؟

أجابني على الفور، بحسم ودون تردد: أبو لقمان ضابط سري في المخابرات الجوية، وهو رجل اللواء سلامة الأول في التنظيم، وذراعُه اليمين منذ ماقبل فترة دخوله إلى سجن صيدنايا..

غاب أبو سعد الحضرمي رحمه الله.. أعدمته داعش وأخمدت صوتَه إلى الأبد، وبقي من شهود إثبات الرواية صديقي أيسر، وصديقه التاجر الحلبي، واللواء أديب نمر سلامة مؤسس الدولة الإسلامية في العراق والشام، ومرجعُها الأول في هذه الديار التي باتت اليوم كالأطلال، وفي وطن تعَهَّدت داعش أن تسير به نحو التبخر والزوال..

شروق الأسئلة وغروب الأجوبة(داعش أو نحرق البلد):

أتوقعُ من بعض القراء أن يجد في فكرتي الخاصة عن الدولة العميقة، تطبيقاً نظرياً وعصفاً ذهنياً يميل إلى الاستهانة بمنطق الواقع، لصالح خلفية تحليلية تستسهل نظرية المؤامرة، وتجد راحتها في بعض الحلول الخفيفة التي لا يسندها إلا عقلٌ متشبعٌ برغبة مسبقة بإدانة جهة ما، وبأن يُسندَ كلَّ الحوادث إلى مؤامرة ما.. مؤامرة يُعَلِّقُ على مشجبها كل فشل، لتسريع الوصول إلى إجابات سهلة بطريقة من طرق الاستقراء الصوري.. هذا من حق القارئ بالطبع، ومن حقه أكثر أن لا يرى في روايتي التي نقلتُها قريباً من الحَرْفية عن الحوار الذي دار بيني وبين أبو ذياب، إلا تُرَّهات وخواء في الإستنتاج، (إن شاء ذلك)، فلربما كان أبو ذياب أسيراً انسدت في وجهه أبواب الأمل، فهو يكذب ويلفق ويتقول أقاويل لا يمكن أن يؤبه لها في لحظة رعب حاسمة وقلق إنساني مشروع. بل لعل رواية أيسر المستقلة، والمتممة لرواية أبو ذياب ماهي إلا "نمائم مزركشة"، وأكاذيب أخرى مضافة، ورواية لا تسندها أية حقائق ولا يثبتها شهودٌ مؤكدون.. مع هذا فلسوف أمضي في تطبيقي الافتراضي لواقعة"الدولة العميقة"، محاولاً أن أستوعب كل ماتجمع لي من قرائن للبرهنة عليها.. وهي، أي الدولة العميقة، خلية عمل وإدارة مجهولة، يصعب التكهن المسبق المقاصد بأعضائها وأعدادها، ونسبة هؤلاء الأعضاء إلى جهات أو إلى دول هو أمر متعذر، إن لم يكن مستحيلاً في الظروف الحالية، فضلاً عن كونه انحيازاً وعدم حياد في الاستنتاج..

لو حاولتُ أن أرسمَ رسماً إحداثياً لتطبيق تلك الفرضية على الواقع، لوسعني أن أتخيلَها على شكل هرم، هرم قمته (المنفصلة عنه)، تقع في نقطة متعينة في مطار الطبقة العسكري، ومن هناك كانت تُدار زوايا الهرم الأربعة، ومواضعة هذه القمة المشرفة على الهرم تشرف عليها أعلى سلطة في فرع المخابرات الجوية في البلاد، مع الفرع الرسمي المتواجد في مطار الطبقة، مع قاعدته الرباعية(التنفيذية)، المتوزعة على أفرع المخابرات العسكرية في دير الزور بإشراف اللواء جامع جامع، واللواء 93 ثم الفرقة 17، ثم ـ أخيراً ـ المكتب السري الخاص داخل مبنى المحافظة في الرقة، الموكول إليه إدراة وتسيير آلة تنظيم داعش بإشراف مباشر. والذي استمسكت به جبهة النصرة منذ البداية، وقاتلت دون تسليمه لأحد، ثم انتهى هذا المبنى، مبنى المحافظة، ليكون المكتب الرسمي الأول لداعش، ومركز إدارتها العامة للرقة، بل ولكافة الجغرافيا السورية التي أعَدُّوها لتتبع مايسمى بالدولة الإسلامية في الشام.. الهرم المربع الزوايا، برأسه وقاعدته، كان أيضاً يتربع على ملحقات، بعضُها سري ظل يتابع عمله دون اضطراب أو ارتباك حتى بعد تاريخ مابعد التحرير، وبعد سقوط النظام رسمياً في الرقة، وأهم خلاياه السرية كانت تتحرك وتتواصل مع بعضها البعض إما عن طريق منازل وشقق، أو حوانيت ومحلات عامة، وكانت نقاطها ومراكزها متوزعة في كل جهات المحافظة الأربع؛ مدينةً وريفاً.. وبعضُها الآخر علني، لم يكن له من الصلاحية والمرجعية أكثر من أن يتلقى الخطط والأوامر التنفيذية من الدولة العميقة، التي كانت تتربع فوق قمة وأضلاع الهرم الذي نوَّهتُ عنه آنفاً.. أمثلتُها في ذلك، تلك المراكز المعلنة الظاهرة للجمهور، كمفرزة المخابرات العسكرية الرسمية التي تتبع رسمياً لفرع دير الزور، وفرع المخابرات السياسية، ثم مفرزة المخابرات الجوية، إضافة إلى مراكز أمنية سرية غير بادية للعيان، سوف أتحدث عنها لاحقاً.. وقبل التحرير بوقت قصير، وبعد التحرير مباشرة، انضم إلى هذا الهيكل التنظيمي الأشدَّ إرعاباً، كتائب أبو جاسم الأمن العسكري القتالية، التي انضمت باكراً أو في وقتٍ من الأوقات إلى الجيش الحر، والكتائب المسلحة من عناصر الدفاع الوطني أو الشعبي، وهي ميليشيات مرتزقة ضمت بعثيين وسواهم..

بقي واجباً أن أُذَكِّر بأن الدولة العميقة لم تكن تتبع للنظام السوري تبعية مباشرة، وإنما كانت تنسقُ معه حسب الحاجة والضرورة، وأحياناً كانت تعلو فوق قراراته، وتخفي عنه كثيراً من التحركات والسياسات التي تتبعها. لكن الأدعى التفاتاً هو أن الملفات الأمنية لفروع المخابرات التي سقطت عقب تحرير الرقة مباشرة، والتي كان يجب أن تقع في حوزة الثوار مباشرة،(من المدنيين أو كتائب الجيش الحر)، إنما تمت المسارعة والتحوط عليها من قبل جبهة النصرة مباشرة، (والتي حرصت داعش لاحقاً على استلامها من

النصرة بالمقابل)، وإعدام كل أثر لها، ومنع أية جهة أو فئة أو فصيل ثوري من الاطلاع عليها، أو الوقوف على فكرة ولو بسيطة موجزة عنها. لقد حمت النُصرة ملفات أمن النظام في المحافظة، أو تحوطت عليها، مع العلم أن عناصر النصرة القتاليين الذين شاركوا بقية الفصائل في الهجوم الكبير على الرقة، وإعلان تحريرها وسقوط النظام فيها، لم يكونوا يتجاوزون في أحسن الأحوال خمسين مقاتلاً، ولم يتجاوز عددهم هذا الرقم حتى لحظة سيطرة تنظيم داعش على كامل المدينة وسقوطها..

كانت جبهة النصرة بمقاييس تطور الأحداث، تبدو يومذاك وكأنها جزءٌ من واقع طبيعي لايمكن إنكاره أو الاجتياز من فوقه، ولم يكن للقاعدة بمعناها المرتسم في مخيلتنا أية شبهة معنى أو أثر أو دلالة خاصة.. أما داعش فحتى ذلك التاريخ لم نكن قد سمعنا بها بعد، أو حتى تخيلنا شيئاً مما وقع بعد ذلك، ولو في استيهامة عابرة من خيال، مهما بلغت وبالغت خصوبة خيالاتنا يومئذ.

لا أريدُ أن أشطَّ بخيالي في نظرية مؤامرة قد لا يكون بوسعي أن أبرهن عليها، لكن مقاربة الموضوع قليلاً ربما تسمح لي أن أرصدَ وصول كل هؤلاء الخريجين من الجامعات الروسية إلى مواقع مؤثرة وفي وقت مبكر نسبياً، كما أستطيعُ التأكيد بأن مهنيتهم وفعاليتهم كانت ذاتَ درابة واضحة، وصورة أولية من صور خبرة لا يستهان بها في الشأن الثوري العام. إذن للذكرى يجب أن لا أغفلُ بأنه كان ثمة مجموعة كبيرة العدد، وذات وزن ملحوظ من الشباب المنخرطين في صفوف الثورة كلهم كانوا إما متخرجين من الجامعات الروسية المختلفة، أو هم قيد التخرج.. وفي عمر متقارب وسنوات تخرج قريبة من بعضها. بعضُهم كان يصرُّ على العمل من خلال "المكاتب الأمنية"، واستقصاء المعلومات عن كل صغيرة وكبيرة.. لكن أغلبيتَهم فضلت أن تظلَّ ممسكة بمفاصل الحراك العسكري منذ بداياته، والعمل على التأثير فيه وتوجيهه..

كيف اجتمع كلُّ هؤلاء فجأة وصدفة في ثورتنا؟.. أمامي الآن لائحة اسمية بحوالي أكثر من عشرين اسماً، كلُّهم تخرجوا من جامعات روسية، وكلُّهم أمسكوا، ومنذ بداية الثورة، مواقع هامة وحساسة؛ كقادة ميدانيين أو قادة أمنيين. على سبيل المثال لا الحصر، أستطاع الدكتور سامر مطيران، أبو العباس، أن يقفز إلى قيادة أقوى تشكيل عسكري في الثورة في الرقة في الجيش الحر عامة قبل التحرير، جبهة الوحدة والتحرير.. وفي فترة الخلافات والانقسامات التي تلت هذه المرحلة بعد تحرير الرقة مباشرة، استقال الدكتور سامر، ونأى بنفسه عن الوحدة والتحرير تحت مسمى جبهة التوحيد. وطبعاً بعد أن سلم قيادة التحرير لأحد "جماعة روسيا" وخريجي جامعاتها، مع العلم أن جبهة التحرير الجديدة التي أعلنها الدكتور سامر ظلت تنسق لاحقاً، بصورة يومية ومباشرة مع جبهة النصرة، وعن طريق الدكتور سامر حصراً، ومع الجناح الداعشي في جبهة النصرة لاحقاً، حيث كان عنصر التواصل اليومي بينه وبين النصرة/داعش تالياً، المدعو عبد الرحمن الفيصل، المعروف بلقب"أبو فيصل" ، وهو الذراع اليمنى لأبو لقمان، وأبرز مساعديه.. ثم شيئاً فشيئاً، تطور واقع الحال، فبايعت "جبهة التحرير" التي يقودها الدكتور سامر النصرة، وأصبحت كتيبة تابعة لها، أما هو فقد انتهى إلى أن ترك رفقاءه آخر الامر، وبايع تنظيم داعش رسمياً وانضمَّ إليه..

في الوقت نفسه عمل هذا الشخص الاستثنائي حقاً، على توهين جبهة التحرير الجديدة،(على ما كانت عليه من وهن) وتقطيعها، حتى انتهت إلى انحلال مؤكد، فلم يحوج داعش للهجوم عليها وتفكيكها كما اضْطُرت سابقاً أن تتعامل مع لواء "أحفاد الرسول"، الذي أجهزت عليه بالقوة، ولقد اتُهِمَ يومها الدكتور سامر نفسه بإدخال السيارة المفخخة التي فتكت بقادة اللواء، وإن يكنْ قد أصدر بياناً شخصياً بعد مرور أشهر طويلة على اتهامه بالحادثة، يتبرأ فيه من مسؤوليته عن التفجير الذي أودى بقيادة أحفاد الرسول، ويتنكر له.. كما أن اللافت للنظر، أن خطة الهجوم على الرقة وتحريرها كانت جبهة النصرة أكثر المتحمسين لها، (على قلة مقاتليها)، وقد اتخذ الدكتور سامر القرار شراكة مع النصرة، ودخل الرقة وجبهته، (الوحدة والتحرير يومذاك قبل انقسامها)، وكانت تعدل أكثر من سبعمائة مقاتل، عدا عن لواء الناصر صلاح الدين وحذيفة اللذين كانا متحالفين معها.. مع هذا التفاوت المهول في موازين قوى التشكيلات المُحرِرة، فإن الدكتور سامر سرعان ماوضع يده على مبنى قصر المحافظ، الذي تجمعت فيه معظم قيادات النظام الأسدي يومذاك؛ المحافظ وأمين الفرع، (اللذان تمَّ تهريبُهما فيما بعد)، وبعض القيادات الأمنية، وعدد من مسؤولي الدولة والحزب، فضلاً عن أكثر من مائتين وخمسين عنصراً من الحماية الخاصة بهؤلاء..

وقبل المعركة الأخيرة مع تنظيم داعش، لم يعد ثمة شك لدى أيٍ من ثوار الرقة، المدنيين والمقاتلين، بالدور الحاسم الذي لعبه الدكتور سامر في الاقتصاص التدريجي من الثورة والثوار لصالح داعش، وإن يكن قد أتقن لعب دور المتذمر والحانق الغاضب من التنظيم،

والاختباء خلف ولاء تمويهي مزعوم بمبايعة جبهة النصرة والالتجاء إليها. ثم الإعلان أخيراً بأنه تخلى عن العمل العسكري والثوري، وآثر الاعتزال في بيته في القرية.

كل ذلك كان يجري بحسابات مدروسة، انتهت أخيراً لصالح تنظيم داعش. أذكر أنني بعد تحرير الرقة مباشرة، قد تابعت الاجتماع به ونصحه بشدة وحثه على المساعدة في إعادة هيكلة بنيةٍ مدنية ومؤسساتية مدروسة، وممسوكة منذ أول أيام التحرير، حتى لا يذهبَ نصرُنا هباءً، ويضيع التحرير الذي حققته المحافظة سدى، وذلك بإعادة مأسَسة دوائر الدولة والقوى العسكرية والمدنية، والعمل على تنظيمها حتى لا يغرق المركب بمن فيه.. تململ قليلاً قبل أن يسألني إن كان ذلك ممكناً! أو يمكن وضع تصور معين لهذه الإدارة..؟ وحين قدّمتُ له خطة عمل مدروسة ومشروعاً متكاملاً، وشرحت له الخطوات التنفيذية للانتقال بهذا الواقع المستغلِق، الذي لا يوحي بأنه يمضي نحو هدف معلوم أو مُرَشح للاستقرار، وجدته قد تبرم من الفكرة، ولم يزدْ على أن أجاب باقتضاب:(أنا مقاتل.. وشغلتي المرابطة على اللواء 93.. وما من خطتي أو أهدافي اني أعملْ دولة بالرقة).

وقبل المعركة الأخيرة، جمع عدداً من الآليات المدنية والخدمية التي كانت في عهدة جبهته، (تقدر قيمتها بمئات الملايين)، ولم يكن في حساب أحد أنه ربما يخطط لتسليمها لتنظيم داعش، قبل أن يعلنَ انسحاباً مزعوماً وتمثيلية استقالة من كل عمل ثوري. ولقد اتصل بي قبل المعركة بفترة قصيرة، ليسألني بإلحاح أن أمارس ضغطاً على أبو عيسى من أجل مولدة كهرباء رئيسية ضخمة القدرات، كان بعض عناصر لواء ثوار الرقة قد أودعوها في مرآب آليات البلدية، وحين سألته: وماعلاقتي أنا بهكذا موضوع؟ قال: أنت أكثر من يستطيع الضغط والتأثير على أبو عيسى. فوعدته أن أتقصى الموضوع، ثم تناسيته.. فإذا به يعاود الاتصال بي في اليوم التالي، ويستأذنني في أن يزورني في بيتي، وكنت أحسب أنه يبتغي زيارتي للتباحث في أمر مهم من شؤون الثورة أو وضع المدينة.. فإذا به فور التقائنا يعاود الطلب بإلحاح حول موضوع المولدة المذكورة.. وحين اتصلتُ بأبو عيسى لاستفسر منه عن قصة المولدة، أجابني بأن هذه المولدة الكهربائية هي آخر مولدة كهربائية باتت في حوزة المدينة، وأنه راسل الهيئة الشرعية المكلفة عن إدارة الشؤون المدنية لكي تتسلمها وتتحفظ عليها، تحسباً لأي طارئ، وللحاجة إليها في الضرورة القصوى.. وأبلغتُ الدكتور سامر بجواب أبوعيسى، فنهض غاضباً وخرج من عندي وقد راح يكيل الشتائم والاتهامات لأبوعيسى..

أدركتُ فيما بعد حجم وخطورة الدور الذي لعبه الدكتور سامر في الفتك بالثورة في الرقة، ومساعدة تنظيم داعش بكل الطرق والوسائل في السيطرة على مقدرات المدينة والمحافظة معاً. لقد فكك أكبر تنظيم عسكري تضافرت عوامل وظروف كثيرة على تأسيسه لحماية الثورة والرقة، وجمع سلاحه وعديد آلياته لكي يهبها هدية مجانية لتنظيم داعش. وقد أصبح فيما بعد واحداً من أهم الأمراء المؤثرين في التنظيم. وبعد انفجار القتال وإعلان المعركة بيننا وبين التنظيم وأثناءها، علمتُ بأنه كان يتجول على خطوط القتال داخل المدينة، ولقد استبد بي الغضب يومئذ، وطلبت من عناصر "كتيبة شهداء الغوطة"، الأمنية والقتالية التي كنت أشرفُ عليها وأتابعها، أنه من وجد منكم الدكتور سامر أثناء المعركة، فليطلق عليه النار دون تردد أو مراجعة أحد، غير أنه للأسف لم يعثر له على أي أثر فيما بعد.

سوف أعود أدراجي الآن، إلى حادثين منفصلين؛ حادثين تركا أثراً في نفسي يصعب علي أن أتجاوزه أو أن أتناساه بسهولة.. لقد أشرق فجرٌ من الأسئلة الصعبة والحائرة التي لا تلقى جواباً عليها من أي نوع كان، ولا يمكن أن يُمَرَّرا بسهولة تحت أي كلام أو مسوغ يمكن أن يغطي على مافيهما من حسٍ إجراميٍ غير عادي، كما لا يمكن لأي غطاء ديني أن يُدَثِّر أو يغطي على هذا السلوك بوفرة تبريرات مستهلكة وأجوبة باتت عاجزة عن تفسير مايحدث.. لقد بدأت ثورة الشك في داخلي من كل مايحيط ويجري من حولنا جميعاً، بعد هذين الحادثتين مباشرة.. قبل الحديث عن الحادثتين اللتين أثارتا ثورة الشك في نفسي، لا بد أن أمهد لأولاهما، أعني بها حادثة اختطاف الصيدلي نهاد الطيار من قبل جهة مجهولة، ثم الإفراج عنه في ظروف غامضة، واعتزاله العمل في الشأن العام لمدة تقارب السنتين، ثم ظهوره الثاني بصفته الجديدة: أميراً من أمراء داعش حتى يومنا هذا.. مُقدمةُ كل ذلك الذي جرى يمكن إجمالُها بما يلي:

نهاد الطيار شاب من أوائل المشاركين في الثورة، وكان صيدلانياً حائزاً على شهادته في الصيدلة من إحدى جامعات روسيا،.وقد حدثت واقعة اختطاف نهاد الطيار بعد تحرير المدينة،(لا قبله).. ربما كانت هذه الحادثة هي أول فعل عدواني مباشر ومقصود ضد أفراد محسوبين على الثورة في المحافظة.. وبعد ما يقارب أكثر من ثلاثة شهور تم الإفراج عنه. وحين التقيت بنهاد في مقر المجلس العسكري، وسألته عن التفاصيل، حدثني كيف استطاع الهرب لأول مرة من المكان الذي أُودِع فيه بعد الاختطاف مباشرة، وكان المكان يقع في منطقة الكسرات إلى الجنوب من نهر الفرات، وقريباً من فخيخة أو قرية السحل، أي في المنطقة المركزية التي تتبع لأبو لقمان

ومؤيديه.. وبعد إعادته إلى سجنه، تمَّ نقلُهُ من مكان اعتقاله إلى منطقة تقع شرقي المحافظة، قدَّرها هو تقديراً أن تكون قريبة من ناحية الكرامة أو المنخر. وحدثني بالتفصيل عن أساليب التحقيق المرعبة التي مورست عليه، والتي لا تصل إليها أجهزة مخابرات النظام، ولا ترقى إلى سوية الخبرة المتمكنة التي حازها أولئك المحققون. زيادة على هذا كله، فإن المحققين جميعاً لم يكونوا سوريين، بل عرب من شمال افريقيا، وبعض الأجانب الذين لايتقنون حتى الحديث باللغة العربية، وإنما تواصلوا معه أثناء التحقيق بوساطة مترجم.

الحادثة الثانية كانت هي الأخرى بعد التحرير مباشرة.. وتتلخص في اختفاء أكثر من خمسين عسكرياً منشقاً عند حاجز العكيرشي.. وكنا قد بُلِّغنا عن طريق مجموعات من الجيش الحر في ريف حلب وإدلب أنهم ساعدوا هذه المجموعة الكبيرة من العساكر المجندين على الانشقاق، وأنهم سهلوا لهم الوصول إلى محافظاتهم جميعاً. وأخبرونا بأن العساكر المنشقين من أهالي الرقة ودير الزور والحسكة سوف يصلون خلال أيام وعلى دفعات، بعضهم إلى الرقة، والآخرون إلى دير الزور والحسكة.. الغريب في الأمر أن أهالي هؤلاء المنشقين الذين كانوا يتابعون انشقاق أبنائهم وحركتهم وتنقلهم على الأرض، في كل لحظة، جعلوا يشتكون بأن أبناءهم المنشقين الذين قطع بعضهم مئات الكيلومترات، قد انقطع الاتصال بهم عند بلدة العكيرشي،(30 كلم شرقي الرقة من جهة الشامية على طريق دير الزور)، وهذه النقطة كان يتمركز فيها حاجز كبير للنصرة،(داعش لاحقاً)، وعند هذا الحاجز الذي ضمَّ عشرات العناصر من جبهة النصرة، كان يتم توقيف العساكر المنشقين واختفاؤهم نهائياً. كأن الأرض كانت تبتلعهم عند هذه النقطة. ولقد راجعنا الحاجز مستفسرين متسائلين عن سبب اختفاء أولئك المجندين المنشقين، فأجابوا بأنهم كانوا يستوقفونهم لساعات، أو ليومٍ أو يومين، للتحقق من شخصياتهم، ومن باب الاحتياطات الأمنية لاغير، قبل أن يطلقوا سراحهم لاحقاً. ولقد أدركنا بأن القوم كانوا يكذبون كذباً صُراحاً، وأن العساكر المنشقين قد اختفوا عندهم، ومن قبلهم، ربما إلى الأبد.. بحيث بدا لي وكأن شمس تحرير محافظتنا من النظام قد شَوَّلَت إلى الغروب والانطفاء؛ أو أوشكت، وأن ليل انتصارنا قد سجى..

ملف "وردية خوشابا،أم رشا":

ينقسم هذا الفصل المهم الذي أدعوه ملف أم رشا إلى قسمين في تراتبه، وهو إبانة حصيفة راصدة للدولة العميقة وتوزعها اللوجستي عبر المحافظة؛ القسم الأول يشرح الطريقة التي قادت إلى الملف، ومحض الصدفة التي أوصلتنا إلى وضع اليد عليه، وعلى كل هذه الكمية من المعلومات.. كما يجب أن لا نتجاوز الأجواء العامة المحيطة، التي أدركت ما بتنا على دراية ويقين واطلاع عليه، وأن لا نتجاهل درجة الرجع العام وقوة ردات الفعل الحادثة، والتي سادت بعد أن حصلنا على كل تفاصيل التحقيق في هذا الموضوع. أما القسم الثاني فهو ما يتعلق بكامل مُفَصَّلة المعلومات التي انكشفت دفعة واحدة عما كان يدور حولنا، وما يتم التدبير له في ليل أو نهار.. وقبل أن ننتهي إلى خلاصة معممة تضع كل ملتبس في مكانه الصحيح، ونكون بذاك على جلاء من الأمور كلها جملة واحدة، حتى يصحَّ الخروج من بؤرة هذا الجدل العميق المرتهن لنظرية المؤامرة، وذلك ـ ببساطة شديدة ـ حين تُسَلط كل وشيعة الضوء على المؤامرة وهي تلتمع ذاتاً حية وجسداً نابضاً أمام مايدور ويمضي تحت حدق العيون..

في بداية القصة تواردت إلينا معلومة غير مؤكدة؛ معلومة تشبه تلك الأخبار الطائشة التي تتردد كل ساعة، والتي تعصف في الجو العام بعواصف من الإشاعات والمبالغات، (بعد تحرير الرقة بحوالي شهرين).. بل وأحياناً بنثار طبيعي كالغبار من الأكاذيب المقصودة وغير المقصودة. لم يكن ممكناً التأكد من كل خبر وإشاعة. وبات إهمال مايصل إلى الآذان من أنباء أدعى من الاكتراث بها أو الاهتمام الزائد.

الخبر كان يتلخص بأن شقة تقع في أطراف الجسر القديم، إلى جوار المقصف الذي يعرفه أهل الرقة باسم البيت اليوناني، ربما كانت وكراً أو ملجأ لبعض عناصر النظام الفاعلين ومركزاً للشبيحة، والذين يديرون أمور المحافظة سراً بعد أن تمَّ تحريرُها وانتزاعها من النظام بيد الثوار والجيش الحر، وللأمانة أيضاً يجب أن أذكر بأنني لا أتذكر اليوم مصدر الإشاعة، ولا كيف تناهى هذا الخبر إلينا، مع أنها قوبلت بكثير من اللامبالاة وعدم الاكتراث، فقد كان يصادف أن ينتهي إلينا يومياً عشرات من أمثال هذه الأخبار الخفيفة والفاقدة للمصداقية.. وللأمانة أيضاً، فإن بعض المسلحين من مقاتلي الجيش الحر، لم يجدوا في أنفسهم العزيمة الكافية، بسبب عدم تصديقهم للخبر، لأن يستكشفوا الأمر ويتبينوا ما الذي كان يجري حقيقة في تلك الشقة.

حوالي ستة شباب مسلحين شجعوا بعضَهم للذهاب إلى موضع الشقة، والاطلاع على المكان، وذلك رغبة في دفع كل ظن بيقين مؤكد. وبعد أن وصلوا إلى الشقة وقرعوا الباب، خرجت إليهم سيدة أطلت من وراء الباب، وهي تسألهم عما يريدون! كانت ترتدي ثياباً أقرب

إلى ثياب النوم غير المحتشمة، والباعثة على رسائل تفيد بأنها غير مستعدة لاستقبال أحد في تلك الساعة من المساء، وهو ما يعني أنها لن تسمح بدخول أحد تحت أي طائل أو ظرف، وأنها في واقع حال سوف تمنع الشباب قطعاً من دخول الباب أو ولوج الشقة. وحين سألوها إن كان ثمة أحد داخل المنزل سواها، يمكن أن يبادلوه الكلام والأسئلة أجابت بالنفي، وقالت بأنها الآن، في هذه اللحظات، وحيدة في الشقة..

سمع الشباب حركة خفيفة وغريبة داخل الشقة، فدفع أحدهم السيدة عن واجهة الباب ودخل مقتحماً الصالة، فتبعه الآخرون، والسيدة تصرخ بهم وتستنكر دخولهم المقتحم إلى درجة الشتيمة والإغلاظ عليهم بكلامٍ نابٍ. وداروا سريعاً خلال دقائق على كل مساحات الشقة، فلم يجدوا شيئاً، وحين همَّ أحدُهم أن يصعدَ إلى السقيفة في المطبخ، لينظر ما الذي تحتوي عليه، فوجئوا بقنبلة يدوية تسقط عليهم مدوية، حتى كادت أن تقتلهم جميعاً، لولا أن القنبلة سقطت وتناثرت في المكان الخطأ، وقد أصيب اثنان منهم بجروح طفيفة.. فشرعوا في إطلاق النيران على السقيفة، واستطاعوا أن يرموا قنبلة يدوية وقعت داخل السقيفة، وانفجرت مخلفة وراءها أنيناً كظيماً يشبه أنينَ جريحٍ سقط للتو، ثم اقتحموا السقيفة بعدها، فإذا بهم يفاجأون برجل أربعيني في السن، وقد أصيب جراء تبادل النيران. أنزلوا الرجل المصاب سريعاً، وتابعوا التفتيش مرة أخرى داخل الشقة، ولم تبعد المفاجأة طويلاً أن عثروا على شاب آخر مختبئ في مكان خلف سور من الكتب والأثاث المهمل في البيت. وخلال أقل من ساعة عادوا سريعاً، يصحبهم في طريق العودة الرجل الجريح الذي كان في وضع صحيٍ حرج، والشاب الذي كان مختبئاً، إضافة إلى السيدة التي فتحت الباب أول مرة.

سرعان ماتم نقل الرجل الجريح إلى المشفى الوطني، وبعد اجتماع مع الأطباء الموجودين طلبنا منهم وبحرص خاص، أن يبذلوا كل ما بوسعهم من أجل إنقاذ حياته وشفائه مهما كلف الثمن، وصرَّحنا للأطباء أننا جاهزون للتبرع بالكمية المطلوبة من الدم إن كان يحتاج إلى تبرع ببعض الدم المفقود على وجه السرعة، أو وجدوا أن ذلك مفيداً في حالته الإسعافية، وبالفعل تم التبرع له في تلك الليلة، بحوالي خمسة كيلو من الدم من بعض الشباب المقاتلين الذين رافقوه إلى المشفى، وباشر الأطباء مهامهم الإسعافية بكل جهد وطاقة ممكنة، وتمَّ تسجيلُهُ رسمياً، من خلال أوراق تعريفية كانت بحوزته، وبعد العودة والتأكد من هويته واسمه من السيدة والشاب اللذين كانا معه في الشقة ووقعا في الأسر، تمَّ الإقرار وتسجيلُه باسمه الحقيقي: سليمان طرشة، ضابط في الأمن الجوي، (في البداية حاولا تضليلنا بأنه عنصر يعمل سابقاً في الأمن الجنائي، ثم أقرا بعد مماطلة بأنه ضابط في الجوية).

للأسف، ما إنْ طلعَ علينا صباح اليوم التالي حتى كان ذلك الضابط قد فارق الحياة، ولست أدري اليوم على وجه اليقين، إن كان قد مات حقاً متأثراً بجراحه، أم أن طرفاً خفياً مقرباً من النظام قد عجل بوفاته بطريقة من الطرق، لكي يقطع عنا خيطاً مهماً للتوصل إلى معلومات عما كان يديره هذا الضابط في مخبئه ذاك. أما المعلومات الشخصية ونتائج التحقيق مع الشاب والسيدة، فيمكن تلخيصُها بما يلي: الاسم: سامرابراهيم ـ تاريخ التحقيق: 2013/5/15 ـ الأب: عبد المنعم سيف ـ مواليد: حمص – العيساوية - مخرم فوقاني ـ الأم: زينة عمشان ـ كردية، شيعية، من حلب،مواليد كفر جنة ـ الزوجة: منى زعزوع ـ شيعية، من مواليد تل أغر، مخرم فوقاني ـ العمر: 25 عاماً. العمل: عنصر متطوع في المخابرات الجوية في الرقة. وموضوع هذا التحقيق أن المدعو سامر كان مختبئاً في الشقة موضع التحقيق في منطقة الكسرة، بجانب مطعم البيت اليوناني، وعند مداهمة المنزل تم إلقاء القبض على صاحبة المنزل المدعوة: **وردية خوشابا**، (معروفة بلقب أم رشا، وهي من أبناء القومية الآشورية، ومن مواليد منطقة القامشلي)، وعلى سامر ابراهيم بدون مقاومة، وعلى المدعو المتوفى سليمان طرشة بعد مقاومة، وهو عامل في جيش النظام، ومتطوع في المخابرات الجوية برتبة ضابط، ومن الطائفة العلوية. ونتيجة الاشتباك معه أصيب ونُقل إلى المشفى الوطني بالرقة، وتوفي في اليوم التالي .

في التحقيق صدمتنا حقيقة لم تكن منتظرة حقاً، وهي أن أم رشا كانت متدربة ومتهيئة على مواجهة مفاجأة التحقيق بصبر وجَلَدٍ وقدرة عالية على التكتم والمناورة، لا توجد لدى أصلب الرجال وأقدرهم على مثل هذا التكتم؛ فقد رفضت، وبمنتهى الاستكبار، أن تعترف بشيء. وخلافاً لقدرة احتمال سامر على التنازل والاعتراف شيئاً فشيئاً.. أوكلتُ التحقيقَ إلى محققين متمرسين من ذوي الخبرة من الثوار، دون أن أتدخلَ فيه بصورة مباشرة، وإنما اكتفيتُ بالمتابعة والإشراف على مجريات التحقيق، وإبداء الملاحظات التي أجدُها مناسبة حينئذ.. وكنتُ أظن ظنوناً أن جهات كثيرة قد بدأت تحومُ حول ملف التحقيق وحولنا، لمتابعة ما يجري من مجريات سير القضية بكاملها.

كان واضحاً أن "حركة أحرار الشام" قد أظهرت اهتماماً زائداً بموضوع هذا الملف أكثر مما توقعنا، وأن جبهة النصرة قد أخذت تتابع الأخبار، وتحاول أن تلتقط كل ما كان يرشحُ من صغيرة أو كبيرة من مجريات التحقيق، كما لاحظتُ بأنّ قلقاً عاماً واضطراباً ـ لم يكن يخفى ـ قد بدأ يغشى ويشفُ عنه كثيرون؛ كأفراد وجماعات، ووقرَ في يقيني منذ البداية، أن المُعتقَلَيْن، أم رشا وسامر، سوف يفلتان منا بطريقة من الطرق، إن لم يكن بالقوة والاستكراه، فالأحرى بطريقة ما من طرق الضغط (الدبلوماسي) التي يمكنُ أن تُمارسَ علينا. هذه الخطورة أخذناها يومئذ بمنتهى الجدية، ولم نكن غفلاً عنها. وهنا خطر ببالي أن نعقد صفقة مريحة لكلا الطرفين، وسريعة الأثر والنتائج، وذات تأثير على سامر بشكل مخصوص، صفقة شرطُها أنْ لا يتعرضَ له أحدٌ بأية معاملة سيئة، وأن يعاملَ بأفضلَ مما يمكن أن يُحتمَلَ من حسن المعشر والمعاملة الحسنة، وتحقيق مطالب وامتيازات له لم يكن ليحلمَ بها حتى وهو حر، مع وعدٍ بإطلاق سراحه.. وهكذا أخذتْ عقدةُ سامر تنحل رويداً رويداً، وما إن استخلصنا منه كل ما نرجوه ونأمله من معلومات، حتى باغتنا أم رشا ـ العنيدة التي أصرّتْ على إنكار أية صلة لها أو معرفة بسليمان طرشة، بعد مضي أكثر من أسبوعين متواليين على التحقيق ـ بحجم المعلومات التي باتت في حوزتنا عن طريق سامر، عنها وعن زوجها عبد اللطيف الشلش أبو رشا، وعن أخويه، وعن صهرها، زوج ابنتها رشا، المدعو خالد الحيوي.. فانهارت عزيمتُها تباعاً، واضطُرَّت أخيراً أن تعترف، وتؤكد كل مجريات التحقيق وحيثياته.

بعد التحقيق الذي استمر قريباً من ثلاثة أسابيع، أفاد سامر ابراهيم بما يلي: تطوعتُ في المخابرات الجوية منذ سنة ونصف، في قسم المزة بدمشق، وتم فرزي إلى الرقة بصفة سائق في المخابرات الجوية. ونُقلتُ إلى حاجز الجسر القديم من جهة الكسرة، وقد استأجرتُ منزلاً، وأحضرت زوجتي للسكنى في منزلي الجديد. وكان المنزل بجانب مطعم البيت اليوناني. وقد هربتُ من الجوية قبل تسعة أيام من تحرير الرقة، ولم أُسَلّمْ نفسي للجيش الحر خوفاً من قتلي. وفي تفاصيل هروبه من فرع الجوية في الرقة بعد التحرير، قال بأنه هرب من الجوية قبل التحرير بتسعة أيام، وكان معه كل من :"هاني سعيد" و"رضوان محمد" و"محمد الحلبي".. وقد أخذوا معهم سيارة"أوكتافيا" و5 بنادق روسية، و30 مخزن ذخيرة و**7** قنابل يدوية و2500 طلقة. واختبأوا في بيت شخص يدعى خليل العمر"أبو محمود"، بيته بجانب السياسية، حيث مكثوا عنده منذ هروبهم إلى ما بعد تحرير الرقة بأسبوع. بعدها اتصل"محمد الحلبي" بأخيه المدعو "بكري"، والذي كان أميراً في جبهة النصرة بحلب، وقامت الجبهة بنقل هاني ورضوان ومحمد إلى حلب، وأخذوا معهم 3 بوارید، و20 مخزناً و4 قنابل. وذخيرة عدد1500 طلقة، كما عمل بكري على نقل عائلة وبعض أقارب خليل العمر في سيارة "الأوكتافيا"، أما باقي الأسلحة والذخائر، فقد قام خليل بدفنها في مزرعته الخاصة في"السوافي".

تابع سامر:اختبأتُ عند المدعو: "موسى العلاص" مدة يومين، ثم ذهبتُ إلى مزرعة خليل العمر برفقته في منطقة السوافي. وبعدها وصلتُ إلى منزل أم رشا، حيث وجدتُ سليمان طرشة في المنزل. وعن معلوماته الخاصة بالمدعو سليمان طرشة، قال: كانت أحياء المدينة، والقرى في جميع ريف الرقة مُقَسَّمة إلى مناطق أمنية على شكل نقاط، ولكل نقطة إدارة سرية تُشرفُ عليها.. وقد تمَّ اعتمادُ هذا الهيكل قبل تحرير الرقة من قبل الجيش الحر، وكان سليمان طرشة يشرفُ على قاطع جنوبي، وهو جزءٌ من منطقة الكسرات جنوب الجسر، وبعض الأحياء في المدينة. وحول سليمان طرشة أفاد سامر بما يلي: إنه كان يخدم في المخابرات الجوية في الرقة. وكان يديرُ شبكة واسعة من المخبرين والمتعاونين ضد الثورة وضد الجيش الحر، من منزل المدعو عبد اللطيف الشلش، زوج وردية خوشابا"أم رشا".. وإنه وصل بدايةً إلى منزل عبد اللطيف الشلش"أبو رشا"، الموجود في شارع القطار، بطلب من سليمان طرشة، ثم قام أبو رشا بمساعدته على الانتقال إلى منزله الثاني، الكائن بعد الجسر القديم عند أم رشا، وكان سليمان يعطي معلومات وإحداثيات ومواقع الجيش الحر لمخابرات النظام، ويُجندُ الشبيحة، ويتواصلُ معهم على مدار الساعة يومياً.

يقوم سليمان بتوصيل المعلومات إلى كل من **خاله الملقب"أبو علي"**، الضابط في القصر الجمهوري بدمشق، **وإلى خاله الآخر، الملقب"عدنان"**، في حمص . وكانت لديه اتصالات مع قائد أركان الفرقة 17 في الرقة، ومع"العقيد سمير" و"أحمد منصور"، ومع اللواء"أديب نمر سلامة" رئيس فرع الاستخبارات الجوية في سوريا، من مركز عمل هذا الأخير الكائن في مطار الطبقة، ولديه اتصالات مع اللواء"**جامع جامع**" في دير الزور، وبعض العناصر المزروعين داخل جبهة النصرة يسمونهم عناصر **الدولة الاسلامية**. ((ولقد سمعتُ بمصطلح الدولة الإسلامية لأول مرة في حياتي من سامر ابراهيم)). كما أن لديه مجموعات خاصة سرية تعمل لحسابه في الرقة المدينة، والطبقة وسائر الريف.

ثم تابع سامر القول: يحصل سليمان طرشة على المعلومات من عدة أشخاص في المدينة، لا أعرفُ أسماءهم جميعاً، لكنني أعرفُ منهم شخصاً يدعى **يامن اللجي**، والذي أدلى له بمعلومات عن عدة مواقع، مثل معسكر الطلائع وأماكن تمركز المضادات الأرضية

ورشاشات الدوشكا المحمولة على السيارات التابعة للجيش الحر في المدينة، وخاصة في محيط منزل قائد الشرطة, كما أنّ هناك فتاة ديرية يُعتقدُ بأنها تسكن مع عائلتها بجانب قصر المحافظ، كانت تُمدّهُ بمعلومات عن مواقع الجيش الحر بالمدينة ومحيط الفرقة 17.

وقد اتفق سليمان طرشة مع عبد اللطيف الشلش على تشكيل مكتب خاص تحت مسمى (مكتب أمن الثورة)، لجمع المعلومات لصالح النظام، وفي حدود مايعلمُهُ سامر، فقد أعطى سليمان طرشة عبد اللطيف الشلش 4 مسدسات في حضوره ذات مرة، أثناء بداية الحديث عن تأسيس ما يسمى بمكتب أمن الثورة، وكان يعملُ مع عبد اللطيف الشلش في مكتب أمن الثورة المزعوم هذا، أخوته **محمد** و **مصطفى**، ومعهما شخصٌ آخر يدعى"عبد الهجيج" أو **أبو أيوب**، و**"خالد الحيوي"**، زوج ابنته رشا، وهو أمير في جبهة النصرة.. وقد اتفق سليمان مع عبد الهجيج أبو أيوب، على أن يُؤَمِنَ له خروجَه من المدينة، وعودته إليها عدة مرات حسب حاجته لذلك، لكي يذهب لنقل مجموعات من الشبيحة المقاتلين معه إلى الرقة.

وعند سؤال سامر إن كان يعرفُ أشخاصاً لديهم اتصالات بالأمن أو النظام، أو الخلايا النائمة داخل المدينة، أجاب بأن هناك عدداً كبيراً من الخلايا العاملة، وأنه يعرفُ بعضهم ولا يعرفهم جميعاً، كما أنه ما يزال يعرفُ كثيراً من الأشخاص الذين مايزالون يتعاملون مع النظام حتى اللحظة، ومنهم:

عادل: ولديه بقالية بجانب اليوناني، حيث حدثني حين كنتُ أتردّدُ عليه لشراء بعض الحاجيات، أنه كان متعامل مع المقدم"منذر يوسف" في المخابرات الجوية، وأنّ لديه خلية تساعده في الحصول على المعلومات.

أحمد: كنتُ أتردّدُ عليه، وهو يسكن في شارع الوادي، ولديه محل جوالات بنفس الشارع. وقد حدثني أنه منتسب لـ(لواء أمناء الرقة)، وهو أبرز عناصر الاتصال مع الفرقة 17 في الرقة. كما حدثني أحمد بأنَّ هناك شخصاً يُدعى**"الحجي"**، وهو من يقود شبكة داخل لواء أمناء الرقة، ولديه 11عنصراً مسلحاً يتبعون للنظام بحجة أنهم منشقون، وهم يتواصلون مع ضباط الفرقة. وبعد التحرير بفترة، ذهب أحمد هذا مع أحد أمراء الجبهة إلى اللواء 93 في عين عيسى، وجلبوا معهم كمية ضخمة من المال والسلاح والذخيرة. (علمت فيما بعد أن هذا الأمير في جبهة النصرة هو نفسه عبد الرحمن الفيصل،"أبو فيصل"، الذراع الأيمن لأبو لقمان).

محمود الورد: كنتُ أعرفه بشكله الخارجي، وكنتُ أُسَلِّمُ عليه أحياناً، ولكن دون أن أخالطه أو أحتكَّ به كثيراً.. وهو يسكن في شارع الوادي من جهة الشمال، وهو عضو في تنظيم(أحرار الشام)، وعلاقتُهُ المباشرة مع العناصر الـ11 الموجودين عند(الحجي) في لواء أمناء الرقة. وقد انتقلت هذه الكتيبة المسلحة التابعة للأمناء فيما بعد، وبعد تفكك لواء الأمناء وانفراطه، إلى لواء ثوار الرقة، واتخذتْ من المبنى المعروف باسم مبنى العيادات الشاملة مقراً دائماً، وكان يديرُها العقيد سمير مباشرة من داخل الفرقة 17. أما الشخص المعروف باسم الحجي، فقد تبين بأنه قائد الكتيبة المدعو اسماعيل الخضر.. أما هذا الاسم محمود الورد، فيبدو أنه اسم حركي مستعار، يتحركُ به هذا الشخص وليس اسمه الحقيقي. فقد تمَّ تمشيطُ شارع الوادي سؤالاً عنه فلم يتعرف عليه أحد.

يامن اللجي: وهو أهم وأنشط عناصر الاتصال الذين يعملون في شبكة سليمان، وحسب سامر، فقد كان يستخدم هاتف موبايل يحمل الرقم: 0938812973، ومنزلُهُ في حي مساكن البريد.

خليل العمر: (أبو محمود)، منزله وورشة عمله ـ حيث كان يعمل حداداً ـ خلف السياسية جنوب فرن مرعي، وعنده مزرعة في منطقة السوافي.

موسى العلاص:اختبأتُ في منزله يومين، وهو يسكن بالقرب من حارة الحسون، ويعمل في محل جوالات مقابل مفرزة الجوية بجانب محل الألبسة الكبير، وهو متعامل مع الفرقة 17 بالرقة، وله اتصالات بضابط كبير بالشام .

عصام: حدثني المقدم"منذر يوسف" أن عصام كان متعامل معه، و يزوده بالمعلومات، وهو يسكن مقابل الجوية ولديه كشك صغير قريباً من منزله.

اسماعيل: حدثني عنه المقدم منذر، وكنتُ أعرفه بشكل شخصي وهو صاحب كافتيريا بجانب محل الصورة السريعة، و لديه سيارة سيراتو. وهو(مفتاح) للمقدم منذر والعقيد عبد الحكيم، رئيس مفرزة الجوية في الرقة، وكان يتابع مواقع الجيش الحر ويدلي بمعلومات

عن أماكنها، وأماكن المقاتلين قبل التحرير. وأغلب البيوت التي تمت مداهمتُها في الرميلة، وفي منطقة السكن الشبابي قبل التحرير، كانت عن طريقه .

حسين الغفان وأخوه غفان: أصحاب مول الشط بالكسرة، وقد حدثني صديق كان يخدم معي في نفس الحاجز، أنه عرَّف حسين وأخاه على المقدم منذر، وأنهم استلموا من المقدم بارودتين روسيتين، وكمية من الذخيرة، وكانوا يدلون بمعلوماتهم عن تواجد الجيش الحر خارج المدينة قبل التحرير، ويشاركون الدوريات في المداهمات. وطلب منا المقدم منذر يوسف بأن نتعاون معهم ونؤازرهم.

أبو فراس: كان يتردد كثيراً على حاجز المخابرات الجوية، عند الجسر القديم، وإلى الفرع. وهو يسكن بجانب فرع السياسية، ولديه ولد وحيد، ويملك أرضاً زراعية على يمين الجسر القديم باتجاه الكسرة، وكان يشارك مع دوريات المداهمات بنفسه، ولديه خلية معلومات، و كان يراسل العميد"منذر الخليل" في دير الزور، والمخابرات الجوية والعميد"علي" بالطبقة.

أحمد الحسن: يسكن بجانب الحديقة البيضاء، وكنتُ أعرفه بشكل مباشر، فقد كان عميلاً للأمن والفرقة 17، و يشارك بنفسه في الحواجز، وقد أمسك أحد أقاربي في الجيش الحر، وقام بتسليمه للجوية، وقد تمَّ إعدامُه بالرصاص أمامي.

عدنان: من ديرالزور. يعمل حارس للبنايات بجانب اليوناني، وكان له معاملة وعلاقات واسعة تشبيحية مع الأمن.

حسن عبد الرزاق: متعهد بناء يسكن رميلة. وكان من أبرز عملاء أبو جاسم الأمن العسكري في الرقة، وهو من منتسبي الدفاع الشعبي، لديه سيارة سيراتو لون باذنجاني، رقمها 812155 الرقة.

حسين المحمد: يسكن الخميسية، ويعمل موظفاً في مشفى الطب الحديث. استلم بارودة خاصة من الحزب، قبل تحريرالرقة بتسعة أيام، واختبأ عنده أربعة عناصر من الجوية، وبعد التحرير ساعدهم على الانتقال من المحافظة، وقد ذهبوا من عنده. وقد استلم من سامر بارودة عدد 2 مخازن، و 10 قنابل، و 3 صناديق ذخيرة، فيها 1500 طلقة. وكان يتعامل أيضاً مع سليمان طرشه بعد التحرير، ويعمل أيضاً مع عبد اللطيف الشلش في مكتب أمن الثورة، وقد اتفق مع سليمان لكي يخرجه من المدينة لغرض جلب بعض العناصر معه. وهو ذو صلة قوية بعبد اللطيف وأبو أيوب، وانتسب بعد ذلك إلى جبهة النصرة.

جاسم: الذي يلقب أبو محمد، وهو من قرية "حمرا بلاسم"، وكان مصدر المعلومات الخاص بالخط الشرقي، إذ كان يزوِد المعلومات لسليمان طرشه بالهاتف عن الجيش الحر.

ولدى سؤال سامر عن العقيد عبد الحكيم، رئيس فرع المخابرات الجوية بالرقة، (المدعو أبو فراس)، أجاب بأنه، وحسب اطلاعه الشخصي، لم يُعدمْ أحداً من الثوار بيده أو يُصدرْ أمراً بتصفيته، لكنه كان يعذبُ المعتقلين تعذيباً شديداً، ولا يفرج عنهم إلا برشوة مالية كبيرة.. وأضاف بأنه كان محباً للدعارة ومطاردة النساء، وكان يمارس الدعارة علناً داخل مفرزة المخابرات الجوية. كما كان له علاقة مع صاحب مطعم مقابل جامع الفردوس يدعى السخني، وقد داهم ذات مرة أحد منازل المشتبه بعلاقتهم بالثورة، واختلس من منزله مبلغ **35** مليون ليرة، هرب بعدها، وادعى بأنه خُطِفَ من قبل مسلحين يتبعون للجيش الحر، وبعد خمسة أيام عاد إلى عمله.

وكان العقيد عبد الحكيم هذا، يتزود بالمعلومات من قبل شخص في الطبقة يدعى أبو البراء، لديه ـ حسب اعتراف سامر ـ تكسي مرسيدس سعودية، وقد زوّدَهُ النظام السوري بلوحة وأوراق سورية خاصة بالسيارة، استُخْرِجت خصيصاً باسمه، وقبلها كان لديه سيارة جيب، وهو ينقل معلومات وتقارير للفرع في الطبقة. وقد تمَّ التعرف على هذا الشخص الذي أصبح فيما بعد أحد أبرز أمراء داعش.. كما أضاف سامر عن فراس، ابن العقيد عبد الحكيم، بأنه زبون دائم لكل بيوت الدعارة في المدينة، يرافقه دوماً شخص من حثالة الناس يدعى سمير الأعور، وكان فراس هذا هو من يجند الأفراد والشبيحة مخبرين لصالحه للحصول على معلومات عن الجيش الحر.

أخيراً أضاف سامر هذه الملاحظة: جاءت لجنة قبل تحرير الرقة بعشرين يوماً من دمشق، وجلبوا معهم صواريخ وأجهزة.. قال: كنتُ أنا سائق اللجنة بتكليف من العقيد رئيس الفرع، وقد توجهوا إلى مطعم البيت اليوناني. وعندما خرجوا، لم أرَ الأجهزة معهم، فقد أخذوا الصواريخ إلى الفرقة 17، حيث خبئت في مكان ما هنالك. وتمَّ دفنُ كلّ الأسلحة والصواريخ بين المباني في الساحة وغربي الأبنية.

أما الإفادة التعريفية حول أم رشا، فقد جاءت كما يلي: الاسم: (وردية خوشابا)، معروفة باسم أم رشا. الأب: درياويش. الأم: يونو. العمر: 55 عاماً. الزوج: عبداللطيف الشلش. العنوان: بجانب مطعم البيت اليوناني. وفي الحاشية تم تقديم الموضوع كما يلي: وردت معلومات خاصة حول اختباء عناصر أمنية في داخل الأبنية القريبة من مطعم البيت اليوناني، وعند مداهمة البناء السكني المشتبه لتفتيش الشقة، فتحتْ لنا الباب، وهي ترتدي ملابس خاصة لا تُرتدى إلا أثناء النوم، فطلبنا منها فوراً أن ترتدي ثياباً مناسبة لنتمكن من الحديث معها دون تحرج، فرفضت.. وبعد أن حدثت مقاومة من قبل المدعو سليمان طرشة، أصيبتْ إصابة خفيفة من شظية قنبلة نتيجة مقاومة سليمان ومحاولته قتل المجموعة المداهمة. وتمَّ اعتقال جميع من في المنزل: سليمان طرشة، وسامر ابراهيم ووردية. وخلال عدة جلسات تحقيق، تمَّ انتزاع اعترافها على المعلومات التالية: عند سؤالها أولاً عن سليمان طرشة ووجوده في منزلها أجابت: قام زوجي عبد اللطيف الشلش بمساعدته على الانتقال والسكن في منزلنا بعد دخول الجيش الحر إلى الرقة بعدة أيام، وقال لي اتركيه أمانة عندك لأخرجه من البلد، حيثُ أنه كان يقيمُ قبل ذلك في المنزل الثاني الذي يملكه أبو رشا في شارع القطار.

كان سليمان على تواصل دائم باثنين من أخواله، وهما ضباطٌ في الحرس الجمهوري، وقد ذكر أمامي مراراً بأنه على تواصل مستمر بشبكة من المتعاونين ضد الثورة والجيش الحر. ولديه عملاء كُثرٌ في البلد، يزودونه بالمعلومات؛ ومنهم أشخاص من داخل جبهة النصرة، ومنهم من هو داخل الجيش الحر. وهناك فتاة ديرية تزوده بالمعلومات يومياً عن تواجد الجيش الحر في المدينة، إما باللقاء معه مباشرة عند دوار الساعة، أو عن طريق الهاتف (الموبايل). ولا أعرف من هي ولا ما اسمُها، مع أنه كلَّفَني باللقاء بها نيابة عنه عدة مرات، ولكن كان ممنوعاً عليَّ أن أعرف اسمها. وكان يخزن بعض الأسلحة والقنابل في داخل المنزل. وذكرت أم رشا أنها التقت بتلك الفتاة الديرية في نفس اليوم الذي تمَّ إلقاء القبض عليها.. حيث نقلت إلى سليمان عن طريقها بعض الأموال والأوراق الخاصة، كما أكدت بأن سليمان على اتصال دائم بذلك المدعو يامن اللجي. وعند سؤالها عن علاقة سليمان بزوجها عبد اللطيف، أجابت: إن سليمان أعطى عبد اللطيف أربعة مسدسات ليبيعها كي يبدأ بها تجهيز مكتب (أمن الثورة)، لمساعدته في مهمته، ووعده بأن يؤمِّن له مايلزم من الأموال والأسلحة بعد تأسيس المكتب ومباشرة العمل فيه. وعند سؤالها عن سامر ابراهيم، أجابت: جاء إلى منزلي بعد قدوم سليمان بعشرة أيام تقريباً، وأنا أعرفه منذ أن كُنّا أنا وزوجي نقيم في حمص. وعند سؤالها عن أخوة عبد اللطيف ومكتب أمن الثورة، أجابت: إن محمد ومصطفى أخوة عبد اللطيف يعرفان سليمان جيداً، وهما يعملان بتوجيه منه في مكتب أمن الثورة، ومعهما أيضاً كان المدعو عبد الهجيج أبو أيوب، يعمل في مكتب أمن الثورة.

في اليوم التالي بعد اعتقال أم رشا وسامر، جاءت الأنباء بهروب عبد اللطيف الشلش، مسؤول مكتب أمن الثورة في المحافظة؛ (أو الذي افتتح وكراً داخل المحافظة لإعلان الحرب على الثورة والثوار تحت هذا المسمى)، وبالمناسبة يجب أن أذكر بأن عبد اللطيف الشلش وصل إلى المدينة، **ومعه أوراق رسمية تفوضه القيام بإدارة هذا المكتب، أوراق ممهورة بأختام المجلس العسكري في تل أبيض، وبعض جهات مسؤولة في ائتلاف قوى الثورة والمعارضة**، ذلك الائتلاف الذي آثر السكن كل تلك الفترة في تركيا، وعمل مع الثورة المضادة لثورتنا خطوة بخطوة، وتحوّل إلى عدو للثورة، لا تحتاج عداوته إلى براهين.

هذا موضوع آخر سنعود إليه لاحقاً.. وقد تمَّ التواصل مع كل من استطعنا تعميم الاسم عليه من كتائب الجيش الحر، للقبض على عبد اللطيف الشلش، فلم ينجح في الهرب ودخول الأراضي التركية، مما اضطُرَّه لأن يُسَلِّمَ نفسه إلى مكتب أمن الثورة في تل ابيض، (وهو إحدى الجهات التي أرسلته إلى الرقة لافتتاح مكتب أمن الثورة في المدينة)، وذلك بعد أن علم أن اسمه قد عُمِّمَ على معظم الفصائل التي لاحقته واهتمت بإلقاء القبض عليه، ولم تمضِ ثلاثة أيام أخرى حتى تمَّ إحضاره الى الرقة..

عبد اللطيف الشلش، اسم الأب: خليفة. اسم الأم: حايرة. العمر 60 عاماً. الزوجة الأولى وردية خوشابا، أم رشا. الزوجة الثانية: دلال عطوان. السكن: بجانب مطعم البيت اليوناني، والسكن الثاني منزل في شارع القطار. ولم يُضف عبد اللطيف زيادة على ما أكده سامر وزوجته أم رشا إلا بعض إضافات قليلة. والغريب أن عبد اللطيف بعد أن ووجه ببعض الحقائق في التحقيق، أصيب بنكسة صحية حادة مباشرة، حيث تمَّ نقلُه مباشرة إلى المشفى، وتبين بأنه مصاب باحتشاء عضلة قلب حاد، وبعد أقل من يومين وافته المنية نتيجة سكتة قلبية.

أما بالنسبة لمصير أم رشا وسامر ابراهيم، فقد ذكرت فيما سبق بأن الجو العام منذ أن شاع خبر القبض على الخلية، قد شابهُ شيءٌ من التوتر والانتظار والترقب. ولم يكن مفهوماً بادئ الأمر كثيراً، بالنسبة إليّ، سبب كل هذا الاهتمام الزائد والتوتر القائم لدى أطراف عدة،

سوى جبهة النصرة، فقد تواتر ذكر الجبهة في الملف مراراً، وبات من حق الدوائر المتهمة في داخلها أن تقلق كل هذا القلق، بيد أن غيرالمفهوم، مثلاً، أن نلمس بعض عدم الإرتياح لدى بعض الكتائب المسلحة والقوى العاملة على الأرض. وبعد أن لم يعد ثمة ما يمكن إضافته من معلومات، من أم رشا وسامر، لم يعد خطر انتزاعهما من بين أيدينا، بطريقة الإكراه أو بغيرها من الطرق، خطراً مستبعداً..

تمَّ تهريب سامر من بين أيدينا بطريقة مشبوهة، وتكاد تكون أصابع الإتهام في عملية تهريبه جميعها محصورة في أشخاص مفترضين يعملون لصالح النظام، وبعد عدة أشهر، اتصل سامر ابراهيم بنا عبر الموبايل، وهو يضحك ويسخر منا، مؤكداً بأنه الآن يقف على أحد حواجز النظام قرب حمص. أما أم رشا، فقد تدخل الدكتور سامر مطيران وبعض الدكاترة (من جماعة روسيا)، وضغطوا باتجاه إيداعها في مركز اعتقال يتبع لأحرار الشام، خوفاً من تهريبها هي الأخرى، ولم أكن موجوداً يوم اتخذ بعض شبابنا من الثوار قراراً مرتجفاً ومترددا بتسليمها للدكتور سامر مطيران، الذي سلمها فوراً لتنظيم حركة أحرار الشام، ولم تمضِ عدة أيام حتى كان المكتب الأمني في تنظيم أحرار الشام قد أطلق سراحها،(مع أن أحرار الشام كانوا على إحاطة تامة بكامل تفاصيل التحقيق)، بذريعة براءتها، وأن أقرباء لها قد دفعوا لهم مبلغاً من المال، من أجل تيسير عملية الإفراج عنها.. أما بقية الأطراف الذين وردت أسماؤهم في التحقيق، فلم يُعثَر لهم على خبر بعد هذا الحادث.. بالطبع باستثناء أبو لقمان، الذي أصبح الأمير العام لتنظيم داعش فيما بعد، والذي سأفرد الحديث عنه في الفصل التالي..

هوامش الجزء الثالث:

- (1)

السيد اللواء علي المملوك رئيس مكتب الأمن الوطني

مقدمه :

العقيد المتقاعد حيدر حيدر من الدورة 26 اختصاص مدفعية ميدان – رئيس اللجنة الأمنية في مدينة نبل ومحيطها.

الرائد المتقاعد فهد شريو من الدورة 36 اختصاص مدفعية ميدان ، خدمة بالقوات الخاصة.

الموضوع :

لدينا أكثر من 150 مُدرب بشكل خاص (دورة صاعقة بمستوى عالي) باستثناء باقي المجموعات والتي يزيد عددها 600 مُتدرب تتراوح أعمارهم من 20 عام وحتى 45 عام بمختلف الاختصاصات التي خضعوا لها أثناء خدمة العلم (مرفق لائحة باسمائهم) من 200 مقاتل من منطقة نبل والزهراء خضعوا للدورات التدريبية وبحالة جاهزية قصوى).

ولازال يتقدم متطوعين للقتال من أراض الوطن وبأي شكل كان ، وبتوقعنا عند وجود السلاح المطلوب أن يصل عددهم لأكثر من 2500 شخص جاهزون للقتال على الجبهات أو الالتحاق بصفوف التنظيمات الاسلامية وتنفيذ المهام الموكلة لهم من داخل هذه التنظيمات وخصوصاً بعد النتائج الجيدة التي حققتها هذه الطريقة في منطقتنا في الفترة الماضية والتي تمت بالتنسيق مع الجهات المعنية في المنطقة الشمالية.

إن موقع مدينة نبل وبلدة الزهراء الجغرافي يجعلنا نتحكم بطريق استراد حلب-باب السلامة الذي يعتبر الشريان الرئيسي لدخول المقاتلين والعتاد من دخول الحدود العراقية والخروج منها بالتنسيق مع حلفائنا في الجانب العراقي ونقل المقاتلين والعتاد.

علماً بأنه أصبح لدينا العديد من العناصر والقيادات القوية ضمن تنظيم (دولة العراق والشام) في المنطقة الشمالية بشكل عام والذين يستطيعون تأمين دخول أعداد من متطوعينا الجدد ضمن صفوف هذا التنظيم عبر تزكيتهم وضمان عدم إثارة أي شكوك حولهم، مما يؤمن لنا معلومات تفصيلية بشكل دائم عن تحركات المسلحين وأعدادهم وتسليحهم وخططهم واستطعنا عبر تواصلنا داخل التنظيم الفترة الماضية وبالتنسيق مع الجهات المعنية في المنطقة أن نوقف بعض عمليات المسلحين ضد مواقع الجيش من خلال سطوة التنظيم ضمن المجموعات المسلحة وفي المناطق الخارجة عن سيطرة الدولة

وبهذا تكون المنطقة الشمالية قاعدة يعود لها الجيش في حال نُصب للجيش كمين وتعرض لهجوم عنيف من قبل المسلحين يمكن للجيش أن ينسحب لمدينة الرقة لاستعداده للهجوم من جديد ، كما يمكننا موازرة الجيش في أي عمل عسكري يمكن أن يطلبه منا ضمن منطقتنا.

Damascusleaks | Damascusleaks.com | www.Damascusleaks.com

(السيد اللواء علي مملوك رئيس مكتب الأمن الوطني

مقدمه:

العقيد المتقاعد حيدر حيدر من الدورة 26 اختصاص مدفعية ميدان ـ رئيس اللجنة الأمنية في مدينة نبل والزهراء ومحيطها.

الرائد المتقاعد فهد شربو من الدورة 36 اختصاص مدفعية ميدان، خدمة بالقوات الخاصة.

الموضوع:

لدينا أكثر من 150 مدرب بشكل خاص(دورة صاعقة بمستوى عالي) باستثناء باقي المجموعات والتي يزيد عددها 600 متدرب تتراوح أعمارهم من 20 عام وحتى 45 عام بمختلف الاختصاصات التي خضعوا لها أثناء خدمة العلم(مرفق لائحة بأسمائهم أكثر من 200 مقاتل من منطقة نبل والزهراء خضعوا للدورات التدريبية وبحالة جاهزية قصوى).

ولا يزال يتقدم متطوعين للدفاع عن أرض الوطن بأي شكل كان، وبتوقعنا عند وجود السلاح المطلوب أن يصل عددهم لأكثر من 2500 شخص جاهزون للقتال على الجبهات أو الالتحاق بصفوف التنظيمات الاسلامية وتنفيذ المهام الموكلة لهم من داخل هذه التنظيمات وخصوصا بعد النتائج الجيدة التي حققتها هذه الطريقة في منطقتنا في الفترة الماضية والتي تمت بالتنسيق مع الجهات المعنية في المنطقة الشمالية.)

- (2)

أمير جبهة النصرة في الرقة: ابراهيم العبد الله "أبوسعد الحضرمي" .

- (3)

اللواء أديب نمر سلامة وهو يشرف على أحد التدريبات في معسكرات داعش

النسخة الاصلية من موقع الرأي والرقة بوست

الـرقـة والـثـورة

ـ الجزء الرابع ـ

خارطة الشر:(1)

الآن أصبح متاحاً رسم خارطة تحدد طبيعة الإتصالات البينية، وبنية تلك الدولة العميقة، أو العدو الحقيقي والمباشر.. وبات ممكناً رسم صورة شافّة للقوى التي كانت تتحرك على الأرض، والتي كانت هي الفاعل الحقيقي في كل مراحل تدمير الثورة في محافظة الرقة، بحيث نسجت شبكة اتصالاتها عن طريق أطراف الهرم الرباعي الذي افترضناه في فصل سابق، وذلك على الصورة التالية:

1 ـ هنالك موظف سابق في دائرة الخدمات الفنية، من أهالي قرية"الْدْلَحَه"، اسمه محمد الأحمد، يقطنُ في حي الرميلة، وهو الشخص المكلف رسمياً، في وقت من الأوقات، بملف الرقة لدى الفرع العسكري في دير الزور، وهذا الشخص محقق أمني لدى الأمن العسكري بدون رتبة عسكرية، مثلما كان، في الوقت نفسه، محققاً أمنياً لدى داعش في مبنى المحافظة. وهو حليق الذقن، ويبتعد في مظهره الخارجي عن التقلد بالزي الخارجي لعناصر أو أمراء داعش. هذا الموظف المدني كان يسافر أسبوعياً تقريباً إلى دير الزور، للقاء **اللواء جامع جامع**، وكان يُسْتَقْبَلُ بحفاوة واضحة من الباب الرئيسي لفرع المخابرات العسكرية، كما وردت بذاك معلومات لا تقبل الدحض. ثم يتمُّ إدخاله إلى غرفة استقبال خاصة به، حيث يلغي اللواء جامع جامع كل مواعيده ولقاءاته وأعماله، ما إن يُبَلَّغْ بوصول هذا الشخص المدعو محمد الأحمد، وليُحتفى باستقباله استقبالاً خاصاً.. لقد بذلنا جهداً مطولاً ومتواصلاً في متابعة هذا الشخص الاستثنائي، من أجل الوصول إليه أو اعتقاله مهما كلفت التضحيات، غير أن محاولاتنا كلها كانت تبوء بالفشل دائماً، فقد كان يملكُ عدداً غير معلوم من الشقق والبيوت، وهو يتنقل فيما بينها يومياً بصورة دائمة.

2 ـ يتم التواصل مع اللواء 93 بواسطة أبو لقمان، (وهو ضابط برتبة مقدم في المخابرات الجوية، وإن لم يتم التأكيد النهائي على هذه المعلومة التي تملك الكثير من المعقولية والمصداقية، وهو أمير داعش في الرقة لاحقاً، وأحد أهم أركان الدولة المخابراتية العميقة التي تعمل للسيطرة على الرقة)، وذلك عن ثلاث طرق على الأقل: الأول عبد الرحمن الفيصل،"أبو فيصل"، والثاني عبد المعطي الحسن، والثالث عبد الكريم الرمضان. ولقد اتصل أبو فيصل بقيادة اللواء في صحبة سامر ابراهيم مرة واحدة على الأقل، وعدداً مجهولاً من المرات بنفسه مع آخرين..

3 ـ سليمان طرشة هو أحد عناصر الاتصال الكثيرين، ويوجد عشرات نقاط اتصال مع مركز الدولة العميقة، كلها كانت تعمل، زيادة على شبكة سليمان، في محاولة التأثير على تغيير النتائج لصالح النظام، ويمكننا أن نضيف إلى ماسبق من أسماء وعناصر اتصال شخصية جديدة، كانت تعمل مع شبكة سليمان طرشة، الشخص الآخر المدعو "العقيد عبد العلي".. وهو عسكري فني، خدم في المراسم في حلب، ولديه ثلاثة بيوت، ومتزوج من ثلاث نساء: الأولى تسكن في منزله بجانب مبنى الجنائية، والثانية ممرضة في المشفى العسكري بحلب، والثالثة جامعية تعيش معه في بيته الذي يقع بعد الجسر القديم بـ300 م، وهو شبيح معروف كان يعمل مع تجمع العشائر لدى النظام، ويستخدم سيارة مجهولة المصدر لونُها أسود، اضطُرَّ إلى إخفائها بعد التحرير.

4 ـ بعد ذلك يأتي دور كتائب أبو جاسم الأمن العسكري داخل الجيش الحر، وقد مضى الحديث عنها، وأهم أدوار هذه الكتائب مالعبته كتيبة المدعو اسماعيل الخضر، التي كانت على اتصال مباشر بالعقيد سمير وأحمد منصور قائد الدفاع الشعبي.

5 ـ أما الشخص المدعو عبد المعطي الحسن، فكان يدير شبكة خاصة تتبع للإدارة التابعة للحرب الإلكترونية برئاسة أكرم الحسن في الفرقة 17، إضافة إلى شبكة أخرى يديرها المدعو حسن عبد الرزاق، وهما أهم صلات الوصل بين أبو لقمان والدولة الأمنية العميقة في مرحلة من المراحل، وذلك قبل أن ينتقل كامل ثقل الدولة العميقة من مطار الطبقة العسكري إلى مبنى المحافظة في الرقة، والذي حرصت كل الأطراف على أن تتجنب قصفه بالطائرات لمدة تجاوزت الأربعة أعوام، وسوف أُفَصِّلُ في الحديث في الفصل القادم المطول عن شخصية أبو لقمان هذا.. عبد المعطي الحسن هذا كان يدير شبكة اتصالاته من مخبأ سري خاص به في قرية الخاتونية، وهو يقود شبكة من الشبيحة والجيش الوطني السابق، ويُمَوّلهم ويتواصل معهم بشكل مباشر، يساعده في مهمته شخص يدعى "إبراهيم الجدوع"..

6 ـ عبد الكريم الرمضان: هذا الشخص من أقارب أبو لقمان، وكان من عملاء النظام منذ ما قبل الثورة، ثمّ أصبح عنصر الإتصال الرئيسي بين أبو لقمان وكل الجهات الأمنية التابعة للنظام، وعلى كافة المستويات.. لقبه المعروف به لدى العامة هو (ابن زانيط)، ويسكن في السلحبية الشرقية، بجوار مقر الفرقة الحزبية.

في بداية الثورة انتسب إلى كتائب الفاروق، (بدفع وتحريض من أبو لقمان، حتى يكونَ عيناً له مطلعاً على كل تحركات الفاروق، وتراقب كل حركة الجيش الحر)، فقد جمع في وقت من الأوقات من البعثيين ومخبري النظام من بعض أقربائه كتيبة سلّحها بنفسه، ليضمن أبو لقمان ـ من خلال كتيبته ـ حماية لمنطقة سكنى أقربائه. وأصبح هو وكتيبته فيما بعد جزءاً من كتائب الفاروق، (مع البرنس وأبو عزام الفاروق)، وقد نقل عائلته إلى دمشق بداية تحرير الرقة، وأصبح متفرغاً تقريباً للتواصل بينه وبين أبو لقمان، وكافة الجهات التي تتبع للنظام.

عاد من دمشق، واستقر في الطبقة، وبعد تحرير الرقة، وانكشاف دوره المرتبط بالنظام لعامة الناس، خاف على نفسه، واضطُرَّ إلى الالتحاق بجيش الدفاع الوطني عند حاجز أثريا، حاجز الشبيحة المرابط جنوب الطبقة، وكان له دور رئيسي في صفقة تسليم الضباط الأسرى مع حج عبد الفتاح، قائد لواء أويس القرني.. وبعد سيطرة داعش على الرقة، ظلّ يتردد على المدينة بصورة طبيعية أسبوعياً على وجه التقريب، وبحماية شخصية من أبو لقمان وبالتنسيق معه.. وعموماً ربما كان هذا الشخص أبرز الأشخاص المشرفين على تنسيق العلاقة بين النظام وشبكة أبو لقمان المتعددة الرؤوس.

7 ـ اسماعيل الخضر(الحجي): المهنة السابقة: دهان وسائق باص.. وهو قائد كتيبة في لواء الأمناء، ولديه عناصر "منشقين من الفرقة في الظاهر"، ولقد بقي على تواصل مع ضباط الفرقة 17 بالرقة لفترة طويلة، قبل التحرير وبعده. وبعد تحرير الرقة رافق أحد أمراء جبهة النصرة(داعش لاحقاً) إلى اللواء 93 في عين عيسى، وجلبوا معهم من اللواء أسلحة وذخائر. وطوال الفترة التي كان فيها يتابع مهامه كقائد كتيبة في الجيش الحر، ظل مواضباً على السفر بصورة دورية إلى العاصمة دمشق، ليقبض راتبه ورواتب عناصر كتيبته.

8 ـ أما وكر الشر الأكبر، ومركز إدارة العمليات الرئيسي بين النظام، ممثلاً بالدولة العميقة من جهة، وبين الشبيحة والأعوان والمخبرين وكتائب أبوجاسم الأمن العسكري، فكان خلاف ما يُظنُ ويُعتقَد.. لم يكن المركز الأمني الذي يتحكم في القرار بالرقة يدار من قبل أفرع المخابرات، كما يعتقد الكثيرون، بل من قبل محل علني كان يظهر للعامة على صفة محل شركة عامة لبيع وصيانة أجهزة الموبايل، وبرمجياتها وكل ما يتعلق بها.. في هذا المحل الذي كان يُعرَف باسم مركز أو شركة القزاز للموبايلات، (أو فرع مخابرات القزاز كما جرت تسميته اصطلاحاً فيما بيننا)، والذي يقع مقابل مكتب نقليات الشركة الأهلية في شارع الوادي، والمسجل باسم أهم الشخصيات الأمنية في الرقة: عبد الرزاق الكرّيم العلي، وأولاده أيهم ومثنى وشوقي، حيث كان ثمة غرفٌ خاصة سرية، مزودة بحراسة مسلحة مثل كل أفرع المخابرات، وهي محجوبة داخل المحل بقواطع خشبية ولا تظهر للعيان، أو لزبائن المحل الذي يُفترضُ أنه محل بيع وبرمجة أجهزة موبايلات، مع ملاحظة أن الطابق الثاني للمبنى الذي يقع تحته"فرع القزاز" هذا، كان مزوداً بمجموعة كبيرة مسلحة للحماية والسيطرة، وهي متدربة على حماية وأمن المقر السري وجميع عناصره.. أما داخل المخبأ السري خلف صالة عرض الموبايلات، فقد تمَّ تجهيزه بطاقم عمل متكامل يعمل على تلقي المعلومات المطلوبة، واستقبال البيانات وتوجيه التعليمات إلى كل الشبكات المتوزعة على امتداد المحافظة..

عبد الرزاق كرّيم العلي، (مهندس زراعي) هو عميل أمني قديم للنظام، ومحترف متفرغ للعمل الأمني.. بدأ مسيرته في البداية عن طريق صلة قديمة بفرع أمن الدولة، ثم تمَّ اختيارُه مباشرة من قبل مخابرات القصر الجمهوري في دمشق، لمراقبة كافة فروع المخابرات التابعة للنظام في الرقة، وتقييم أدائها وتوجيهها. وكان لديه شبكة خاصة به من مخبرين يتقاضون رواتباً، ولا يتبعون لجهة أمنية أخرى إلا له. (في تلك الفترة كان كل منتسب للشبكة الخاصة بعبد الرزاق العلي يتقاضى راتباً شهرياً مقداره 12000 ليرة سورية، حيث كان الدولار لا يتجاوز صرفه أكثر من 42 ليرة سورية، وهو ما يعادل راتب أي موظف حكومي في المتوسط الوظيفي). ويمكن وصف جهاز عبد الرزاق العلي هذا بأنه كان جهاز" مخابرات على المخابرات". مما كان يثير حذراً، بل رهبة وفزعاً حتى لدى القيادات والفروع الأمنية في المحافظة منه شخصياً.

قبل تحرير الرقة بشهور كان عبد الرزاق الكريم المفوض رسمياً بتسليح الشبيحة، وفيما بعد ترك هذه المهام الصغيرة لسلطات أدنى منه، بعد أن وقع تعيين النظام على شخصية أحمد منصور، بالتعاون مع مسؤول التسليح الرسمي في المحافظة، الشبيح فواز عبد العزيز سرور، الذي لمع اسمه منذ ظهور الجيش الحر، فنقل فواز سرور مركز تسليح الشبيحة في الدفاع الشعبي، من مبنى فرع الحزب إلى قريته كسرة سرور(2).. وبعد تحرير الرقة، هرب عبد الرزاق الكرّيم إلى طرطوس، مع زوجته كفاء الحسن وأولاده أيهم ومثنى وشوقي. وظل يتابع كامل مهامه الأمنية في أماكن سيطرة النظام، وتتبع كل ما يتصل بشأن الرقة، مدينة وريفاً. وقد هوجم منزله بعد التحرير من قبل لواء أحفاد الرسول مرتين، غير أن المداهمين لم يعثروا على شيء فيه، سوى ثمانية بنادق روسية كانت مدفونة في الحديقة خلف المنزل.

ابنه الأول أيهم (مواليد الرقة 1983)، كان يعمل في الظاهر مدرباً ومعلماً لمادة الرياضة في الثانويات والمعاهد، غير أنه كان متفرغاً لمساعدة والده في إدارة الشبكة الأمنية، وكان ذراعه الأيمن. وفي الشهر الثامن من السنة الثانية بعد انطلاق الثورة، تواصل أيهم في الهاتف من أحد الأشخاص لكي يعير دراجته النارية للمدعو عبد الله الموسى، من أهالي معدان، بضعة ساعات، وحين تأخر هذا الأخير في رد الدراجة، وساءل أيهم عن مصيرها ومصير الشخص الذي استعارها، طمأنه بأن هذا الشخص يعمل في شبكته الخاصة، وأنه سرعان ما سوف يعود، لأنه كلفه بإدخال بعض الحاجات الضروريات لضباط الفرقة 17، ومساعدة أحد الضباط العلويين في الانتقال خارج الفرقة، للذهاب في إجازة إلى أهله بضعة أيام..

بوجه عام، لم تكن كل هذه الإضافات التي أكدها لنا سامر ابراهيم عن فرع القزاز ومديريه، ذات جدوى أو أهمية جديدة، فلقد كنا مُلِمّين بأكثر مما زَوَّدنا به سامر من معلومات، عن عبد الرزاق وأولاده الذين كانوا يمارسون مهامهم في شبه علانية، ودون خفاء أو اهتمام بسرية حركتهم. حتى أنهم كانوا يسيرون في

الشوارع في رتل سيارات مليئة بعناصر حماية مسلحة دون غضاضة أو محذور. ولقد خططنا قبل التحرير ببضعة شهور للهجوم على هذا الفرع الذي كانت أبرز مهامه ملاحقة المتظاهرين وتوثيقهم بالتصوير، قبل إرسالها بصورة يومية إلى أفرع العاصمة ووسائل إعلام النظام، غير أن الخطة فشلت، وتمَّ التراجع عنها في الدقائق الأخيرة قبل التنفيذ، لأسباب يطول شرحُها ولا مجال لبحثها في سياق الحديث هذا..

9 ـ هذه عينة من بعض أسماء المخبرين السريين الرسميين، (الذين يتقاضون رواتب شهرية وتعويض مهمات وصرف مكافآت كالموظفين الرسميين)، لدى مفرزة المخابرات الجوية في الرقة: شواخ وليد الكجي ـ عبد العزيز النجم (صاحب محل تصنيع شوادر) ـ أحمد مصطفى الحسن (صاحب مطعم البيت اليوناني) ـ محمود اسماعيل الحمود (استلم هارد ومعالج كمبيوتر من الفرع)(3) ـ ياسر صبحي الطبشو ـ مروان الجزائري (يعتقد بأنه كردي الأصل، حيث أغلب التقارير التي رفعها للفرع كانت بالأكراد عامةً، واجتماعاتهم السرية، (دُوِّنَ بجانب اسمه في الملاحظات الخاصة: مندوب معتمد ونشيط)(4) ـ حسن محمد الحسين(أمين فرقة الجديدات، ومن المرشحين لانتخابات الفرقة الحزبية. (دُوِّنَ بجانب اسمه في الملاحظات الخاصة: مندوب معتمد ونشيط) ـ حمود المصطفى أبو فادي(مندوب مزدوج للجمارك والأمن العسكري) ـ صالح التونسي، وهو على صلة بـالمندوب أحمد الساير، ولهما تقريران مشتركان بنفس الموضوع. (دوِّنَ بجانب اسمه في الملاحظات الخاصة: مندوب معتمد ونشيط)(4) ـ بركل محمد خضر، يعتقد بأنه كردي من عين عرب، وأغلب تقاريره كانت عن الأكراد(دُوِّنَ بجانب اسمه في الملاحظات الخاصة: مندوب معتمد ونشيط)(4) ـ محمد عاصم العلي، المشهور بلقبه أبو عاصم. عضو مجلس محافظة سابق- شارع تل أبيض، بناية أبو عاصم ط4. (دُوِّنَ بجانب اسمه في الملاحظات الخاصة: مندوب معتمد ونشيط) ـ أحمد الساير(هذا الشخص شارك في مظاهرة الرقة الأولى بعد الثورة) ـ أبو كاسر، صاحب تكسي عمومي، وهو على صلة بالمندوب أبو عاصم.

من هو (أبو لقمان) أمير داعش في الرقة..؟(5)

هل ارتكبت داعش ـ أو القوى الدولية التي صنعت داعش بالأحرى ـ خطأً جنائياً فاحشاً يكشف خفايا الصُنعة الجرمية المتقنة؟ خطأ من ذلك النوع الذي يغري المحققين الجنائيين عادة بأن يُفصحوا عن سرورهم، بعد انكشاف الحقيقة الصريحة، هاتفين: لاجريمة كاملة في هذا العالم.. فلكل مجرم سقطة تُخرِج الخطة عن حدود الإتقان الكامل، وهفوة مرتجلة تفضح كل ذلك اللغو المحلي والدولي الكثير، والمتواصل القرع والدويّ ليقنعنا بما يرغب من طمس مسامات الحقيقة..؟ ذلك لأن خبرة شجرية الفروع والجذور، تعرف خطوات المسير قبل أن تلمح الطريق، وقبل المضي فيه.. نعم.. تلك السقطة الكبرى الكاشفة لزيف صناعة داعش كانت سحجة فنية غير متقنة، في لوحة هي في أصلها غير بارعة الصنع..

كانت رجلاً عُرِف باسم أبو لقمان.. فمن هو أبو لقمان هذا..؟

((1)) ـ الجذور:

ـ في عام 1942 وصل إلى قرية السحل، التي لا تبعد عن مدينة الرقة أكثر من 15 كلم جنوبي الفرات، رجل اسمه "شواخ".. هكذا سمّى نفسه لأهل القرية. يرافقه شاب آخر اسمه عبود، زعم بأنه ابن أخته. ولم يكن لهذين الرجلين الغريبين أسرة ولا أقارب ولا مال يستعينون به على السفر. نزل المدعو شواخ هذا في القرية الصغيرة التي كانت تقطنُها بعض عوائل عشيرة العجيل الرقاوية، وما زالت حتى يومنا هذا. واتصل بمختار القرية وشيوخِها وبعضِ أهل الوجاهة فيها. وطلب منهم استضافته لكي يُعَرِّف بنفسه وشخصيته وسبب وفودِه غريباً إليهم. إلا أن الرجل شدَّد على الرجال الذين اجتمعوا به في مضافة مختار القرية المدعو (جاسم الحمود) أن يبقوه بينهم، وأن يحموه وأن يحافظوا على سرّه الذي حمله على تجشم السفر والوصول إليهم. فأعطوه عهداً وأماناً، وتعاهدوا فيما بينهم، أن يستجيبوا لرغبته في هذا الأمر، وأن لا يشرحوا من أمره ولا سرّه لعامة أهل القرية، بعد أن ادعى أن أصله"جبوري"، وأنه يرجع بنسبه إلى نسب عشيرتهم من العجيل، وأنه قدم من العراق حيث فارق عشيرته التي ادعى أنها أيضاً ترجع نسباً إلى"الجبور".

ـ لم يَبُحْ الرَهطُ من الرجال الذين اجتمعوا بهذا الوافد الغريب بسره كما وعدوه، وتم انتسابه على ملأ من الناس إلى عشيرة العجيل الرقاوية. وآخرُ فردٍ كان موجوداً في هذا الاجتماع السري مع الوافد الغريب، توفي منذ بضعة سنوات، واسمه"كريدي الحمود"، وقد مات عن عمر ناهز التسعين عاماً. ورغم إلحاح من حضروه وهو على فراش الموت أن يسرَّ لهم بما جرى من تفاصيل ذلك الاجتماع السري في مضافة المختار جاسم الحمود، مع المدعو شواخ، ومن حضر من وجهاء قرية السحل، إلا أن الرجلَ رفض بشدة الإفصاح

عن سرّ ماسُمي فيما بعد، وتم التعارف عليه لاحقاً بـ"عائلة الشواخ"، وقال: لقد أقسمنا يميناً على أن لا نحدثَ أحداً من الناس بذلك الأمر.

ـ بعد حوالي سبعين عاماً، وقد أصبح تعداد عائلة شواخ هذا قريباً من مائة نسمة، موزعين على جيلين؛ جيل أبناء شواخ، وجيل أحفاده، الذين يُعدُّ أبو لقمان واحداً منهم، وقد صرَّح أحد أبناء شواخ وأعمام أبو لقمان المدعو"ابراهيم" في تاريخ بعد هذا التاريخ بفترة طويلة، وعلى ملأ من أهل قرية السحل، وبشهادة من حضر منهم ـ وقد بلغ لابن اخيه علي موسى الشواخ، أو أبو لقمان، ما بلغ من النفوذ والقوة، بعد سيطرة داعش على محافظة الرقة ـ أنهم ليسوا من أهل السحل ولا الرقة، وليسوا من عشيرة العجيل، وأنهم أكبرُ شاناً وأعظمُ مقاماً من أن ينتموا إلى هذه العشيرة.

ـ تزوج شواخ ـ الذي كان شاباً عازباً حين وصل إلى قرية السحل ـ بثلاث نساء من أهل القرية، خلال فترة عمره في القرية. وحثَّ أبناءه على الزواج والإنجاب لتكثير عدد أفراد العائلة، وقد عاشت أسرة شواخ وأبناءه في القرية حياة انطوائية من طرفٍ واحد، فرغم مخالطتهم خلال سبعين عاماً لأهل قرية السحل، إلا أنهم تشددوا في تقليل زيارات أهل القرية إلى منازلهم والاطلاع على أسرارهم العائلية، ومن مصادر معلومات أخرى، تؤكد بأن أصل شواخ، جد أبو لقمان، يرجع إلى أسرة شيعية عراقية أو إيرانية، وأن سرّه الذي حرص على كتمانه طيلة سبعين عاماً، هو أن لا يذاع على أهل قرية السحل هذا السر للعامة، وقد ادعى الرجل أن سبب تغريبه عن بيئته هو اعتناقه المذهب السني، وخلافات كثيرة أخرى قد حدثت في الماضي، ووصلت إلى حد تغريبه وتهديده بحياته، غير أن مصادر هذه الرواية ماتزال مضطربة، تحتاج إلى بعض التوثيق والتأكيد.

غير أن اللافت للنظر هو أن شواخ هذا، حرص على تسمية أبنائه وأحفاده بأسماء الأئمة الشيعة الإثني عشر: كاظم، موسى، علي..إلى آخر بقية أعمام أبو لقمان، (والده اسمه موسى نسبة إلى موسى الهادي). بهذا المعنى فإننا حين نذكر في أي سياق في هذا البحث، عن "قرابة" تربط أبو لقمان بأحد ما، فإننا نعني حُكماً قرابة خؤولة، ودرجة من المصاهرة ارتبط بها أبناؤه أو أحفاده مع أهل القرية من العجيل، أو من عشائر رقاوية أخرى، فعائلة شواخ في حكم المؤكد لا ترتبط بقرابة نسب مع أي أسرة في محافظة الرقة، لا من قريب ولا من بعيد.. مع أن الصحافة والإعلام والميديا الواسعة، على المستويين المحلي أو الدولي، كلها حاولت التركيز والنقر المستمر في الأذهان والمخيلة القريبة، على نهج تثبيت فكرة أن أبو لقمان هذا هو من أبناء عشيرة العجيل في الرقة.

ـ بعد عدة سنوات من وصول شواخ هذا إلى قرية السحل، حدثت جريمة قتل، (أو "بلش" بالمصطلح الرقاوي الدارج)، فقد أقدم رجلٌ من عشيرة مجاورة لعشيرة العجيل، تدعى الظاهر، على قتل أحد أبناء شواخ. وقد كانت معظم سكنى أبناء عشيرة الظاهر اليوم في القرية التي تقع إلى الغرب من قرية السحل، والمعروفة رسمياً باسم" قرية الظاهر أو 16 تشرين". ولقد كانت هذه الجريمة فاتحة خير عميم رسم مستقبل عائلة شواخ، ورّسخ لها كينونة ذات وزن في واقع قرية السحل، ومقدرة على خلق توازن اقتصادي مع بقية العوائل والأسر في العشيرة التي أخذت تندمج فيها. فقد انتصر العجيل لمن اعتبروه منهم، ومن أبناء عشيرتهم، وناصروه على عشيرة الظاهر، وانتهت الضغوطات العشائرية ومفاوضات الصلح بين العشيرتين، بأن يُرَحَّل كلُّ من يقطن قرية السحل من أبناء الظاهر إلى قريتهم، وأن يتنازلوا عن ملكيتهم الزراعية من الأرض جميعها لصالح شواخ وأبنائه. والتي بلغت حوالي 300 دونم من الأراضي الزراعية، تمَّ إقرارُها ثمناً لدم ابنه القتيل من قبل العشيرة الأخرى، (حتى لا يظلَّ المتبالشون متواجهين ينظرون إلى بعضهم عن قرب، في القرية الواحدة). وهكذا أصبح شواخ ملاكاً في القرية، بعد أن كان كثير العيال ومعدماً تقريباً، وصار له أسوة وكفاءة تعوضه عن جدارة النسب المجهول، والأصل المُدّعى في العجيل، وقد تحوّل بين ليلة وضحاها، إلى مالك أرضٍ زراعية على جانب الفرات، في أواسط قرية السحل وعشيرة العجيل.

ـ الثابت من سيرة حفيد شواخ علي، الذي عُرف عالمياً بلقب أبو لقمان، أنه لم يكن شاباً متديناً، فقد وُصِفَ من بعض أبناء القرية نفسها بأنه كان:"صايع ضايع".. وكل ما يعرفه أهل القرية عنه، حتى آخر سنة مرت به وهو على مقاعد الدراسة في كلية الحقوق في جامعة حلب، والتي كانت حتى عام 1999، أنه كان يقضي جلَّ وقته ـ كسائر الشباب من أبناء جيله ـ في "التحرش بالفتيات وتلطيش البنات وقضاء معظم الوقت في لعب ورق الشدة". وفي هذا العام بالذات، حدث انقلاب مفاجئ غيَّر حياة الشاب رأساً على عقب، فقد انقلب فجأة، إلى شاب متدين شديد التطرف، ونحا نحوَ سيرةٍ جديدة محافظة،لم تكن تناسب سيرته السابقة، فاستحال هذا الانقلاب الفكري والمسلكي غير المتدرج، قَدَرَاً جديداً قرَّر طبيعة جديدة للشاب، مناقضة ومنفصلة عن سابقتها بنسبة مائة وثمانين درجة.

يُرجِعُ بعضُهم سبب هذا الانقلاب المفاجئ إلى صداقة جديدة ناشئة، ربطت بين الشاب علي، أبو لقمان، وبين رجلٍ يكبره سناً وخبرة، ويشتهرُ بأنه كان ذا ميول دينية سلفية، وهو من ناحية الكرامة،(شرقي الرقة بـ 30 كلم)، ومن عشيرة البريج، يدعى حامد الطياوي.. كما يُعرَفُ عن هذا الرجل، الطياوي، بأنه كان ميسور الحال ومقتدراً من الناحية المادية، مقابل الفقر المدقع الذي كان يعيشُ فيه علي موسى الشواخ، أبو لقمان. وخلال السنوات الثلاث أو الأربع التالية، غيَّرت هذه الصلة كثيراً من صداقات وعلاقات أبو لقمان، وفتحت له فضاءاتٍ وآفاقاً جديدة. وقد سعى وحرص على أن يلازم خطبة الجمعة في مسجد القرية، وأن يستأثر بمكانة الخطيب الذي يتوجه إلى جمهور واسع من أهل القرية مباشرة. وبعد الغزو الأمريكي للعراق، عُرِف أبو لقمان من بين أشخاص قلائل في المنطقة، بتحريضه على قتال الأميركان والتطوع للجهاد في العراق ضد الغزاة، وكانت دعوته هذه علنية سافرة، وقد استمرت بعلم السلطات الإستخبارية في الرقة، (ولم يكن أحدٌ، رغم أجواء احتلال الأميركان للعراق، في الرقة كلها بقادرٍ على أن يتلفظ بلفظ كلمة "الجهاد"، لا في المساجد ولا في المجالس الخاصة أو العامة).

ـ تطور مسلك أبو لقمان الذي لم تنقطع صلته بحامد الطياوي"المجهولة"، وأصبح يعمل على تجنيد الشباب والتواصل مع قوى أخرى كثيرة خارج محافظة الرقة من أجل هذا الغرض، (وهي تقريباً نفس السيرة التي انتهجها عميل النظام المعروف"محمود قول أغاسي" في حلب، أو "أبو القعقاع"، وبذات الأدوات التحميسية والتحريضية على الجهاد التي عمل أبو القعقاع بمقتضاها). وبعد سنتين متواصلتين، كفّت أجهزة الأمن يده عن الخطبة في المسجد رسمياً، ومنعته من إلقاء خطب الجمعة، لكي تمنحه قبولاً ومصداقية لدى سائر الطيف الإسلامي والمتدين، ذي التفكير الأصولي أو الراديكالي، المُحرّض على فكرة التصدي لـ"الأنظمة الكافرة والغرب الصليبي"، مع ملاحظة أنه كان يشتم النظام علناً في خطبه النارية تلك، والتي كانت تصل في بعض مستوياتها إلى شتم رأس النظام، بشار الأسد، علانية، وعلى مرأى ومسمع من أجهزة الأمن جميعها... وبعد رحلة طويلة من العمل على بث الأفكار الجهادية والتحريض عليها، من خلال منبر مسجد قرية السحل، وبعد عام 2006 اعتقِل أبو لقمان مع حامد الطياوي، وأودع الرجلان في سجن صيدنايا العسكري، كسائر الإسلاميين الذين جمعتهم المخابرات من شتى منابت المجتمع السوري، وأودعتهم جميعاً في"أكاديمية الجهاد" التي كانت تشرف عليها أجهزة النظام الإستخباراتية.

ـ وفي الشهر السابع من عام 2011، أي بعد انطلاق الثورة السورية بأربعة أشهر تقريباً، وكما بات معروفاً وشائعاً، صدر عفوٌ عامٌ عن كل الإسلاميين في سجون النظام، فخرج من معتقلاته المختلفة بضعة آلاف من السلفيين والجهاديين، ومعظم الموقوفين لصالح الانتماءات أو الحركات السياسية الإسلامية. وفي هذا التاريخ خرج أبو لقمان ومعه حامد الطياوي، كسائر الإسلاميين الآخرين.. لكنه بعد مضي أسابيع، تم الإعلان ثانية عن اعتقاله مرة أخرى في الرقة، وهذه المرة اعتقِل شخصياً ولم يكن معه من المعتقلين ثانية، سوى صديقه ورفيق دربه الذي ذكرناه آنفاً، حامد الطياوي. ولكن بعد مرور ستة أشهر على الاعتقال الجديد ـ الثاني ـ خرج أبو لقمان وحده، ليعلنَ أن حامد الطياوي قد تمت تصفيته تحت التعذيب، وأنه **"مات في السجن على مرأى من بصره، وقد شهد موته ورأى جثته بعينه"**. (ولقد اختفى المدعو حامد الطياوي بعد هذا الحادث حتى ساعة كتابة هذه السطور).

هنا لابد من التنويه بأن أبو لقمان قد أخطأ خطأين فظيعين، غير مقصودين. الأول: أن ثمة من رآه رأي العين، وشاهده وهو يقود سيارته"متخفياً" في الرقة، في الفترة التي أعلن فيها عن اعتقاله الثاني، والذي بلغ ستة شهور بزعمه، حيث ادعى أنه أعيد إلى المعتقل ثانية، وأنه تمَّ فتح تحقيق جديد معه. أما ثاني الأخطاء، فقد وقع فيها بعد تحرير الرقة مباشرة من النظام، ووقوع عدد كبير من عناصر الجيش وضباط الأمن وقوى الحراسة التابعين للنظام في قبضة الجيش الحر. حيث صرح بأنه ينوي أن يحتفظ بالأسرى لدى الجبهة، (يومذاك كانت جبهة النصرة هي الموجودة فحسب، ولم يكن تنظيم داعش قد ظهر بعد). وذلك لكي (يفاوض النظام على معتقلي الثورة والمعارضة، وكل من في يد النظام من أسرى مايزال يتحفظ عليهم ولم يفرج عنهم. ومن بين هؤلاء الأسرى ذكر "حامد الطياوي"، كأحد أبرز من ينوي أن يفاوض النظام من أجل إطلاق سراحهم).. ولعله نسي بأنه هو نفسه من صرّح قبل شهور بأنه كان شاهداً وحيداً تقريباً، على رؤية جثة حامد الطياوي بأم عينه، وقد سقط تحت التعذيب في سجون النظام.

ـ حين روى شقيق أبو لقمان، المدعو"محمد"، أن أبو لقمان ينوي المطالبة ببعض معتقلي الثورة والمعارضة لدى النظام، ومن بينهم حامد الطياوي، نوّهَ بعض من حضره من الشبان الذين سمعوا شهادة أبو لقمان السابقة بوفاة حامد، بسؤال بريء: كيف يُفتدى حامد الطياوي من الاعتقال، وأبو لقمان شهد بنفسه، على ملأ من الناس، بأنه رآه ميتاً تحت التعذيب في السجن..؟ وحين أتبع سؤاله هذا

بشهادة أن أبو لقمان قد شوهد في فترة الإعتقال الثانية المزعومة، وهو في الرقة، في حالة من التخفي ، أصبح ذلك الشاب المتسائل هدفاً مشروعاً لأبو لقمان، وقد سعى جاهداً بكل ما يستطيع لاعتقاله أو لتصفيته واغتياله فيما بعد، لولا أنه فرَّ ونجا من انتقامه بأعجوبة.

ـ بات الآن، وفيما يقع تحت ريبة شبه مؤكدة، أن ما زُعمَ أو سُمي بالاعتقال الثاني ـ الستة أشهر التي اقتضت تغيب أبو لقمان وتواريه عن الأنظار، بذريعة اعتقاله مرة أخرى ـ كانت مقصودة لتغطية اعتقال شخص حامد الطياوي بالذات، قبل مساومته على الخطة والدور المطلوب منه في مرحلة ما بعد الخروج من السجن. ويبدو أن الرجل قد دفع حياته ثمناً لهذا الرفض على المساومة من الخروج من السجن مقابل دور ما، قد تمَّ عرضُه أو إغراؤه به.

شرع أبو لقمان في رحلته المقبلة، وقد حاول أن يوحي لعائلة حامد الطياوي وعشيرته ـ بحكم ما بات معروفاً بينهما من صلات تاريخية وأسرار مشتركة ـ بأن الرجل ما يزال معتقلاً لدى النظام، وأنه مايزال رفيق دربه وشريكه في المعتقد الجهادي والمبدأ الواحد الذي جمعهما، وذلك حتى ينفي الشكوك حوله، وتورطه في مقتله. وابتداءاً من جثة حامد الطياوي التي ستظل غائبة المعلم إلى الأبد، بدأت سيرة أبو لقمان، كوحش بشري، وسفاك وقاتل جماعي على مستوى العالم أجمع.

((2)) سيرة ذاتية:

ينتمي علي موسى الشواخ الذي بات مشتهراً على صعيد محلي وعالمي، بلقبه الأول الذي اختاره لنفسه منذ بدايات الثورة، لقب"أبو لقمان"، ينتمي إلى ذلك الجيل من الأوائل، الذين يصحُّ تسميتهم بما يُعرفُ بالاستخباراتيين الدينيين؛ وهم فئة من المواطنين السوريين الذين أشرف جهاز المخابرات العسكرية والمخابرات الجوية، على تدريبهم وتأهيلهم التأهيل الديني المطلوب، بغرض زرعهم داخل مجموعات أو تنظيمات إسلامية كانت نشطة وصاعدة في السبعينات.. أبرز هذه الشخصيات التي لعبت دوراً هاماً في الأوساط السورية الأستاذ الجامعي/الدكتور المعروف علي اسحاق الشعيبي، والذي انتسب في وقت مبكر، وعمل في سلك الاستخبارات العسكرية في سوريا منذ يفاعته، ومنذ كان طالباً في المرحلة الإعدادية، ومثل المدعو"محمود قول أغاسي"، الذي اشتهر في كل سوريا بلقب "أبو القعقاع"، وكان ضابطاً كبيراً في جهاز المخابرات العسكرية، ويعمل بصفته الرسمية المعروفة، كشيخ وخطيب مسجد في حلب، وداعية كبير إلى الجهاد ومقاومة الأمريكان والصليبيين، كما عمم في خطابه الجماهيري العام، الذي ذاع صيته بين العامة حتى مقتله.

أبو لقمان تمت تزكيته في نفس الفترة تقريباً، من قبل أحد أقربائه المدعو"ابراهيم الهنيدي"، والذي شغل عدة مناصب حزبية متقدمة وتولى منصب المحافظ مرتين، وكان يُعدُّ من الصف الأول المتقدم في قيادات البعث، في القيادة القطرية واللجنة المركزية، فضلاً عن كونه من الرجال القلائل جداً المقربين كثيراً من الرئيس السابق حافظ الأسد، ومن ابنه من بعده بشار الأسد، وقد سعى ابراهيم الهنيدي إلى ترشيح وتزكية قريبه"علي"، أبو لقمان، ذلك الفتى النجيب وذي الحافظة القوية والذاكرة الفولاذية التي تملك استعدادات رجل مخابرات من الطراز الأول والناجح. وبعد عديد من الاختبارات الضرورية تم تبنيه بقوة من قبل ضابط الاستخبارات الأشهر في سوريا، العقيد أديب نمر سلامة(أو اللواء فيما بعد). والذي يعد اليوم رأس هرم الجهاز المعروف باسم المخابرات الجوية العامة في سوريا، ورسمياً تم تجنيده داخل سلك المخابرات الجوية في أواخر مرحلة دراسته الجامعية، كصف ضابط ثم ضابط رسمي في المخابرات الجوية، وتحت إشراف وتدريب وتأهيل اللواء سلامة. كما يجدر إضافة الملاحظة التالية: ابراهيم الهنيدي، الذي رشح أبو لقمان للمخابرات الجوية، تولى أعلى المناصب الحزبية في الحزب والدولة في سنٍ كان قد بلغه من عمره يلفت النظر حقاً؛ فقد تم تعيينه عضواً للقيادة القطرية واللجنة المركزية للحزب وهو لم يتجاوز الرابعة والعشرين من العمر، كما أن عائلة هذا الشخص، هي الأخرى يشوب تاريخها وماضيها الغموض الذي شاب عائلة شواخ، وثمة شكوك أنها انتسبت إلى العجيل في وقت غير متأخر، وبذات الطريقة التي اندس فيها شواخ بعشيرة العجيل، وربما في تاريخ مقارب.. ولست أملك من المعلومات الموثوقة حول موضوع أصل ابراهيم الهنيدي اكثر من ذلك..

ولن نجد حرجاً كبيراً فيما لو بالغنا في تقدير موهبة هذا الرجل الإستثنائي، أبو لقمان، والذي لعب دوره بمهارة تحسب له في تجميع قوى داعش المبعثرة في محافظة كالرقة، واستطاع أن يخطو الخطوات الكبرى في تشكيل بنيان داعش المؤسساتي.. وهناك من التسريبات بأن أبو لقمان ومعلمه اللواء سلامة، بالتعاون مع علي الشعيبي وبعض الإيرانيين في دمشق، هم من رشحوا للأمريكان وللإسرائيليين شخصية أبو بكر البغدادي (ابراهيم عواد ابراهيم البدري، "خليفة داعش فيما بعد")، حين كان الأمريكان في بدايات مخططهم لتأسيس داعش في المنطقة، وحين كانوا يبحثون عن شخصية عبثية إجرامية مريضة مهيأة لقيادة كل هذه الفوضى، ولها

مواصفات رجل دين إسلاموي يعمل في الشأن السياسي والدعوي. إن أبو لقمان لم يسهم بالسهم الأكبر في صناعة داعش في طبعتها السورية فقط، بل لعل الأصح قولاً بأنه كان من الشركاء الأساسيين في الدولة العميقة على مستوى العالم أجمع، في إعادة تأطير وتشكيل الشرق الأوسط الجديد، والتي خططت وسعت ـ وما تزال ـ إلى إعادة تشكيله من جديد، وأحد أدوات قوى كبرى نافذة، ومصيرية القرار والقوة والإرادة ..إن أبو لقمان هو أحد اللاعبين الدوليين في إنفاذ تلك الإرادات الدولية التي سيبقى تأثيرها لعشرات السنين القادمة.

ولكن كيف كان يتمُّ بناء هؤلاء الجهاديين من قبل الشبكات الاستخباراتية داخل سجون نظام الأسد..؟

قام نظام الأسد منذ وقت طويل على تشبيك علاقة متينة بين أجهزة استخباراته وبين هذه المجاميع المتطرفة، والتي يسهل تنظيمها وتأطيرها في سياق تنظيمات، تقوم أساساً على استقطاب الشباب المتدين بشعارات عاطفية، تمت دراستها ودرجة قدرتها على التأثير النفسي العام. وقد شكلت المخابرات السورية علاقات داخل السجن مع المتطرفين، متسامحة وسامحة لهم بتصاعد دورهم وتمدد نفوذهم التنظيمي، وبحسب تصريحات الضابط "سرية"، أحد أبرز الضباط الاستخباراتيين في النظام السوري، ومسؤولين استخباراتيين آخرين، فقد أكد سرية أن "كل تنظيم متطرف مخترق من النظام"..!! ولم يقف الحد عند اختراق الشبكات، بل تتمُّ إدارتها أيضاً عبر"تصميم هياكلها العامة"، حيث قال"علي مملوك" لمسؤولين أمريكيين في عام 2010: "إن النظام إجرائياً "سيُدخِلُ نفسه" ضمن المتطرفين الإسلاميين"، لإدارتهم لاحقاً". ويروي"نبيل دندل"، المدير السابق للمخابرات السياسية في اللاذقية، أنه قاد عمليات أمنية ضد خلايا للقاعدة، ليُعرف لاحقاً أن مدير هذه الخلية التي كان يلاحقها تابع ومدعوم من المخابرات السورية.(6)

وأكد دندل أن النظام السوري "كان يُعدُّهم ليصبحوا زعماء تنظيمات في المستقبل"، مستشهداً بحالة نديم بلوش، زعيم خلية للقاعدة، والذي اعتقل في عام 2006، فصرح عقب اعتقاله له: "لا تفعل شيئاً، أنا أعمل لصالح آصف شوكت، صهر الأسد". وقد اعتقل بلوش في تركيا بعد قيام الثورة السورية بفترة، وقيل بأنه انتحر في السجن. كما قدَّر قاضٍ سابقٌ للنظام، بعد أن انضم للثورة لاحقاً، أن**"نصف القياديين في تنظيم الدولة يعملون مع النظام"**، بينما قال منشق آخر: "إن الثلث يعمل كذلك"، وقد صرح محمد الناصر، وهو ضابط مخابرات منشق عن النظام، أن كبار القياديين في تنظيم الدولة مرتبطون بالمخابرات السورية.

ويروي الناشط المدني"عبد الله الحكواتي" في هذا السياق؛ أن "المتطرفين في سجن حلب المركزي لهم علاقة ممتازة جداً مع الحراس، بعكس السجناء المدنيين الذين لا يملكون أي امتيازات". ويضيف الحكواتي: "كان معنا داخل السجن ستة سجناء من صيدنايا، وآخرون من سجن تدمر وفرع فلسطين، والفرع "291"، وقد وصل العدد إلى 15 سجيناً من القاعدة، مع 15 سجيناً مدنياً".. مثل حكواتي. فكان لسجناء القاعدة امتيازات، لم يكن ليحصل عليها السجناء المدنيون، حسب ما يذكر الحكواتي، منها إمكانية امتلاكهم للهواتف، والوصول للإنترنت، وإطلاق لحيتهم، ولباسهم الأفغاني، وطلب وجبات من الخارج، وكان لديهم دروسهم دينية الخاصة، والتي يدعون بها بسلامة زعماء القاعدة علانية داخل الدروس المعطاة، ويذكر حكواتي بأنه "سمع خطبة كاملة لبن لادن في السجن". وإذا حصل ثمة اعتداء ما، من قبل إدارة السجن على أحد الناشطين المدنيين، فقد كان عناصر القاعدة يتدخلون لحمايته، حيث وصفهم حكواتي بأنهم: "هم مديرو السجن الحقيقيون"، وقد وصف حياتهم داخل السجن بأنها "نعيم كامل لهم".. يضيف حكواتي: "بعد أسابيع من هذه الحالة، وهذا التمييز والتفرقة في المعاملة، انضم خمسة من زملائه ـ الناشطين المدنيين ـ إلى مجموعة سجناء القاعدة".
ويستذكر الحكواتي الفرق بين الحالتين، حيث قال أحدهم واسمه "محمود مانيجاني" لعميد السجن: "عندما أخرج سوف أقتلك"، لم يزد على أن أجابه قائلاً له: "هذا شيء تقرره الآن فقط"، بينما عندما كان هناك اعتراض من الناشطين المدنيين على أن الطعام غير كافٍ، كانوا يهددونه ويشتمونه قائلين: "هل تريدني أن ألعب بخصيتيك؟".. كما أن العلاقة بين الناشطين والمتطرفين غالباً ما تكون عدائية، حيث يذكر حكواتي أنه بعد نقاش فلسفي جرى بين مانيجاني وبينه، حول معنى "الإله"، ضربه الإسلامي.. بينما ـ في موقف آخر ـ شكره عنصر آخر من عناصر القاعدة، قائلاً له: "بفضل مظاهراتكم فقط نحن مرتاحون اليوم، وفي وضع أفضل".
تصدر سجناء صيدنايا السابقون مواقع قيادية في الفصائل والكتائب التي وصفت بالإسلامية، فعدا أبو لقمان، والذي يعدُّ من أبرز مؤسسي جبهة النصرة في سوريا، وأبرز وأهم قياديي تنظيم داعش في الرقة، بل وفي سائر سوريا، هناك المسؤول الأمني في التنظيم "محمود الخليف"، والقيادي المعروف "فاضل العكال". كما كان من أبرز قيادات التنظيمات الإسلامية من المفرج عنهم من سجن صيدنايا، أبو عبد الرحمن الحموي، أمير النصرة في حماة، وأبو ناصر دروشة، ابن عم أبو محمد الجولاني، زعيم جبهة فتح الشام (جبهة النصرة سابقاً)، وأبو حسين زينية، مسؤول النصرة في القلمون، وأبو حفص الكسواني، مسؤول التنظيم في درعا.
وكان من بين خريجي صيدنايا، أبو جابر الشيخ، الذي ترأس الجبهة الإسلامية السورية، والتي ضمت الفصائل الإسلامية البعيدة عن القاعدة، ومن بينها جيش الإسلام، الذي ترأسه زهران علوش، قبل أن يقتل في كانون الأول/ ديسمبر عام 2016، والذي كان في صيدنايا كذلك، بجانب أحمد عيسى الشيخ، أمير "صقور الشام"، وحسان عبود، مؤسس "أحرار الشام"، الذي قتل مع كبار قادة التنظيم في تفجير غامض في أيلول/ سبتمبر 2014.
ووصف أحد ضباط الاستخبارات السورية أن وجود هذه القيادات في صيدنايا، كان مثل "التخرج بشهادة الشرف"، موضحاً بقوله: (إن الناس سوف يقولون: إن هذا الشخص دفع ثمناً غالياً في صيدنايا، ثم يصفونه بعد ذلك بالشيخ).
لقد استفادت المخابرات السورية من هذا الرصيد الهام من الجهاديين أكثر مما حققته عبر عشرات السنوات، من كل خبراتها وممارساتها التقليدية السابقة، فقد كانت على معرفة كافية بكل هؤلاء السجناء السابقين، وقد حفظت لهم ملفاتهم كاملة، حتى أصبح الشعب السوري اليوم، على رأي واحد وشبه إجماع تقريباً بأن هؤلاء كانوا أول من استعمله النظام في مخطط إفساد الثورة.
أبو لقمان، علي موسى الشواخ، من مواليد 1973، في قرية السحل التي تبعد خمس عشرة كلم غربي الرقة، متزوج وله خمسة أولاد. وقد عمل في فترة من الفترات مدرساً في مدرسة السحل؛ وهو يحمل شهادة حقوق من جامعة حلب. ويعتبر أبولقمان من أكثر الناس

حرصاً في القضايا الأمنية، وهو رجل ذو طبيعة وخبرة مخابراتية تكاد أن تكون حدساً طبيعياً في شخصيته، ويرددُ دوماً جملة شهيرة على لسانه :(لو كنت أثق بأبي لكنتُ أنا الآن نائماً عند زوجتي). وقد كان يعطي كل شخص حسب مايريد؛ وحسب مايرضي الشخص، فهو يعامل كل شخص حسب المصلحة التي يراها. ولقد باتت تروى في عموم المحافظة سرديات كثيرة شائعة عنه كالأساطير، وعن طبيعته الدموية ونزعته السادية إلى التعذيب والتلذذ به، وميله الشديد إلى سفك الدماء، والاستعداد لقتل أبناء محافظة الرقة فرادى وبالجملة.. ولقد روي عنه في ذلك أقاصيص كثيرة، منها أنه ظل يعذب أحد المعتقلين ذات مرة، في إحدى زنازين داعش لفترة وصلت إلى ست ساعات متواصلة دون انقطاع.

كذلك كانت تربط أبو لقمان صلة وثيقة بالمدعو أبو القعقاع، (محمود قول أغاسي) الذي لعب دوراً أمنياً واستخباراتياً في فترة حرب الخليج، وقام بتحريض الشباب الحلبي في حي الصاخور عبر خطبه الحماسية الشديدة التأثير على الجهاد في العراق، والإلتحاق بتنظيم القاعدة أولَ تشكله في العراق بعد الغزو الأمريكي.. هذه الصلة ماتزال حتى اليوم يكتنفها شيءٌ من الغموض، مع أنها باتت مؤكدة، وبعد أن انكشف دور أبو القعقاع الإستخباراتي، والذي بات مؤكداً أنه كان أكبر اللاعبين في نظام الأسد، وبعد أن تكشفت صِلاتُه بآصف شوكت الذي تعاون معه أبو القعقاع رسمياً منذ زمن سابق على هذا التاريخ، فقد بات في حكم المؤكد أن أبو القعقاع قد ارتبط بالمخابرات العسكرية السورية منذ أن كان طالباً في المرحلة الثانوية، أو ربما قبل هذه المرحلة أيضاً..

انسحب أبو القعقاع من أمام الأضواء متوارياً عن الأنظار، بعد أن تسبب في مجزرة مهولة لشباب ويافعين حرضهم على الإلتحاق بالمجاهدين العراقيين، وقُتِل معظمُهم هنالك في صحاري الأنبار.. واقتصر دور أبو القعقاع اللاحق على إلقاء خطبة الجمعة في أحد مساجد حلب بعد أن ثبت توريطه لعشرات الشبان الحلبيين في حرب الخليج وإرسالهم الى العراق، وزجِّهم في محرقة مميتة في المواجهات مع القوات الأمريكية الغازية والميليشيات الشيعية التي نشأت في تلك المرحلة.. ومن قُدِّرَ له النجاة والعودة سالماً إلى سوريا، كانت أجهزة نظام الأسد تنتظره وتقف له بالمرصاد لاعتقاله.

انتهى دور أبو القعقاع وانطفأ ذكره باغتياله إثر خروجه من المسجد الذي كان يصلي فيه صلاة الجمعة، ولقد تداولت الأقوال كثيراً في الجهة التي قامت بتصفيته، فمنهم من اتهم النظام مباشرة، وبعض الآراء رأت أن قتله كان حادثاً انتقامياً من أحد الشباب الناجين من محرقة العراق، التي ورَّط الكثيرين في أتونها.. فماهي العلاقة التي ربطت أبو لقمان بأبوالقعقاع..؟ هذا ما لا يُعرف بيقين وأدلة موثقة.. بيد أن المؤكد أن أبو لقمان كان دائم السفر إلى حلب لِلِّقاء به على الوجه المخصوص، وكان دائم الحرص على حضور خطبته ودروسه، ولفترة طويلة تجاوزت سنوات..

خلال تلك المرحلة تلقى أبو لقمان فضلاً عن معطى تعليمه الجامعي، تدريبات على طرائق تفكير الجهاديين والإندماج في مجتمعاتهم والسعي لاستقطابهم، وبدأ يتقنُ دور السلفي الجهادي المتشدد أيما إتقان، فكانت رحلة اعتقاله ودسه داخل صفوف الجماعات السلفية المتشددة، التي كان نظام الأسد قد جمع منهم العشرات في سجن صيدنايا العسكري، تدريباً شاقاً، ومغامرة استخباراتية داخل السجن، من أهم وأخطر مراحل حياته، فقد كانت مهمة عملياتية تنقل الخبرة النظرية إلى واقع تطبيقي ممارس من خلال إسلاميين على درجة عالية من القابلية والتفاعل والاستعداد لخوض التجربة الواعدة، وتقتضي رحلة الاعتقال عملاً داخل جدران السجن قد يحتاج لبضعة سنوات، لكنها كانت حاسمة وموطِدة للرجل الذي سوف يتخرج "قائداً سلفياً وجهادياً كبيراً".. في تلك الفترة كان أبو لقمان معتقلاً في سجن صيدنايا العسكري بسبب ميوله السلفية الجهادية، كما أسلفنا وتقرر في خطة المخابرات الجوية، وكان النظام السوري في أوج تصاعده في صناعة التنظيمات الجهادية، وتكييفها وطبعها بطابعه وربطها بأجهزته، حتى أنه أصبح مرجعية دولية بهذه الخبرات التي احتوى عليها واختبرها وجرَّبها وخرج بها بعد حربي الخليج الأولى والثانية، ولو قال قائل بأن نظام الاسد قد امتلك أذرع سرية من تلك الجماعات متغلغلة في كل بلاد العالم تقريباً لصدق ولما كذَّبه أحد.. لقد زرعت الإستخبارات السورية خلايا الجهاديين في أفغانستان والسودان مروراً بمعظم البلاد العربية تقريباً، لاسيما تلك التي عانت واحترقت بنيران الخلايا الأصولية كالجزائر، والأردن ولبنان، وبالأخص داخل التنظيمات الفلسطينية، (تجربة جند الشام وفتح الإسلام في المخيمات الفلسطينية في لبنان)، وكذلك في معظم دول مجلس التعاون الخليجي.

كان ملف الخلايا السلفية يتم التنسيق فيه بين جهازين سوريين كبيرين: الإستخبارات العسكرية السورية التي يشرف عليها آصف شوكت مباشرة ومن قبله حسن خليل، ثم إدارة المخابرات الجوية العامة بقيادة اللواء"أديب نمر سلامة"،(أديب نمر سلامة كان رئيس فرع

المخابرات الجوية في حلب، ثم عُزل عام 2016، وتمَ تعيينه لاحقاً معاون مدير إدارة المخابرات الجوية)، بعد التأسيس الأولي الذي أرساه علي مملوك ومحمد مخلوف ومحمد الخولي.. ولقد اتخذ اللواء سلامة من سجن صيدنايا العسكري مختبراً ومعملاً للتصنيع، ليتسنى له اختبار نقاط الضعف البنيوية في الخلايا التي سوف يتمُّ مدُّها بكل أسباب الإستمرار والتقوية والصلابة الكافية، بما يضمن لها تغلغلاً وانتشاراً يكفل تدخلُها وضربُها في أي مكان تشاء، ومتى شاءت وشاء لها نظام الأسد الذي استطاع بهذه المخططات الجهنمية أن يبتزَّ دولَ العالم أجمع، وأن يراهن على بقائه بورقة الأصولية ومحاربتها حتى يومنا هذا..

خرج أبو لقمان من السجن بعد أن تمَّ تجنيدُهُ وتأهيله تأهيلاً عاليَ المستوى من قبل اللواء أديب سلامة، وبإشرافه المباشر. (هناك رواية غير مؤكدة بأن أبو لقمان قد وصل إلى رتبة مقدم في الاستخبارات الجوية، ولكن لم يتمَّ التحققُ من صدق هذه الرواية). وبعد ذلك كانت له صحبة مع المدعو "أبو ماريا القحطاني" الذي أصبح في وقت سابق الناطق الرسمي باسم جبهة النصرة، والمدعو "أبو ذر" الذي أصبح والي الحسكة بعد ظهور تنظيم داعش، وتلك الصحبة كانت أيام كانوا أعضاءً فـي جبهة النصرة قبل ظهورداعش.

بعد ذلك بايع أبو لقمان تنظيم القاعدة حديثاً، وانفصل نهائياً عن جماعة (الدولة والهجرة)، التي ارتبط بها في حلب، وهي جماعة سرية شديدة الغموض، تشبه كثيراً الأخويات الماسونية، وتتألف من جامعيين ومثقفين سلفيين نخبويين شديدي السرية وغامضي الأهداف، والتي كان ينشط من خلالها فترة دراسته الجامعية، قبل أن يبايع تنظيم القاعدة بيعة مشروطة، حيث كانت بيعته "تحت الشجرة"، كما قيل، هو والمدعو "أبو عادل العراقي" و"أبو ماريا القحطاني"، تأسياً ببيعة الشجرة الشهيرة في السُنّة النبوية، علماً بأن أبو لقمان كان قد اشترط شروطاً قبل البيعة، وهو ما يسمونه في مصطلحاتهم بالبيعة المشروطة، حيث بايع أبو ماريا نيابةً عمن كان يُعدُّ ممثلاً لتنظيم القاعدة في بلاد الشام، وكانت شروط تلك البيعة على أن يتمَّ إصلاح بعض أخطاء التنظيم في (دولةالعراق)، كما أصبحت تسمى آنذاك. وقد قال له أبو ماريا يومها: إذا كنت تريد الإصلاح بايعْ، ومن ثَمَّ قمْ بالإصلاح الـذي تراه مناسباً وموافقاً للشريعة.

هناك كثير من التأكيدات بأن أبو لقمان لم يقاتل مع القاعدة في العراق عام 2006، ولفترة قصيرة كما هو شائع اليوم. وإنما جرى بثُّ هذه الداعية توافقاً مع الفترة التي بدأ صعود اسمه فيها. ولقد قضى يتنقل مدة طويلة في مناطق قريبة من الحدود العراقية، وساعد على استقبال أفواج من المتطوعين للجهاد في العراق والعمل على إدخالهم الحدود بطرق مختلفة. وفي فترة غيابه تلك قرب الحدود العراقية تمَ ضخ هذه الدعاية المساعدة على تلميعه وبروزه. وبدليل أنه بعد عودته ووصوله إلى ريف دير الزور، كان قد أمضى عدة أشهر في مدينة الشحيل لأنه لم يكن معروفاً من قبل قيادات التنظيم آنذاك. وقد تمت تزكيته لتنظيم الدولة من قبل "جماعة الدولة والهجرة"، قبل أن يتم تعيينه في وقت قريب لاحق والياً على محافظة الرقة، بعد ظهور تنظيم داعش.

((3)) ـ طَبَخَ النُصْرة ليُغَمِّسَ خارجَ صحنِها:

الواقعة الأهم التي عُرفتْ في وقت لاحقٍ بعد ظهوره وسطوع اسمه بقوة، ولم تأخذ القدر الكافي من التأمل والاهتمام بدلالاتها هي واقعة اعتقاله صدفة من قبل إحدى الدوريات الأمنية التابعة للمنطقة الحدودية بين العراق وسوريا. وكان في صحبته وقتها عبد الرحمن الفيصل، أبو فيصل، وشخص ثالث من الجهاديين الذين وصلوا من إحدى البلدان الإسلامية لينضموا إلى المجاهدين العراقيين. (ولم أعد أذكر اسم هذا الشخص الثالث اليوم). ولقد اعتقل الرجال الثلاثة ليتم الإفراج عن أبو لقمان وأبو فيصل بعد يومين أو ثلاثة.. أما رفيقهما الثالث، المجاهد الإسلامي، فقد تم نقله إلى العاصمة دمشق ليختفي منذ ذلك التاريخ، وإلى الأبد.

وبعد انتقاله إلى ريف دير الزور استعان أبو لقمان أول وصوله إلى المنطقة بعناصر حماية خاصة، بدأ ينتقيها بنفسه، ومجموعات عمل تنظيمية خاصة به، من أشهرهم شخص يدعى: **محمد البردي أبو المعتز**: وهو أمني في تنظيم داعش، عمل سائقاً خاصاً لأبو لقمان، ومن خلال عمله كسائق تعرف على كافة القيادات في الجبهة والدولة على حد سواء، وقد عمل في مجال المراسلات برفقة كلٍ من"أبو مسلم كنيطرة" و"أبو عبد العراقي". وقد التقى البردي بالبغدادي برفقة أبو العبد العراقي، صاحب العدناني ومرافقه في بعض الفترات، كما رافقه البردي لفترة من الوقت في مرحلة تسليح جبهة النصرة وجلب المهاجرين والاتصال بقيادات التنظيم في العراق، وتهريب السلاح بأنواعه، خاصة مسدسات الكلوك(كواتم الصوت) التي تمَّ تهريبُها وجلبُها إلى الرقة.

محمد البردي غير معروف من معظم عناصر التنظيم. حتى جنسيته غير معروفة مثل أبو قيس الشنّير وغيره، فهو أمني من نوع خاص، ومستودع لأسرار داعش عموماً وأبو لقمان خصوصاً.. وهو شاهد على كثير من عمليات الإغتيال، وربما كان أحد الذين كانوا ينفذون بعض هذه العمليات بنفسه، وخصوصاً في السجناء الذين كان أبو لقمان يأخذ قرار إعدامهم بنفسه، أو يصدر تعليماته لإلقائهم في

الهوتة. من خلال ملازمته الطويلة لأبو لقمان، كان البردي يوحي بانطباع عام بأنه من الأشخاص الذين يؤدون وظيفة فحسب، إذ لم يكن مهتماً لا بداعش ومبادئها كثيراً ولا بسواها، فهو نموذج للرجل الموظف/المرتزق غير المبدئي، وأبرز سلوكياته التي تميزه كانت أن يرضى عنه أبو لقمان والعدناني والأنباري، وبقية الشخصيات المشهورة اللامعة في تنظيم داعش.

ومن الحوادث الغريبة التي تؤكد خصوصية شخصية هذا الرجل الأمنية والسرية، قصة أم أبو الزهراء ـ وهو أحد شخصيات جبهة النصرة الذين قامت داعش بخطفه وتصفيته ـ وكيف رفضوا في بداية اعتقاله أن تراه أمه، ثم قرر أبو لقمان أن تذهب أم أبو الزهراء برفقة محمد البردي فقط، إلى درجة أنهم رفضوا أن يأخذوا ابنها الصغير، علماً أنها عجوز وأرادت أن يذهب ابنها "محرماً لها"، إلا أنهم رفضوا، فاضطرت أن توافق على الذهاب إلى حريتان برفقة أبو المعتز"محمد البردي"، الشخص الوحيد الذي أستأمنه أبو لقمان على مكان اعتقال أبو الزهراء ورفيقه أبو أسماء. ومحمد البردي كان له أخ شقيق في جبهة النصرة قبل ظهور تنظيم داعش، وقد طُرِد من النصرة بسبب أخلاقه السيئة وسرقاته المتكررة للأسحة والذخائر. وقد تزوج البردي من إحدى قرى التركمان، ومظهره الخارجي مظهر شاب متوسط الطول، بدين، أصلع، حليق اللحية والشارب، وصاحب بشرة حمراء مائلة للشقرة.

وممن اعتمد عليهم أبو لقمان أيضاً بشكل أساسي، الشخص المدعو **أبو ياسر العراقي**.. وهو شخصية غير معروف باسمه الحقيقي حتى اليوم، ويُعَدُّ أحدَ الأمراء المقاتلين والأمنيين، وسفاح داعش الأكبر في محافظة الرقة.. عراقي الجنسية، ويُعرف عنه بأنه سجن في فترة الإحتلال الأمريكي للعراق مدة أربع سنوات في سجون النظام العراقي الحالي، وأنه بايع مقاتلي القاعدة في السجن. وقد أصبح عضواً في تنظيم داعش في العراق قبل تأسيس فرعه السوري وتمدده نحو سوريا، وهو متزوج من امرأة عراقية، لكنه طلَّق زوجته في وقت مبكر ولديه منها ابنة، وتزوج أربع نساء في سوريا، ثم طلقهن جميعاً على فترات مختلفة، ويعتبرمن أبرز المحققين الأمنيين في تنظيم داعش، وربما كان الأول بينهم..له علامة فارقة تميزه عادة هي طلقة نارية في قدمه تركت أثراً واضحاً وعرجاً في مشيته، والطلقة أصيب بها نتيجة خطأ من أحد زملائه في داعش، وأغلب تواجده الأمني في مبنى المحافظة في الرقة، لكنه ذهب في كثير من المهام إلى منطقة تل أبيض، ويعتبر أبو ياسر العراقي مسؤولاً عن التصفيات والإعدامات وعمليات الإغتيال القذرة بشكل مباشر؛ هو ومعه المدعو أبو أنس العراقي، وكان يصرُّعلى أن ينفذ الإعدامات بنفسه.

يُشتهَرُ أبو ياسر العراقي بأنه يحب الترف كثيراً، والتبطر في مصروفه الشخصي وشراء السيارات الحديثة وإنفاق المال بكثرة، كما كان مشتهراً بكثرة الممارسات الإجرامية الفاسدة عن طريق الإبتزاز والخطف وطلب الفديات من أهالي المخطوفين، ولديه شهوة غير طبيعية للإجرام والقتل، وهو من الشخصيات الشهيرة القليلة في داعش الذين اعتادوا على إلقاء الجثث والأسرى من الثوار والمدنيين من أهالي الرقة في الهوتة، (حتى وهم أحياء في بعض الأحيان)، وكان يردد دائماً عبارات مثل: (اليوم ماصفينا حدا.. دبروا لنا حدا نعدمه أو نصفيه اليوم).. وكل زملائه والمقربين منه في داعش يخافون منه ويرهبونه، خاصة حين يكون غاضباً أو منزعجاً، فالكل يتحاشاه.. بمن فيهم أبو لقمان ضمناً، والذي يبدو ظاهرياً بأنه لم يكن يرتاح له ولا يحبه، لكنه مفروض عليه فرضاً. وهناك حادثة لامعلومات كثيرة أومفصلة عنها، لكن الذي تكشف منها أن أبو ياسر هذا قد قام مع مجموعة من مقربيه، بخطف شخص من أهالي تل أبيض، كنيته الغانم أو معروف باسم الغانم، وهو رجل ثري ومالك كازية في منطقة تل أبيض، فقام هو والمجموعة التي كانت ترافقه بتعذيبه حتى شارف على الموت بذريعة أنه شبيح أو عميل للنظام، وقد ضربه أبو ياسر العراقي بالحذاء على وجهه حتى شوهه، ثم طلب من أهله أن يفكوا أسره بفدية طلبها، ولم يطلق سراحه حتى دفع له ذوو المخطوف مبلغ مائتي مليون ليرة سورية.. مع التذكير أن تاريخ هذه المرحلة يرجع إلى عام 2013.

ومن المجموعات القريبة من أبو لقمان، والرجال الذين اعتمد عليهم كثيراً الشخص المعروف بلقب أبو انس العراقي. وهو من أخطر أمنيي داعش أسوة بأبو ياسر، ويبدو أنه كان عنصر استخبارات عراقي سابق منذ عهد صدام حسين، ويرجح بأنه كان عضواً في التنظيم المعروف باسم"فدائيي صدام"، ويقال بأن أخواله سوريون من البوكمال.

أبو انس هذا من أكبر المسؤولين مسؤولية مباشرة في منطقة الجزيرة عموماً، وفي الرقة خاصة، عن معظم الجرائم والتصفيات التي وقعت للثوار وللجيش الحر وللسكان المدنيين عموماً، وكان على المستوى الرسمي معيناً في البداية فقط عن ولاية البوكمال قبل انتقاله إلى الرقة، وهناك تأكيدات بأن مسقط رأسه في بلدة القائم العراقية، ومن قرية يقال لها "الرمانة"، وهي البلدة المحاذية لبلدة الحصيبة التابعة لمدينة البوكمال الحدودية مع العراق.
وقد كان أول قدوم لأبو لقمان إلى محافظة الرقة مبعوثاً من قبل جبهة النصرة إلى بلدة "سلوك"، بعد أن تحررت من النظام الأسدي، حيث كان يوجد في سلوك عدة كتائب أبرزها كتيبة القادسية الإسلامية، وقد جلس مع معظم عناصرها وقادتها، وشرح لهم منهج تنظيم القاعدة العام، وتحدث عن الشيخ أسامة بن لادن وعبد الله عزام وأيمن الظواهري، فأثنى عليهم ثناءاً كثيراً ومجَّدهم إلى حدَّ أن أوصلهم إلى مراتب الصحابة من الزهد والتقشف والصدق، وبعد مضي فترة من الزمن، إثر قدومه من بلدة الشحيل إلى سلوك، تمَّ القرار بأن

تتخذ الجبهة من قرية"بير محيسن" المجاورة لسلوك مقراً دائماً، حيث أصبحت في تلك الفترة المركز الأول والنواة الأولى للتنظيم في محافظة الرقة، وقد كان على رأس القادمين معه "أبو محمد الجزراوي" و" أبو خلف الجزراوي" و "أبو شيماء الجزراوي" و "أبو أنس العراقي" و "أبو عبد العراقي" و "أبو عادل العراقي". وقد عُين أبو عادل ابتداءاً القائد العسكري للتنظيم آنذاك، كما عُيّن أبو محمد الجزراوي الشرعي العام للتنظيم..أما أبو شيماء وأبوخلف، فكانا مدرسَين ودعوييَن في المعسكر.

((4)) ـ بحص أبيض في الرز:

الصف الثاني الذي كان يعتمد عليه أبو لقمان، كان من أبناء عائلة البلّو من أهالي تل أبيض.. وآل البلو من عشيرة المشهور، وهم فرع من قبائل البكارة الذين استوطنوا في ريف تل أبيض منذ تاريخ بعيد، ويتوزعون في سكناهم على عدة قرى، كما أنهم يُعتبرون نظراء آل العكال في كنيطرة التابعة لسلوك، من كثرة العدد في داعش، حتى أن هذه العائلة، مع آل العكال، يشكلون حاضنة داعش الأساسية بين العشائر الشمالية في محافظة الرقة. كذلك فإن أبرز رجالات هذه العائلة هم من الشخصيات الأولى التي سوقت التنظيم في ريف تل أبيض ودعت له، وكانوا من أشد المناصرين المتحمسين والداعمين بقوة له.

اعتمد عليهم أبو لقمان، ربما كمجموعات عمل من الصف الثاني، مهيئة للعمل لصالحه في كل اختصاص، ودون تخصص بعمل معين، فهم أمنيون عند الحاجة، و"دعاة إلى الله والإسلام " أحياناً، وحين تضطر الحاجة لاستخدامهم كمهربين متنقلين على الحدود السورية التركية، فهم أهلها ورجالها، وإذا لزم الأمر واقتضت الحاجة لصوصاً وقتلة ومروجي عملات وآثار ومقاتلين وخطباء مساجد وميكانيكيي سيارات وسائقي صهاريج نفط ..فلهم باعٌ في كل موقف ومشهد وضرورة ربما يحتاج إليها أبو لقمان..وأبرز رجالات هذه العائلة الذين لمع اسمهم وصيتهم في داعش: "فيصل البلو، أبو أحمد"، وهو أمير بارز في داعش، وأيضاً برز منهم "ابراهيم مطر البلو"، و"حمد البلو"، وابنه "خليل الحمد البلو"، و"رمضان محمود البلو"، و"رمضان مطر البلو"، و"رياض البلو"، و"محمد حمد البلو"، و"مناف خليل البلو".. هؤلاء جميعاً متهمون بعدد غير محدود من جرائم القتل والسرقة، فضلاً عن شهرتهم بكونهم من الأفراد الذين ارتكبوا جرائم عنصرية بحق السكان الأكراد في مدينة تل أبيض بعد فترة من تحريرها، حيث قاموا هم ومجموعة من عناصر داعش ومبايعيها معهم بسرقة آليات الأكراد بعد دخول تنظيم داعش إلى تل أبيض، وقد نقلوا القسم الأكبر من الآليَات الزراعية والسيارات ومحركات المياه الى أمام منازلهم وباعوها بأسعار منخفضة، كما اشترك معهم كل من: سعد الشحاذة، وهو زوج اخت القائد العسكري المعروف في داعش بلقب "التمساح"، وهو من عشيرة المشهور أيضاً، فخذ البطاحة، وهو الذي سرق محل أحد التجار الأكراد، وصاحب محل بيع بالجملة يدعى "أبوعلي الميزرو"، وكان معه المدعو "أحمد السلطان" وأخوه "عواد السلطان"..(مع العلم أن عواد السلطان كان مدير شعبة الهلال القطري).. وأحمد السلطان هذا، مخبر أمني كردي كان من أوائل الذين بايعوا داعش في تل أبيض, وهو من أشهر لصوص داعش في المنطقة، ويتهم بتفجير منزل المدعو "محمود بوزان" من أكراد تل أبيض. مع العلم بأن آل البلو من ميسوري الحال في المنطقة، ويعتبرون من أثريائها نسبياً، فهم يمتلكون عدة محطات وقود تتوزع على قرية عين العروس وقرية البديع وقرية تل أبيض شرقي. وقد قاموا بنقل حصادات الأكراد وآلياتهم بعد سرقتها وإيداعها في قرية خربة الرز، وقرية علي باجلية جنوب شرق تل أبيض.

يُعتبر أبو لقمان العقل الأول المدبر للتنظيم في محافظة الرقة، وقد كان طوال تلك الفترة يتنقل بأسماء مختلفة، مثل"أبو عبد الله وأبو أيوب"، مع أن هذه الأسماء الوهمية لم تستطع أن تخفي شخصيته، لكنها لاقت رواجاً لدى عامة الناس على فترات مختلفة. كما أنه من المُسَلّم به أن يعتبر أبو لقمان المسؤول الأول عن تشكيل مجموعات الإغتيال والمجموعات الأمنية في شتى أنحاء المحافظة، وعن جمع الأموال من المصادر المختلفة، وكان يلعب إذا اقتضته الضرورة دور القاضي الشرعي كلما استدعى الأمر ذلك.. فهو، باختصار شديد، الشخصية التي تصبُّ عندها جميع خيوط التنظيم..أما أبرز وأوائل جرائمه، فقد كان يُعتبرالمسؤول الأول عن اغتيال كلٍ من "عجيل الكديم" قائد لواء أحفاد الرسول في الرقة.. وقد كان عجيل الكديم المعروف باسم"أبو الزين"، قائد كتيبة عائشة في لواء أحفاد الرسول، من كتائب الجيش الحر في منطقة تل أبيض ـ وأبو الزين من أهالي بلدة سلوك ـ من قبيلة النعيم.. أما الجريمة الثانية والشخصية الثانية التي تمت تصفيتها، والتي نفذها بنفسه، فهي اغتيال"أبوعلي كجوان"، القاضي الشرعي للمجلس العسكري في الهيئة الشرعية بتل أبيض لكي لاتنفرد الهيئة الشرعية في الحكم الشرعي، وتستقل بقرارها عن داعش. ولقد ذكرتُ ذلك في فصل سابق.

وتعتبر جميع عمليات الإغتيال والتصفية الجسدية والإعتقال والتعذيب ضمن السجون بأمر حصري منه، ولايمكن لأي عنصر أو قاضي شرعي أو قائد عسكري أن يتصرف أي تصرف دون العودة إليه. ولقد كان هو الحكم الفصل في مسألة جبهة النصرة والدولة الإسلامية(داعش)، حينما أثير هذا الموضوع في محافظة الرقة، لأن معظم العناصر كانت مرتهنة وتعطي ولاءها لهذا الرجل، وكانوا يعتبرون أن رأي أبو لقمان دائماً هو الصحيح. كما كان من ديدنه ومن أبرز تصرفاته أنه يضع الرجل الغبي والمطيع طاعة عمياء في مناصب حساسة لكي يبقى مسيطراً على مراكز القرار، ومن أبرزصفاته أنه يحنث باليمين المغلظ ،حيث أقسم بالله العظيم ثلاث مرات بأنه إذا جاء ردّ الشيخ أيمن الظواهري أن تبقى الجبهة في سوريا والدولة في العراق، بأن يتراجع عن قراره ويعود إلى صفوف جبهة النصرة، غير أنه أظهرت الأيام غير ذلك. ويمتاز أيضاً بكل صفات الغدر، حيث غدر بأقرب الناس إليه وبمن ثبَّتوا أركان تنظيم جبهة النصرة في الرقة، فقد غدر بأبو أسماء وأبو الزهراء، وكان قد أعطاهما الأمان وأقسم لهما باليمين المغلظة، أنه لن يمسهما أحدٌ، ولن يُرفَعَ في وجههما سلاحٌ في حال عودتهما من الجبهة إلى تنظيم الدولة، لكنه سرعان ماغدر بهما في اليوم التالي، وقام باعتقالهما وسجنهما في مدينة حريتان، ثم قام تصفيتهما فيما بعد. وقد قال لهما أثناء الإعتقال: لو وجدت مدخلاً شرعياً واحداً للقتل لقتلتكما بلا تردد. وكان أبو لقمان يردد الفتوى الشرعية المشهورة عنه، حيث دأب دائماً على القول: (من لم يُدفعْ شرُه إلا بالقتل يقتل)، ومعظم معارك حلب التي خاضتها داعش ضد الثورة والجيش الحر تمت بإدارته وإدارة أبو الأثير، والي حلب السابق.

بعد صدور قرار عفو من بشار الأسد في منتصف عام 2011 بالإفراج عن معتقلي القاعدة وكافة معتقلي السلفية الجهادية، وعند بدء اندلاع الثورة السورية خرج أبو لقمان بالعفو الرئاسي كما شرحتُ فيما سبق، وبعد تشكيله النواة الأولى للنصرة في محافظة الرقة جعل نائبه أبو سعد الحضرمي، وكان يلقب بأبو عبدالله في ذلك الوقت، وبعد فترة قصيرة، حوالي الشهر ونصف من تحرير الرقة، التقى بمبعوث خليفة داعش أبو بكر البغدادي في بلدة سلوك من منطقة تل أبيض، وفي قرية كنيطرة، في منزل "خلف ذياب العكال"، المعروف باسم "خلف الحلوس"، وهنالك تمت بيعته الأساسية لتنظيم داعش .

ومن الشخصيات التي اعتمد أبو لقمان عليها كثيراً شخصية "خلف الذياب الحلوس"، وكان اسمه داخل التنظيم"أبو مصعب الحلوس"، واسمه بين أبناء قريته وعمومته"أبو ذياب"، وهو من مواليد قرية كُنيطرة إحدى قرى بلدة سلوك. وتعود له السابقة في قدوم التنظيم إلى الرقة عموماً وإلى سلوك خصوصاً، وهو أول من بايع التنظيم آنذاك، حيث استقبلهم في منزله، وقد تمت المبايعة لأبو عبد الله سابقاً، أو أبو لقمان حالياً، وكان مقرراً في الأيام القريبة التي تلت تاريخ البيعة أن يكون الحلوس هو الأمير، لكن قدوم أبو لقمان أضاع عليه فرصة الإمارة، لذلك أضمر الحلوس ما يشبه النقمة على أبو لقمان، لأنه حدَّ من صلاحياته و عيّن أمراء عليه. والحلوس كان شخصياً من يقف وراء تحديد الكثير من الأسماء الواجب اغتيالها و تصفيتها، ولقد حاول الانشقاق عن تنظيم داعش لاحقاً، بعد أن خلعوه من إمارة تل أبيض، وأنشأ تنظيماً هزيلاً تحت مسمى أنصار الشريعة، إلا إن ابو لقمان أرسل له تهديداً بالقتل، فعدل عن قراره. كما يعتبر كلاً من المدعو أبو جلال"طارق الجبوري"، و"أبو خليفة" و شقيق خلف الحلوس "أحمد الذياب، أبو بصير"، من المرافقين الشخصيين دائماً للحلوس، وهناك شكوك بأن المدعو أبو خليفة قد وضعه أبو لقمان أمنياً على الحلوس يرافقه أينما ذهب.

ولقد نوهت في سيرة هادي العكال التي مرت معنا سابقاً، عن حادثة قديمة وقعت عام 2006، قُتِل فيها مسؤول ناحية سلوك في المخابرات العسكرية، المساعد أول المدعو "أحمد حسنة"، على الطريق بين تل أبيض وسلوك، وقد سُجِّلت هذه الحادثة في النهاية ضد مجهولين، رغم بعض الشبهات التي حامت حول خلف ذياب الحلوس، ابن عم هادي العكال.. هذه الحادثة كانت مفتتحاً لظهور شخصية الحلوس رغم تواضع تحصيله العلمي ـ إذ لم يكن يحمل من التحصيل العلمي سوى على الابتدائية ـ وعصبيته وتأثيره الكبير فيما بعد على مجريات الأحداث بعد اندلاع الثورة. وربما تكون حادثة اغتيال المساعد أول قد وطدت جسراً لاحقاً يعود إلى صلات جهادية خاصة أقامها خلال عمله في الخليج قبل أن يطرد، ومتّنها في العراق. كما يجب أن لا نغفل الذكر بأن الحلوس هو أحد الخمسة الأوائل المؤسسين لجبهة النصرة في محافظة الرقة، مع الأربعة الآخريين: أبو ماريا القحطاني، وأبو محمد الجزراوي وأبو أنس العراقي وأبو لقمان، علي موسى الشواخ. وقد تراجعت بعد ذلك أهمية بلدة سلوك بالنسبة لجبهة النصرة، وحضورها في المشهد الأوسع الذي احتلته داعش، إذ هُمّش الحلوس وترك غاضباً حيث التحق بجند الأقصى، (أو تم بث إشاعات كثيرة حول مصيره واختفائه في المرحلة الأخيرة، لتساعده تلك الإشاعات على الهرب والتخفي بعد أن أصبح عدواً مطلوباً لكل من يحيط به من الأقربين والأبعدين).

ومن الشخصيات المقربة لأبو لقمان أيضاً، الشخص المدعو"أبوعمر قرداش"، واسمه داخل التنظيم "المُدَمِّر"، وأصله تركماني من تل عفر العراقية، وهو ضابط سابق في الجيش العراقي، ومن أشد المناصرين المخلصين للنظام العراقي السابق آنذاك، ولقد تولى فيما بعد منصب الأمني العام لداعش في سوريا والعراق، وهو رجل في حوالي الخمسينات من العمر، وكان تواجده الأول في محافظة حماة باسم"أبو جاسم العراقي"، وقد رُشح للذهاب إلى لبنان من قبل حجي بكر، أبرز مؤسسي التنظيم في سوريا والعراق. و"المدمر" هو الأخ

الشقيق لحج عبد الناصر أمير الشرقية السابق في داعش، وقد أشرف على عمليات التفخيخ في معارك الأحرار والجيش الحر بحلب بنفسه، وبعدها في دير الزور، والعديد من المناطق الأخرى، كما يُعَدُّ المسؤول الأول في داعش عن التفخيخ في سوريا والعراق. وهو دائم اللقاء مع أبو الأثير، وهو شخص إشكالي أثار ظهوره وسلوكه الغامض تساؤلات لدى جميع السوريين. وكان يتسمى قبل مقتله لدى التنظيم بمنصب والي داعش في حلب، وقد تولى المدمر في مرحلة من المراحل نقل الشكاوي من الرقة وإليها، للخليفة البغدادي ومجلس شورى التنظيم. يرافقه في هذه المهمه أبو مصعب التركي، كما أشرف المدمر شخصياً على العديد من العمليات الإنتحارية واختيار الإنتحاريين.

ومن الشخصيات القريبة من أبو لقمان أيضاً المدعو أبو عمر الملاكم، وهو عراقي الجنسية، هرب من سجن تسفيرات في تكريت- العراق، ثم دخل الأراضي السورية بطلب من البغدادي، ليكون المراقب الأول على الجبهة آنذاك، علماً بأنه طُلب منه البقاء في العراق في الشهر 12 من عام 2012، وبعدها ذهب إلى إدلب وحلب وتنقل بينهما. وأبو عمر الملاكم يفتقد لإحدى قدميه، ويستعمل قدماً اصطناعية، ومحكومٌ عليه بالإعدام في تونس، واختصاصه في التفجير عن بعد من خلال الأجهزة الإلكترونية بالتحكم عن بعد.

ومن الشخصيات التي كانت تدور في فلك أبو لقمان، والمقربة منه، شخص يدعى محمود الخضر، واسمه داخل التنظيم "أبو ناصر الأمني"، وهو أحد أهم ثلاثة مجرمين في الرقة مع أبو لقمان وأبو محمد الجزراوي.. عمره قريب من الثلاثين سنة، وغير معروف إلا من أشخاص معدودين في تنظيم داعش، وكان يعمل تحت إمرة، ومن خلال أمني داعش المقتول" أبو حمزة رياضيات" من خلف الكواليس، وهو مستودع أبو لقمان ومؤتمن أسراره الأمنية، ومحفوظات كل وثائق أبو لقمان الأمنية تصب عنده كل خيوطها غالباً. ومحمود الخضر دائماً يلبس قناع يخفي شخصيته، وفوق القناع قناع آخر شفافٌ، كي لا يُعرف من عيونه، وهو دائم الحرص على عدم التكلم لكي لا يُعرف من صوته، ويرتدي دائماً قفازات في يديه لكي لا يُعرف من لون بشرته.. كما يُضاف إلى هذه المجموعة الامنية الاجرامية المحيطة بأبو لقمان المدعو أبوعبد الرحمن الأمني، وهو"علي السهو"، وكان طالباً في قسم الهندسة الزراعية في جامعة دير الزور، من قرية الجايف التابعة لمدينة الرقة، وسبق لي في بداية هذه البحث أن نوّهت بأنه كان قد انضم إلى تنسيقيتنا، تنسيقية ثوار الرقة منذ بداية تأسيسها، ووعدتُ أن أفرِدَ عنه بعض حديث مفصل..

((5)) - أشباح الخراب:

عرفتُ علي السهو في الأيام الأولى لانفجارالثورة، وقد كان شاباً من المتحمسين والمساهمين الرئيسيين في أولى المظاهرات التي انطلقت في الرقة، حتى بات ضرورة لازمة في ترتيبات تلك المظاهرات، ومن شباب الثورة الأوائل الذين ساعدوا في نشاط تنسيقية ثوارالرقة..عرفناه في البدايات باسم"أبو الورد"، وظللنا نناديه ونتعرف عليه بهذا الاسم لفترة طويلة، إذ كان متعارفَاً أن يُعَرَّفَ كلُّ شخص يشارك في المظاهرات باسم حركي، فلم نكن نسأل عن الأسماء الحقيقية كثيراً، ولانشجع على الاستفسار والفضول في معرفتها من باب الحيطة الأمنية.. جاء أبو الورد.. ذهب أبوالورد.. وكنا فخورين ومزهوين به كثيراً، وكان موضع اعتزاز لكل من ساهم أو شارك أو مرَّ يوماً في تفاصيل الحياة اليومية للتنسيقية.. فقد كانت له مكانة خاصة..

كان له مظهر يبدو أصغر من عمره لفرط نعومته ويفاعته، وكان ممتلئاً بالحيوية والنشاط.. يرتدي الثياب العصرية التي كان يحرص على اختيارها بدقة؛ من بنطلونات الجينز إلى القمصان الملونة الباذخة والمنتقاة بعناية، وتسريحة الشعر الأصهب المائل إلى الشقرة كثيراً، والمصفف بكريما الـ"جِلّ" اللماع ..كتبه الجامعية كانت ترافقه دائماً، فقد كان يدرس في كلية الهندسة الزراعية في دير الزور في السنة الثالثة، وكان يمكث في بيت أحد أعضاء التنسيقية المؤسسين أياماً عدة، يشارك في العمل، يخرج إلى المظاهرات، يتناوب الدور مع غيره من الشباب حسب الحاجة.. مرة يكون هو"الهتّيف" كما كنا نسميه، وغالباً ما كان يرافقني في سيارتي الخاصة للتطواف في الشوارع القريبة من المظاهرة، للتدخل لإسعاف مصاب أوتهريب مطارد أو تقديم أي عون طارىء قد يحتاجه المتظاهرون أو تحتاجه المظاهرة فجأة.. وكنا نتردد في وقت واحد ما بين شارع تل أبيض والوادي ودوار البتاني، حين تكون المظاهرة مقرر لها أن تنفجر في مكانين معاً في وقت واحد، بغية تشتيت حركة رجال الأمن وتبديد قدرتهم على ملاحقة مظاهرتين في آن واحد، ومن مقعده بجواري وأنا أقود سيارتي، غالباً ما كان جهازه الموبايل لاينقطع عن الرنين، وحديثه الخاص إلى والدته التي ما إن تكون قد سمعت بخبر المظاهرات حتى تتصل ملهوفة خائفة عليه..

بعد تحرير الرقة سمعتُ من أحدهم عرضاً بأن أبو الورد قد التحق بمقاتلي جبهة النصرة، وكان شبح داعش قد بدأ يحلق حديثاً في سماء المدينة، بعد فترة من هذا التاريخ، ولم يكن لظهورها أول الأمر ما يستثير قلقنا كثيراً، ولكن بعد مرور بضعة أشهر بدأت تتحول إلى كابوس، خاصة بعد صدامهم ومعركتهم مع لواء أحفاد الرسول، وصارت أسماء شخصياتها وسمعتهم وممارساتهم تظهرعلى سطح مجتمع الرقة، وأصبحنا يوماً بعد يوم نسمع أو نتحدث بما يتصل بأسماعنا من سرديات وقصص عن الأمير الفلاني وعن الشرعي فلان وعن المهاجر أبو فلان..صارت داعش واقعاً يومياً لا مفر منه ولا محيص، وطفقنا نتعايش مع وجودها بالتدرج، وبحذر وقلق، وكشيءٍ يومي عادي في تطور مراحل الثورة اللاحقة..كان اسم(أبوعبد الرحمن الأمني) يبرز بروزاً خاصاً، وتخيلتُ في لحظات أن أبوعبد الرحمن الأمني ربما كان مهاجراً سعودياً أو مقاتلاً أجنبياً، ولأول وهلة؛ لست أدري لم حسبت أن عُمْر هذا "الأمني" ربما يكون فوق الخمسين أو الستين كما تخيلته، ولا أدري لم وقر في تصوراتي أن لحيته يجب أن تكون طويلة، وأن تفاصيل مظهره لابد أن تكون كذا وكذا..

رسمت للرجل الذي كان يتردد اسمه في كل المدينة صورة خاصة في مخيالي، وعلى الأخص حين تردد بأنه الشخصية الأمنية الثانية بعد ذلك الشخص الفاشي المدعو أبو حمزة رياضيات، وأنه أصبح الأميرالمسؤول الأول عن معسكر الطلائع، النقطة الأمنية والعسكرية الأبرز لداعش، والأهم في كل المحافظة..

تمر الأيام، وذات مرة فاجأني أحد أصدقائنا في التنسيقية مفاجأة غريبة، حين قال: اليوم حضَّرتُ لكم مفاجأة من العيارالثقيل.. مفاجأة زلزالية.. ولن تصدقوا ما سأقوله.. هل لكم أن تتخيلوا من زارني اليوم في البيت؟ الأمير أبوعبد الرحمن الأمني.. حبسنا الأنفاس ونحن نصغي إليه.. أبوعبد الرحمن الأمني؟ أمني داعش المشهور؟ نعم إنه هو.. من هو أبوعبد الرحمن الأمني هذا؟ قال وهو يبتسم: إنه أبو الورد شخصياً.. أبوالورد؟ هتفنا مصعوقين غير مصدقين.. أجل أبوالورد ما غيرو..أبو وردنا..علي السهو، وليس أحد غيره.. وقد جاءت الأخبار شبه المؤكدة بعد ثلاث سنوات بأنه قتل في تفجير انتحاري في اشتباكات داعش مع الميليشيات الكردية.

تسلم أبو لقمان في بداية الثورة مبلغاً من المال للمساعدة في إغراء المعارضين من جبهة النصرة، وقُدِّر المبلغ بثلاثة ملايين دولار، وبمساعدة عدد من أمراء جبهة النصرة الذين اشتراهم بالمال في محافظة الرقة، فانتشرت بيعة البغدادي بين صفوف أمراء وعناصر جبهة النصرة، ثمَّ وكَّل المدعو أبو فيصل، عبد الرحمن الفيصل،(7)، وهو أحد أصدقائه ومقربيه الذين استقطبهم لصالح المجموعة الخاصة المقربة جداً منه، متخصصاً في أمورالسرقة وأموال الفديات وأموال النفط، كما وكل المدعو أبو علي الشرعي، فواز الكردي، في القضاء على خصومه بعد ألصاق التهم بهم، فكان يشرف بنفسه على عمليات الاغتيالات في صفوف قادة الجيش الحر وعمليات الخطف والتعذيب والإعدام، وتصفية الناشطين والإعلاميين والسياسيين، وكل من كان يخالفه من العناصر أو المدنيين.

من ضحايا أبو لقمان أيضاً المدعو"أبوهمام المصري"، والذي تمت تصفيته في معدان من قبل أنصار أبو لقمان، إثرخلاف نشب بين الدواعش حول البيعة الجديدة بين ما يسمى المهاجرين والأنصار. ويُذكر أن تنظيم داعش كان يضع في الواجهة أمراء من أهالي المنطقة، إلا أنهم لا يملكون القرار وإنما القرارات والأوامر تأتي من الأمراء العراقيين؛ وبشكل خاص من قيادة داعش المركزية، ما عدا والي سوريا أبو لقمان، فقد كان له حرية القرار والتصرف.

بدأت الثورة السورية، وتوجهت أنظار أعضاء دولة العراق الى سوريا، خصوصاً غير العراقيين، فقد تخوَّف العقيد حجي بكر، العقل المدبر والمؤسس للتنظيم، من تسرب أعضاء دولة العراق والذهاب إلى سوريا، مما قد يسبب تصدعاً وانشقاقاً في التنظيم، وأن يكون ذلك مبرراً لبعض الأعضاء والقيادات التي ضمن "دواعش العراق" لكي تبحث عن سبيل للانشقاق، وأن تتخذ سوريا باباً للهروب من التنظيم. وقد نصح العقيد حجي بكر قائد التنظيم أبو بكر البغدادي بأن يقوم بتوجيه جميع القيادات، ومنعهم من الذهاب إلى سوريا وأن يبعث برسالة فحواها أن أي شخص سوف يغادر إلى سوريا يعتبر منشقاً وخارجياً، وفعلاً قام أبو بكر البغدادي بهذا التوجيه الذي حمل التهديد ضمناً، وكان السبب في الظاهر أن الأوضاع غير واضحة، ويجب التريث في موضوع سوريا.

بدأ الغليان داخل التنظيم رغم توجيهات البغدادي، فعرض حجي بكر فكرة تشكيل مجموعة من غير العراقيين لتذهب إلى سوريا بقيادة شخص سوري، ويتم منع أي قيادي عراقي في التنظيم من الذهاب إلى هناك، وبهذا يرى أن تأمين دولة العراق قد أخذ بالحسبان، وتوكل إلى القيادة الجديدة بالشام جلب أعضاء غيرعراقيين معها، واستقطاب أعضاء جدد من الخارج، وبهذا تم تشكيل(جبهة النصرة)،

وبدأت تنمو الجولاني. حتى بدا اسمها يكبر ويتضخم، وأصبح اسم "أبو محمد الجولاني" يرتفع عالمياً، ومعه أخذ كثير من الجهاديين من الخليج وتونس وليبيا والمغرب والجزائر وأوروبا واليمن يتوافدون إلى سوريا وينضمون إلى جبهة النصرة بقوة، حتى خامرت الظنون بأن هذا الصعود المخيف لجبهة النصرة ـ لدى كل من حجي بكر والبغدادي ـ أنه لا يوجد في صفوف جبهة النصرة أي ولاء لداعش العراق ولا للبغدادي، وكان الخوف من تنامي جبهة النصرة، وتحول الجولاني إلى قائد كبير الشأن في القتال داخل سوريا، من التهديدات المباشرة لأبوبكر البغدادي وداعش العراق، وظهر تخوفهما من غيابهما وضمورهما في الساحة العراقية، فحثَّ حجي بكر البغدادي على أن يصدر أمراً للجولاني؛ بأن يعلن عبر مقطع صوتي بأن جبهة النصرة تابعة رسمياً لدولة العراق بقيادة البغدادي، وَعَدَ الجولاني بالتفكير، ومرَّت أيام دون أن يصدر شيء عنه، وأرسل البغدادي له توبيخاً وتقريعاً، واستشار من حوله من المقربين.. فبعث الجولاني برسالة للبغدادي مفادها أن هذا الإعلان لا يصب في صالح الجهاد في بلاد الشام، وبأن هذا الرأي قد اتُخِذ بالإجماع في مجلس الشورى لديه، مما أثار غضب البغدادي وحجي بكر، فقرروا إعلان ماسمي لاحقاً(الدولة الإسلامية في العراق والشام)، خوفاً من أي انقسامات.

دخل البغدادي والعقيد حجي بكر ومرافقوهما سوريا قبل حل جبهة النصرة ـ من طرفهم ـ بثلاثة أسابيع، واقترح العقيد حجي بكر على البغدادي أن يتولى صدور بيان حل جبهة النصرة باسمه، وعدم إصدار بيان بعزل الجولاني، لعله يرجع بعد الحل، ثم طلب العقيد حجي بكر تأخير البيان حتى إعداد كتيبة مقاتلة داخل سوريا تكون من جبهة النصرة، حتى تكون نواة حماية البغدادي بعد الإعلان. وتحرك العقيد حجي بكر باستدعاء قادة موالين من النصرة، ورتب معهم ليرتبوا مع جنودهم كتيبة حماية، نواةً قبل الإعلان عن حل النصرة وتوحيد مقاتليها تحت المسمى الجديد: الدولة الإسلامية في العراق والشام بقيادة البغدادي، واستطاع العقيد في خلال ثلاثة أيام إعداد قادة تحت سلطتهم قرابة ألف مقاتل، وأخبرهم سراً بوقت إعلان حل جبهة النصرة.

وقبل يوم من الإعلان، أرسل العقيد حجي بكر لبقية القادة من جبهة النصرة جميعاً، بوجود الأمير البغدادي في سوريا حتى تتهيأ نفوسهم لتقبل الحل والمبايعة له، وخلال تلك الفترة تمت صياغة البيان لحل جبهة النصرة، وتأسيس دولة العراق والشام الإسلامية.

تم الإعلان، وهللت القيادات التي تمَّ الترتيب معها، وأعلنت الفرح بالحل والبيعة، كما تم اختيار قادة وشرعيين من النصرة للقاء البغدادي، لتثبيتهم حتى يرجع كل من يلتقي بالبغدادي إلى الأفراد، ويذكر لهم لقاءه بالبغدادي ومبايعته ورؤيته وجلوسه معه. فانقسمت جبهة النصرة بعد إعلان الحل إلى ثلاثة أقسام: قسم اتجه إلى بيعة البغدادي وهو قريب النصف، وقسم اتجه إلى الحياد وهم الربع، أما الربع المتبقي فبقي مع الجولاني، فشعر البغدادي بالخطر من النصف الذي لم ينضم إليه، المحايد والرافض، فقام العقيد حجي بكر بإرسال رسالة إلى الجولاني مفادها الانضمام إلى البغدادي أو المواجهة بالقتل وحدّ الردة، لأنه ـ كما وصفه ـ بالخارجي الذي يشق عصا الطاعة، وحكمُهُ في الشريعة الإسلامية القتل، فلم يستلم الجولاني الرسالة لأنه غَيَّرَ مكانه وقيادته، وتمَّ إبلاغ الموجودين في مقره بمضمون الرسالة.
بدأ العقيد حجي بكر بإرسال مندوبين باسم البغدادي إلى جميع القيادات التي لم تنضم، وأرسلوا بالتهديد لهم، وبأنهم خوارج، وأن كل شيء يملكونه هو ملكُ للدولة، فعليهم أن يبايعوا أو يسلموا أسلحتهم ويخرجوا آمنين بأنفسهم خارج البلاد، خيارين لا ثالث لهما.. وطلب العقيد حجي بكر من المنشقين عن النصرة أن يعرِّفوهم بالمؤثرين في المجموعات التي لم تنضم، حتى يشتروهم بالمال أو يجابهوهم على أنهم خوارج.

داعش في الرقة:

كانت مدينة الرقة تحت حكم الفصائل المسلحة في المعارضة السورية، وكان يتواجد فيها ـ إضافة إلى مسلحي الجيش الحر ـ كلٌ من جبهة النصرة وحركة أحرار الشام الإسلامية، وبعد إعلان التنظيم حل جبهة النصرة بايع القسم الأكبر من جبهة النصرة البغدادي، وبقي القليل من أبناء مدينة الرقة مع النصرة، وكلُ هذه المساعي النشطة في تأسيس داعش، تدين بالفضل لنشاط أبو لقمان وحنكته بالدرجة الأولى. وهنا أُنشئت النواة الأساسية لتنظيم داعش في الرقة..

بدأ التنظيم فعلياً بالتفكير في السيطرة على المدينة بشكل كامل، ومع بداية الشهر السابع من عام 2013 بدأ التنظيم باختطاف واغتيال عدد من النشطاء والأشخاص المؤثرين في الشارع الرقاوي، لتغطية جرائم التنظيم هناك وعدم نشرها، وأثار هذا مخاوف النشطاء بشكل كبير، فبدأ مسلسل هجرة نشطاء المدينة إلى الدول المجاورة مثل تركيا، ثم بدأ التنظيم بتفكيك الكتائب المقاتلة في المدينة، وبتاريخ 2013/8/1 بدأت معركة التنظيم مع لواء أحفاد الرسول التي استمرت قريباً من أسبوعين, وبتاريخ 2013/8/13 استطاع التنظيم إدخال سيارة مفخخة إلى مقر لواء أحفاد الرسول في المدينة، وقام بتفجيرها، فأدت هذه العملية إلى مقتل أكثر من ثلاثين عنصراً من اللواء، تبعها بعد ذلك خروج اللواء من المدينة بشكل كامل، الأمر الذي أثار رعب الكتائب المتبقية في المدينة،

وأحست بأنها ستكون التالية، فانقسمت الكتائب إلى ثلاثة أقسام أيضاً: الأول بايع التنظيم وهو القسم الأكبر، والثاني بايع حركة أحرار الشام، والثالث ، وهو الأصغر، بايع أو حالف جبهة النصرة.
ومع بداية عام 2014 وبتاريخ 2014/1/3، وبعد أن أحست الكتائب الموجودة بالرقة بالخطر المحدق بها، قررت قتال التنظيم وإخراجه من المدينة، وبدأت معارك شرسة استمرت ثلاثة عشر يوماً، ثم قامت حركة أحرار الشام الإسلامية بعقد هدنة مع التنظيم، بتسليم الأسلحة والمقرات مقابل الانسحاب الآمن من المدينة، وانسحب على أثر هذه الهدنة الأحرار، ولكن التنظيم غدر بهم وقتل 120 مقاتلاً منهم. بقيت جبهة النصرة والكتائب المقاتلة من أبناء مدينة الرقة تقاوم حتى تاريخ 2014/1/16، لكن المعارك حالت دون تمكنهم من هزيمة التنظيم، وسيطرت داعش على المدينة بشكل كامل وخرجت الكتائب إلى الأرياف، وهنا أعلنت داعش عن قيام ولاية الرقة في سوريا، كـ"أول ولاية للتنظيم"، ثم أصبحت عاصمة تنظيم ما سمي بالدولة الإسلامية في العراق والشام، إذ كانت الأساس والمرتكز لها.

وخلال هذه الفترة اعتقلت داعش، أكثر من 1200 من أبناء المدينة، بين مدنيين ونشطاء وعسكرين.. ولاحقت وهجرت العشرات من ثوار المدينة وإعلامييها وناشطيها، كما اعتقلت وأعدمت أكثر النشطاء الرقاويين .. ومن أبرز أسماء الناشطين الذين قامت داعش بخطفهم:

1- د. اسماعيل الحامض
2-عبد الإله الحسين
3- رمضان صادق رمضان
4- فراس الحاج صالح
5- عبد الله الخليل
6- عمر البيرم
7- عبد المجيد العيسى
8- محمد ويس مسلم
9- محمد السلامة
10- خليل ابراهيم حبش
11- سمر صالح
12- مُدّثر الحسن
13- محمد نور مطر
14- ابراهيم الغازي
15- محمد عمر
16- عبد الله العساف
17- رشيد مصطفى
18- محمد علي النويران
19- عيسى الغازي
20- أحمد مشو

21- باسل عبد الرزاق

22- أحمد الاصمعي.. ولائحة تطول وتعد بالعشرات من الأسماء ..
كما قامت بالكثير من عمليات الإعدامات الميدانية بحق الكثير من النشطاء والعسكرين والمدنين بتهم واهية، من أبرزهم الإعلامي المعتز بالله ابراهيم مراسل شبكة شام، حيث قامت باعتقاله وأعدمته على دوار يُطلق عليه دوار الحرية مع شخصين آخرين، وسلمت جثمانه لأهله، كما قامت بإعدام وصلب العشرات من أهل المدينة بشكل وحشي ومروع.

داعش قوة الشر الأسود في هذا العالم:

تجد داعش بعض أشباهِها ونُسخِها المماثلة لدى سلوكيات كثير من الغزاة الفاتحين والمتوحشين عبر التاريخ. وحتى في عصرنا الحاضر قد نجدُ في صنائع بعض الأنظمة الدكتاتورية، خاصة في حقبة العهد الستاليني في الدولة السوفياتية، وبعض الدول الملحقة بها، أنموذجاً مكافئاً، قد يقلُّ أو يزيدُ قليلاً في درجة توحشه، ولا يبعدُ تاريخ عائلة الأسد وسلوكُها فترة حكمها لسوريا كثيراً عن صنائع داعش. كما نجدُ في بعض المجازر النوعية التي تمَّ تسليطُ الضوء عليها في العصر الحديث، نظائر أمثلة أخرى؛ كما في اجتياح "سربرنيتشا" بعد احتلال البوسنة في 11 تموز من عام 1995 من قبل القوات الصربية، والتي وثَّق العالمُ يومها مذبحة نفّذها الصرب بمسلمي البوسنة، يقالُ بأن عدد ضحاياها بلغ ثمانية آلاف ضحية في يوم واحد فقط..

كذلك في جرائم النازيين ضد الشعوب الأوروبية الذين استولوا على أرضهم، وعلى بعض المختلفين دينياً وعرقياً، وجرائم قبيلة "الهوتو" الأفريقية ضد قبيلة "التوتسي" التي ربما بلغت مليون ضحية، وجرائم "الخمير الحمر" ضد السكان الكمبوديين، وغيرها من الأمثلة المؤسفة في هذا القرن المؤسف.. فضلاً عما

النسخة الاصلية من موقع الرأي والرقة بوست

ارتكبه نظام الأسدين، الأب والابن، ضد الشعب السوري خلال فترة حكمهما التي قاربت نصف قرن من الزمن، والتي قد يصلُ مجموع ما ارْتُكِبَ في عهديهما من مجازر مروعة، عدداً غير مسبوق من الضحايا، ربما قارب مليوني ضحية خلال 47 سنة..

هل يرجع جذر كل هذه الوحشية وأسبابُها إلى دين ما، أو طائفة ما، أو عِرْقٍ محدد؟ بالتأكيد لا.. فكل الأدلة العلمية لا يمكنها البرهنة على هذا الارتباط الجذري العميق بين التوحش، كسلوك مجاهر به، وبين دينٍ مخصوص أو نسل بشري محدد.. ذلك التوحش الذي يجترئ فيه مرتكبه على إبادة المخالفين وهو في حالٍ من المفاخرة والمباهاة، دون وازع أو ضمير، أو كابح إنساني يمكن أن يعيقه عن هذه الجرائم.

إن قتل الناس بدم بارد، والإفظاعَ بهم، وقطعَ رؤوسهم أو بترَ أجزاء من أعضائهم، أو حرقَهم وهم أحياء، أو إغراقَهم أو تهجيرهم من أرضهم، أو إلقاءهم في ذلك التجويف أو الحفرة المرعبة التي لا يُعرَف لها عمقٌ أو قرار حتى اليوم، والمسماة بـ"الهوتة".. كل ذلك لا يملك سبباً مُفَسّراً في دين أو إيديولوجيا معينة، فهي سلوكيات ربما مارستها معظم الشعوب من جميع الأديان، ومعظم الأمم والقوميات البشرية عبر تاريخ طويل، وهذا الإغراء بربط المتوحشين بدين أو طائفة أو عقيدة إيديولوجية معينة، ماهي إلا حيلة سياسية مكشوفة ومعروفة الأهداف، وعديمة الجدوى في تفسير أو تعليل الظاهرة، والأقرب إلى الدقة العلمية أن نعلِّلَها بانغماس واستغراق عام في جماعة معينة، (غالباً ماتكون منظمة غير عشوائية)، تمتلك طبيعة وكموناً خاصاً بها، يشجع أطرافَها وأبعاضَها على اجتراء جماعي لكل هذه الأفعال التي تشبه جنوناً جماعياً، والتي قد يتردد الفرد في القيام بها بنفسه، فيما لو فكر وقدَّر، لأن روح المحاكمة الفردية قد تصل إلى حدود العدم في أمثال هذه التكوينات الشاذة..

ولنضرب مثالاً مقارباً على هذا الاستغراق والتماهي مع روح الجماعة المحيطة، بما يحدث في ملاعب كرة القدم، من حالات الانغماس في هوَس جماعي عام جامح ولا تردد فيه، قد يُخرِج الأفراد بالكلية عن اللياقة العامة التي يتحلون بها في واقعهم كأفراد، وما يبدر أيضاً من سلوك هذياني هلواسي في البارات وصالات السينما والاحتفالات العامة، التي تشجع أجواؤها المحيطة على الخلاعة الجماعية والبادرات المستهترة في بعض الأحيان.

أمثلة الانغماس في روح الجماعة ومزاجها العام هذا، تجد نظائِرَها أيضاً لدى الإحساس بالروح الجماعية التي تستقوي بالقبيلة والعشيرة والطائفة، وحتى الروح الحزبية المؤيدة في واقع بعض الأحزاب السياسية. فالفوضى تستثير في الأنفس الفوضى، وروح الجماعة تتقوى ببعضِها على الجانب المتردد والأخلاقي المستنَكِف.. وتغدو هذه الروح أكثر جاهزية وتقبلاً واستعداداً. زدْ على ذلك إذا أضفنا إلى هذا المزيج ما للقادة والرؤساء من توقير ومهابة، تصل إلى حدّ الثقة المفرطة العمياء، والتي تهيئ الأفراد لتقبل الأوامر واستساغتها وتنفيذها دون كثير محاكمة أو نقاش. حتى أنه في كثيرٍ من الأحيان يضيع الخيط الرفيع بين مسرح الثورات ـ حين يستولي عليه هؤلاء ـ وبين مشفى المجانين.

ولسوف أقتبس مثالاً على هذا الجنون الجماعي لمثل هذه الجماعات، بمثل صغير وشهادة من أبرز منظريهم وموجهيهم النظريين، وكيف تتم صناعة عقل إجرامي محض وخالص الاستعداد والملكات، لقتل معظم البشر، لو أمكن له ذلك أو كان ميسوراً في الواقع. في الصفحة 27 من كتاب (إدارة التوحش)، الذي يُعتَبَرُ دليلاً هادياً، ومرجعاً أساسياً يرتقي إلى مستوى كونه برنامجاً تنفيذياً لا يأتيه الباطل، أو يحيط بمضمونه أي شك بالنسبة لأمثال هذه الجماعات، يقول مؤلفه الذي وضع لنفسه اسماً هو "أبو بكر ناجي" ما يلي:

{.. إحدى المجموعات الجهادية الصغيرة بمصر، والتي لم تكن تتبع تنظيمياً جماعة الجهاد بمصر، أسسها أحد الشباب، وكان قد طلب العلم بقدرما، ودرس كتاب "العمدة في إعداد العدة"، ولكن للأسف أخذ يطبق قواعد علمية مأخوذة من كتب فقه الجهاد، ويُنزلُها على فئات دون الرجوع لأهل العلم الراسخين، وقد انفرط عقد مجموعته خلال مواجهات التسعينات، وقتل ذلك الشاب، رحمه الله وتقبله في الشهداء. ولا أدري لو قدر الله له الاستمرار هل كان سيتدارك ذلك الخطأ أم كان سيفتح على الحركات الجهادية في مصر باباً يدخل منه تشويه إعلامي يصعب مواجهته لما كان سيحمله من المصداقية، وهو باب إراقة دماء معصومة.. ومن القواعد الصحيحة التي تبناها هذا الأخ بتطبيق خاطئ، وبلغني من الأفراد الذين كانوا معه أنهم كادوا أن يطبقوها عملياً بالفعل، أو طبقوها مرة على الأقل، قاعدة تقول: ((مجهول الحال بدار الكفر يجوز قتله تقصداً للمصلحة)). وهي قاعدة صحيحة ، ولكن إذا طُبِّقت على دار الكفر التي أكثر أهلها كفار، أما دار الكفر التي أكثر أهلها مسلمون فلا تطبق عليها تلك القاعدة، والتطبيق العملي لكثير من القواعد الجهادية التي تحفل بها كتب فقه الجهاد يجب أن يكون مرَّ أولاً على راسخ في العلم وأقره قبل أن تطبقه القيادات الميدانية، نعم قد لا يجب أن يرجعوا كل مرة للراسخين في العلم، خاصة إذا تعذر ذلك، ولكن أصل الفئة المستهدفة، او نوع العمل القائم يجب ان يمر قبل اعتماده وتكراره على الراسخين في العلم ، خاصة اذا تعذر ذلك ، ولكن أصل الفئة المستهدفة، أو نوع العمل القائم، يجب أن يمرّ قبل اعتماده وتكراره على الراسخين في العلم في المرة الأولى على الأقل.
ملاحظة: مجهول الحال المقصود هنا هو من لم يظهر منه ما يدل على إسلام أو كفر، فهو ليس عليه علامات الإسلام الظاهرة، وكذلك ليس عليه علامة كفر ظاهرة، ولا يعرف عنه ناقض من نواقض الإسلام.}.(8)

في هذا المقطع الصغير من المؤلف المشهور، يُرسّخ الكاتب مجموعة مفاهيم نظرية، بعضها عقلي ومعرفي = تشريعي، وبعضُها الآخر استيهامي توليدي، فهو يستقي ويقتبس مفردات ذات مدلول واستعمالات خاصة، بغية زرع فكرة لا شعورية، أو غير منظورة في دائرة الوعي، وتركها تسرح في العقل الباطن للقارئ إلى الحد الذي يجعلها تتفاعل بذاتها، كالكائنات الأحادية الخلية، فيُوَلِّد نمُوُها

البنيوي الطبيعي منطقاً صارماً في السلوك والتفكير، يرى لنفسه مرجعية مضمونة ومتكاملة البناء، مرجعية مستندُها الدين، بحيث ترتقي إلى درجة الواجب أو الفريضة الدينية التي لا يصح الإيمان أو العلاقة بين المرء وإلهِهِ إلا بها.

أول الغرس البذوري الذي ينتجه هذا النص، هو أن هنالك شيئاً في الإسلام، أو حقيقة موجودة في صلب الدين وأصله وأركانه الإيمانية اسمها **"مجهول الحال".** وبناءً عليه، فإن "مجهول الحال" هذا، قد قرَّر العلماءُ قراراً شرعياً، وفتوى واجتهاداً مُجمعاً عليه في "قاعدة شرعية أصولية ثابتة قال بها العلماء"، وهذه القاعدة الشرعية الذهبية تقول: ((مجهول الحال بدار الكفر يجوز قتلُه تقصداً للمصلحة)).

إن هذه القاعدة الأصلية والثابتة في الدين ـ حسب العلماء كما يرى مؤلف الكتاب ـ من حيث النتيجة **هي صحيحة**، وكما يقرر الكاتب بصريح العبارة، لكنه يلوم ذلك الشاب الذي يستشهد به في مثاله هذا، على أن الشاب لم يرجع إلى"الراسخين في العلم" في تطبيق القاعدة. فهو يأسف فقط لأن الشاب حسب رأيه: " للأسف أخذ يطبق قواعد علمية مأخوذة من كتب فقه الجهاد، ويُنزلها على فئات دون الرجوع لأهل العلم الراسخين"..(خاصة إذا كان أولئك الراسخون في العلم عملاء مخابرات لأنظمة عربية، كما في حالة أبو لقمان مثلاً)، مع أن شهادته في توثيق علم الشاب واجتهاده هذا هو أنه "كان قد طلب العلم بقدر ما، ودرس كتاب "العمدة في إعداد العدة"، فهو يحيل القارئ لا شعورياً، إلى نص موثوق وعلم ديني معتمد. كما أن هناك مانعاً" شكلياً إجرائياً"، يمنع من قتل "مجهول الحال"، ولذلك يجب ربط هذا القتل المفتوح على مصراعيه، برأي العلماء الراسخين، أو الرجوع إليهم ولو مرة واحدة" لأخذ الـ OK"، وللتدرب بعد ذلك على الاجتهاد والتطبيق العملي بنفسه دون مراجعة أحد. وهذا المانع الشكلي الإجرائي الذي ربما سيؤدي إلى قتل "أولئك المجهولي الحال" هو أنه:" سيفتحُ على الحركات الجهادية في مصر باباً يدخل منه تشويه إعلامي ". إذ لولا ذلك "التشويه الإعلامي" الذي قد يضرُّ بالحركات الجهادية، لما كان لدى كاتب هذا النص مانع من قتل عشرين أو ثلاثين مليون مصري مثلاً، من مجهولي الحال الذين "ليس لهم علامات كفر ظاهرة أو علامات إسلام ظاهرة".. كما يجب أن نلاحظ تعبيره الخاص في وصف الأقوام الذين يجب قتلهم، بأنهم "فئات"، أسوة بـ"دزينات"..."ويُنزلها على فئات.. و..أصل الفئة المستهدفة"، وما للتعبير من مدلول ووقع نفسي في الأنفس المتلقية..

أخيراً يجب أن نخرج في الخلاصات المفيدة لهذا النص، إلى أنه، وفي المؤدى العام: جميع البشر على هذا الكوكب، والبالغ تعدادهم سبعة مليارات نسمة، هم: إما كفار معلومو الحال يجب قتلهم، ويُقدر عددهم بأربعة أخماس البشر، أو هم "مجهولو الحال"، وهم الخُمس الباقي، وأيضاً واجب قتلهم بعد أن يُستثنى من هذا الخُمس مَنْ تمَّ التأكد من إيمانهم الصحيح و"معلومية حالهم"، من وجهة نظر واضع هذه القاعدة الشرعية، وهم في أبعد الحدود لا يمكن أن يتجاوزوا بضعة آلاف من البشر..

كل هذه الصناعة والصنائع الإجرامية، يتمُّ رفعُها وتصعيدُها والدفع بها عادةً في أجواء ثأرية، أو لها قابليات المزاج الثأري، مثلما هي متجهزة ومشحونة بشهوة مسبقة للإنتقام، وطبيعة عدوانية سافرة الوصف كحالة مَرَضية عصابية، ولديها مظلوميات تاريخية يغذيها الخطاب العام والسرديات السائدة، دون أن نتجاهل الإغراءات المادية والحوافز التشجيعية، والتي تأتي على شكل فرص لمكاسب سهلة ومتاحة كثيراً من مال ومسكن وسيارات، وأحياناً أخرى وفرة الفرص السهلة للاستحواذ على نساء، أوتوهم فخامة مناصب اعتبارية مكتسبة.

ولا تجد هذه الجماعات مناخها المواتي، أو مسرح عملياتها الشيطانية إلا في البيئات التي تضعف فيها سلطة الدولة المركزية، أو تُفتَقَدُ تماماً، مما يوثق علاقات الناس ببعضهم ويفتحها لمزيد من إعادة التنظيم والتخطيط والإجتماع على مثل هذه الأفعال الشنيعة المستَفْظَعَة كلما ازداد انفكاكهم عن جسم الدولة، الجامعة والضامنة للعدالة الاجتماعية العامة، إلى الدرجة التي يتمُّ فيها استبدال الارتباط بالدولة بعقد هذه الجماعات المتوحشة، ومن ثم يتمُّ الانفكاك تدريجياً عن روح المجتمع وأخلاقه العامة وثقافته السائدة المتوارثة، لصالح عصابات يحلو لها أن تزين لأفرادها كل شناعات الجرائم المرتكبة، وكأنها أفعال مقدسة لا تثريب عليها ولا ملامة، بل إن الله يوم القيامة سيكافئهم عليها فوق ما ينالون في هذه الدنيا، والتاريخ فوق ذلك سوف يشيدُ ويطري ويتغنى بما ارتكبوه من جرائم، فهي ضرب من "الفضائل" التي يستحق أن يُمتَدَحَ من يتجرأون عليها وأن يُنظَرَ إليهم بإعجاب.

كما أن كل هذه الجرائم وهذه الوحشية، تمنح الفرد شعوراً زائفاً ومُتوهمَاً بخلود ما، فهو إن مات فرداً لن تكون له قضية تُخَلِّده، أما إذا مات برغبة الجماعة، وفي حالة تكيّف وانسجام تام معها، فإن خلوده مضمون باستمرار هذه الجماعة التي مات من أجلها.. ومما تقدم بات يسهل علينا أن نتفهم الآلية التي تستطيع بها داعش والتنظيمات التي تشبه داعش، أن تقنع أفرادها في منتهى اليسر والاستساغة، وزرع القابليات لنزعة الإقدام على العمليات"الإنغماسية" أو الإنتحارية ، التي يحلو لهم أن يسموها "استشهادية"..

هوامش الجزء الرابع:

(1) ـ جميع الأسماء المبدوءة بلقب "أبو فلان"، تركتها مرفوعة بالواو على الرواية كما هي، وحسبما تلفظ في اللفظ العامي دون إعراب بحسب موقعها من الجملة؛ رفعاً أو نصباً أو جراً.

(2) -

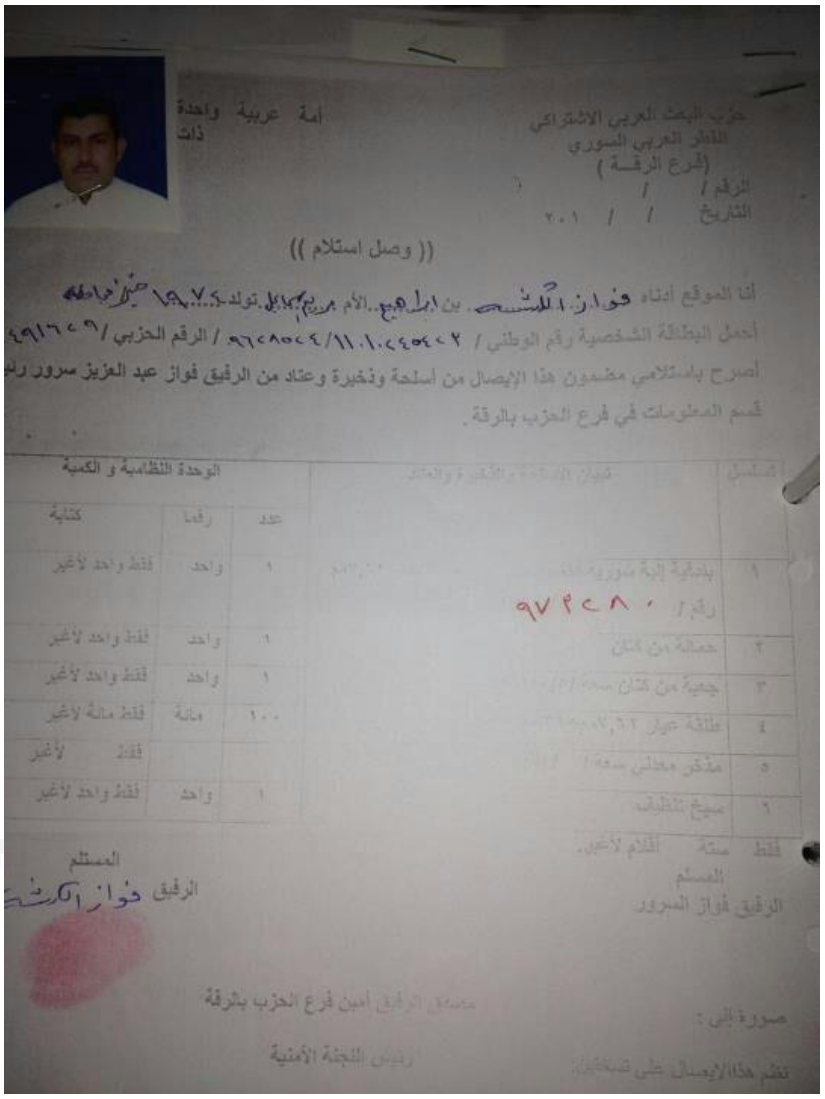

حزب البعث العربي الاشتراكي
القطر العربي السوري
(فرع الرقة)
الرقم / /
التاريخ / / ٢٠٠١

أمة عربية واحدة ذات

((وصل استلام))

أنا الموقع أدناه فواز الكشة بن ابراهيم الأم مريم اسماعيل تولد ١٩٧٤ خنيز مجادمة
أحمل البطاقة الشخصية رقم الوطني / ٩٦٠٨٥٠٤/١١٠١٠٤٥٠٤٢ / الرقم الحزبي /٩٧٢٨٠
أصرح باستلامي مضمون هذا الإيصال من أسلحة وذخيرة وعتاد من الرفيق فواز عبد العزيز سرور رئ
قسم المعلومات في فرع الحزب بالرقة.

		الوحدة النظامية و الكمية		
		عدد	رقما	كتابة
١	بندقية آلية سوري	١	واحد	فقط واحد لاغير
٢	حمالة من قنان	١	واحد	فقط واحد لاغير
٣	جعبة من قنان	١	واحد	فقط واحد لاغير
٤	طلقة عيار ٧,٦٢	١٠٠	مائة	فقط مائة لاغير
٥	مذكر مطلق سوفيت			فقط لاغير
٦	مبوخ للطلقات	١	واحد	فقط واحد لاغير

فقط ستة أقلام لاغير.

المستلم
الرفيق فواز الكشة

المسلم
الرفيق فواز السرور

صورة إلى :

مصدق الرفيق أمين فرع الحزب بالرقة

رئيس اللجنة الأمنية

تم هذا الإيصال على نسختين

((أنا الموقع أدناه: فواز الكشة بن ابراهيم ـ الام مريم اسماعيل ـ تولد 1974 ـ خنيز مجادمة ـ احمل البطاقة الشخصية الرقم الوطني رقم../../ الرقم الحزبي ../../، اصرح باستلامي مضمون هذا الايصال من اسلحة وذخيرة وعتاد من الرفيق فواز عبد العزيز سرور رئيس قسم المعلومات في فرع الحزب بالرقة))

(3) -

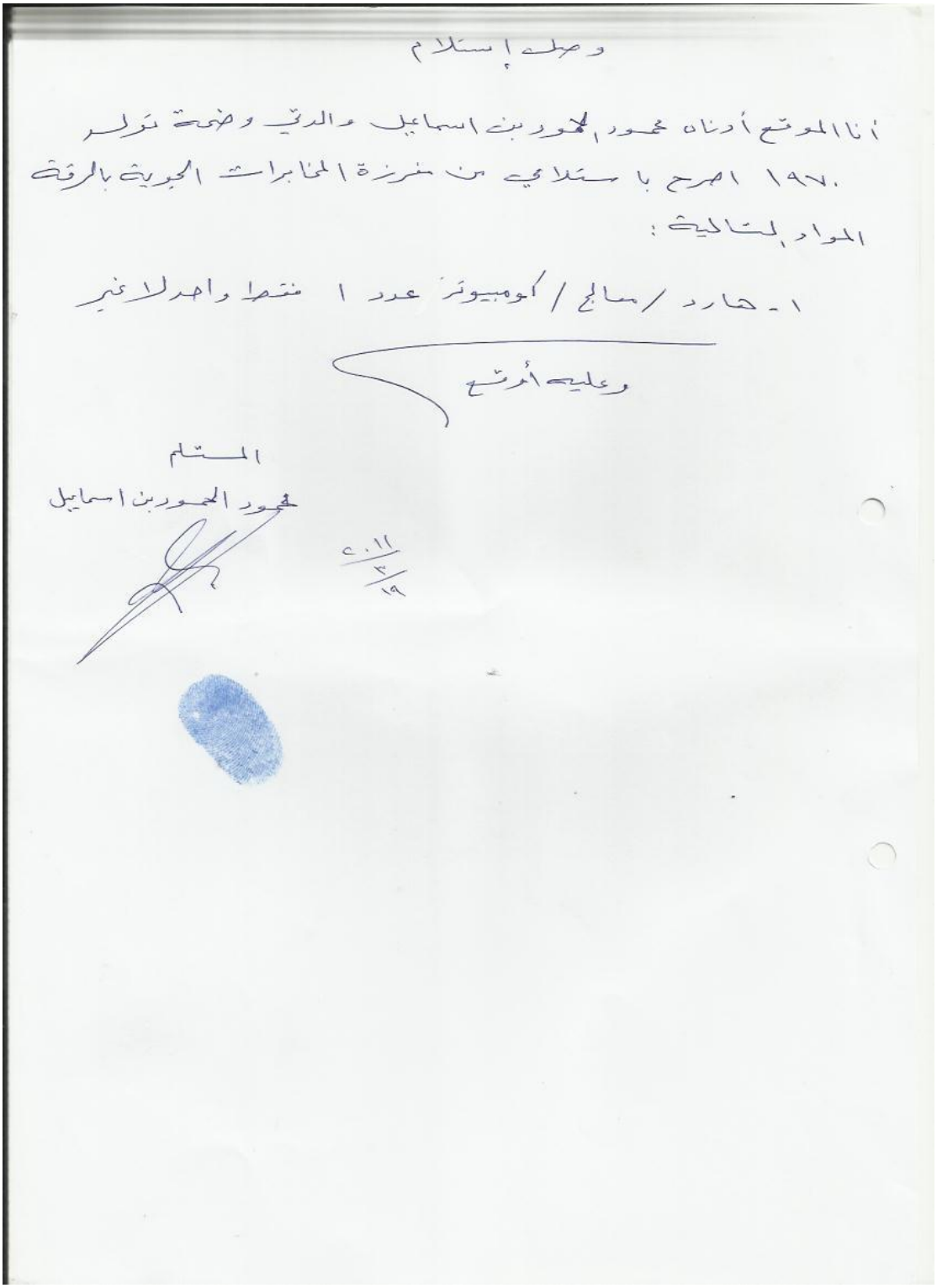

وصل إستلام

أنا الموقع أدناه محمود الحمود بن اسماعيل والدته وضحة تولد ١٩٧٠ أصرح بأنني استلمت من شركة المخابرات الجوية بالرقة المواد التالية :

١- حاسب / معالج / كومبيوتر عدد ١ قطعة واحدة لا غير

وعليه أوقع

المستلم

محمود الحمود بن اسماعيل

٢٠١١/٣/١٩

- (4)

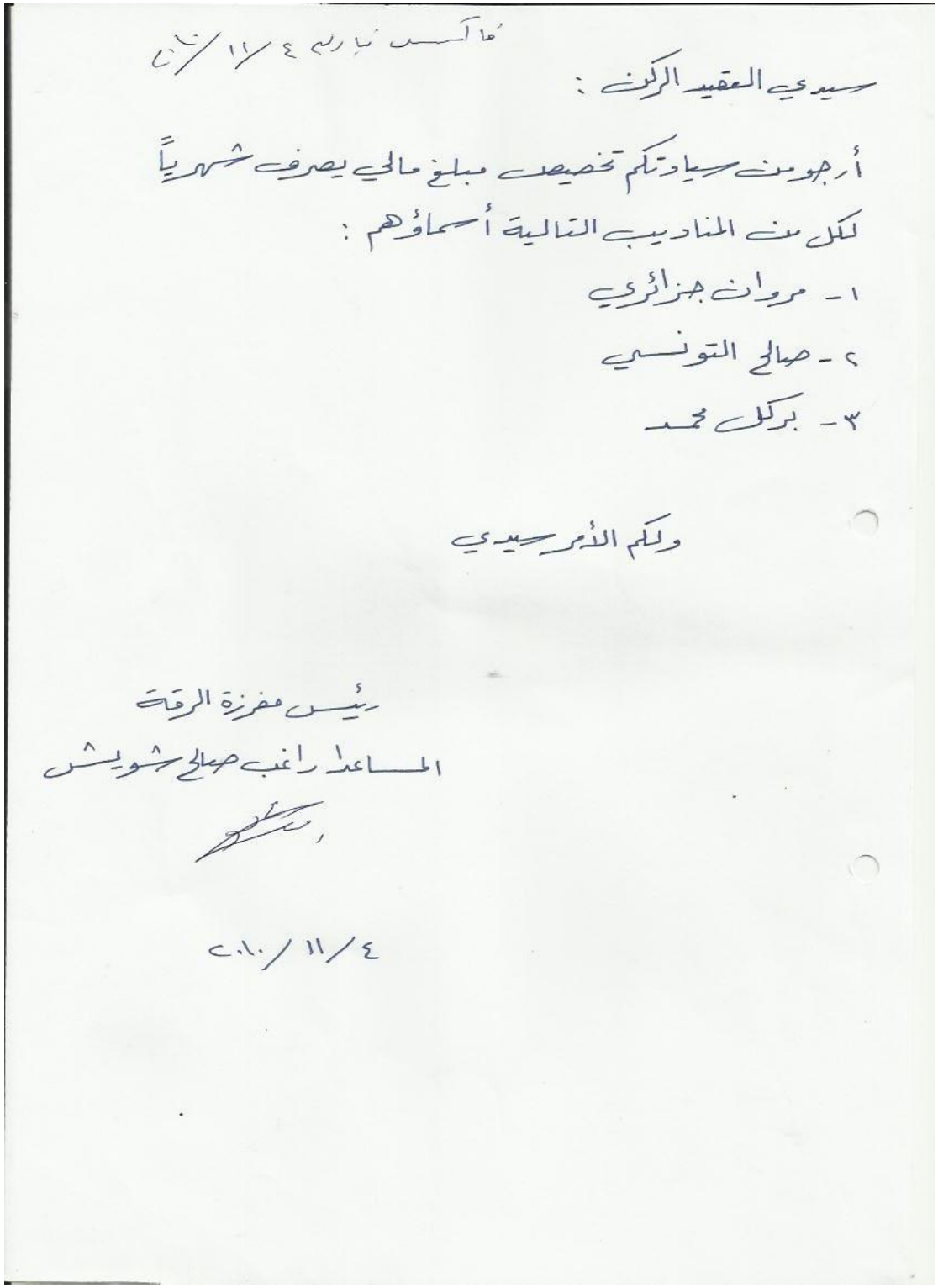

ماكسس في ٤/١١/٢٠١٠م

سيدي العقيد الركن :

أرجو من سيادتكم تخصيص مبلغ مالي يصرف شهرياً لكل من المناديب التالية أسماؤهم :

١- مروان جزائري

٢- صالح التونسي

٣- بركل محمد

ولكم الأمر سيدي

رئيس مفرزة الرقة

المساعد راغب صالح حويش

٤/١١/٢٠١٠

(5) ـ علي الشواخ (أبو لقمان)

(6) ـ قضيتُ في سجون نظام الأسد الأب من تاريخ أول ايلول عام 1080 في سجن تدمر العسكري، حتى تاريخ آخر صيف 1987، حيث تمّ نقلنا إلى سجن صيدنايا. ومن عام 1987 حتى نهاية عام 1991 في صيدنايا، وأعلم كيف كان يتم تعيين رؤساء الأجنحة في سجن صيدنايا، وكيف يتمّ تشبيك علاقة يومية متواصلة بشكل يومي مع رئيس الجناح..

(7) -

عبد الرحمن الفيصل " أبو فيصل"

(8) ـ ادارة التوحش: لمؤلفه ابو بكر ناجي . ص 27.

النسخة الاصلية من موقع الرأي والفقه بوست

ـ القسم الخامس ـ

تفكك الثورة:

كم نسرفُ في المقدمات مع أنها أسوأ ما نكتبُ عادةً. ربما لأننا نرتعب كثيراً من التلقائية والعفوية، ولأن المقدمات تقصينا عن عفويتنا الطبيعية قليلاً، وتنقذُنا من ميزة الإرتجال، وتتيحُ لنا مائدة دسمة مما نشتهي من تبرير كل شيء، وتفسير كل شيء. مع أن واقع الحياة ينطق أحياناً بأصدق القول؛ إنه لاشيءَ يُبرَرُ بما فيه الكفاية، ولا شيءَ يُفَسرُ بما فيه الكفاية.. رغم هذا، فقد أَلِفنا أن عبارة"لولا كذا لكان كذا.. ولو لم يحصل كذا لما حصل كذا".. كأن هذه العبارة هي بيتنا، ورائحة أمِّنا، وبعضُ أشيائنا الحبيبة الجميلة، التي لا نحتمل العيش بدونها.. مع أنها واقعاً، ليست إلا جزءاً من أوهامنا حين يمحضُها العقلُ ثِقَتَه المطلقة.. ولولا أنْ ينسبني القارئ إلى كثرة اللغو والإطالة، لعددت له عشرات الأسباب التي آلت بنا إلى ما أفضينا إليه. لكنني سوف أجتزئ من تلك العشرات بعضاً، أحسب أنه كان فيه من العزم ما يكفي لأن يُقوِّضَ كل جهود الثورة وعنفوانها، وأن يخمد نارها وحريقها، مع أن حريقها لم يكن سهلاً بخس اللهيب، بحيث يسهل السيطرة عليه.

أول وأهم تلك الأسباب هو وقوف حكومات العالم أجمع، بجيوشها وأموالها وأجهزة استخباراتها ضد الثورة السورية، رغم تجلي هذا الوقوف من خلال أداء وسياسات ومواقف مختلفة، بعضُها صريح وبعضُها مداهن.. فاليومَ لم يعد وارداً أن نفتش عن صديق واحد في هذا العالم"الرسمي" المتحكم وصاحب القرار، بل الأصدق والأصوب أن نعدد أيها كان أقل أو أكثر أو أشد عداوة وأشرسها ضراوة. فلقد علَّمتنا الثورة السورية درساً وخلاصة مفادُها أن البشرية مازالت شريرة بعد عشرة آلاف سنة من التقدم الموهوم المزعوم، إلى درجة أنها لم تحتمل نافذة صغيرة من الخير، تُفتَحُ على هذا العالم لينفذ الهواء منها.

من طرف آخر، فقد كنا نحسب أن نظام الطغيان الأسدي ـ نظام البراميل والكيماوي ـ وحده هو العدو الوحيد، وهو من يملك التصرف والتحكم بالثورة المضادة، فإذا بالثورة المضادة هي كل ما يحيط بنا؛ إنها دول وحكومات، وهي منظمات مدنية وإغاثات ومشاريع إنسانية.. هي مجاميع مهولة من أغبياء ينحرون شعبهم وأوطانهم ثم ينتحرون بالمجان، وهي تنظيمات إسلامية أصولية فاشلة، هُزمت في كل الساحات، واندحرت على كل السياقات، ولم تفلح يوماً أن تعبر عن نفسها إلا بامتصاص دماء وطاقات بسطاء الناس وفقرائهم بالمال وبالإغراءات، وبجنة لا أحد يعرف لها مساراً أو طريقاً إلا هم، ومن استعصى وعصم نفسه من إغراءاتهم وترهيبهم، يتمُّ تحطيمه بالاغتيال والقتل العمد والقَصْد والخطأ والخطف والتعذيب والتنكيل والتشهير والإقصاء..

أمامي الآن قائمة أسمية بأسماء المكتب الأمني لحركة أحرار الشام، (التي لم تصمد في صراعنا ضد داعش للدفاع عن المحافظة، سوى أربعة أيام ثمَّ انسحبت وغادرت المحافظة).. والقائمة تعد من قيادات ومسؤولي المكتب الأمني(81) اسماً فقط.. هؤلاء كانوا هم القادة وأصحاب القرار والشأن في (المكتب الأمني)، دعْكَ من العناصر والموظفين، والتشكيلات البشرية المتحركة على الأرض، فإذا أدركنا أن النظام في أوج سطوته وقدرة بطشه قبل الثورة، لم يكن واقعاً يجند بكل فروعه الأمنية الكثيرة والمتعددة، نصف هذا العدد.. وإذا علمنا أكثر، أن المكتب الأمني لداعش كان يتفوق على أحرار الشام بمائة ضعف على الأقل، أدركنا حجم المأزق الذي حاق بالثورة، وطيف الدائرة الذي يحيط هالة الثورة المضادة، التي يشقُّ على كل إمكانية أن تلامس شاطئها النهائي، وجدرانها الشاهقة طولاً وعرضاً..

لايجب في هذا المقام أن أتناسى الدور العدواني، المبطن غير المعلن، الذي كان يلعبه ما سمي بـ"الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة"، والذي كان يجمع في جراب واحد ضد الثورة السورية؛ العدوانية والهبل والتظاهر بالموت متى شاء وأراد.. إذ لم يكن واضحاً منذ أول يوم تمّ فيه الإعلان عن تشكيل هذا الشيء.. أو هذا الجسيم الغريب المسمى بالإئتلاف؛ لم يكن واضحاً ماهو تعريفه القانوني بدقة، بصفته مؤسسة تنوب في الحديث عن شعب سوريا وعن ثوارها. وحتى هذا اليوم ما يزال هذا الغموض حادثاً قديماً وقائماً. والحق بأن القول بأنه "ممثل المعارضة والثورة" يمعنُ في التباس دوره الغامض أكثر؛ فهل هذا التمثيل مشروط بشروط ومحدود بزمن؟ وهل كان هذا التمثيل مرجوعاً فيه المُمَثِل بصفته وكيلاً، إلى طالب التمثيل بصفته أصيلاً؟ وماهي طبيعة هذه المعارضة التي يمثلها أعضاء الإئتلاف؟ وما هي آليات محاسبتهم ومراجعتهم(أو التشاور معهم في الحد الأدنى)، طوال فترة تمثيلهم؟ وكيف يمكن أن يرجعوا إلى من يمثلونه؟ أم أنهم مفوضون مطلقون في هذا التمثيل؟ وهل حدث مرة واحدة أن واجهوا الشعب السوري بشفافية،

وقدموا له بياناً تفصيلياً عما فعلوا، أو يخططون لفعله في المستقبل..؟ وإذا كانت القضية السورية قد تفلتت مطلقاً من بين أيديهم فلماذا لا يعترفون بذلك؟ وماهي طبيعة العلاقة التمثيلية الإطارية الجامعة بينهم وبين هيئة المفاوضات العليا؟ وكيف يمكن لقوى الثورة وقواها المبعثرة، والمُنكَّل بها على الدوام، فيما لو فكرت أن تتواصل مع هذا الائتلاف، كيف لهم أن يكتشفوا السرداب الذي يختفي فيه أهل الإئتلاف أولئك؟ وعشرات الأسئلة الأخرى..

قد يكون الجواب السهل والمباشر، أن هؤلاء لا مرجعية لهم إلا الدول التي عملت بجهد مخصوص على انتقائهم وتسميتهم كممثلين عن الثورة، وهذا مقبول وصريح الوضوح.. بيد أن الواجب في هذه الحالة يملي عليهم أن يعترفوا علانية أمام جميع السوريين بهذه الصفة، حتى يمكن التعاطي معهم بها. لا تحصي ذاكرتي عن أحداث ثلاث سنوات خضت غمار أحداثها خلال سني الثورة في مدينتي الرقة، عن ما يسمى بالإئتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة إلا الملاحظات التالية: لم يتدخل الإئتلاف في هذه الثورة على مستوى المدينة حسب ما أعلم، إلا لماماً وفي الحالات النادرة. وفي حدود معرفتي لم يتصل أو يتواصل مع ثوارها إلا مرتين: الأولى كانت في الأسبوع الأول الذي أعقب التحرير، وكانت زيارة غير رسمية وبادرة شخصية للإطلاع على مجريات الأمور، قام بها السيد"محمد سرميني" والسيد "حسين العبد الله(الدادا)"، وكنت حاضراً شاهداً على مادار فيها من حديث. وقد استمرت عدة ساعات، فكانت هذه الزيارة هي مجرد لقاء علاقات عامة، وجلسة غداء وحديث عام. وقريباً من هذه الزيارة الطارئة ماسمعته عن(ممثل محافظة الرقة في الائتلاف)، المدعو مصطفى النواف، من أنه زار الرقة أيضاً، لساعات أو ليوم أو أكثر، في أول أيام التحرير، وأنه التقى ببعض أقربائه ومعارفه، حيث أنه لم يزر الرقة منذ سنين طويلة، لا قبل الثورة ولا بعدها، حتى أنه لا يكاد يتعرفُها إلا ببطاقته الشخصية التي تثبت مسقط رأسه فيها.

أما تبادل الحضور الثاني بين الرقة والإئتلاف ـ وهو الأهم ـ فكان بعد التحرير بشهرين تقريباً، وقد كان جلسة عمل رسمية سُجّل فيها محضر جلسة بين المجلس المحلي الأول وبين السيد"محمد صبرا" المسؤول القانوني في تلك المرحلة، وكان برفقته شاب آخر لم أعد أذكر اسمه الآن. ولقد استمر اللقاء ليومين متتاليين، أثبت فيها هذا الإئتلاف أنه معنيٌّ بكل شيء.. إلا بالثورة..

عادةً ما يرثُ الأبناءُ إرْث آبائهم، فيبذرونه دون تردد أوشفقة أو تفكير، لكن القاعدة هذه المرة ـ في الحالة السورية ـ جاءت مضادة لطبيعة هذا القانون، فقد ورث الائتلاف، (أبو الثورة وقائدها وعرابها السياسي كما هو مفترض) الثورة، وكل ما تحقق لها دون أي رابط أبوة أو بنوة يجمع بينهما. وكلما أثخن أعداء هذه الثورة فيها وأفظعوا، كان الإئتلاف يلعب دور التيس المُحَلِل أحياناً، وأحياناً أخرى دور العدو المتآمر أو المبارِك أو المشارِك في الخفاء، أو المتنحي الذي يمثل على الجمهور السوري والعالم أجمع دور الميت والعاجز ومن لا حيلة له.. في كل الأحوال كان الإئتلاف خدعة العالم أجمع لهذه الثورة، والتي يلام عليها السوريون قبل أن يلام هو؛ فالقصور الذاتي والأداء العاجز الذي لم يُفْضِ بالثورة السورية إلى معضلة تمثيلها المتوافق عليه، هي وحدها علة استمراره وبقاء عظامه وهي رميم على واجهة الحدث، رغم مضي كل هذه السنين..

في البدايات كان الميل إلى تصديق هذا الانطباع العام وهذه الذهنية التي تعززت ورسخت بمرور الوقت، وهي أن هذا الإئتلاف طرف تمثيلي اعتباري، وأن قرارَه مرهونٌ للدول الإقليمية وبقية الأطراف المتدخلة في الشأن السوري، وأنه منفصل بحكم بنيته وطبيعة تركيبته عن الداخل، حيث لم يتعارفا هو وأهل "ثورته" وشعبه يوماً ما، إلا من باب الصدفة، ومن واقع تحسين صورته البروتوكولية الإعلامية لاغير.. لكن تطورات الأمور كشفت أكثر من هذه الحقائق البسيطة، غير المؤثرة في واقع الأمر، بجميع سياقات الملف السوري وتطورها العام. فقد أثبتت الأحداث أن الإئتلاف كان رصيداً احتياطياً للثورة المضادة كلما كان ممكناً استعمالُ هذا الرصيد في كسر السوريين عامة وإعضال قضيتهم، ومآلات الإفحاش والتحطيم المُخَطّط، والمتبدل الأدوار بين جميع الأطراف.. هل بقي شيءٌ يقال بعد أن قدَّم الإئتلاف رسمياً وعلانية، بعض الأموال المخصصة للإنفاق على المحافظة، وصرَفَها لداعش جهاراً نهاراً، دون تردد أو حسٍّ بالمسؤولية أو خوف من مساءلة؟

والمدهش في الأمر أكثر، أن هذا الشيء المسمى الإئتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة، لم يراجع تجربته بعد كل هذه السنين، ولم يُبدِ توبةً أو ندماً.. حتى لو كانت توبة وندماً كاذباً يُسَجَّلُ له في التاريخ، ولم نسمع ـ إلا فيما ندر ـ عن حالات انسحاب أو استقالة من هذه العصابة، كما أنه حتى اليوم لم يشافِهْ السوريين أو يخاطبهم بوضوح، وينسج صلة صداقة بينه وبين شعب كابدَ الأهوال على مدار سنوات، وهو يعاني الفقد والموت والانتزاع حتى من كيانه الجغرافي ووجوده الحي. أما حكوماته الشريرة والفاسدة والمريضة،

"المؤقتة"، كما يحلو له ولها أن تُسمى، (خاصة حكومة المدعو أحمد طعمة)، فيُستحسَنُ أن أضربَ صفحاً عنها، لأنها تحتاج إلى إفراد كتاب آخر يوازي هذا الكتاب.

يسعُنا في سياق هذا التفصيل، أن نذكر بأن التنسيقيات وكل روابط الحراك المدني والنشاط الإحتجاجي العام، قد أخذ يدخل طور الاختناق والتراجع شيئاً فشيئاً، أمام واقع موضوعي لم يعد يعترف إلا بقوة السلاح، كما لم تعدْ تصمدُ أمامه كل الأساليب الثورية وأدوات النضال التي لم يتمَّ تطويرُها خلال سنتين مضت، حتى غدا العَوْمُ في بحيرة من الرصاص والقصدير لا تفيدُ فيه شتى خبرات من اعتادَ العَوْمَ في جداول الماء الواضحة المسرب والشطوط والاتجاهات.

انحدر الحراك المدني بعد تغول الثورة المضادة، وبدأ يتحرك في أجواء من التململ واليأس المحبط. وأخذت تتذر في الأفق مخاوف أن يشرع المتدخلون الدوليون، باستئجاره بالمال، قبل شرائه جملة واحدة لإبقائه في حدود السيطرة. وكان جو الشللية والتشرذم فاشياً طاغياً، ولم تعد الكتلة الثورية المدنية جاهزة لمراجعة ما يحدث على الأرض من أخطار متسارعة ومناقشتها، واتخاذ قرارات حاسمة بشأنها، ولقد لعب الإئتلاف أسوأ أدواره على الإطلاق في هذه المرحلة بالذات، حيث كانت الكتلة الأخوانية داخله، المزودة بالمال واحتياطي الخطط والبدائل، تلعب على استقطاب مدنيين وناشطين فاعلين، وبدا بأن المزاج العام أخذ يميل إلى تحول كتلة الثورة الصلبة ونواتها الأولى الفاعلة، وقد انتهت إلى تفتت، وتمَّ اختراق مساحة غير صغيرة منها من قبل جهات كثيرة، داخلية وخارجية.. ويجب الإعترافُ بأن الواقع والمشهد العام ازداد جهامة وكآبة، وثمة كثير من حثالة الجواسيس، ممن كانوا يَدَّعون قبل أشهر بأنهم ثوار متحمسون، مستعرضين مواهبهم في كل مناسبة، قد غادروا إلى تركيا.. وبعضُهم وصل أوروبا وحصل على حق اللجوء فيها.. لقد كان واقعاً مفرطاً في القسوة، ومحبطاً بدرجة كافية. فقد أصبحت العلاقة التي تجمع الثوار مع فائض الخيبة والموت المجاني علاقة استنسابية. ولم يعد العَوارُ عارضاً، أو مجرد بعض عيوب طارئة يمكن السيطرة عليها، بل أصبح سرطاناً مخيفاً يثير الذعر، إذ كل قوى الشر وكُتَلِهِ المتربصة، كان يكفيها أن ترفع علم الثورة وشعاراتها بمباهاة، وأن تذرذر بعض الشتائم ضد النظام وشبيحته، لتنال رخصة وتفويضاً يخولُها من الإرادة والقدرة على الحركة في فضاءٍ شبه حر، واتخاذ ما تشاء من قرار.

الثورة بين أنياب الغنيمة والقبيلة والعقيدة:

سمعنا لأول مرة بمصطلح "الهيئات الشرعية" بعد التحرير مباشرة، أي بعد جهدٍ استدام أكثر من أربعة أشهر في التحضير لفترة مابعد سقوط النظام في المحافظة، وانتخاب المجلس المحلي الأول للمحافظة. ورغم الأخطار المؤكدة المُحْدِقة بنا، من اجتماعات وانتقالات في منازل أصدقاء وثوار ناشطين.. وبعد كل هذه التجمعات بهذا العدد الكبير، الذي كان يجاوز أحياناً العشرين أو الخمسة وعشرين شخصاً في منزل واحد، بغية التوافق على صيغ وشكل ومهام المجلس المحلي في المدينة، ومن بعدها في مناطق الرقة الأربع، بحيث كان محتملاً لو تمت مداهمة تلك المنازل، أن تنتهي بنا إلى اعتقال طويل وإلى تقويض جهود، وتدمير مستقبل أفراد وعوائل بكاملها.. هذا إن لم أبالغ بالقول بأنه كان من الممكن أن ينتهي ببعضنا إلى التصفية تحت التعذيب، أو إلى الإعدام على يد السلطة.. خاصة بعد أن غامر غالبية المعنيين بتشكيل مجلس المحافظة، بالانتقال سراً والسفر إلى مدينة تل أبيض، لعقد مؤتمر عام يتمُّ بموجبه انتخاب مجلس المحافظة، الممثل الثوري عن جميع المناطق في ريف الرقة، والذي لم يباركه الإئتلاف بالمناسبة، ولم يشهد حضور هذا المؤتمر، ولو بتكليف ممثل واحد ينوب عنه في الحضور، كما سعى لاحقاً وعند أول وأقرب فرصة إلى تفشيل المجلس وعدم الإعتراف به، (زيارة محمد صبرا المسؤول القانوني في الإئتلاف مثالاً).. ومع كل هذه المخاطر المحدقة قبل تحرير المدينة من قبضة النظام، وفي أول صباح تلا يوم التحرير، تم الإعلان رسمياً، وعلى ملأ من المحافظة، عن تسمية المجلس المحلي للمحافظة المحررة. فكيف تمَّ التعامل مع المجلس وماهي التحديات التي واجهها؟

أولى تلك المجابهات التي لم تكن متوقعة، هو أنه بات يتناهى إلى أسماعنا بأن هذا المجلس(مجلس مدني علماني)، وأنه كفرٌ بالله، والتعامل معه أو الاعتراف به هو خروج على شريعة الله. ولم يتوقف الأمر عند التصريحات الجانبية والهمسات المسمومة المحرضة على المجلس، بل إن حركة أحرار الشام قامت بخطف شاب من أعضاء المجلس، وبقي معتقلاً لدى الحركة مدة يوم أو أكثر، حيث أفرج عنه في اليوم التالي بعد أن زوَّده الأمني الخاص بالحركة، بمجموعة من رسائل التهديد والوعيد الصريح.. ثمّ مَنَّ عليه بإطلاق سراحه ليبلغنا تلك الرسائل فحسب، مُنهياً الحديث بينه وبين عضو المجلس المخطوف بقوله: يملي عليَّ واجبي الشرعي أن أحكم عليك بالردة والقتل ردةً وفوراً، مادمتَ تعمل تحت مسمى مجلس محلي مدني، لكنني إذ أطلقُ سراحك إنما أعطيك فرصة، أنت وزملاءَك،

لكي تتراجعوا عما أنتم فيه من ضلال، وتعلنوا عن حلِّ المجلس.. كما أن بعض أعضاء المجلس قد تمَّ تهديدُهم بصريح القول، عن طريق الهاتف بأن مصيرَهم سيكون التصفية الجسدية إن لم يتوقفوا عن استعمال بعض العبارات ويدلوا ببعض التصريحات.. لقد تمَّ الإعلانُ رسمياً بأن الهيئات الشرعية هي البديل المباشر للمجلس المحلي.

وحتى يكون مفهوماً للقارئ ماهي هذه الهيئات الشرعية، أقول بأنها منظومة تجمع بعض الأشخاص، لديهم تفويضٌ وحقٌّ مطلق بأن يُصدروا أحكاماً في كل شأن ديني ودنيوي دون استثناء. فهم مفوضون مسؤولون في الفصل في الجرائم والسرقات، وهم من يحكم بالزواج والطلاق، وهم من يقرر من هو المواطن الصالح والطالح؛ انتهاءاً بمسؤوليتهم في الفصل بين المتخاصمين حول رفع سعر إيجار محل أو منزل مؤجَّر، وهم من يقرر متى يحق للأفران أن تباشر العمل في تأمين الخبز للأهالي وكل مخالفة تموينية، وكل مخالفات المرور، و صحة بيع كل سيارة تباع نقداً أو بالتقسيط، واستدانة كمية من العلف للأغنام بين الرعيان.. ورأيُ الهيئة مطلق في كل مسألة تخص الشريعة والعقيدة الاسلامية، بل وحتى السياسة والشأن العام المحلي والدولي، وهو رأي نهائي، لا يجوز مناقشته أو الاعتراض عليه أو ردُّه تحت أي ظرف أو طائل، فقد كان الاعتراض على أي قرار صادر عن الهيئة الشرعية، يعني لزوماً الاعتراض على شرع الله وعلى حكم الله.. هكذا فإن ثورتنا، على سبيل المثال، كان يكفي أن تَجُبَّ نفسها وما قبلها وما بعدها، وأن يُحْكَمَ عليها بأن تنتهي من حيث ابتدأت، أو أن يرجع الثوار إلى بيوتهم ويجلسوا صامتين؛ كل ذلك بالطبع كان محتملاً افتراضاً بقرار من سطر واحد، مذيلٍ بتوقيع الهيئة..

ذلك ما كان يجري التحضير له، وذلك ما حصل بعدئذٍ بعد ظهور داعش. وهكذا من حيث ابتدأت ثورة تنادي بالحرية والديمقراطية والعدالة والمساواة والقضاء على الفساد وتصفية الطائفية والعشائرية والإطاحة بالنظام الديكتاتوري؛ إذا بنا ننتهي، ويالللغرابة والدهشة، بأن وجدنا أنفسنا أمام محاكم تفتيش يتربع فوق كرسِّيها"كاردينالات" عتاولة، أين منهم"كاردينالات محاكم تفتيش" العصور الوسطى، في عصور الظلام وماضي البشرية الخائب.. وحتى يكون واضحاً أكثر للقارئ، أضيفُ بأنَّ الإئتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة قد بات موثقاً تعاونُهُ مع هذه المؤسسة الظلامية منذ اليوم الأول لتأسيسها، مع رفضِه المطلق التعاون مع المجلس المحلي المنتخب، الذي أعلنَ عن تشكيله الثوار في المحافظة.

كان اقتراح تلك الهيئات الشرعية هو رصاصة الرحمة الأخيرة التي أجهزت على الثورة ومضمونها، وحتى أوضح لماذا أستخدمُ كلمة"هيئات" بالجمع، وليس "هيئة" بالمفرد، أقول: أعلنت جبهة النصرة أنها سوف تحتفظ بحقها في تشكيل هيئتها الشرعية الخاصة بها، وعدم الإعتراف بسواها، مثلما أعلنت حركة احرار الشام أنها لن تتزحزح عن قرارها في أن هيئتها الشرعية هي الشرعية الوحيدة، وتبعهما فيما بعد بعض الكتائب والفصائل، فشكلوا هيئات شرعية خاصتهم، على المبدأ القائل:"مافي حدا أحسن من حدا". وكادَ القومُ أن يذبحَ بعضُهم بعضاً، وليتهم فعلوا.. في محاولةِ كل طرفٍ أن يمنحَ الشرعية لهيئته، لولا أن تمَّ اقتراحُ حلٍ للمشكلة، ينزع فتيل الأزمة من أساسها. وهو أن تُشَكّلَ "هيئة شرعية مشتركة"، يستظلُّ بها الجميع، وتكون كل الأطراف ممثلة فيها، على أن تبقى الهيئات الشرعية الأخرى قائمة، تفصل في الشأن الخاص بكل فصيل مسلح، وهذا ما كان.. ولَعَمْري يجب أذكر بأن هذا الحل كان أسوأ من المشكلة ذاتها، فكان الدواء أكثر خطراً وتسميماً من المرض نفسه..

كان الجهل المُطبِق بأهداف الثورة ومراميها، وانفكاك الحراكين المدني والمسلح عن بعضهما، وسيرُ كلّ منهما في طريق مختلف؛ لم يعدْ يجمعهما جامع أو يتقاطعا في مشتركات موحدة، إضافة إلى كثرة العملاء من كل الأطراف والجهات، العملاء المرتبطين بالنظام، والعملاء الذين كانت تتلاعب بهم كتلة الأخوان المسلمين ـ الناشط الوحيد في الإئتلاف ـ والعملاء الدوليين الذين كانوا يتحركون باسم الثورة وتحت غطائها، لصالح قوى خارجية متعددة، (وغالبية هؤلاء الساحقة بات صاحب التأثير الأكبر في توجيه الأمور وتطويرها، وأخذها في الاتجاه الذي يريد)، كل ذلك أفقر مضامين العمل الثوري، وقطع كل سعي لتأسيس بنية مجتمع مدني بديل عن النظام، إضافة الى فراغ مهول في السلطات، لم تقوَ كل تلك القوى العاجزة والمتدخلة أن تملأه، حتى بات متعذراً تجميع قوى الثورة المدنية والعسكرية، والتآم شملها على جسم ثوري يمثل واحدية القرار ومرجعية موحدة للثوار.

كل هذا الظرف الذي أخذ ينضج بالتدريج لصالح ظهور داعش لاحقاً، والتي ألفت حولها مجتمعاً قد ازدادَ هشاشة وتمزقاً وفوضى، حتى بات على حافة الحطام والتقوض التام. وكأن المحافظة بأسرها باتت مسرح عمليات لا هدفَ لها إلا التهيئة لظهور التنظيم اللدود، الأكثر توحشاً وهمجية في كل العصور، والذي بدأ يستعدُّ للإعلان عن نفسه للفتك بآخر ماتبقى للثورة والمجتمع من ملاذات احتياطية، وفرص

خلاص قليلة.. لهذا يجب التأكيد على أن التطبيق الذهني المستسهل لحدود واقعة "لولا كذا لكان كذا"، دائماً مايحتاج إلى برهان وثيق، وهذا البرهان التجريبي التطبيقي، وحده القادر على أن يستنقذ كل مساهمة أو إضافة من جانبنا لنظرية تميل إلى فحص تجارب الماضي. خصوصاً إذا كان هذا الماضي مايزال قريب العهد، لما يمضِ عليه سوى بضعة سنوات.

الواقع أن القوى المسلحة في الرقة، رغم كل ما يمكن أن يقال فيها، وما يمكن أن تُنعَتَ به من فوضى وشتات ومآخذ كثيرة، إلا أنها، وبصورة قاطعة، كان من المستحيل عليها أن تسمح لتنظيم داعش أن يتمدد، أو يتحرك بأكثر من حجمه الحقيقي، وهو حجم أقل بكثير من أن يُخَلِّفَ قلقاً من وجود داعش، أو يؤخذَ كثيراً بالحسبان.. سوف استشهدُ بحديث خاص جرى بيني وبين أبو عيسى بعد هذا التاريخ بفترة طويلة، وكان مناطه يوماً مخاوف من إمكانية أن تعمد داعش إلى الغدر بقوى الثورة بطريقة من الطرق؛ خاصة المسلحة منها.. فكان تقديرُه أن لواء ثوار الرقة، قادر على استئصال وجودهم من كامل المحافظة، في مدة أقل من ثلاث ساعات، فيما لو اضطُرَّ ـ فرضياً ـ إلى هذا الخيار في الوقت الحاضر. ولقد كنتُ مقتنعاً بوجهة نظره تلك إلى حدٍ بعيد، استنتاجاً ومقارنة بموازين القوى على الأرض.. ولكن مع كل هذا لا يبدو لنا اليوم مفهوماً كيف استطاعت داعش التغلغل والتسرب إلى كل ثنايا وتفاصيل محافظة كبيرة محررة من النظام، وإعادة احتلالها تقريباً بالكامل..؟ ولماذا تمكنت من هزيمة كل عناصر وقوى الثورة، المدنية والعسكرية على حدِ سواء..؟ وكيف تُفسَّر تلك السهولة في السيطرة..؟ وكل ذلك حدث بإمكانات عسكرية وتخطيط بسيط، حققت به ظفراً ساحقاً انتهى إلى دحر جميع الفصائل المقاتلة التابعة للجيش الحر في المدينة، والتي كانت تفوقها عدة وعديداً بخمسين ضعفاً على الأقل..؟
لواء أويس القرني ـ على سبيل المثال ـ الذي كانت قاعدته المركزية في مدينة الطبقة، كان لوحده يفوق قوة داعش وتسليحها في العدة والإمكانيات، ولواء الفاروق وأحفاد الرسول وجبهة الوحدة والتحرير.. وكل تشكيل مقاتل من هؤلاء كان ـ بمفرده ـ يمتلك من القوة والمؤهلات العسكرية المنظورة والمباشرة، ما يفوق قدرات داعش بما لا يقاس..وإذا ضربنا صفحاً عن عديد الكتائب الصغيرة، التي تُعدُّ بالعشرات، والتي كانت كلها تقريباً على جهوزية للتحالف والقتال في صف الثورة ومقاتلي الجيش الحر، فقد يكفينا أن نستشهد بمثال نموذجي: لقد كان عدد الكتائب المسلحة في منطقة تل أبيض وحدها، قد وصل إلى مائة وتسع كتائب، (بعض هذه الكتائب كانت لوحدها أكثر عدة وعتاداً من قوى داعش المحدودة)، وإذا أضفنا إلى ما سبق، قدرات الطرفين في المعركة الأخيرة التي خاضتها داعش ضد لواء ثوار الرقة ومقاتلي أحرار الشام وجبهة النصرة، والتي انتهت بتصفية نهائية لكل القوى المضادة لها وإحراز نصر نهائي على الجميع، واحتلال المحافظة بالكامل، وإعلانها عاصمة مركزية لما دعي لاحقاً بمركز الخلافة التي أعلنتها داعش في الرقة .. فإن شاهد الحقيقة التي لامناص من ذكرها، يجب أن يَحتسِب حقائق موثقة من أرض المعركة مباشرة، حقيقة تؤكد على أن عدد مقاتلي داعش في جميع المحافظة، أول بدء تلك المعركة النهائية، لم يكونوا يتجاوزون الثلاثمائة إلى أربعمائة مقاتل، بينما كان تعداد عناصر لواء ثوار الرقة وحده، والمسجلين تحت السلاح، يقارب 1500 مقاتل، مضافاً إليهم مقاتلي جبهة النصرة المتحالفين معهم، ومقاتلي أحرار الشام الذين يزيدون عن 800 مقاتل. فكيف تَحصَّل أن انهارت كل هذه القوى بالتتابع، كسقوط أحجار الدومينو؟ وماهي أسرار ذلك الإنهيار؟ وهل كان مقاتلو داعش أقوياء و"خارقين " إلى مستوى(سوبرماني) الطبيعة، ولا طاقة لكل هذه القوى بالتصدي لهم؟

قبل الجواب على السؤال السابق، لابد من التأكيد على حقيقة مؤكدة، ومستخلصة من خبرة موضوعية وتجربة موثقة؛ وهي أن عناصر ومقاتلي داعش كانوا من حيث الكفاءة القتالية أجبن من عناصر مقاتلي الجيش الحر، وأوهن مقدرة في المواجهات المباشرة معهم.. هذه حقيقة مؤكدة، وبالمستطاع البرهنة عليها وتوثيقها بسهولة، ونحن هنا ننقل خبرة محددة ومن تجربة خاصة بمحافظة الرقة، وربما تكون هذه الخبرة غير جديرة في التعميم على محافظات أخرى ومناطق أخرى، فإذا أضفنا إليها أن90% من القوى التي كانت تشكل الحشوة القتالية الرئيسية لدى داعش، هم من عناصر سابقين في الجيش الحر والفصائل، وقد انشقوا عنه أو خانوه أو طُردوا منه قبل أن يلتحقوا بصفوف داعش في أوقات مختلفة.. إذا استحضرنا هذه الحقيقة وجب الإقرار بأن مقاتلي داعش ليسوا"سوبرمانات"هبطوا من السماء كما يتوهم البعض، وإننا نكون بذلك قد حَيَّدنا جانباً فكرة ربما تطيفت في أذهان كثيرين، وهي أن داعش تمتلك قوة ذاتية لا يمتلكها الآخرون، وأن المجابهة معها ربما تكون أصعب وأشد عسراً من سواها.. فالجواب على السؤال السابق لابد إذن أن يلحظ الإستنتاجات التالية:

حجم الوهن في تركيبة قوى الثورة المقاتلة، ومقدار الضعف الأصلي الذي كان يكتنفها في الإمكانات الذاتية والموضوعية على حد سواء.. هذا الضعف البنيوي الموضوعي قد يحيلنا إلى تشبيه مؤكد يقارب الفكرة، وهو أن الجرثومة القاتلة حين تفتك بجسم واهن ومترهل بحجم الفيل، لا يمكن والحال كذلك نسبة"شجاعة استثنائية"، و"تفوق غير عادي" للجرثومة قدر ما يحثنا الإغراء للتفتيش عن مقدار ودرجة المناعة الكامنة في جسد ذلك الفيل، إن توهم تلك القدرات الإستثنائية لتلك الجرثومة ليس بعيداً عما يُحيلُنا إليه الواقع من إقرار متوهَم وكاذب بشجاعة مقاتلي داعش و" قدراتهم الأسطورية".

يضافُ إلى ماسبق، أن حجم التفوق الإستخباراتي، والمقدرات غيرالعادية التي كانت تمتلكها داعش ربما يصح فيها القول بأنها"فوق عادية " بكثير، بالنسبة لقدرات القوى التي أعلنت عن نفسها كقوى مُحرِّرة في محافظة كالرقة، وأكثر من أن تتحملها طاقة محافظة بسيطة الطبيعة السكانية والتكوين والتفكير.. فلقد نظمت داعش قواها المتجهزة للتغلغل والاختراق بطريقة فوق طبيعية، وأصبح التقابل بين تكوينين: أولهما منظم ومهيأ، وثانيهما مهشم ومبعثر وتغلب عليه الفوضى الشاملة، يحقق هذه النتيجة الأكيدة، وهي أن داعش في الحقيقة، قد حسمت نصرها قبل إعلان النصر، بل وقبل دخول المعركة بزمن طويل.

اعتمدت داعش في بداية ذلك التغلغل والتسرب داخل المحافظة على خطة بسيطة ومبدأ بسيط: وهو أن تجتذب عناصرها وتكويناتها التي ستعتمد عليها لاحقاً دون أن تُضطرهم إلى إعلان الإلتحاق بها والإنشقاق عن تكويناتهم القتالية المنضوين تحتها، أو تحثهم على ترك القوى المنتظمين خلالها، من مدنيين وعسكريين.. بل الأصح أنها فرضت عليهم أن يبقوا داخل الصفوف دون أي إعلان عن انتماء ما، والمبدأ البسيط يمكن تلخيصه بالقاعدة التالية: (تعال معي وبايعني .. ولكن إبقَ حيثُ أنت في مكانك من الكتيبة أو التشكيل العسكري الذي تقاتل فيه)، وبذلك ضمنت نتيجتين: الأولى أن هؤلاء العناصر الذين انضموا إلى داعش، قد تحولوا إلى أمنيين وجواسيس للقوى المنظمة والمؤسسة لداعش منذ البداية..

هذا ما يمكن أن ندعوه جوهر وطبيعة الإختراق والثلم الخطير الذي ثلمته داعش في جسدٍ أَلِفَ الفوضى واستعراض القوة دون أن يمتلكها في الحقيقة.. والنتيجة الثانية، أنهم ـ خلايا داعش الكامنة داخل جسد الفصائل والثورة عموماً ـ شكلوا شرخاً طبيعياً في جسم تلك الفصائل التي كانوا ينتسبون إليها، ويُحسبون عليها.. ونفاقاً مُضمراً في الأداء والولاء ..فإذا أضفنا أن هذه القوى التي كانت تملأ ساحات المحافظة طولاً وعرضاً، تقعقع بالسلاح وتستعرضه فيما يشبه البهجة بالنصرالذي أحرزته على النظام، لم تكن تمتلك أية بنية أمنية كاشفة ومكافئة لما كانت تمتلكه داعش، وليست في وارد التصدي الإستخباراتي الأمني لذلك التغول السري المهول الذي لم تكن تراه ولم يخطر لها ببال؛ مجموع هذه العوامل التي رتبت الفشل، وهيأت بالتدريج لانتصار داعش، بالإضافة إلى عوامل أخرى كانت أشبه بنتيجة طبيعية وتحصيل حاصل..

على سبيل المثال، وحتى يكون مفهوماً حجم الإختراق الذي أحدثته داعش بنيوياً داخل جسم هذه الفصائل، سوف أستشهد بشاهدين: قبل يوم واحد من بدء المعركة الأخيرة مع لواء ثوار الرقة كان عدد المسجلين تحت السلاح والمتجهزين للقتال ضد داعش يقارب الـ 1500 مقاتل، وما إن بدأ القتال حتى أصبح العدد خلال ساعات400 مقاتل فقط، إذ تبخر1100 مقاتل خلال الساعات الأولى للمعركة، بعد أن أوعزت داعش للقوى التي نظمتها سراً بالإنسحاب والاختفاء، كذلك يجب أن نضيف بأن بعض هؤلاء"المختفين" فجأة من ساحة المعركة قد تحولوا إلى صف داعش، وشرعوا يقاتلون معها، (وبعضهم قادة عسكريون ومسؤولون أمنيون بارزون)، فضلاً عن أن بعض العناصر المؤثرين: كالأمنيين والإداريين، وبعض أهم القادة العسكريين، طلبت منهم قيادة داعش البقاء والإستمرار في صفوف اللواء لموافاتها بتفاصيل الأخبار، وإبلاغها بأحدث التطورات والمستجدات أولاً بأول، إلى أن تحين اللحظة المناسبة لإعلان انشقاقهم والتحاقهم بصفوفها لاحقاً ..

أما المثال الثاني فيتعلق بلواء أويس القرني، الذي كان من حيث العدة والعتاد، يكاد يكون الأول على مستوى المحافظة، فقد سلّم أسلحته وبعضاً من مقاتليه للذبح، دون قتال، ودون إطلاق رصاصة واحدة، وقرر أن يتبخر ويلغي نفسه بنفسه، دون أن يقدم تفسيراً لذلك حتى اليوم. اعتمدت خطة داعش الاستخباراتية إذن في السيطرة على المحافظة على منهج حركي ذي ثلاثة أبعاد: السيطرة على قاعدة عشائرية سكانية هشة، وتمتلك قابلية للإستقطاب بطرائق عديدة سنُفَصِّلُها لاحقاً، وعلى اجتذاب العناصر الإجرامية وتنظيم شخصيات مَرَضيّة"سيكوباتية" التكوين النفسي والاستعدادات النفسية، لإحداث حالة من الصدمة والترويع بين السكان، عن طريق مراكمة الجرائم والتفنن بأساليبها كماً ونوعية، وكذلك الحرص على استقطاب ذوي الصفات والكفاءات القتالية المميزة، وإفرادها بـ"مناصب ومكاسب شخصية "، مادياً واعتبارياً لهذه النوعية الأخيرة، والبعد الحركي الثالث كان يعتمد على غرفة عمليات سرية غير معلنة على الملأ، غرفة متصلة بجهات دولية قوية ونافذة، كانت تزودها بكل الإمكانات التي تحتاجها، ولسوف أفصل لاحقاً في فصل"الثورة والعشائر"، كيف استطاعت داعش أن تستقطب بعض الولاءات العشائرية بالتدرج وعلى مراحل، وتجيرها لصالح آلة دعايتها. مبتدئاً بالقاعدة السكانية لداعش، وكيف تمَّ استقطابُها في شمال الرقة أولاً، منطقة تل أبيض..حيث ولد هنالك جنين جبهة النصرة الذي تفرعت منه داعش واشتقت منه أولاً.

لو أننا سألنا داعش هذا السؤال نفسه: كيف انتصرتم على أهل الرقة وثوارها وهم كثرة كبيرة بينما أنتم قلة لا تذكر، فإنني أتوقع منها جواباً: (قيلَ للإمام عليّ: لِمَ لمْ تبارز أحداً إلا وقتلته..؟ فأجاب: لأنني ـ في ساعة مبارزته ـ أكون أنا ونفسه، جميعاً عليه). ومن حيث النتيجة والخلاصة النهائية لتقرير كل ماحدث على الأرض، فإن هناك خمسة أشخاص، يتحملون كامل المسؤولية عن تدمير الثورة والقضاء عليها في الرقة، وعن كل مالحق بالرقة من دمار وقتل وتهجير توالى على فترات لاحقة.. يجب أن يُعلن ذلك للتاريخ بكل صراحة عالية وشفافية وصدق مع الذات. وهؤلاء الخمسة هم: أبو لقمان أمير داعش في المحافظة، والحاج عبد الفتاح الشيخ عبد، قائد لواء أويس القرني، والدكتور سامر مطيران قائد جبهة الوحدة والتحرير، وعبد الرزاق شلاش مفوض الكتلة الأخوانية المطلق خلال سني الثورة الماضية من قبل الإئتلاف، في العمل والتدخل في شؤون المحافظة، وأخيراً المدعو "الخال" أبو معاوية، الشخصية الثانية في كتيبة حذيفة بن اليمان، والمسؤول الأول فيها. ولو أن واحداً ـ فقط ـ من هؤلاء الأربعة، انحاز إلى الرقة وثوارها وثورتها منذ وقت مبكر، لفشل الأربعة الآخرون بكل تأكيد، ولكانت الرقة الآن في وضع مختلف، ولكان علم الثورة ما يزال مرفرفاً حتى الساعة في ساحاتها.. وهذا الرأي الشخصي نابع من معرفتي الدقيقة والوثيقة بموازين القوى على الأرض، وكيف كانت تتفاعل أو تتحالف مع قوى الثورة أو تنأى عنها أو تناصبها العداء.. هؤلاء الخمسة، إن لم يكونوا وحدهم المسؤولين عن كامل تبعات الهزيمة المدمرة للرقة وأهلها، فهم بكل تأكيد، رأس هرم المسؤولية وذروته، مهما بلغت أعداد ومسؤوليات من قد يأتي بعدهم، أو على جوانبهم من حواشٍ في سلم هذا الهرم المتدرج.. واللافت للنظر أكثر، أن هؤلاء الخمسة كلهم كان يعتبر نفسه يعمل لصالح"الله" ومن أجله، وتحت راية الإسلام وفي خدمته.

عادة ما تستعين داعش في أولى خطوات تدخلها في أي مكان تخطط للسيطرة عليه في سوريا، بتشكيلات إسلامية وسطية، أو ذات مرونة وقرب من الوسط السكاني بالقدر المقبول، وبصورة أخص جبهة النصرة أو حركة أحرار الشام؛ فتبدأ مع إحداها أو جميعها افتعال معارك أو صلح أو تحالف أو تسوية من نوع ما، وهذه التسوية غالباً ما تضمر مقدمة مبطنة للغدر بقوى الثورة أو مقاتلي الجيش الحر.. وقبل أن تمضي قدماً في مخططاتها التالية.. بالنسبة لواقع كواقع الرقة، كان هذا الاحتمال ضعيفاً حتى فترة مابعد التحرير؛ وذلك لسبب بسيط جداً، وهو أن جبهة النصرة كانت من الوهن والضعف بحيث أنها لم تكن حتى في حسابات الجيش الحر كثيراً، فلم يتجاوز عدد مقاتليها يوماً، في فترة ماقبل ظهور داعش أكثر من مائة وخمسين إلى المائتي مقاتل في أحسن التقديرات، وبعد انشقاق داعش عنها، (وقد إنحازت اليها الغالبية الفاعلة في النصرة)، لم تتعدَّ أعداد جبهة النصرة يوماً حتى ساعة خروجها الأخير، وسيطرة داعش التامة على كل مقادير المحافظة، أكثر من خمسين مقاتلاً،(بمن فيهم القادة والإداريين غير المقاتلين).. أما تنظيم حركة أحرار الشام، فكانت أقل شاناً من ذلك بكثير، إذ لم تتجاوز كونها كتيبة صغيرة لا يتعدى أفرادُها الثلاثين فرداً ساعة وصولها الرقة، جميعُهم جاؤوا من محافظة إدلب، وأُعطوا مقراً في إحدى المدارس الصغيرة القريبة من ريف تل أبيض، وكانوا يستعينون في كل شؤونهم على مساعدة كتائب الجيش الحر القريبة منهم، حتى أنهم حين وصلوا الرقة لم يكونوا يعرفون طرق المنطقة وجغرافيتها.

الرقة من التحرير إلى التدمير إلى التبرير:

في الواقع إن وضع خطة السيطرة على المحافظة قد تمت على مراحل منفصلة، كلما اكتملت مرحلة أو حلقة من حلقاتها، يبدأ العمل بالمرحلة التالية قُدُماً.. وبهذه الصيرورة المتسلسلة أخذت الأمور مجراها تتوالى تباعاً.

1 ـ تبدأ أولى حلقات المرحلة الأولى من كتلة مصطفى الصباغ، الفاعل الأكبر في الإئتلاف، والمسؤول المتصرف بوحدة دعم المجالس المحلية، التي كانت تمولُها دول الخليج، خاصة قطر.. حيث اشتُغِل على صرف مبالغ مالية ضخمة من تلك الأموال، تمت تغطيتها تحت مسميات الإغاثة ودعم المجالس المحلية في المحافظة، وقد أوكلت برامج صرفها وتسليمها للمدعو"عبد الرزاق شلاش" الذي كان المفوض المطلق بشؤون المحافظة لدى الإئتلاف، أو تحديداً لدى كتلة الصباغ داخل الإئتلاف. فعمد عبد الرزاق الشلاش إلى تحويل المبالغ من أجل الإنفاق على تشكيل فصيل عسكري استقطب أعداداً كبيرة من أبناء المحافظة وشبابها تحت مسمى(لواء أمناء الرقة)، وذلك ليعفي الصباغ ويخلي يده من أية مسؤولية قانونية أو سياسية أو أخلاقية، وحتى لا يُرتِب الأمر مسؤوليات سياسية وقضائية في المستقبل، على ما قد ترتب مدياتها غير المنظورة، إلى حدود التهيئة والتعزيز لواقع مدمر للثورة بصورة مؤكدة، وداعم لقوى فاشية إجرامية فوضوية.. وهذا واقع ماحصل فعلاً، فهنالك جريمة، وهنالك جثة موصوفة، ولكن لا يوجد قاتل متهم.. المتهم الوحيد هو داعش، فإذا تمَّ البتُّ في إدانة داعش والحكم عليها، سقطت القضية بالتقادم وصفاً وتعريفاً، وانتهت إلى طيِّ الملف بالكامل وإلى الأبد..

كان المبرر الأولي والمبدأ الذي تمَّ السعيُ بموجبه لتبرير هذا الفصيل، هو أنه لن يقاتل النظام، ولن يشارك الجيش الحر في المهام القتالية لتحرير الفرقة 17 ومطار الطبقة واللواء 93، كما أنه لن يشترك حتى في تحرير الرقة إلا جزئياً، وببعض كتائب محدودة، وإنما سوف تكون مهمته الأساسية هي حفظ الأمن في المدينة، ومنع الفوضى وحماية المؤسسات والدوائر من أن تمتدَّ إليها يد عابثة، أو تتعرض مصالح الناس ومعاملاتهم وقضاياهم للسرقة أو التلاعب.. خاصة المحاكم والمتحف والبلدية والمصارف الحكومية ودائرة الأحوال الشخصية وغير ذلك.. ومن هذا المدخل، وتحت هذا الإغراء المثالي، تسابق كثيرٌ من شباب الرقة من ذوي النوايا الطيبة والمتحمسة للانضمام إلى لواء أمناء الرقة، حتى تجاوزت أعداده خلال فترة قصيرة نسبياً قريباً من ثلاثة آلاف عنصر شاب.

2 ـ هذا اللواء الذي سوف يلعبُ دوراً قريباً من دور ومهام الشرطة المدنية، كما يُفترض، وسوف يكفلُ كلَّ النظام العام في المدينة والريف، بحيث أنه لو تمت عملية تحرير الرقة، وسقط النظام والأجهزة الأمنية فيه، فإن عملية التحرير تلك سوف تمر بسلاسة يُضرب بها المثل في المحافظات الأخرى، ولسوف تُقدِّم تجربة مفيدة يحتذى بها لدى الثوار السوريين في كل مكان، وقد تمَّ انتخاب هيئة مدنية للّواء، تكون هي مرجعيته المدنية والعسكرية، كما تمَّ اختيارُ رجلٍ طيب ومقاتل مقدام، ذي سمعة حسنة وحضور ممتدح في ذاكرة الناس جميعاً، هو عبد المجيد العيسى، المعروف باسم(أبو طيف)، لمسؤولية القيادة العسكرية وكافة المهام القتالية التي تناط باللواء مستقبلاً..

3 ـ الخطوة التالية تكون، بالتوافق والتخطيط، بين كتلة الاخوان والدول الخليجية الداعمة لكلا الطرفين، على أن يشرع لواء الأمناء بمبايعة حركة أحرار الشام، (وهي الكتيبة التي لا تتجاوز الثلاثين عنصراً كما ذكرنا)، بذريعة أن لواء الأمناء هو فصيل مقاتل محلي، على مستوى محدود لا يجاوز الرقة، بينما تنظيم أحرار الشام هو مشروع الأمة المقبل على مستوى سوريا بكاملها، ولذلك وجب أن ينضمَّ الفرعُ إلى الأصل، وهذا مقبول ومنطقي، ولا يمكن المماراة فيه أو الجدال؛ وهكذا ينضوي اللواء بمن فيه تحت قيادة الحركة، التي كانت لاتعدُّ سوى بضعة عناصر غالبيتهم قياديون وإداريون. وبذلك ربح تنظيم أحرار الشام الآلاف من شباب الرقة(مجاناً بدون أي رأسمال). وتحول بين ليلة وضحاها إلى الفصيل المقاتل رقم واحد في المحافظة، بعد أن كان حتى أيام مضت كتيبة لم يسمع بها أحد على مستوى المحافظة..

4 ـ يتم التوافق، وبتخطيط من نفس الأطراف التي قامت بدمج لواء الأمناء وتحويله إلى"صندويشة" في فم أحرار الشام، على مبايعة أكبر وأهم قوتين عسكريتين على مستوى المحافظة لتنظيم أحرار الشام،(وبنفس الذريعة السابقة التي تمَّ دمجُ لواء الأمناء قبلها في تنظيم حركة الأحرار): لواء أويس القرني، وكتائب أحرار الطبقة، واللواءان تمددا على كامل المحافظة وإن ظل مركزهما مدينة الطبقة.. وكلا اللوائين كان متوفراً لهما الدعم أكثر من جميع فصائل الثورة، حتى امتلكا في فترة من الفترات مايقرب من قدرات جيش صغير. وهكذا تحولت حركة أحرار الشام إلى قوة لا يمكن منازعتها على مستوى المحافظة، بعد أن تكون قد استوعبت كل الحامل البشري والفاعل الثوري والسكاني لجميع أبناء المحافظة.

5 ـ الخطوة التالية تكون باستبعاد وإقصاء قيادات الأمناء، أو تهميشهم أو محاصرتهم بطرائق مختلفة، وإلجائهم إلى التنحي عن العمل العام أو الهجرة خارج المحافظة أو غير ذلك، بعد أن تكون قد استقطبت قاعدتهم الجماهيرية وكوادرهم الفاعلة، وذلك حتى لا يصبحوا رقماً مركزياً صعباً أو متميزاً في القرار الفاعل والمتصرف داخل حركة أحرار الشام.. ومن سوف تتعذر تنحيته أو يصعب تهميشه، تتولى داعش لاحقاً تصفيته جسدياً بطريقة من الطرق، كما جرى لأبو طيف رحمه الله.

6 ـ بعد ذلك تتحالف حركة أحرار الشام مع جبهة النصرة، وتنسقان العمل سوية وسراً، مع الإبقاء على مسافة مابينهما، ومهاجمة تنظيم داعش هجوماً لفظياً شتائمياً على الملأ، وذلك لملء فراغ البروباغندا الدعائية بما يكفل الحفاظ على الحاضنة الشعبية في حالٍ من الطمأنينة والالتفاف حولهما، دون ريوب أو تشكيك بمقاصد النصرة والأحرار. وخلال هذه المرحلة من التنسيق السري بين الأطراف الثلاثة، تكون داعش قد بدأت خطواتها بالتدريج في قضم القوى الثورية المدنية والمسلحة على حد سواء، ويتكفل الحليفان الاحتياطيان بالتدخل والمساعدة كلما وجدا فرصا سرية غير معلنة لدعم وتعزيز موقف داعش، مع الإبقاء على مستوى من التنسيق السري الأمني فيما بين جميع الأطراف.

وسأضرب مثالاً واضحاً على طبيعة التنسيق السري بين هذه الأطراف؛ وذلك بعد أن تم تشكيل الهيئة الشرعية المُلزِمة القرار بالأكثرية، حيث قضت الهيئة على سبيل المثال بتخصيص عدد من المقاتلين على جبهة الفرقة 17 واللواء 93. فكانت حصة أي لواء في الجيش الحر مابين 10 إلى 15 نقطة رباط. كل هذا العبء غير المشعور به كانت غايته تثقيل القوى المسلحة بمزيد من الإنفاقات، وتقليص إمكانياتها وذخيرتها. في المقابل كان تنظيم داعش يرفض أن يرابط على محيط الفرقة 17 إلا بنقطة واحدة قليلة العدد، وذلك لغرض استطلاع ما يحدث يومياً على مدار الساعة حول الفرقة، ولغرض التجسس على بقية نقاط المرابطة على تخوم الفرقة واللواء من فصائل الجيش الحر. وفي الثلاثة أشهر الأخيرة التي سبقت معركة الثلاثة عشر يوماً ضد تنظيم داعش، نصحت أبو عيسى قائد لواء ثوار الرقة بأن يرفض رفضاً تاماً المرابطة على تخوم الفرقة 17، وعدم هدر طلقة رصاص واحدة في هذه الأعمال العبثية المُقَنَّعة بقناع الواجب الوطني والثوري، وقد استجاب لنصحي لحسن الحظ، وإن تكن استجابته متأخرة وفي الوقت الضائع.. كما سأضرب أمثلة أخرى على التنسيق الأمني السري بين داعش وأحرار الشام فيما هو مؤكد: الأستاذ عبد الله الخليل، رئيس مجلس المحافظة، تولت خطفه حركة أحرار الشام ثم قامت بتسليمه لداعش. وكذلك الناشط الثائر ابراهيم الغازي، هو الآخر تولت حركة أحرار الشام القيام بخطفه وتسليمه لداعش. أما الجانب الأوضح والأخطر في التعاون بين أحرار الشام وداعش فسوف أفصل فيه في الجزء القادم، في فصل" خيانة أحرار الشام".

7 ـ تقوم داعش بافتعال معركة مع بعض القوى الكردية في شمال المحافظة، والتي كانت حديثة التسليح وفي بداية تكويناتها القتالية، وبالتحريض عليها بطريقة شعبوية عاطفية وعنفية، تتلاعب بمشاعر التخويف منها ومن نواياها الإنفصالية في هذه المرحلة، بذلك تضمن أكثر من ورقة، واللعب على مجموعة فرص سوف تستفيد منها لاحقاً: 1 ـ تكون قد شغلت سكان المحافظة وقوى الثورة جميعها، خاصة القتالية منها، عن النظام ومخاطره بالاشتغال على جبهة جديدة مفتعلة لم تكن موجودة أصلاً. 2 ـ تكون قد استنزفت كل فصائل الثورة المسلحة، وأهدرت احتياطيها من الذخائر الموجودة، والمحدودة أصلاً في هذه المعركة السخيفة والفقيرة المضمون، حتى يتسنى لها لاحقاً أن تنفرد بها وقد خسرت معظم ذخائرها في معارك مجانية لا طائل منها. 3 ـ يكون الشرخ قد بدأ بالاتساع شيئاً فشيئاً بين القوى العربية والكردية، والثقة قد بدأت بالتناقص، والريبة أخذت بالتزايد، ويتم التحريض على كل الشباب الأكراد في التنسيقيات والحراك المدني والمقاتلين في الجيش الحر، والتشكيك بوطنيتهم وثوريتهم بطرائق مستفزة، الأمر الذي سيدفعهم إما إلى الإلتحاق بجبهة الـ"pkk" الناشئة حديثاً، أو في أحسن الأحوال إلى تجرع مرارات خيبة أمل من الثورة والثوار، والتخلي عن المشروع الثوري والوطني بالجملة، ومغادرة صفوف الثورة على شكل هجر جماعي.

ومعظم أهل الرقة، ما يزال يذكر الحادثة الأولى المفتعلة، التي أقدم عليها المدعو خلف ذياب الحلوس، حيث أرسل بالأخبار بأنه قد هوجم من قبل عناصر الـ"pkk"، وأنه متحصن في إحدى المدارس المهجورة، وهو ينوي تفجير نفسه بهم، وقد استعد لفتح حزامه الناسف بنفسه وبمهاجميه، (والواقعة صحيحة حكماً، غير أن مهاجميه المجهولين لم يتجاوز عددهم الأربعة أو الخمسة أشخاص)، وقد بعث في طلب النجدة إلى كل الفصائل المسلحة في الرقة، تسبقه التهويلات والأقاصيص الملفقة.. مما أجبر تحت الضغط والتشهير والإكراه، كل فصائل الجيش الحر تقريباً على الخروج دفعة واحدة لنجدته، وعند وصولهم إليه زعم بأنه تمكن من تخليص نفسه والفرار من محاصريه، مما يُذَكِّر كثيراً بقصة الراعي الكذاب المعروفة التي تروى للأطفال..

8 ـ تتم السيطرة على كل مقدرات الرقة المادية، العينية وغيرها؛ من أموال سائلة وآليات وآبار نفط، والأسلحة الخفيفة والمتوسطة والذخائر، من قبل كل فصيل بات في حكم المُسَيْطَر عليه واقعاً، وفي اللحظة المناسبة والمطلوبة، يقوم كل فصيل بتسليم كل هذه الأسلحة والأموال الطائلة لداعش في التوقيت المناسب، وبذرائع مختلفة: فقد قام لواء أويس القرني بتسليم أسلحته وحقول النفط التي يسيطر عليها، وكل مالديه من إمكانات مادية، بما فيها تسليم بعض المقاتلين داخل صفوفه، (بذريعة درء الفتنة، وبحجة شرعية مفادها أنه لا يجوز لمسلم أن يرفع سلاحه في وجه أخيه المسلم)، وقد حرض قبل هذا التاريخ أولئك المقاتلين ـ بعد حل اللواء ـ على مبايعة تنظيم داعش، بينما تم اختراق لواء المنتصر في أعلى قياداته الأمنية والميدانية الذين انحازوا إلى تنظيم داعش، ومعهم كل ما جمعه اللواء من سلاح متوسط وخفيف. أما جبهة الوحدة والتحرير، فقد تكفل الدكتور سامر بتفكيكها.. وهكذا، على مراحل متعاقبة، انتقل كل ما جمعته الوحدة والتحرير من سلاح وآليات إلى تنظيم داعش.

أما تنظيم حركة أحرار الشام، والذي شارك داعش والنصرة في اقتسام أموال المصارف التي تمَّ تفريغها من كل مدخراتها منذ أول أيام التحرير، كما تشارك أخوة المنهج في سرقة كل آثار الرقة المحفوظة في المتحف، فضلاً عن معمل السكر ومستودعات الحبوب والأعلاف وآليات ودوائر الدولة جميعها، فقد بدا أنه قد تمَّ تداول بعض الأوامر الصادرة من أعلى قيادته، بمناسبة شكاية الموظفين والعاملين في الدولة، واحتجاجاتهم وضغوطهم المستمرة من أجل صرف رواتبهم الشهرية التي تأخرت بضعة أشهر، والمطالبة برواتبهم بعد أن وصل العجز ببعضهم إلى عدم القدرة على شراء ربطة الخبز لعائلته المتضورة جوعاً، بدا بأن حواراً داخلياً كان يتم تداوله داخل تنظيم أحرار الشام، فيما يخصُّ اقتراحات بإعدام بعض السجناء والأسرى، وبعض المدنيين بتهم وذرائع مختلفة، حتى يبثوا الرعب في قلوب الجميع، فلا يجرؤ أحدٌ على المطالبة براتبه بعد اليوم.{راجع الوثيقة في الهامش(1)، وقد تمَّ الحصول عليها من أرشيف المكتب الأمني للأحرار بعد مغادرتهم السريعة للمحافظة، على إثر تسليمها لتنظيم داعش}.

9 ـ أما كتيبة/لواء حذيفة بن اليمان، فقد أصبحت منذ وقت مبكر رصيداً احتياطياً مضموناً لتنظيم داعش، بعد بيعة أبو حمزة الشامي والخال أبو معاوية المبكرة للتنظيم، وهي عند الضرورة، بكل ما تملكه من مقاتلين وسلاح وآليات وأعتدة، رهنُ أوامر التنظيم وتحت تصرفه.. وبعد التخلص من لواء أحفاد الرسول، الذي اضطُرَّت داعش إلى مجابهته بالقوة واستئصاله من المدينة نهائياً، مع استبعاد كتائب الفاروق، ذات الطابع العصاباتي في طريقة تجمعها، والمفككة أصلاً وعديمة الفاعلية القتالية، إذا تمّ صرفُ النظر عن جميع هؤلاء وإسقاطهم من الحسابات، لايبقى من القوى القتالية الحقيقية للثورة واقعياً ـ بالطبع إذا نَحّينا أحرار الشام وجبهة النصرة جانباً من حساباتنا ـ إلا لواء الناصر صلاح الدين ولواء ثوار الرقة.

10 ـ أما لواء الناصر صلاح الدين، فلايمكن تصفيته إلا بتصفية قائديه ورمزيه العسكريين: أبو محمد النشمي وأبو يزن، وفي حال نجاح هذه الخطة، فإن اللواء كله سوف يسلم نفسه وسلاحه خلال أقل من ساعة. وهذا ماكان بالفعل، إذ بعد أن نصبت داعش كميناً للنشمي وهو يحاول الخروج من المدينة، متوجهاً إلى عكيربات في ريف حماة ـ لينقذ اللواء ـ تم استدراجه ثمَّ خطفه وتصفيته لاحقاً، (قام أبو لقمان بإعدامه بيده كما صرح بنفسه). وكانت حادثة تصفية أبو يزن المشهورة قبلها، وإن لم تودِ بحياته، إلا أنها أدت اضطراراً إلى انتقاله على الفور لإسعافه في تركيا وقد أصيب بعطب وجرح خطير، ولم يعد بعدها إلى الرقة نهائياً.

أما أغلب الأشخاص الإشكاليين الذين التحقوا بصفوف الناصر صلاح الدين؛ من متهمين بسوابق إجرامية ومنشقين عن النظام مشبوهين أصلاً، والذين كان أبو يزن ـ سامحه الله ـ قد حرص على"إصلاحهم وتوبتهم" كما توهم بضمهم إلى صفوف اللواء، فقد تحولوا في تلك اللحظات المغرقة في الحرج والضعف إلى سيوفٍ عليه، لا له.. وقد استغلت داعش الفرصة، فقبضت على أحد أولئك المشبوهين الإشكاليين في اللواء، وهو المدعو"زياد أبو شعيب"، فأجبرته على الإفادة بتصريح تحت الإكراه، نسب فيه لنفسه كل ما ارتكبته داعش من جرائم خطف واغتيال، (والمؤكد أن كل التهم التي اعترف بها زياد أبو شعيب كانت داعش قد سبقت في ارتكابها على فترات مختلفة) بذريعة تعاونه مع النظام، بعد أن أصدرت فيديو باعترافه،(2)، غسلت يديها بهذا الفيديو من كل الجرائم التي اتهمت بها، لتحول كل ملفات الإتهام بحقها، ويالللعجب..!! إلى مسؤولية هذا الشاب البسيط زياد أبو شعيب.

الثورة والعشائر(1):

هنالك مميزان أساسيان قد يجمعا ما بين تنظيم داعش والعشائر، وهما نفس المميزَين اللذين يفرقان مابين العشيرة الرقاوية والثورة والثوار؛ وهو أن كلا التكوينين ـ العشيرة وداعش ـ يتغذيان من نسغ الماضي ويتعيشان عليه، وإن كانت العشيرة تتمظهرُ شكلاً في صيغة"صلة دم ورابطة قرابة"، بينما تتمظهرُ داعش في صيغة"رابطة دين وصلة بالغيب تحقق لها سعياً نحو الهيمنة على المجتمع، وتمنحها مفتاحاً للسيطرة والتغول. هذه أولى الميزات، أما الثانية فهي أن كلا الصيغتين تعيشان اغترابهما الخاص، كلٌ بطريقته الخاصة، عن الواقع والعصر الحديث ومفاهيم الحياة المعاصرة. فهما بهذا المعنى كينونة مضادة للثورة والحرية والديمقراطية في الشكل والمضمون.

ولكن كيف تفاجأت العشيرة بالثورة، وهي تنهض من سباتها الطويل، وتستفيقُ من نومها التاريخي على أحداث متلاحقة سريعة الوقع، وتحتاج إلى صيغة ردود أفعال محسوبة في ظروفها، بحيث تتكيف مع واقعها غير المألوف الذي ألفت نفسها في مواجهته..؟

كانت العشيرة تعيش أسوأ أيامها، وتتبدى مضطرة في أردأ أدوارها التاريخية. وأبدت عجزاً عن الشراكة والمساهمة في عصر العولمة وتبادل المعلومات، ففي أطوار تاريخية متلاحقة شهدتها سوريا، أصبح للسوق والربح السريع ـ بكل مظاهره وأشكاله، ومنها منظومات الفساد والشراكة مع السلطة أفراداً وجماعات ـ الدور الحاسم في تشكل علاقات الناس ببعضهم، كما كان لتراجع الاقتصاد الزراعي"المغلق"، القائم على التعاونية الأهلية، والتآزر الجماعي بين الأفراد والجماعات المتماسكة برابطة القربى،(وهو ما كان يغذي عصب العشائرية بأمصال قوتها)، وحلول صيغ اقتصادية متدخلة؛ كالمصرف والجمعية والعلاقات المميزة بالسلطة وفروع الأمن المختلفة، ودخول جماعات مهاجرة وكثيرة من غرباء وفدوا واستوطنوا المدينة، وصنعوا شراكاتهم الخاصة بهم، وتفوقوا في القدرة على المنافسة وتنوع أشكال الربح؛ كل ذلك كان معولَ هدمٍ بطيءٍ غير مشعور به للكيان العشائري القائم منذ عشرات السنين على صيغة مفردة ويتيمة، هي صلة الدم والقربى.. والتي لم تعد تتظاهر بشكلها الهوياتي إلا عند اللزوم والحاجة إليها، وفي مناسبات خاصة، لم يعد المجتمع يحتاجُها كثيراً وبصورة يومية، مما أدخل العشيرة ـ الرقاوية والسورية في سواء واحد ـ مدخل المنازعة المستميتة في سبيل البقاء، وجعلها تُغير من مظاهرها الخارجية وتتنازل عن كثير من مضامينها القديمة، في معركة الوجود التي كانت تبدو لها في حكم الميؤوس من الظفر فيها..

حين اندلعت ثائرة الثورة السورية، وجدت العشيرة نفسها مضطرة أن تختبئ أحياناً خلف مسميات"الجيش الحر وكتائبه" المختلفة، لتتمظهر في شكلها الجديد الذي بات يدعى "كتيبة مقاتلة لعشيرة كذا، أو لواء العشيرة الفلانية". وفي أحيان أخرى اختبأت خلف قوات النظام وكافة تشكيلاته المتعددة، والتشبيح له. وفي مراحل لاحقة، بعد ظهور داعش وقوات سوريا الديمقراطية" قسد"، لجأت إلى نفس الحيلة المحفوزة برغبة البقاء ومدافعة الإندثار التام.. مع ملاحظة أن كل هذا اللجوء غير الشرعي، والرحيل المتخبط بين الثورة والنظام، وبين داعش و"قسد"، كان خياراً لأفراد وشخصيات، استساغوا أن يقدموا أنفسهم بصيغتهم العشائرية وتعريفهم الهوياتي، الذي يمكن احتمالاً أن يمنحهم قبولاً ما في هذا السياق.

توازعُ الأدوار في مرحلة الثورة بين الثوار والقوى المحيطة بهم جاء مخيباً للأمل، في شتى الصيغ التي تمظهرت بها العشيرة، وتبدى كتمثيل فاشل وموهبة فقيرة.. فقد انكشفت العشيرة على هزال غير مسبوق لقرار اجتماعها، وتفتت في صيغتها الاجتماعية، حتى أنه ليخامرنا بعض الظن بأن العشيرة واقعاً لم تكن أكثر من جسد ميت، سرق هويتَه الشخصية بعضُ الأفراد، وأنشأوا صلة خاصة بهم/ولهم وحدهم، في هذا المحيط المتطاحن من حولهم، إما رغبةً بالبقاء أو أملاً ببعض فُتاتِ المكاسب التي كانت تهبط إلى مستوى شكلي اعتباري، لا يخفى على الآخرين، كونه مظهراً بلاجوهر، واعتداداً شخصياً مؤقتاً وأجوفَ. كما لا يمكن أن تفوتنا ملاحظة أن انتقال بنية المجتمع السوري، والشرق أوسطي عامة، للدخول في الحداثة والمجتمع العصري تغدو متعذرة وشبه مستحيلة إن لم يبادئ أولى خطوات هذا الانتقال، قرارٌ بتجريم الانتماء إلى العشيرة أو ادعائها تميزاً عن الآخرين، لا لأن العشيرة اليوم تحمل في مضامينها معنى عنصرياً مضمراً أحياناً، وحاداً فج الظهور أحياناً أخرى، فهذا ربما كان أهون شرّها وأخفه ضرراً، بل لأن هذا المعنى، بالإحالة إلى مستوى من الصحة النفسية والعقلية يعد تلبيساً مجتمعياً على الهوية التحديثية للمجتمع، وشهادة زور مفضوحة يجب أن يحد القانون من نفوذها لما قد تورثه من ارتباك وفوضى في مجمل حالة التقدم الإنساني والترقي الإجتماعي.

في جميع المواجهات الوطنية الكبرى كانت السلطة وقوى النفوذ تلجأ إلى العشيرة لتتقوى بها في السابق، أما في مثال الثورة فسوف نلاحظ المشهد معكوساً، لقد التجأت العشيرة إلى الثورة في فترة استعلاء المد الثوري لكي تتقوى بها على جمع شتاتها. والمجتمع السوري، ومن بينه الرقاوي ضمناً، استقال منذ زمن طويل عن الحاجة إلى الإنتماء، فهو قد بات يعيش مكتفياً ومستغنياً في ظروفه الخاصة وبطريقته الخاصة عن الدولة ذاتها، والتي افتقدها منذ عقود، وأصبح العيش بمبدأ"دبر رأسك كيفما اتفق"، هو قانون أعلى يحكم العلاقات والانتماءات والروابط. وبفهمنا السابق على كل النتائج المستخلصة، من أن العشيرة لم تكن أكثر من"كيان قائم في المخيلة الجمعية" لا أكثر، وهو في أحسن تجلياته الموضوعية، صلة دم وقربى؛ تتضاءلُ قيمتُها كشيءٍ يُنْتَفَعُ به في منعطفات الحياة الإجتماعية التي كانت تضطرب وتتقلب في سوريا الأسد، حيث لا يُسمَحُ للعندليب أن يُغردَ ويصدح إلا بأوامر وتعليمات المخابرات، فقد أصبحت العشيرة منذ وقت طويل في مواجهة مع التفكك المطرد، بحكم التطور التاريخي الصارم، وهي تبحث عن كل ما يمكن أن يحافظ على بقائها موضوعياً مما يصطرع من نزاعات حولها..

تمَّ تضخيم دور العشيرة كثيراً لصالح دعاوى اجتماعية مرسلة، لا حامل بشري أو سكاني مُتَسَيِّد في المكان يمكنه أن يستجيب لتلك الدعاوي، التي تملأ فراغ الفوضى.. إنها صلة قربى غامضة بدأت تفقد مضمونها بحكم تشابك العلاقات وتَحَكُّم بنية مجتمعية من

خارجها، تسلطت عليها وتحكمت بها. حتى أن بعض "شيوخ العشائر"، من ذوي الوزن والقبول النسبي، قد أصيبوا بسكتة نطق فجائية بعد انفجار الثورة، فلم ينطقوا بحرفٍ خلال سبع سنوات الثورة التي مضت، رغم أن الواقع الذي يُعَرِّفُ هؤلاء "الشيوخ" في الاستدلال، يكرر علينا دائماً بأنهم أهل الرأي والمشورة بين الناس، حين يُفتَقَدُ الرأي وحكمة الجماعة، وحيث تُفتَقَدُ السياسة المجتمعية الضابطة لقيم الجماعة، ويعلو شأن السياسة التي تقود الجموع وتوجهها. ولن أقف عند بعض الحمقى من مدعي الرئاسة في عشائرهم، أومتوهمي الوجاهة وضخامة الذات، والذين استعاد بعضهم دورة التاريخ في استبطانات خفيفة ومثيرة للشفقة، من تعدد المواقف وتقلب الآراء والأمزجة، فأجاد في "إسقاطاته الجاهلية" أيما إجادة: "أبناء عشيرتي هم الثوار، وهم الجيش الحر عند الحاجة، وشطرٌ من أبناء عشيرتي في صفوف "قسد" وداعش، وشطرٌ آخر منهم عند النظام.." وخيرُ ما يمكن أن يقوله هؤلاء بلسان الحال، لا المقال، في هذه المناسبات: (إن نبي"ربيعة" الكذَّاب خيرٌ لنا من نبي"مضر" الصادق). هذا جزء من إرث فولكلوري يتساوق مع نظرتنا إلى بعض من يحبون أن نسميهم "شيوخ"، وهم الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسرون..

في الأيام الأولى من بدايات الثورة، لم يكن التفريقُ وارداً بين الثوار فيما بينهم، لا بالمعنى الديني ولا بالمعنى العشائري، كان المجتمع كله إما ثواراً أو مؤيدين للنظام، أو طرفاً ثالثاً محايداً متردداً يحاول كلا الطرفين كسبه إلى جانبه. لم تخطر ببالنا فكرة الإسلاموية أو القومية أو العشائرية قط. ولا كان ممكناً لها أن تخطر مجرد خاطر عابر.. كانت المظاهرات وعاء احتوى الجميع وصهرهم، في انفعالات الشعارات التي كانت تترقى وتبتكر كلّ يوم وأسبوع أساليبها الخاصة ولغتها الاستثنائية في التعبير عن الاحتجاج، حتى انصهر الجميع في حُمَيَّاها وسكروا بانفعالات خمرتها ذات السطوة.. وكانت العشيرة تنظر بذعر وهي تشاهد المشهد غير المسبوق، سواء في الرقة المدينة أو في الريف. وهي التي كانت في أزهى طاقاتها وفخرها وخُيَّلائها ـ خلال حقبة البعث أو داعش أو هيمنة ميليشيات قوات حزب الاتحاد الديموقراطي YPG ـ لم تكن يوماً في وارد إمكانية تؤهلها لأن تتصدى أو تتحدى مجرد قرار من سطر واحد، يخطُه رئيس فرع أمني، أو أمير داعشي، أو مسؤول في "قسد" بترحيلها أو تهجيرها أو تفكيكها بطريقة من الطرق، ولذلك لا يُذكر في تاريخ عشائر المنطقة خلال نصف قرن مضى، أي اجتماع على موقف خارج التأييد والمباركة، والتماهي مع سلطات القوى المهيمنة ومبايعتها على الواقع كما هو، دون اقتراح أي تفاصيل جديدة لهذا الواقع أكثر من خيار تعزيزه والانغماس فيه، مقابل ميزات إضافية شخصية، أو عائلية لبعض وجهاء تلك العشائر. حتى تقديم الذبائح ونحر النعاج ،على شرف الأقوياء والمهيمنين وذوي النفوذ والقوة، وهو أبرز رموز المباهاة التي يحلو لهذه الكتل السكانية التي ما زالت تعيش الماضي حاضراً في واقعها، حتى هذا الدور الطقوسي، يماثل في رمزيته ما يختزنه معنى "تقديم القرابين" ونحرِها للآلهة، تعبيراً كثيفاً عن "عبادة الأقوياء"..

مرجع هذا الاستخذاء هو تفكك البنية الداخلية للعشيرة، بكونها كانت تحاول أن تلعب دوراً شبيهاً بدور الحزب السياسي، قائماً على رابطة النسب والدم. كما كانت تلعب دور "ديانة بديلة"، أو معتقدٍ يحض على ولاء غامض، يوهم بالتجمع والتكتل لمقاومة أخطار مفترضة. هذا التفكك، والانشطار التضادي بينها وبين المجتمع المدني الحديث، كان يحيل دوماً إلى خلاص فردي، وروح فردية وأسرية ضيقة، على حساب الانتماء إلى دائرة عشائرية واسعة الطيف، دائرة لم يبقَ منها إلا فاعل انتمائي في ثقافة السكان والمكان، هو أقرب إلى استيهام الصورة منه إلى تلمُّسِها واقعاً. وإيماناً بوهم يَبذلُ كلَّ ماتبقى فيه من رمق أخير لتعزيز آخر الروابط الهوياتية التي كانت الجماعات المحلية تخسرها يوماً بعد يوم، وتفقد بفقدانها حتى مبررات الصلة التي تعزز ارتباطها بالمكان والمحيط.. لقد استحالت العشيرة إلى مايشبه البطاقة الشخصية القديمة المنتهية الصلاحية، والتي يحملُها المرء مع البطاقة الشخصية الجديدة والمعترف بها، خوفاً من ضياع الجديدة أو افتقادها فجأة، والاستسلام إلى مجهولية اللامعنى وعدمية التعريف.

ذكرت فيما سبق بأن بعض الأفراد، لا العشائر، قد حاولوا أن يسبغوا على شخصيتهم الاعتبارية صفة تعريفية، تقرن خياراتهم وانحيازاتهم وكأنها خيارات عشائرهم أو قبائلهم، مثل استساغة آل العكال، وهم بضعة أفراد أو عشرات من عائلة، أن يكونوا انطباعاً عاماً بأن خيارهم هذا في إدخال داعش إلى المحافظة والانتصار لها بكل ما ملكوا من وسيلة وإمكانية، وكأنه خيار "عشيرة النعيم" التي ينتمون إليها، مع أن "لواء عائشة" أيضاً، وهو من أوائل كتائب الجيش الحر، حيث معظم عناصره والمنتسبين إليه كانوا أيضاً من عشيرة النعيم. والأمر نفسه يقاس على عشيرة الناصر من الولدة، وعشائر العفادلة و"لواء المنتصر"، و"حذيفة بن اليمان" وعشائر وأسر التواذفة من أهل الرقة، و"لواء أحفاد الرسول" والسخاني، و"أنوار الحق" والتركمان.. كما أن أحد أبرز كتائب الجيش الحر التي قاتلت النظام في الطبقة، واستشهد عشرات الشباب منها على أسوار المطار، كانوا من "لواء العزة لله" الذي كان يقوده الشهيد "أبو طلال"، وقد كان سائر عناصر اللواء يتألفون من أبناء البكارة.

أما بالنسبة لتنظيم داعش وأنصاره من العشائر، فقد سبق أن شرحت كيف اتخذت جبهة النصرة بلدة سلوك مقراً لها في بداية تشكلها، وبعد ظهور داعش أصبحت بلدة سلوك تسمى"قندهار سورية"، وأبرز عشائرها الموالية لداعش كانت بعض أفراد أو عوائل من النعيم وطي. أما النعيم عموماً، وقرية كَنيطرة خصوصاً ـ قرداحة داعش كما تُسمى ـ فأبرز عشائرهاعشيرة "المطايرة"، ويُعتبر من أهم مجموعاتهم ما بات يسمى لاحقاً بجماعة صيدنايا، حيث بدأ نظام الأسد تصنيعه الاستخباراتي لهذه المجاميع من داخل سجن صيدنايا العسكري، وأبرز الشخصيات التي ظهرت في كنيطرة هم: ابراهيم العيدان الملقب"أبو الدرداء"، وهو الأمير المسؤول عن كامل ناحية السلوك، وابراهيم عيسى الحميش من عشيرة طي، من قرية"الهميلة"، وشقيقه حسن عيسى الحميش الملقب"أبو عمر"، وهو من أمراء داعش، وله أيضاً أخوة عناصر ومقاتلون في داعش: محمد وأحمد وحسين وأنس وعبد.

كذلك يُضاف إلى هذه المجموعة الشخص الملقب بـ"أبو تبوك"، وهو من قرية"عين السرامدة، عشيرة السرامدة"، وهو أبرز إداري في الشركَراكَ، ومن أقرباء المدعو"خليل حمد الجاسم" المعروف بلقب " أبو ابراهيم النائب "، و"خليل أحمد الجاسم" الملقب بالدكتور أبو البراء، وهو عنصر بارز لدى التنظيم، من عشيرة السرامدة ـ قرية عينة السرامدة من المنطقة الشمالية ـ ومن أقربائه أيضاً في قرية السرامدة، ومن أبرز عناصر داعش المدعو أبوعبيدة تفخيخ، "حسين الجاسم"، وأخوه "أبو حمزة الممرض، حسن الجاسم"، وهما توأم حقيقي لا تستطيع التفريق بينهما. كذلك هناك أبو عمار"صالح الرجب"، والشرعي"عبد الكريم الحمود"، أو كروم أو كرّيم.. وكذلك يمكن إضافة"أحمد الأحمد" إلى هذه القائمة، وهو من قرية "شيخ حسن"، أو "قرية بير سعيد" القريبة منها، ويدعى"أبوعائشة أمير سلوك".. أما "أحمد الخزيم"، المدعو "أبو حمزة العسكري"، فيُعدُّ من أبرز شخصيات التنظيم في منطقة سلوك، وهو من قرية كَنيطرة التي تبعد حوالي خمسة عشر كيلومتراً عن سلوك، و"عبد العزيز محمد العمر"، المعروف بلقب "أبو خالد الصخرات"، والذي كان في وقت سابق أميرحاجز الشركراك، وهو من أبرز أمراء داعش في قرية الشركراك، ومن عشيرة البوعساف في منطقة الشركراك، حيث درجت العادة على تسمية داعش باسم "دولة البوعساف" أو "دولة محمد العمر" نسبةً إلى "قرية صخرة محمد العمر".

الثورة والعشائر(2):

مجموعة الأخوة وأبناء العم والأقرباء(العكال)، هم أهم المجموعات السكانية من حيث رفد تنظيم داعش بكتلة صلبة ومتماسكة وقادرة على التأثير..والحق أنه لولا أبناء العكال لما استطاعت داعش أن تعبر إلى المحافظة بهذه السهولة، فلقد كانوا جسرها الوطيد الذي تغلغلت وانتشرت بوساطته إلى عموم محافظة الرقة.. أما أهم شخصيات آل العكال فيأتي "فايز العگال، أبو بكر"، و"فاضل العكال، أبو سعد الشمالي"، و"عمر العگال، أبو أحمد الشرعي"، و"وسيم العگال، أبو الوليد الدعوي"، و"ماهر العگال" و"عدنان العگال"، و"سليمان العگال، أبو المعتصم"، و"محمد العكال، أبو شهيد"، وهو عنصر التفخيخ الرئيس لدى داعش في فترة سابقة، و"علي سليمان العكال، أبو أنفال"، و"عبد الله حمد العكال، أبو الدور الأنصاري"، و"خليل أحمد العكال، أبو أحمد النعيمي"، و"خالد العكال، أبو الوليد الإعلامي"، أبرز إعلامي لداعش في مرحلة تكوينها الأول في محافظة الرقة، والناطق شبه الرسمي باسمها من آل العكال أمراء داعش، وهو شقيق" هادي العكال" الذي قتل في وقت مبكر أول ظهور داعش، في غارة لطيران النظام على منطقة المنخر، وشقيق"فايز العكال" الذي تولى إمارة منطقة تل أبيض في فترة سابقة، ثم أصبح والي الرقة في وقت سابق، وابن عم المجرم الأكبر في داعش"خلف ذياب الحلوس"، المعروف باسم أبو مصعب الأمني، الذي أفضنا في الحديث عنه في فصل سابق، والذي تردد في فترة متأخرة أنه هرب من داعش، والتجأ إلى مكان ما في إدلب أو ريف حلب.

يأتي بعد ذلك جماعة"الگنيطرة البلد والأطراف"، وأبرزشخصياتهم أبو مصعب، خلف ذياب الحلوس، وأبو حمزة العسكري، وأحمد الخزيم، وأحمد ذياب الحلوس، أبو بصيرالأمني، وهو شقيق أبو مصعب، خلف ذياب الحلوس، إضافة إلى كثيرين غيرهم..ثم جماعة"الخويرة"، و"نصف تل"، وهم أولاد حسين الشيخ، من قرية الشيوخ شرقي تل أبيض، و جماعة الگناص من الگنطري، وجماعة بئرعاصي، وعلى رأسهم أبناء الدللو .

أما قبيلة"طيء"، فعلى رأسهم جماعة الحميشات والجعفر، ومنهم: أبو مصعب الحميش، حسين علي الأحمد الجعفر، وشقيقه حسن الحميش..وحسين الجعفر المعروف بلقب أبو مصعب الأمني، هو من أخطرالأمنيين في منطقة سلوك، وهو يسكن في قرية"الهميلة"، وتردد كثيراً في الفترة الأخيرة أنه وصل بداية عام 2016 إلى بلجيكا، برفقة زوجته وابنيه علي ويامن، محاولاً الحصول على طلب

اللجوء في بلجيكا أو ربما في دولة أوربية أخرى، مع اليقين بأن هذا الشخص، حسين الجعفر، قد دخل الأراضي التركية عدة مرات، وعلى فترات متباعدة، بغرض القيام بأعمال تصفية جسدية لبعض ناشطي الثورة السورية.

أما "أبو عمر الباجدائي"، فهو من عشيرة البوظاهر، وأبرزهم عائلة اللايح، حيث أشهرالشخصيات الداعشية منهم"خليل أحمد اللايح"، الملقب أبو ابراهيم اللايح، وشقيقه "طلال أحمد اللايح"، وهو أمير داعشي من البوظاهر، يلقب بـ"أبو حيدر"، من سكان قرية"المختلطة" في بلدة سلوك، ثم انتقل من منصب شرعي إلى مسؤول مالي في سلوك، حيث أصبح في وقت من الأوقات الأمير المالي لمنطقة سلوك وما حولها.. خليل اللايح هذا، وبعد إحكام سيطرة داعش على كامل منطقة تل أبيض وعلى سلوك، هو الذي تولى مهمة الإشراف على تدمير منازل السكان من الثوار والمهاجرين والأكراد الذين طُرِدوا من المنطقة، وكان يساعده في المهام الإنتقامية هذه كلٌ من"مصطفى العمر، المعروف بلقب التمساح"، وأبو مصعب حسين علي الجعفر.. فكان، بحق ـ أي خليل اللايح ـ يشغل، ودون تسمية رسمية، منصب مسؤول سرقات المنازل وبيع المسروقات وتفجير بيوت الثوار.

كان خليل اللايح يعمل في السعودية، حيث عاد بعد تحرير سلوك وانضم إلى كتيبة القادسية، وكان من أوائل المبايعين لجبهة النصرة، ومن الخلية الأولى التي تشكلت منها داعش داخل الجبهة، وبالطبع دون أن يكون له أقل دراية شرعية أو مؤهلات معرفية أو قيادية يمتاز بها.. أبو مصعب، خلف الحلوس، هو من كان له الدور الأبرز في جذبه ومبايعته للتنظيم، وبعد ذلك عُيّنَ أميراً على سرية في تل أبيض خلفاً لخلف الذياب الحلوس في التعيين الأول، وبعدها عُيّن إدارياً في سلوك، والمفوض الرئيسي في أمور البيع والشراء، وخصوصاً صوامع الحبوب التي بيعت في المنطقة بإشرافه، والمولدات والجرارات والآليات.. حيث نال منها جراراً بعد كل تلك الجرارات المسروقة التي باعها ـ والتي يسمونها هم غنائمَ ـ كمكافأة له على ذلك الجهد العظيم الذي بذله لداعش، مع أنه كان رجلاً معدماً لا يملك شيئاً قبل الثورة، وكما يعرفه كل أهل المنطقة.. وبعد ذلك عُيّن نائباً لأبو المعتصم، سليمان العكال ـ أبرز أمراء داعش في المنطقة الشمالية، ومن مجموعة صيدنايا ـ وكان وقتها أميراً على سلوك.. كان أبو ابراهيم اللايح معروفاً بميله لجبهة النصرة أثناء ظهور داعش، إلا أن طموحاته وطمعه الشخصي هو ما قاده لمبايعة داعش، فقد كانت مطامعه الشخصية غالبة على طبعه.. ومن أقواله المشهورة حين سئل عن رأيه برد الظواهري، حين أصدر فتواه الشهيرة بفك الإرتباط بين الجبهة وداعش، أنه قال:
"الظواهري"خرف"، ويحتاج إلى دورة شرعية".

ومن عشيرة المشهورعموماً في سلوك، ظهر من الشخصيات: "طحري عبد الله الحسن" ـ من قرية شريعان ـ ويقال له أحياناً "طحري النَّرّي"، أحد شرعيي داعش من عشيرة المشهور، ويلقب أبو أحمد طحري، وقد صدر في مرحلة لاحقة قرارٌ بطرده من التنظيم بحجة مخالفته للأوامر، (وربما لإسناد مهمة أمنية جديدة له)، وهو من أبرز شخصيات داعش في الريف الشمالي، وممن ساهموا بإدخال داعش إلى المحافظة.. كذلك من عشيرة المشهور يُذكر مصطفى الذياب، أبوهمام، وأخوه سلامة الذياب، أبو ثائر، وعبد الله السالم، أبو خطاب، وهو أمير ومسؤول المحروقات في سلوك.. ثم الجماعة الذين يسمونهم عشائرياً بالطروديين، ومنهم: أبو جابر، أحمد صالح الجابر، و"التمساح"، مصطفى العمر، وجماعة الجرادي من بنـي محمد، من عشيرة الجيسات، وهم من سكان سلوك، من قرية مليحان، حيث يقطن أبو قيس الشنِّير، وأبرزهم: عبد المحسن الجرادي الملقب أبو زيد، وأخوه أبو مجاهد، وعبدالرحيم الجرادي، وبقية أخوتهم.. ثم جماعة البدو، وأبرز الموجودين ضمن داعش منهم جماعة"الشوكان"، الذين كان على رأسهم خليل الشوكان، أبوعبدالرحمن، وأخوه محمد الشوكان، أبو جاسم، وآخرون من آل الشوكان.. ثم مجموعة قرية الإرتوازية ومجموعة قرية الدروان وقرية الهباه.

أما "عبد الرحمن أحمد الشنِّير"، المعروف باسم "أبو قيس الأمني"، فهو من قرية مليحان، شرقي سلوك.. ويُعدُّ هذا الشخص من أخطر أمنيي داعش في الرقة، أصله بدوي من عشيرة الفدعان، وهو طالب في كلية الكيمياء، يرتدي دوماً نظارات طبية، ويعتبر العقل المدبر لكافة عمليات الإختطاف داخل الرقة وضواحيها. التحق في بدايات الثورة بكتيبة القادسية، سرية عمر بن الخطاب، لكنه بعد اتصاله سراً بتنظيم داعش أعلن تخليه كذباً عن العمل المسلح، في الوقت الذي كان ينسّق سراً مع داعش، وراح يردد في مجالسه الخاصة ـ تمويهاً ـ بأن عائلته تعارض بشدة التحاقه بالفصائل المسلحة، وأنه لا ينوي أن يبعد في نشاطه أكثر من العمل الإغاثي أو المساعدة الإنسانية.. انتقل بعد ذلك سراً إلى المكتب الأمني لداعش، بعد ظهور جبهة النصرة برفقة أبو النور وأبو حمزة، أنس البابنسي، وأبو حمزة رياضيات، وأبو هاجر، قبل أن يلتحق بهم أبو لقمان وأبو صهيب وأبو يوسف وأبوعلي الكردي وأبو بصير، وقد تم تعيينه أمنياً على

المهاجرين الذين كانوا يتوافدون حديثاً إلى المنطقة بدايات عام 2013، وتَقَصِّي أخبارهم ومتابعة شؤونهم، وكان له الدور الأكبر في تصفية الكثير منهم بسبب مراقبتهم وإبلاغ المكتب الأمني عنهم.

ويعتبر أبو قيس الشّنّيرمن أقرب الناس لأبو لقمان، وذلك لوجود صلة معرفة قوية بينه وبين أبو لقمان منذ القدم، وكان أبو لقمان لا يأمن على نفسه أن ينام إلا في بيت أبو قيس في مليحان، وقد قام بتسليم شخص يدعى أبو هزاع وأخاه لداعش حيث أعدما لاحقاً، وقد شارك في عملية الخطف بنفسه وبقيادة أبو ياسر العراقي. كما قام بخطف الشيخ"خليل المطلق" وبعدها قتله.. وهو من أكثر الأمنيين تخفياً وحرصاً على نفسه، وذلك من شدة جبنه وكثرة غدره بمن حوله، مع شدة العصبية في ميله إلى قبيلته وإلى البدو عموماً، ومع الشائع عنه في العموم بأنه شخص كذاب ومتسلق، ولم يشارك في أية معركة أبداً حتى اليوم.. مظهره الخارجي نحيف قصير ومتوسط الطول، وهو حليق اللحية، كثير المزاودة على الآخرين، ومنافق متملق من الطراز الرفيع.. ويذكر عنه أيضاً أنه شارك في وساطة قبلية، فكان صلة وصل بين داعش وشيوخ الفدعان من أجل البيعة، وقد ضغط على الفدعان، وعلى رأسهم الشيخ فيصل الدهام ومعزي العيد وسعد العيد، في سبيل بيعة داعش، وقد جمع الكثير من المعلومات حول أهم شخصيات البدو، ثم سلم الملف لتنظيم داعش.

أما عبد الرحيم الجرادي، المعروف باسم أبو مجاهد ، فهو أيضاً من قرية مليحان الواقعة جنوب تل أبيض والتابعة لسلوك، وهو من أمراء داعش الأوائل، ويقطن بلدة سلوك نفسها، ومن عائلة الجرادي الذين يدّعون أنهم من فخذ عشائري يقال لهم بني محمد، وهم فرع من قبيلة الجيسات، أحد أشقائه من أمراء داعش أيضاً، ويدعى عبد المحسن الجرادي، أبو زيد، وهو الرجل الثاني في أسرة الجرادي من حيث الترتيب، ويعرف عنه بأنه شخص بسيط وأرعن كثير الحماقات، وبارع في مجال النصب والإحتيال في أعماله التجارية، وقد ساعده على ذلك أنه صاحب محل جملة في بلدة سلوك قبل الثورة، وكذلك التحق بكتيبة القادسية في بداية الأمر، إلا أنه لم يشارك في أية معركة أبداً، ومن أشهر ما ذاع عنه في المنطقة، أنه قام بمشاركة أخوته في قتل شخص يدعى"علي الخلو"، خطأ كما يدعون.. كذلك ظهر من أسرة الجرادي، من سكان سلوك خالد الجرادي، أبو رياض، وهو من أشهر خبراء تفخيخ السيارات لدى داعش في موقع صوامع سلوك.

تم تعيين عبد الرحيم الجرادي إدارياً لدى المدعو سيء الذكر"فيصل البلّلو" في تل أبيض، وكان في الحقيقة جاسوساً لأبو لقمان على فيصل البللو، والي تل أبيض آنذاك، ومراقباً على الأموال والسرقات، وكانت مكافأته بأن قام أبو لقمان بإرساله إلى إدلب، حيث تم إعداده هناك في مهمة سرية، وبعد عودته تم تعيينه مسؤول المبيعات والسرقات وتصريفها، برفقة أخويه أبو زيد وأبو حمزة، وسجله في السرقات طويل وكبير..ثم تم نقله لاحقاً إلى الرقة، وعين مسؤولاً لداعش في كنيسة البشارة، بعد تحولها إلى مركز أداري وأمني ودعوي في نفس الوقت، وأسندت إليه في فترة ما، مهمة منح صكوك التوبة المختومة من داعش للتائبين العائدين إليها..

أما علي عبد الله العواد الجبوري، أبو صهيب الجبوري، فهو أمير وشخصية أمنية خطيرة، ويمكن وصفه بأنه شخصية تافهة شديدة النزوع للإجرام، وليس لديه أي علم شرعي أوثقافة.. يحب المال والتكسب بكافة الطرائق، ويستغل الشرع كثيراً من أجل مكاسبه الشخصية، ويشتهرعنه بأنه لشدة ساديته كان يأخذ المحكومين بالإعدام لدى داعش إلى الهوتة، فيطعنهم بآلة أو بسلاح أبيض، ويتركهم ينزفون للتلذذ بمنظرهم وهم يتعذبون قبل أن يرميهم في الهوتة..

ولقد عُيِّنَ أبو صهيب هذا في وقت سابق أميراً على مجلس العشائر بعد اجتماع داعش مع واجهات عشائرية (قبل سيطرة الميليشيات الكردية على تل أبيض)، وتظاهر مراراً وكذباً أكثر من مرة بأنه ترك التنظيم ولزم البيت، (وهذه عادة باتت مألوفة لدى كثير من الأمنيين لاستعادة تأهيلهم الإجتماعي وتمكينهم من التغلغل بين الناس)، لكنه كان يظهر من جديد في كل مرة بصفة جديدة بين قيادات داعش الأمنيين.

يُعتقد بأن هذا الرجل قد تورط مع المجرم خلف ذياب الحلوس في كثير من الجرائم، وتروج كثير من السرديات عن استعداده لأن يقتل أقرب المقربين منه في سبيل مصلحته الشخصية، وأبو صهيب الجبوري ينسب نفسه أحياناً إلى عشيرة المشهور، مع أن المشهور ينتمون إلى عشيرة البكارة وليس الجبور كما يدعي، ويظن بعض أهل منطقة تل ابيض بأنه مهاجر من أصل عراقي..أما شقيقه طارق عبدالله العواد الجبوري، أبوجلال الجبوري، فهو المرافق الشخصي ولفترة طويلة لخلف ذياب الحلوس، أبو مصعب.

بقي أن نذكر بعد الأخوين علي وطارق الجبوري، وقبل ختم الحديث عن البنى الأهلية لداعش في بلدة سلوك، المدعو خليل حمد الجاسم، وهو من قرية المعاجلة القريبة من سلوك، ويدعى "أبو ابراهيم النائب" من عشيرة بني زيد، وهو خريج أدب عربي من جامعة تشرين، ومن علاماته الفارقة أنه بلا شعر حواجب، وقد التحق بكتيبة القادسية، ثم أصبح عنصراً في جبهة النصرة مع أنه لم يشارك في أية معركة أبداً.. كذلك عُيّن أميراً على مضافة قرية محيسن أيام جبهة النصرة، وأميراً لمعسكر الجبهة في المناخر، حيث شكا من جلافته و سوء طباعه جميعُ عناصر المعسكر الذين بادلوه الكراهية.

كان أميراً للمعسكر وأمنياً في الوقت نفسه، ومسؤولاً عن التعذيب والجلد داخل سجون المعسكر، وقد تمَّ نقل المعسكر إلى العكيرشي وبقي أميراً عليه مع المهاجر السعودي أبو محمد الجزراوي سيء السمعة والصيت.. ثم نُقِل مرة أخرى إلى سجن السد لكثرة الشكاوي والتذمر منه ومن سوء معاملته. ولقد أصبح من الفريق الأمني الخاص في المحافظة على الرغم من أنه لا يمتلك أية مؤهلات تؤهله لتلك المهمة، ومعه في الفريق الأمني الخاص أحد أشقائه، واسمه "صالح حمد الجاسم الملقب أبوآدم"، والذي شارك مثله في الكثير من جرائم الإغتيالات والتصفيات الجسدية، وكان أيضاً ممن يعتمد عليهم أبو لقمان وأبوحمزة رياضيات، و لديه ـ مثل أخيه أبو ابراهيم ـ ولاء وطواعية عمياء لأبو لقمان، مما جعله من قيادات الصف الأول في داعش لبعض الوقت.

بعد ذلك عين أبو ابراهيم النائب أميراً على الرقة عن ريف المحافظة لفترة من الوقت، ونائباً لأبو لقمان، مما سبب ضجة كبيرة في داعش، لأنهم يرونه غير أهل لهذا المنصب أبداً، فهو مشهور بأنه شخصية بلا مواهب تُذكر، وكل مافي الأمر أنه صاحب ولاء مطلق لأبو لقمان، وهذا ما رفع رصيده و جعله من الخواص في داعش. ولقد كان أبو ابراهيم النائب من ضمن فريق الاعتقال الذي شارك في خطف القياديين أبو أسماء و أبو الزهراء بأمر مباشر من أبو لقمان ـ وهما قياديان في جبهة النصرة سبق الحديث عنهما ـ وله سمعة سيئة بغيضة وتاريخ أسود إجرامي، ظلامي النزعة والتفكير والعقيدة، وتكفيري بامتياز.. يذهبُ أينما يذهب أبو لقمان، ويُرى معه دائماً من شدة الولاء المبالغ به، حتى لقد كان يُظن أولَ ظهور جبهة النصرة من بعض أفرادها، ومن شدة ملازمته وولائه لأبو لقمان، بأنه الأخ الشقيق له.

ومن مشاهير البدو في منطقة سلوك أيضاً، لابد أن يُذكر محمد الشوكان الملقب بـ (أبو جاسم)، أبرز شخصيات قرية الشوكان القريبة من سلوك، هو وشقيقه العنصر في المكتب الأمني في سلوك خليل الشوكان المعروف بلقب"أبو عبد الرحمن"، والذي من مهامه التي أسندت إليه مراقبة الحدود التركية، القريبة من قريته، حيث يُذكر له في إحدى المرات، أنه استطاع أن يلقي القبض على ما يقارب من عشرة أشخاص حاولوا الإنشقاق عن داعش ودخول الأراضي التركية، فساعد في القبض عليهم وإعدامهم جميعاً.

لواء ثوار الرقة:

في البداية عليَّ أن أوضح الصورة غير المفهومة لكثيرين، والمحيطة في المخيلة العامة بلواء ثوار الرقة، خاصة أن القوى الاستئصالية التي باتت تستعد لتسلم المدينة، كانت على وعي كامل بكل تفصيل تشريحي أو استقصائي لبنية تلك الكتائب أو الفصائل المسلحة. حتى القوى الخارجية كانت على دراية ووعي تام بهذه الحقائق على الأرض.. فاللواء كان يتعرف منذ بداية نهوض العمل العسكري، أو يتسمى باسم "لواء أبو عيسى"، ولقد انقسم الرأي العام حول الموقف منه طيلة سنوات الثورة، مابين معجب وداعم ومؤيد ومشجع ومتحمس، وبين كاره مبغض للواء، إلى حد العداوة والبغضاء التي لا تتنازل عن صورتها النمطية المتخيلة عنه.. وذلك لأسباب عاطفية أو شعبوية، أو مواقف مبدئية صارمة غير قابلة للمراجعة، ولن أستطرد كثيراً في مسألة إعادة تقييم واقع اللواء، ولا الاستغراق في مبحث ما له وما عليه، تجنباً لدخول مساجلات غير مفيدة وتطويل مكرور.

فلواء ثوار الرقة اختزن نمطاً من التصور وهالة خاصة به، ربما كانت مُفارِقة لكل القوى المسلحة التي عبرت الرقة خلال سنوات مضت، وهذه الصورة النمطية عنه هي التي صنعت بنية معينة عنه، هندسها الخيال العام أكثر مما ساعد الواقع المتبدل والمتغير الذي أحاط باللواء على وضعها في إطار محدد. من ذلك أن اللواء حمل رمزية الثوار الأوائل الذين كانوا جميعاً بعض مادة الحراك المدني الثوري العام، والذين كانوا هم الرعيل الأول المؤسس، والفصيل الذي انحاز إلى السلاح، وقد خرج من عباءة أولى المظاهرات. لعل هذا الرعيل الأول لم يبقَ منه أحدٌ اليوم في اللواء، هذا صحيح؛ فثمة من استشهد ومن اعتقل مبكراً ووقع في قبضة النظام.. وثمة من ترك العمل القتالي وألقى السلاح، أو هاجر مبكراً وغادر خارج البلاد. وهناك من أصيب إصابة مُعطِبة تركته يعاني من عاهة دائمة سترافقه بقية العمر.. زيادة على بعض هؤلاء ممن كان في الصف الأول، هناك من انقلب وخان الثورة في مرحلة متقدمة أو متاخرة من

مراحلها، فانحاز إلى داعش أو إلى النصرة أو إلى أحرار الشام، أو حتى بالعودة إلى الاصطفاف إلى جانب النظام. كل هذا ساعد على تشكل بنيته التصورية، وإن يكن ليس بالقدر الكافي.

الأهم في تاريخ اللواء، أنه لم يضع يوماً، منذ لحظة تأسيسه واجهة مغلقة على أساس عائلي أو عشائري أو أسروي أو عقائدي ضيق، كما فعل غيره من الكتائب المسلحة ذلك، بقصد أو بدون قصد، وترك هامشه مسرحاً مفتوحاً لبسطاء الناس ومهمشيهم، وكل الطبقات الشعبية على اختلافها.. وفي الحق إن هذه نقطة القوة الأهم في تكوينه مقابل كثيراً من نقاط الضعف التي اعترته ولازمته لسنوات. إلى حد أن من كان يلتجئ إلى اللواء، وهو في واقع مُتصوَر مسبق، أنه سوف يلتئم شمله من خلال اللواء على أسرة أو عشيرة، فإن اللواء سرعان ماكان، بطبعته الشعبية البسيطة، والتي عززتها حقيقةً شخصية أبو عيسى البسيطة، يمتصُّ الأسرة والعشيرة، ويذيب كل نزعة فئوية لصالح تظهير صورة اللواء"حاف".. وبلا ألوان أخرى إضافية متدخلة. والأمر نفسه بالنسبة لمن تغلبت في نفسه نزعته العقيدية الدينية، أو استغرق تفكيره في مخيلة أصولية في طبعة من طبعاتها الكثيرة، فقد نجح اللواء دوماً في امتصاص العقيدة ونزعة التدين لصالح الصورة الثورية الوطنية الآنفة..

هذه البنية غير المخطط لها على الأغلب، أورثته كياناً متماسكاً رغم كل الجوائح التي عصفت به، والظروف التي حاقت بماحوله. وجعلته قوة مسلحة مقاتلة لا تشبه شيئاً إلا سكان الرقة، بعجرهم وبجرهم؛ فلا يجد أهل الرقة صورتهم الشعبية الخاصة بهم إلا في مرآته، وهذه حقيقة تنبهت إليها كل القوى الخارجية والقوى الداخلية المناوئة منذ وقت مبكر.. لذلك كانت مصادمة اللواء أو العمل على تصفيته بصورة مباشرة، كما جرت عليه الحال مع الناصر صلاح الدين أو الفاروق أو أحفاد الرسول أو جبهة الوحدة والتحرير، كان يعني رمزياً منازلة مباشرة مع ما تختزنه الثورة والمعارضة الثورية من رصيد أو إرث سالف، وهو ماكان متعذراً إنجازه إلا على يد شبيحة الدفاع الشعبي أو قوى النظام المنظمة. ولذلك كان التفكير منصرفاً للتعامل مع اللواء على أساس مجموعة خطط بديلة، تتوالى حسب الحاجة إليها، ودرجة تأثيرها في القضاء عليه كآخر قوة مسلحة يمكن أن يلجأ إليها الرقاويون أو الثوار:

ـ أولى تلك الخطط، أن يتمَّ قرضُه وامتصاصُه بالتدريج، بنفس الطريقة التي تمَّ بها امتصاص لواء الأمناء، أي أن يتم الاشتغال على دمجه وصهره داخل جبهة النصرة؛ فينحلَّ فيها بمرور الوقت، ولا يبقى له أي اثر.. وهذه الخطة فشلت فشلاً ذريعاً، رغم كل المحاولات والجهود التي صُرفت من أجلها وعُمِلَ عليها.

ـ أما الخطة الثانية، فكانت عملياً داعشية استخباراتية محض، والتي كانت تخطط لتلغيم اللواء بالدواعش بأعداد هائلة، وزرع عملاء للتنظيم في كل أذرع اللواء، وحتى إن أمكن رفدُه بكتائب داعشية بالكامل ـ وهو أمر تكرر مراراً ـ حتى إذا ما حانت لحظة الحقيقة والمواجهة بين داعش واللواء، يُوعَزُ إلى تلك القوى مباشرة بالانسحاب والتبخر فوراً من بين الصفوف ومواقع القتال، بل وأن تقوم بالانتقال من مواقع القتال التي يشغلها اللواء إلى جبهة داعش مباشرة أثناء المعارك القتالية، وهذه الخطة واتت أكلها وحققت بعض النتائج والنجاحات الجزئية، وإن تكن غير جذرية أو حاسمة بالمطلق. على سبيل المثال، قبل بدء المعركة مع داعش، وأثناء فترة التحضير لها وصل عدد مقاتلي اللواء الفعليين تحت السلاح، إلى مايقارب الـ1500 عنصراً مقاتلاً، وما إن بدأت الأعمال القتالية حتى تبخر ثلاثة أرباع هذا العدد، فلم يبقَ في الساحة من الصامدين في وجه التنظيم إلا حوالي أقل من الثلاثمائة وخمسين شاباً مقاتلاً، واختفى الباقون من أرض المعركة خلال ساعات.. وأحب أن أنوّهَ حول هذه النقطة بالملاحظة التالية: حتى هذا العدد الذي صمد في أرض المعركة، لو توافرت له قوة داعمة خارجية أثناء المعركة، واستطاعت تأمين الذخيرة الناعمة ـ رصاص البنادق فقط ـ لكان قادراً على تحقيق نصر شبه مؤكد في أقوى الاحتمالات، أو على الأقل لاستطاع أن يديم أمد المعركة لمدة سنة أخرى قادمة في قتال متواصل في مواجهة داعش.

وحين بدأتُ بالتفكير في تشكيل كتيبة ذات نمط وبنية خاصة داخل اللواء، (كتيبة شهداء الغوطة)، لتلعب دور كتيبة قتالية وفريق عمل أمني وسياسي في آن معاً، وكانت لديَّ أفكار وخطط لإعادة هيكلة اللواء بالكامل، وفق أسس وأفكار جديدة، بحيث تُحَصِّنُه نسبياً، وإن تكن خطوة متأخرة قد فات أوانُها كثيراً، فقد كانت أكبر مخاوفي وهواجسي أن يكون المكتب الأمني القديم، والذي اشتغل أبو عيسى على تأسيسه، واستعان به طوال تاريخ مضى، مخترقاً لصالح داعش.. وكانت أكبر شكوكي أن يكون نصف أعضائه الفاعلين والمتمرسين هم دواعش فعليين، أو عناصر تمَّ استقطابُهم أو شراؤهم مسبقاً لصالح داعش، فإذا بي أفاجأ بعد وقت قصير، لسوء الحظ وتمام الكارثة واستكمال المأساة، أن هذا المكتب جميعه كان يعمل لصالح داعش وليس نصفه، (ولقد هرب كل عناصره بعد خروج

اللواء من الرقة وانتقاله إلى صرين، وبالطبع بعد الاستيلاء على كامل الملف الأمني الخاص باللواء وتهريبه إلى داعش).. ومن حسن الحظ أنه كان خارج تفكيري ومخططاتي منذ اليوم الأول، فقد عزفت منذ اللحظات الأولى عن التعاطي مع هذا المكتب أو الاستعانة به في أي شيء..

ـ الخطة التالية احتياطياً في التعامل مع اللواء، وهي أكثر جدوى من سابقاتها، كانت تتمحور حول منع الدعم وتجفيف مصادر تسليحه، حتى اللوجستية التي تصل أحياناً إلى حدّ الاحتياجات اللازمة لإطعام عناصر اللواء. وهذا ما عمِلتْ عليه، وباتفاق تام، جميع القوى الدولية الخارجية، وعلى فترات مختلفة، بما فيها الإئتلاف المُسْتَعْمَر والمستأجَر لصالح قوى دولية عدوة للثورة في المؤكد، والذي أهدر في سنوات مئات ملايين الدولارات في مشاريع مدنية وعسكرية خائبة، وذرّى كل رساميل الثورة المادية والاعتبارية المعنوية من النوافذ.. خاصة فترة المعركة الحاسمة مع داعش وما تلاها، حيث آلت الأمور مآلاتٍ بات يتعذر معها تأمين وجبة أو وجبتي طعام مشبعة لمن تبقى من عناصر اللواء.. وهذا مايفسر طلب معظم العناصر، (حوالي أكثر من نصف من تبقى بعد المعركة).. واستئذانهم في الانتقال إلى الأراضي التركية بعد أن تمَّ الانسحابُ من الرقة..

ـ أما آخر الاحتياطات المخطط لها، أو آخر المعالجات النافعة، والتي ستكون رصاصة رحمة أخيرة مؤكدة ومضمونة النتائج، فهي أن يُسْتَجَرَّ اللواء إلى معركة غير مخطط لها جيداً ضد تنظيم داعش، وهنالك يتم انسحاب القوى الرئيسية الفاعلة في المعركة والمُخطِّطة لها، قبل حسم نتائج النصر، بحيث يُترك لمصيره المجهول والمحتم. وهذه الخطة ضامنة لاستئصال اللواء بشكل تام، وبعثرة كل حاضنته الشعبية على رمزيتها، وتصفية كل أثرٍ ثائر أو معارض أو مجابِه محتمل في وجه التنظيم، بحيث تُسَلّم الرقة لداعش وهي أصفى من الماء الزلال، لايُعكرُ صفوَه في احتلالها والإقامة فيها، أويقلق وجودَه إذ يخطط لاتخاذها عاصمةً له أي احتمال خطر داخلي مهما تضاءل وزنه.. خاصة أن معظم المدنيين من حاضنة الثورة ومؤيديها، وجمهورها الكبير كان قد غادر المحافظة قبل الصدام المباشر مع داعش، أو أثناءه.. وبنسبة تفوق الـ 90% من جمهور الثورة وأنصارها.. هذا ما كان يُخَطَطُ له بالتعاون بين أحرار الشام وجبهة النصرة قبل أشهر من المعركة، وهو ما حدث واقعاً بالفعل، وسوف أشرح بالتفصيل كيف جرت الأمور..

مقتل السعودي "سالم":

حين نتحدث عن معركة مع داعش، لا ينبغي أن نذهلَ عن حقيقة مؤكدة، وهي أننا كنا نعيش تفاصيل معركة مؤجلة بصورة يومية ودورية، أو معركة مُرَحَّلة حتى إشعار آخر بيننا وبين تنظيم داعش. هذا شعورٌ التصق بوعي عام غير شخصي، وهو أيضاً يُدَلّلُ على انطباع متحفز بصورة دائمة كان يغذي مخيلة الدواعش ضد الجميع. فالوضع كان أشبه بالتنقل في غابة تغص بوحوش مفترسة، غير ظاهرة بالعين المجردة، لكنها محسوسة بطريقة ما، وأصواتُها لا تكاد تنقطع ليل نهار، وقد شحذ كلُّ امرئ ما طالت يده من سلاح ليتقي الضربة الأولى. فالحديثُ إذن عن أسباب مباشرة لانفجار المعركة يكاد أن يكون تفصيلاً ثانوياً على هامش الحدث، صحيحٌ أنه استقر في الذاكرة بأن اختطاف الدكتور"أبو ريان"، مدير معبر تل ابيض ـ من تنظيم أحرار الشام ـ وتعذيبَه تعذيباً وحشياً قبل الإجهاز عليه، هو السبب المباشر المُعَجِّل للاصطدام، وقد تصلح هذه الحادثة لان تكون واقعة مركزية تعزز المعنى التأريخي حين كتابة تاريخ المعركة الحاسمة مع التنظيم وأسبابها المباشرة، لكنها أبعد من أن تفسر طبيعة المعركة، ولا تصلح لقراءة الوقائع كم هي، فالواقع اليومي كان محشواً بنوايا مبيتة تنتظر، وباحتكاكات وتحرشات متبادلة بين الدواعش وجميع الأطراف دون استثناء.. والعكس صحيح أيضاً..

كانت حادثة استشهاد الدكتور أبو ريان، حدثاً مستفيضاً على مستوى سوريا، وقد توسع عبر الإعلام ليكون في أوائل الأخبار حتى في مستواها الإقليمي والدولي، وقد شرعت حركة أحرار الشام تستعد للمعركة منذ اليوم التالي. وكانت نُذُرُ الاشتباكات بينها وبين التنظيم وأخبارها قد تتابعت في منطقة تل أبيض، واتسعت إلى مناطق أخرى في ريف حلب الشرقي والشمالي. كما كانت تحركات جميع مكاتبها وقياداتها ـ على مستوى الرقة/المدينة ـ دائبة بصورة يومية، وببديهية معلنة لم تعد تحتمل التأجيل أو التأويل، أو حتى بعض الحرص على السرية في الحركة والعمل. في هذه الأثناء كان الرجل الأول، صاحب القرار الأهم في جبهة النصرة، هو الشخصية المعروفة على المستوى الشائع بلقب "أبو العباس الضرير"، أو "أبو العباس الأعمى". وهو رجل خمسيني تقريباً، شبه كفيف، من رجال القاعدة الذين قاتلوا في العراق، وكان مبعوثاً من قبل الجولاني إلى الرقة لإعادة تنظيم وتجميع قوى جبهة النصرة الهزيلة والمبعثرة إلى حد التلاشي في المحافظة كلها. ولقد اتخذ الرجل من مقام أويس القرني مقراً دائماً له، ومكتباً معلناً لتنظيم النصرة، ومكاناً مفضلاً

للعلاقات العامة في تواصله مع جميع الناس، بينما احتفظت النصرة بالبناية المقابلة لمدخل الجسر القديم مقراً للقيادة العسكرية، وحاجزاً يراقب حركة الخروج والدخول إلى المدينة عبر الجسر القديم.

شرع تنظيم أحرار الشام ينظم حملة علاقات عامة يومية مع جميع الأطراف، ولم يكن من الأطراف الفاعلة والمسلحة المتجهزة والمتبقية يومئذٍ على مستوى المدينة سوى لواء ثوار الرقة وجبهة النصرة. وقد تمَّ التوافق بعد عدة لقاءات بيني وبين أبو مصعب ـ مسؤول المكتب الأمني لدى الأحرار، والذي انتقل بعد حادثة أبو ريان إلى المكتب الدعوي في الحركة ـ (وهو بمثابة فريق العمل السياسي المباشر للحركة) ـ على تنظيم اجتماع رسمي بصورة يومية لهذا الغرض بين أبو عيسى وأبو حيدرة، القائد العسكري والميداني في أحرار الشام، على أن أتابع العمل من جهتي في اللقاءات والاجتماعات بصورة يومية مع أبو عباس الأعمى، وأن يكون مكتب أبو عباس الأعمى هو المكتب المركزي الذي تنتهي إليه كل تفاصيل الاتفاقات، صغيرها وكبيرها، والخلاصات المتعلقة بتأطير حلف موحد لقتال التنظيم. وقد استمرت مشاوراتي اليومية مع أبو العباس، بصورة منتظمة ويومية لفترة أكثر من ثلاثة أشهر في خريف عام 1913، وبتوافق وتنظيم مستقل مع أبو عيسى الذي كان ينظم نفس اللقاءات مع الأطراف القيادية الفاعلة في أحرار الشام، خاصة أبو مصعب وأبو حيدرة..

ينبغي التذكير بأن حادثاً مهماً قد لعب دوراً حاسماً في تأجيج الصراع وبدء التحضر للمعركة والاستعداد لها على مستوى جبهة النصرة، هذا الحادث هو قضية خطف أبو سعد الحضرمي التي سبقت هذه الأحداث بأكثر من ثلاثة أشهر، والتي ماطلت داعش في الاعتراف بها، وتبرأت من نسبتها إليها بداية، ثم اضطرت، وبالرضوخ لكثرة الشواهد والأدلة، إلى الاعتراف بأنها هي من أقدم على خطفه؛ كما أعلن الدواعش بأن أبو سعد ما يزال حياً يرزق، وأنها سوف تفرج عنه في وقت قريب. كل هذه المناورات كانت تهدف إلى كسب المزيد من الوقت، وإعطاء الفرصة لترتيب أوضاع المعركة ومسرح عمليات قتالية ملائم من وجهة نظر التنظيم.. وبدا جلياً بأن أبو سعد الحضرمي قد نُفِّذَ فيه حكم الإعدام من قبل داعش منذ وقت سابق، وأن قادة داعش كانوا يكذبون ويضللون النصرة طوال الوقت، وحين أصدرت النصرة بياناً تمهلهم فيه حوالي عشرة أيام تقريباً للإفراج عن أميرها المختفي، عندها اعترفت داعش صراحة بأنهم قد قتلوا الرجل منذ وقت طويل، وقد اتهموه بالردة والبغي وتهماً أخرى كثيرة، فاستشاط غضب النصرة وقطعت خيط المفاوضات بينها وبين داعش، وأعلنوا أن داعش قد قطعت كل شعرة تفاهم فيما بينهما، وأن القتال حتى الموت هو السبيل الوحيد، والخيار الأخير الباقي بينهما..

لابد من الاعتراف بداية بأن شخصية أبو العباس الأعمى المتماسكة والرزينة، كانت تختزن تجارب عميقة، وذكاء وفطنة نادرتين. ومن الحق أن أنوّه بذكاء الرجل وواسع خبرته واطلاعه على كل التفاصيل، فقد كان شخصاً ذكياً ورزيناً، كما أنه أبدى من الاحترام لهذا الموعد اليومي الذي تمَّ الاتفاق عليه بيني وبينه كل الاهتمام والحفاوة، حتى أنه حين كان يصدف أحياناً، ولضرورات أعماله وانشغالاته الكثيرة، أن يكون مشغولاً بمواعيد والتزامات ضرورية، فإنه كان يعتذر فوراً لمجالسيه ما إنْ يُبلغ بوصولي إلى باب مقام أويس، مقر إقامته الدائم. وقد كان حفياً في استقباله لي، ولم ألاحظ عليه طوال تلك المدة من اللقاءات اليومية ما يمكن أن يثير حفيظتي على الرجل..
في هذه الفترة اقترح أبو العباس أن يتم تشكيل غرفة مشاورات موحدة، يكون مقام أويس مستقرها، وكان لي تحفظ على أن يكون(مكان)غرفة المشاورات، هو نفسه مكان غرفة العمليات الموحدة، وكان إصراري النهائي على أن تبقى النقطة"ج" ـ مدرسة ربيعة الرقي بجانب الماكف في حي الرميلة ـ هي مقر غرفة العمليات المركزية، وأن لا يغادرها أبو عيسى إلى أي مكان آخر، تحت أي سبب أو ظرف. ولم يعارض الأحرار وأبو العباس هذا المقترح، وفيما بعد، في آخر أيام المعركة، تمَّ نقل جميع القيادات الميدانية إلى النقطة"ج"، وأصبح سير المعركة يُدار مركزياً منها.

في هذه الأجواء التي شحنت المدينة بالتوتر، جاءت حادثة مقتل الأمير الداعشي السعودي المدعو سالم، فكانت بمثابة صب الزيت على النار.. وقد حدثت الحادثة على التفصيل التالي:

ـ في نهاية شهر تشرين الثاني عام 1913، كان الأمير الداعشي السعودي الجنسية سالم يجتاز بسيارته شارع المجمع الغربي، ماراً من أمام حاجز نقطة الكتيبة المرابطة عند مركز بنك الدم. هذا الحاجز كان مسؤولاً عنه حصراً أحدُ القادة الميدانيين المعروف بلقب"أبو طارق دبابات"، وبالمصادفة كان يتواجد أمام الحاجز كل من أبو اسماعيل العسكري، وهو قائد ميداني في لواء ثوار الرقة، وأحد قادة الكتائب، واسمه"محمد عبد الكريم الخلف"، والمعروف بلقب"أبو حمزة" ، وبعض شباب يافعين كانوا يتبعون لكتيبة صغيرة معظم

منتسبيها من الشبان اليافعين، تسمى كتيبة الرسالة، ويلقب قائد الكتيبة بلقب"سيف الرسالة". حين أشار عناصر الحاجز إلى السيارة المفرطة في سرعتها، والتي كانت تجتاز أمام الحاجز، وأجبروا سائقها على التوقف، توقف المدعو سالم دون أن يخاطب أحداً أو ينزل من السيارة، ولما طُلِب منه التعريف بشخصيته، أجاب بطريقة مستعلية ومحتقِرة بأنه لا يقبل أن يتنازل ويتحدث مع أمثال هؤلاء الشباب من "الحثالة والجيش الحر الحرامي"، والكفار، وغير ذلك من عبارات مستفزة.. فاستثار غضبَ جميع المتجمهرين أمام الحاجز، وأصروا على طلبهم منه وبفظاظة نسبية، أن يترجل من السيارة، لكنه أصر من جانبه على الرفض، فتوقف أبو اسماعيل العسكري بجانبه ليقنعه بالوقوف درءاً للمشاكل ودفعاً للشر، بينما حاول"محمد عبد الكريم الخلف"، أبو حمزة، أن يفتح باب السيارة اليمين ليحدثه من داخلها.. فشتم الجميع وأغلق الباب على أبو حمزة بعد أن صار في داخل السيارة، وشغّل السيارة منطلقاً بها.. فأشهر بعضُ شباب الحاجز بنادقهم ليجبروا السيارة التي كانت تحاول الفرار بسرعة على التوقف، بعد أن تجاوزت الحاجز بحوالي خمسين متراً، فما كان منهم إلا أن فتحوا النيران عليه وهو داخل السيارة، فانتثرت دماؤه وهو داخل مقعد القيادة حتى ملأت المكان، (وأبو حمزة مايزال جالساً في المقعد المجاور بجانبه)، وما إن تمّ إسعافه إلى المشفى الوطني فوراً، حتى كان قد فارق الحياة.

كانت هذه الحادثة، في مقابل حادثة أبو ريان التي شكلت غيمة من الدخان تُخَيّم على المدينة، والتي سحبت كل صواعق الأمان بين التنظيم وبين الأحرار، بمثابة الضربة النهائية التي تهاوت بها كل ملابسات الهدنة الهشة والمؤقتة، بين داعش وجميع الأطراف المقاتلة المسلحة في المدينة.. والتي أملت واقعاً مُخاتلاً لا هو بالحرب ولا هو بالسلم، ولا يدرى كيف ستكون بدايته ولا نهايته. فقد أصرّت داعش على الفور، أن كلّ من كان موجوداً من الجيش الحر في المكان أثناء الحادث، يعدّ قاتلاً أو متسبباً بمقتل السعودي، فهم مدانون بالقتل العمد والمباشر، وأنهم شرعاً يجب أن يُقتلوا قصاصاً بمقتل سالم، فعلى لواء ثوار الرقة أن يُسَلِّمَهم لداعش أو أن يُعلَن لواء ثوار الرقة بأسره طرفاً باغياً يجب إعلان الحرب عليه شرعاً. فاتصل أبو العباس الأعمى فوراً بقيادة داعش في المحافظة، وطلب منهم إرسال مندوبين ممثلين عنهم للتفاوض، ولحل المشكلة بالطرق الشرعية السلمية. وقد وافقوا على طلبه، غير أنهم اتهموه علناً بأنه يقف مع"البغاة"، ويظاهر المنافقين وأعداء الله على المسلمين ويتقوى بهم.

ـ بالطبع في الفترة التي تلت قتل السعودي سالم، كانت المدينة قد امتلأت بالحواجز، واتسم المظهر العام لجميع شوارع وساحات المدينة ومداخلها من كل الجهات، بسمة المرابطة والاستعداد للقتال، وبعد مساجلات متشنجة، تمَّ التوافق على أن تجتمع لجنة شرعية مؤلفة من الطرفين، وأن ينزل الجميع على قرارها الشرعي مهما حكمت به.. وقد اجتمعت اللجنة الشرعية المفوضة في البت بقرار مقتل السعودي سالم عدة اجتماعات، وكان قرار الطرف المفوَّض من اللجنة من قبل داعش أن يُقتل كل عناصر حاجز بنك الدم المسؤولة عن مقتل سالم، وبعد مشاورات مع النصرة، التي أخذت دوراً توفيقياً وحَكَماً بين الطرفين، وعدد من الاتصالات البينية قادها أبو العباس وأبو عيسى وآخرون، اقترحتُ على أبو العباس وأبو عيسى التركيز على أن المفاوضات يجب أن تتمحور حول الأفكار والنقاط التالية:

1ـ المسلمون دماؤهم واحدة ومتكافئة، فإذا كانوا قد رفضوا التشارع في قضية مقتل أبو سعد الحضرمي، الذي أنكروا الاعتراف بقتله بضعة أشهر، فليس من حقهم أن يطالبوا بدم أحد، وإذا أرادوا فتح جميع ملفات من قتلوهم وخطفوهم، فإننا مستعدون إزاء أية مباحثة شرعية بمقتل السعودي.

2 ـ لا يجوز أن يدان عدد كبير من الأفراد، مشكوك في اشتراكهم وجريمتهم بدم شخص واحد، وليس مقطوعاً بهذا الاشتراك، مما سيؤدي إلى مفسدة أعظم، لأن القاعدة الشرعية تنص على: (إن الظنَّ لا يغني من الحق شيئاً)، كما تنص القاعدة الأصولية في التشريع على أنه: (إذا تعارضت مفسدتان، روعي أشدهما باتباع أخفهما ضرراً)..

3ـ إن سالم استفزَّ جميع عناصر الحاجز، وأخرجهم عن طورهم بعبارات مسيئة مؤكدة، وأنهم أطلقوا النار وهم في حال من(الإغلاق والغضب)، ولو أن الحادث نفسه جرى عند حاجز لداعش فاليقين أنهم سوف يتصرفون التصرف نفسه. خاصة في حال من عدم الوعي والتركيز، وفقدان القدرة على المحاكمة العقلية. كما أجمع جميع عناصر الحاجز على أن غايتهم كانت إيقاف السيارة، وليس قتل الرجل. فالنية المؤكدة كانت متجهة من قبل شباب حاجز بنك الدم على منعه من التفلت منهم وإيقاف السيارة، ولا يوجد أية نية مبيتة أو قصد مسبق بالقتل.

4ـ طالما أن جميع من كان على الحاجز قد أنكروا واقعة التسديد بقصد القتل، وإنما إطلاق النار بقصد إجباره على التوقف، بعد أن قام بما يشبه عملية خطف لـ"محمد عبد الكريم الخلف"، "ابوحمزة"، فإننا يجب أن نعتبر الحادث دفاعاً عن أبو حمزة، وهو ما يعني: إما أن الجميع مشتركون في القتل، وهذا يحمل على إقامة حد القتل على أكثر من عشرين فرداً على وجه الظن، وهذا مرفوض بالبديهية والشرع، أو أن يقبل التنظيم بحقن دمائهم، وقبول الدية من لواء ثوار الرقة.

ـ تمَّ التراجع بعد ذلك من قبل شرعيي داعش عن مطلب قتل كل عناصر الحاجز، وطالبوا ـ بإصرار ـ بقتل "أبو حمزة" قصاصاً بسالم، لأنهم اعتبروه المتسبب الأول، بسبب دخوله سيارة سالم ومنعه من الفرار. وهذه النقطة تمَّ إسقاطها أيضاً بسهولة: إذ كيف يمكن قتل إنسان باتهامه بالقتل وهو لم يكن يحمل سلاحاً ساعة وقوع الحادث، وكان في داخل السيارة، بينما الرصاصة جاءت من خارج السيارة..؟ (في هذه الحال سوف ينزل القصاص وحدّ القتل بإنسان ثبت بأنه لم يقتل)، وقد رفضت اللجنة الشرعية بداية كل هذه الحجج وهذا الدفاع، وبعد تهديدهم والضغط عليهم من قبل أبو العباس الأعمى، وافقوا على مبدأ الدية، ولجأوا إلى حيلة أخرى مكشوفة: إنهم يقبلون الدية مقابل دم سالم، ولكن بحكم العُرف في مقدار الديات، والعادة المعمول بها في السعودية، لا في سوريا. وكما يتوافق عليها أهل المقتول وعشيرته في مسقط رأسه في السعودية.. وهكذا، وبحساب بسيط، حين سيتم الأخذ بالمبدأ والعرف والعادة المعمول بها في الديات في مدينته، ستعدل ديته ـ بالعملة السورية ـ حوالي خمسة مليون ليرة سورية تقريباً.. الحقُ أنني استوعبتُ مقاصد داعش من هذا القرار، وهو أن يتمَّ "تشليح" واستنزاف كل، أو معظم ما كان يملكه اللواء من مال مدخر، حتى إذا ما حانت لحظة مواجهة محتملة، بل هي أكيدة لا ريب فيها، يكون اللواء قد أقدم على المعركة وهو مفلسٌ تقريباً، وعاجزٌ حتى عن تأمين لقمة خبز مقاتليه.. (ولقد تمّ رفض هذا الاقتراح أيضاً، والإصرار على دفع ديته التي لم تُدفع لداعش فيما بعد، بالعملة السورية، وكما هو مقرر عرفاً في ديّة أي سوري، حسب أعراف وعادات أهل الرقة)..

أصبح التقابل في الطبيعة المحتقنة والمصممة على المواجهة حتى الموت، والتصفية الأخيرة حالة إزائية، أملاها الواقع الذي كان يتطور يومياً: أبو ريان/أحرار الشام، مقابل أبو سعد الحضرمي/النصرة، مقابل السعودي سالم/لواء ثوار الرقة.. فالخيوط كلها تتقابل لتصب نهاياتها عند واقع يؤكد بأن المعركة المقبلة مع تنظيم داعش هي واقعة لاريب فيها، وهي محصلة وناتج تطور كل حصاد الأحداث السابقة عليها، وأكثر من ذلك، هي معركة نهائية استئصالية لامجال للإعتقاد بأن مابعدها قد يجري مجرى ما قبلها..

المدينة باتت منكفئة على نفسها، وغير متحمسة لمزيد من الاستنزاف والتعب، ومن الواضح أن معظم جمهور الثورة وقواها قد انسحب أو غادر إلى تركيا أو اتجه خارج محيط المحافظة، وليس ثمة آمال كثيرة يمكن أن تراهن على أصدقاء أو داعمين أو مشجعين متعاطفين، فقد التزم الجميع الصمت: الأصدقاء الجيدون والأصدقاء السيئون، خاصة قوى الثورة الرسمية ممثلة بالإئتلاف الذي لم يكن يُراهَن عليه ولا على وطنيته بالأساس، وبقي خيار التوافق فيما بين الأطراف الثلاثة على خوض المعركة الفاصلة: لواء ثوار الرقة، وحركة أحرار الشام، وجبهة النصرة، خياراً قسرياً وممراً إجبارياً يجب عبورُه إلى الضفة الأخرى مهما كلفت الأثمان.

كان تنظيم داعش عقب مقتل السعودي سالم قد شرع في تكثيف ملاحقته ومراقبته لأبوحمزة، وأصبح الظنُ بأنهم قد جعلوه نصب أعينهم بغية استهدافه يقيناً ثابتاً، ولم نكن نملك أكثر من تكثيف الحراسة، والمرافقة المتابِعة له أثناء تنقلاته الاضطرارية. وأخيراً وجدنا أن أفضل الملاذات الآمنة له يمكن أن يكون الفرقة 17 والمرابطة عليها ليل نهار، والاختفاء من المدينة نهائياً؛ فهناك كانت ماتزال بضعة نقاط رباط باقية، وقد سبق أن ذكرت بأنني نصحتُ أبو عيسى بأن يسحبَ معظم المقاتلين المرابطين عند الفرقة 17 قبل حوالي ثلاثة أشهر من هذا التاريخ، وانتهت ظنوني منذ وقت مبكر بأن أي اشتباك أو إهدار لطلقة واحدة على الفرقة سوف يصب في صالح داعش مستقبلاً، وإننا لن نستطيع تعويض تلك الذخيرة حين الحاجة الماسة إليها، وقد صدّقت الأيام التالية توقعاتي وظنوني تلك.

لكن داعش تنبهت إلى مكان رباط أبو حمزة عند الفرقة 17، بعد ملاحقة واستقصاء دؤوب، ولم تكن تحتفظ إلى جوار الفرقة، كما أسلفتُ سابقاً، سوى بكتيبة مرابطة صغيرة، كنا نعلمُ مسبقاً أنها مجعولة هناك للتجسس على الجيش الحر، ومراقبة كل ما يحدث حول الفرقة.. وقبل ليلة رأس السنة، تمكن أحد قناصي داعش، وقد اقترب من موقع رباط أبو حمزة الذي كان مع مجموعة صغيرة دائبين على حفر خندق طويل قرب الفرقة، تمكن من تسديد قناصته وإصابة أبو حمزة فوق صدغه الايمن(3) ثأراً لسالم السعودي.. ولقد تبرأت داعش من الفعلة كعادتها، وأشاعت في اليوم التالي أن أحد قناصي الفرقة 17 هو من سدد باتجاه أبو حمزة وقتله، لكنني بعد أن

تحققت من مكان الإصابة ومسافتها من موقع عناصر داعش حول الفرقة، وبُعْدِ الفرقة النسبي عن الخندق، والمدى المجدي المحقق للإصابة، لم يعد يساورني ريب بأنهم هم من قتل أبو حمزة.. رحمه الله..

هوامش الجزء الخامس:

- (1)

بسم الله

حركة أحرار الشام الاسلامية

المكتب الأمني في الرقة

الموضوع:الرواتب

-عند تحرير الرقة دخل الأحرار الى البنوك ومنها البنك المركزي، وكان فيه مبالغ مالية، منها ودائع بنوك ومنها رواتب العمال والموظفين عن شهر نيسان واقترح الأخ أبو حيدرة أخذ الأموال خارج البنك وافتعال عملية تظهر أن البنك تعرض للقصف واحترق، ولكن لم يتم الموافقة على مقترحه وفي البداية لم يظهر أي أثر لهذا الأمر لأن الناس كانت خارج المدينة بمعظمها. ولكن عندما بدأ الناس بالعودة بدأ الناس يشكرون الأخوة لأنهم منعوا السرقات وكان لهم الدور الأكبر في تحرير المدينة، وصار حديث الشارع أمانة الأخوة والأمن الموجود في المدينة بخلاف الشائعات التي كانت تروج قبل التحرير، ولكن بهذه الفترة بدأت تظهر أصوات تسأل عن موضوع الرواتب وهل هي بيد الأحرار. وبدأت جميع الكتائب بما فيها جبهة النصرة يقولون للناس الأموال عند الأحرار الذين تمتدحوهم، وأنهم شرفاء ومجاهدون حقيقيون وباقي الكتائب للسرقة والتشفيط بالسيارات الحديثة في الشوارع. واستغل هذا الوضع بعض الشبيحة السابقون وبعض الأطراف التابعة للائتلاف مثل د.عبدالله الخليل الذي كان معظم الناشطين والشخصيات الجيدة في المدينة تكرهه، ويتكلمون عن سوء سيرته فبدؤوا بعمال البلدية يهيجونهم للخروج بمظاهرات للمطالبة برواتبهم التي أرسلها بشار وأخذها الأحرار، وتحرك كذلك بعض التجمعات الشبابية مثل تجمع شباب الرقة الحر وبعض التنسيقيات.

- في البداية بدأت تظهر بعض التجمعات الصغيرة أمام بعض مقرات الأحرار، وحدث بعض الاحتكاكات المحدودة ولكن تعامل معها الأخوة بحكمة وهدوء واستطاعوا امتصاص هذا الشغب، وبدأنا نتحرك لنسبق خطوات المحرضين وتم عقد الكثير من اللقاءات والحوارات مع الفعاليات المعروفة في المدينة والمعروفين بسيرتهم الجيدة من أجل قطع الطريق على من يريد تخريب المشروع الاسلامي وتشويه صورة المجاهدين بأنهم عبارة عن لصوص وتجار دماء يحاربون من أجل أخذ خيرات البلاد، وأنهم يريدون اسقاط النظام والدولة معا، ويريدون تفكيك المنشآت وبيعها في الأسواق التركية وافلاس البلاد، وبدأت مرة أخرى الدعوات الى المظاهرات، وخرجت في اليوم الأول مظاهرة ولم تكن كبيرة، وبدأوا يهتفون ضد سرقة الرواتب وتجويع الناس وضد الجيش الحر الحرامي، وبدأنا التحرك بالتعاون مع الهيئة لاصدار بيان من الهيئة أن موضوع الرواتب سوف يدرس من قبل الهيئة واللجان المختصة للبت به والنظر في أولويات الاستحقاق، ولكن تأخر الكتاب، فخرجت مظاهرة أخرى في اليوم التالي وكانت كبيرة، وتم فيها تكسير بعض سيارات الأحرار، وأصيب أخ وظهرت هتافات مثل أحرار المصاري والجيش الحر حرامي وقام الأخوة في المكتب الاعلامي وبمساعدة من بعض الناشطين الاسلاميين وبعض القوى المدنية التي كانت تعلم بموضوع الحوار مع الهيئة باخراج مظاهرة وكانت كبيرة وناجحة، وفي اليوم التالي وضعت الهيئة ملصقات بأن موضوع الرواتب يناقش وسيتم البت به قريبا، وبدأنا نكسب الوقت من أجل أن يكون الأخ أبو حمزة قد ناقش مجلس شورى الحركة ووضعهم في صورة الوضع، من أجل أخذ الاجراء الصحيح الذي يوئد الفتنة ويسمح للحركة بإتمام مشروعها في المدينة، وبتأخر الرد كثيرا بدأ الضغط والقلاقل تعود من جديد، وأصبح الناس الذين يدافعون عن الاسلاميين وأن فيهم شرفاء ومجاهدين حقيقيين يضعف موقفهم، وبدأنا نعاني نحن كمكتب أمني كلما قبضنا على عنصر من الكتائب بتهمة تهريب شبيح أو خطف من أجل المال يأتي كلام لنا (حرامي مابيحاسب حرامي)، ثم أعلنت الهيئة الشرعية تحت الضغط من الناس أن موضوع الرواتب لم يعد لها علاقة به وأصبح الموضوع عند الأحرار.

- أرى أن الحل ممكن أن يكون عن طريق ضبط جداول الرواتب من قبل المعتمدين بحيث يستثنى كل من كان له علاقة بأجهزة أمن النظام السابق، وهناك موظفين علويين بعدد لابأس به من العلوية في أغلب الدوائر وبعد ضبط القوائم يدرس المبلغ الذي يمكن أن يقدم للرواتب .

- أخي أبو جميل طرح بعض الأخوة حلول متعددة، ولكن برأيي أكثرها ضررا كان حل الانسحاب من المدينة أو جمع الناس في الساحة وتنفيذ أحكام اعدام ببعض الصادرة بحقهم أحكام مسبقة، من أجل بث الرعب في قلوب الناس، ولايطالبوا بالرواتب لفترة ما، وغيرها من حلول أنا برأيي لاتمت الى نهج الحركة ومشروعها بصلة ولن تزيد الأمور الا سوءا. وخاصة اذا انسحبنا من المدينة فسوف يلقى علينا تبعات وأخطاء وسرقات كل الكتائب وسيستغل أعداء المشروع الاسلامي هذا الوضع أسوأ استغلال وسوف نكون الخاسر الأكبر لذلك أرجو ألا ينظر الى موضوع المال المخصص للرواتب من هذه الزاوية وأن ينظر الى مصلحة المشروع الاسلامي والمفاسد المترتبة عليه بمقابل هذا المال وجزاكم الله خيرا.

اليوم :الجمعة 2013/4/19

(2) ـ فيديو اعترافات زياد أبو شعيب الذي أصدرته داعش:

فيديو داعش عن زياد أبو شعيب ـ ف1 ـ4pm

(3) ـ الشهيد محمد عبد الكريم الخلف "أبو حمزة "

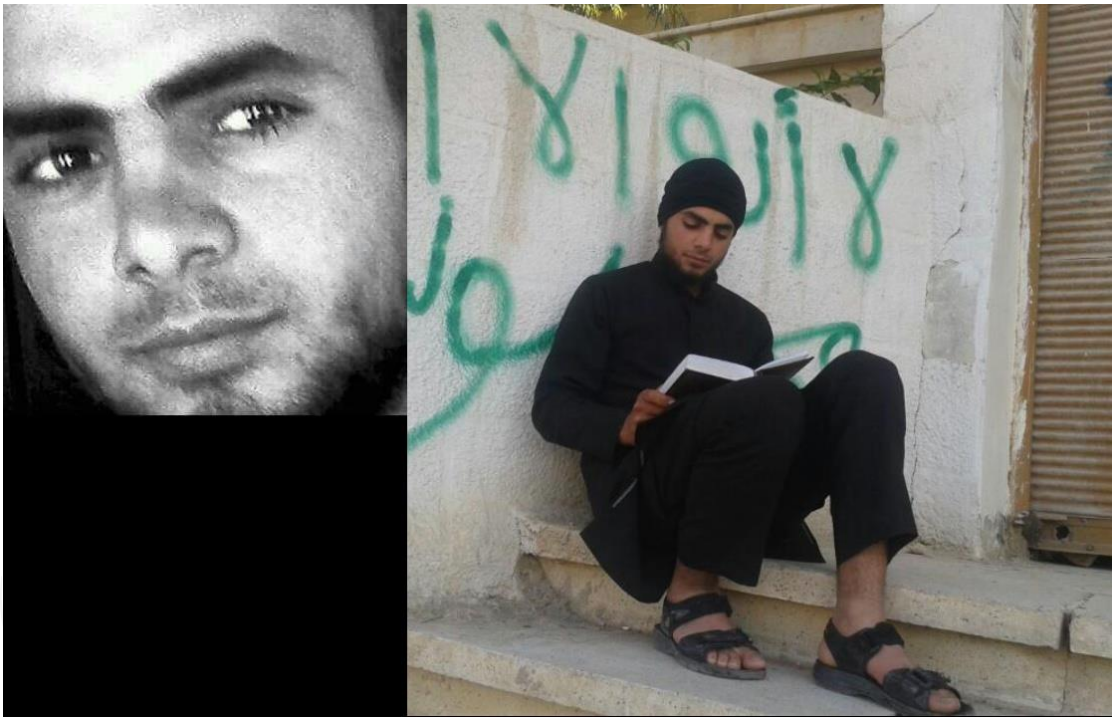

الـرقـة والـثـورة

ـ الجزء السادس ـ

انفجارالمعركة الفاصلة:

لستُ أدري إن كنتُ حتى الآن قد بنيتُ شبه نظرية، أو نصف نظرية، تفسرُ الأحداث بمتواليتها المتلاحقة، لكنني سوف أنتقلُ إلى نقطة حاسمة ومضيئة تفسرُ أكثر المطلوب تعليله، وهذه النقطة مركزُها الصلب يدور حول العلاقة الصميمية بين تنظيم أحرار الشام وجبهة النصرة من جهة، وبين داعش من جهة أخرى، وما رتبت الخديعة المضمرة من كلا الطرفين، في نية مسبقة لتسليم الرقة بالكامل لتنظيم داعش، ثم ما تلا ذلك من تدمير منظم للمدينة وسكانها وبنيتها العامة على فترات لاحقة..

كنا نتوقع الإنفجار الكبير المرتقب بين ساعة وأخرى. وقبل حلول الظلام في مساء يوم الأول من كانون الثاني عام 2014، بدء القتال على أشدُّه، وعلى كامل مساحة المدينة حتى أطرافها الخارجية. كان لواء ثوار الرقة هو من أطلق الرصاصة الأولى، معلناً بدء تحرير المدينة من هؤلاء الأشقياء.. وقد تمَّ الهجوم السريع على جميع مقرات وأماكن تجمع وتواجد عناصر داعش. وكان التنسيق بين مقاتلي اللواء وأحرار الشام يسيرُ كما كان متوقعاً. وبدأت مقرات التنظيم تتساقط وتتهاوى بسرعة لم نكن نتوقعها حقاً. وللأمانة التاريخية لابد أن أنوّهَ بأن الطبيعة القتالية بين الطرفين كانت مختلفة متباينة؛ وخلافاً لما تحاول وسائل الإعلام العالمية أن تزينه وتجهد في تصويره، أو غرسه في أذهان عامة جمهور الناس ووعيهم.. فقد كان الدواعشة ـ على الأقل في حدود تجربة معركة الرقة ـ جبناء وبائسين وذا أداء قتاليٍ مُزْرٍ حقاً، الأمر الذي أعطى فرصة شبه محققة بأن الانتهاء من هذه المعركة لن يستغرقَ أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام في أبعد التقديرات.

تمَّ نشرُ القناصين والمتاريس المحصنة من قبل جميع الأطراف المشاركة على معظم أسطح البنايات في المحاور الرئيسية للقتال، وفي زوايا الساحات العامة ومراكز المدينة الرئيسية. وبدأت مجموعات الهجوم تتقدم على كافة المحاور، ومن أطراف المدينة الأربعة. حتى أصبح الواقع الميداني لساحة القتال في المدينة في الثماني ساعات الأولى يمكن رصدُه كما يلي:

ـ منذ الساعات الأولى تمَّ تحريرُ مقر المركبات، وهو أحد السجون الرئيسية لداعش داخل المدينة في المنطقة الصناعية، وتحققَ تحريرُ كلّ المعتقلين في داخله من قبل التنظيم وإطلاق سراحهم، حيث نافَ عددُهم على المائة والخمسين سجيناً، وفي الوقت نفسه استسلم كل عناصر التنظيم داخل المركبات، بما فيهم الأمير المسؤول عن المقر. وأصبح الخط الرئيسي الممتد من دوار البتاني وحتى مقام أويس تحت سيطرة مطلقة. ومن زاوية باب بغداد ومقام أويس، حتى مابعد قرى الحمرات ، أي على امتداد مسافة تزيد عن العشرين كيلو متراً شرقي المدينة؛ والتي كانت تحتوي المشلب والرقة السمرا وطاوي ومعظم الحمرات. كما تمَّ نصبُ عدة حواجز على امتداد الخط الشرقي المتصل بناحية الكرامة، بحيث أصبح من المتعذر اختراقُ الجهة الشرقية للمدينة تحت أي احتمال.

ـ تم تدعيم الجسرين من الجهة الجنوبية للمدينة بحاجز كبير وضخم العدة والعتاد لأحرار الشام عند مدخل الجسر الجديد، وتركزّ كل مقاتلي جبهة النصرة عند مدخل الجسر القديم،(وعموماً لم يكن للنصرة، بسبب قلة أعداد مقاتليها، من المهام إلا الحفاظ على مدخل الجسر القديم، ومنع أي دعم أو تسلل من قبل مقاتلي داعش يمكن أن يصل من جهة الشامية باتجاه المدينة)، ومنذ اليوم الأول تمكنت بعض مجموعات أحرار الشام من الاستيلاء على مبنى المركز الثقافي، مقابل مبنى المحافظة، ونشر القناصات من داخله وفوق سطوحه، فتم بذلك إحكام شبه سيطرة على كل حركة الدخول والخروج الرئيسية من مبنى المحافظة، المركز الرئيسي لقيادة داعش، وأصبح الشارع الواصل بين المحافظة والجسر الجديد تحت السيطرة التامة..

وباختصار يمكن رسم نقاط المشهد القتالي على الصورة التالية: باستثناء مبنى المحافظة، (الذي أصبح شبه محاصر حتى اليوم الخامس لابتداء القتال)، ومبنى السياسية الذي تجمع فيه عدد كبير من مقاتلي داعش الذين ظلوا يقاومون، (وكان محاصراً أيضاً). ونزلة الشحاذة ومفرق الجزرة، (وكانت منطقة اشتباكات متقطعة، يصعب على أي طرف أن يتمركز فيها لأسباب متعددة). والخط الواصل بين

الكنيسة، مروراً بشارع المُجمَّع الغربي، حتى دوار النعيم، بات خط تماس واشتباكات متفرقة، وهو الممر الإجباري الذي فصل نظرياً شرق المدينة عن غربها.. ماعدا هذه النقاط، فإن جميع محاور المدينة أصبحت مواقع صديقة بالكامل، وهو ما يقارب نسبة أكثر من 95% من مساحات المدينة وامتداداتها على الجهات الأربع. وقد تحول واقع أي شارع أو ممر يمكن أن يتحرك فيه الدواعش إلى انسداد تامٍ وصادٍ لأية سيارة لداعش، أو دورية راجلة قادرة على التنقل إلا في أضيق المساحات التي لا تكاد تُذكر في المدينة، وبدأنا نستعد ذهنياً ونفسياً لانتظار **أخبار استسلام داعش المطلق** في مبنى المحافظة ومبنى السياسية، تمهيداً **لإعلان انتهاء المعركة والنصر النهائي على التنظيم في كامل المدينة.**

ـ بسبب تفاوت كميات الذخيرة المتوافرة لجميع الأطراف، امتازت طبيعة المعركة باقتصاد ملحوظ لنيران لواء الثوار، وكثافة نيران هائلة من طرف الدواعشة، فقد كنا نرسم لمعركة طويلة، ونحن على اعتقاد بأن مصادر ذخيرتنا محدودة، ولابد أن تصل إلى نهاياتها في لحظة ما. أما داعش، فلم يكن هذا المبدأ قائماً في حساباتهم أثناء القتال، فكانوا يطلقون النيران وكأنهم يغرفون من بحرٍ لا نهاية لإمداداته. في الوقت الذي صدرت فيه تعليمات صارمة إلى جميع مقاتلي اللواء بأن حصة كل فرد فيهم لن تتجاوز الـ300 طلقة على مدار اليوم، والاعتماد على الرمي دراكاً، وأن الرميّ رشاً يُمنَعُ البتة. وبالطبع كان التشددُ متواصلاً حول هذا التقنين المقصود، وإن لم يجرِ التمسكُ بحرفيته في كل المواقف والحالات.

ـ سقطت مباني الدوائر الحكومية المركزية بصورة شبه تامة، وخلال اليومين الأولين من ابتداء المعركة، بدأ التفكير في قطع الاتصالات والتحكم بخطوط الكهرباء والمياه عن المراكز المحاصرة المتبقية لداعش، وإن لم ننجح في هذا المسعى بسبب الصعوبات الفنية الكبيرة. وقد بلغت أعداد قتلى التنظيم خلال الستة أيام الأولى مايزيد على الخمسين قتيلاً في المؤكد، أما عدد قتلاهم حتى نهاية المعركة فقد قارب المائة. أما الأسرى الذين وقعوا في قبضتنا، فقد جاوزوا الخمسة والستين أسيراً، وقد تمَّ إطلاق سراح جميع الأسرى غير المؤكدة صلتهم بالتنظيم بصورة قاطعة، ولا يمكن التحقق من ارتباطهم بداعش في هذه العجالة، لصعوبة نقلهم معنا ولعدم كفاية السيارات آخر المعركة بعد أن اتخذنا قرار الانسحاب فيما بعد. وبحكم مسؤوليتي المباشرة عن الأسرى فقد اجتمع لدينا في مقر مدرسة البحتري في الرميلة، ثلاثة وخمسون أسيراً،(وقد دونتُ بنفسي أسماءهم الثلاثية ومعلومات التعريف الشخصية الخاصة بكل واحد)، ثم تناقص العدد قبل انسحابنا إلى واحد وخمسين أسيراً. فاستقر العدد الأخير الذي تمَّ قَطرُهُ ونقله معنا أثناء الانسحاب على الرقم 51.. أما الجرحى والمصابون من الدواعش، فليس هنالك من حصيلة مؤكدة أو موثقة، على مستوى التقدير العام، لصعوبة معرفة أعداد جرحاهم. فقد كان هذا الأمر شبه مستحيل.

ـ كان عدد أسرانا الذين وقعوا في قبضة التنظيم أقل من ثلاثين أسيراً، وعدد الشهداء قريباً من خمسة وثلاثين شهيداً حتى نهاية المعركة. أما الأسرى فقد كان تنظيم داعش يقدم على إعدامهم إعداماً فورياً خلال ساعات بعد وقوعهم في الأسر، فلم يراعوا حُرمة أسير أو يحافظوا على حياته. وقد بلغت أعداد جرحانا المختلفين، بين إصابات خفيفة ومتوسطة وخطيرة، قريباً من خمس وعشرين جريحاً، بعضُهم شُفيَ خلال الأيام التالية، وبعضُهم أُصيب ـ كلياً أو جزئياً ـ بعاهة مُقْعِدة مدى الحياة. وقبل أن أنتقل إلى الفصل التالي، يجبُ أن أقدم تعريفاً موجزاً عن أحد أهم الشخصيات التي لعبت دوراً هاماً في هذه المرحلة الاخيرة، (فترة التحضير للمعركة وما قبلها وما تلاها بأيام): "أبو المنذر السعودي"، شرعي جبهة النصرة..

كان أبو العباس الأعمى، الأمير العام للنصرة في الرقة، بطبعه شخصية مترفعة مستعلية، يميلُ ظاهراً إلى التصرف بصفته "ممثل الجولاني الأمير العام لجبهة النصرة في سوريا"، وقد راقه هذا الدور كثيراً، وبدأ يتصرف على أنه ليس له صفة قيادية اعتبارية في النصرة، لأنه بحكم الواقع " أكبر من جميع القيادات الموجودة". وقد استعان على هذا الغرض بشخصية " أبو المنذر السعودي" الذي كان يُقدّم نفسه بصفته الشرعي العام لجبهة النصرة.. وأبو المنذر السعودي رجل مربوع القامة، ذو سمت كارزمي وقبول اجتماعي وقدرة مستفيضة على التحدث دائماً دون توقف، وفي كل المجالات تقريباً، مع فقر واضح بالبضاعة الشرعية والمقدرة الثقافية الإسلامية التي يُفترضُ أنها أميز وظائفه. حتى أنه في أكثر من مناسبة شهدتها، كان يجادل شرعي داعش المعروف بلقب"الضيغم"، من داخل غرفة إدارة العمليات في النقطة"ج"، عن طريق القبضات اليدوية، فيصرخ فيه بانفعال واتهام وتسفيه رأي إسلامي أو شرعي، والآخر يجيبه ببرود: "يا أبو المنذر، أنت لست شرعياً، ولا تفهم في الشرع.. تكلم معي في أي شيء تحب، إلا أن تحدثني بالجوانب الشرعية"، بينما كان أبو المنذر يهاجمه، ويؤكد على أنه شرعي، تلقى علومه على يد الشيخ فلان والشيخ فلان في السعودية..

حركياً انتحى أبو العباس عن المخالطة والتدخل المباشر في أي حدث قريب، وأصبح يدير الأمور من الخلف، بينما أوكل إلى "أبو المنذر السعودي" معظم المهام المنوطة بالتعامل مع الآخرين، سواء كانت عسكرية أو شرعية أو سياسية أو حتى أمنية. ولقد كان لي مع أبو المنذر هذا مواقف وحوادث ولقاءات جمّة، لعل أبرزها وأهمها هو لقائي الأول الذي بدأت معرفتي به..

في الأشهر الأخيرة قبل بدء معركة داعش، كان مبنى"اتحاد الكتاب العرب ـ فرع الرقة" قد ظل باستلامي الشخصي، منذ أول يوم شهد تحرير المدينة إلى مابعد ثمانية أشهر لاحقة. ومع أن المبنى قد ابْتُدِرَ ليكون مقر المجلس المحلي الأول المنتخب للمدينة، بعد أن تقدم المجلس باستقالة جماعية، وأعلن عن حل نفسه بعد ثلاثة أشهر فقط عقب التحرير، بسبب الفوضى العارمة التي خلَّفها تنظيم أحرار الشام وتجاوزاته الكثيرة، والتي وصلت إلى حد الاستفزاز والتهديد المباشر لأعضاء المجلس المحلي. انفرط عقد المجلس المحلي، واقتُرِحَ عليَّ أن أتكفل بالمبنى واستلام مفاتيحه والمحافظة عليه وعلى أثاثه إلى أجل غير معلوم.. وبعد بضعة أشهر، جاءني أبو المنذر صحبةَ رجلين معه، ولم أكن أعرفه قبل هذا اللقاء، لأنه كان قد وصل الرقة منذ أيام قليلة. وعرَّفني بنفسه بصفته شرعي جبهة النصرة، ثم أبرز ورقة موقعة من الأمير العام في الرقة، بأن أسلّمه المبنى ليفتتح "مقراً للدعوة"، ويجعله المكتب الشرعي الرئيسي لجبهة النصرة. وحين رفضتُ طلبه بشكل صارم وقاطع، قال: إذن علي أن أراجع الأمير العام للجبهة، وأبلغه بأنك ترفض تسليم المبنى. قلت له: نعم. بالضبط.. هذا ما يجب عليك فعله.. أن تعود إلى الجهة التي أرسلتك لتستلم المبنى، لكي تبلغهم ردي القاطع الرفض بهذا الشأن..

في هذه الأثناء، أخَذَنَا الحديثُ مآخذَ شتى، وجعل الرجل يطوفُ على الغرف والمرافق، ويتفحص الحديقة والمحتويات الكاملة للمبنى. وهنا سألني بعجب زائد: قلتَ لي بأنكم ثوار؟ أجبتُ: نعم. قال: وأنتم تستخدمون هذا المبنى أحياناً لمصلحة ثوار الرقة، منذ أكثر من ستة أشهر؟ أجبتُ: نعم.. قال: عجيب فعلاً.. بالتأكيد أنت تخدعني.. هناك خطأ أو شيء غير مفهوم.. أنتم لستم ثواراً.. ولستم بجيش حر.. ولا علاقة لكم بكل هذا الذي يجري.. فأدهشتني ملاحظته، وتساءلت عن السبب الذي يجعله يفكر بهذه الطريقة، أو ينطق بمثل هذا الزعم، فقال: أنا أعرفُ أنه لم يبقَ في الرقة كلها مقرٌ واحدٌ، ولا مبنى حكوميٌ لم يتمّ نهبُهُ والعبثُ به وبمحتوياته، حتى إن بعض المباني قد حطموا أبوابها، وفككوا نوافذها، واقتلعوا شبكات الماء والكهرباء فيها..

وفهمتُ مغزى أقواله ومقصده عندئذٍ، وما كان يرمي إليه، فقد كان أبو المنذر يتأمل المقاعد الجلدية الثمينة، والتلفزيون، والستائر النظيفة، والمكتبة والكتب وكل الودائع الورقية والمطبوعات الخاصة باتحاد الكتاب العرب.. الأجهزة الطابعة والكومبيوترات، وأجهزة التكييف المتوزعة على جميع الغرف.. كلُّ شيء كان مرتباً ونظيفاً وفي مكانه المعتاد، كما كان عليه قبل شهور.. كان كل مافي المبنى الذي مضى عليه أشهراً تحت تصرفنا يلمع مثل قطعة ذهب براقة. حتى أغطية الطربيزات المزركشة والموحدة اللون، ظلت على نظافتها وأناقتها ورونقها، كعهدها يوم استلمنا المبنى قبل أشهر.. فأضفتُ إلى عجب أبو المنذر ودهشته مزيداً من العجب والدهشة حين قلت له:

ـ ياشيخ هذا المبنى لم نحافظ على كل مسمار وبرغي فيه، وعلى كل أثاثه وموجوداته فحسب، بل إننا أنفقنا عليه وعلى إصلاحه من جيوبنا الخاصة.. إذ ندرَ أن تمرَّ بنا وبه بضعة أيام دون أن يُقصَفَ محيطُه بطيران النظام ـ كونه يقع في بؤرة مركز المدينة ومجمع دوائرها الأساسية ـ مما تسبب بتخريب كثير لمحتوياته: الزجاج الخارجي،الشبابيك، الإضاءة الداخلية والخارجية، وكثير من القرميد الذي يغطي أسقف حديقته المحيطة به.. ولقد أصلحنا من جيوبنا الخاصة كل ما احتاجه من نواقص أو أمور طارئة. وكل ما تلف منه بأفضل مما كان عليه يوم استلمناه.. ثم أضفت:

ـ حتى يوم البارحة فقط، كان عامل التمديدات الصحية قد أنهى كل إصلاحات أعطال الحمامات والمطابخ وكل مستلزماتها.. وقد سلمتُ العامل أجرته كاملة، وبقي له في ذمتي 1500 ليرة، كنتُ أنتظره وأتوقع منه اليوم أن يمرّ على المبنى لأكمل له كامل حقه وما يترتب عليّ من أجرته.. فهتف أبو المنذر:

ـ سنعوضك كل ما أنفقتَ من مالك الخاص على إصلاحات هذا المبنى إن شاء الله..

نظرتُ إليه في شيءٍ من الاستهانة والصَغار، وقلت له إنني لا أقبلُ مالاً منه ولا من غيره، خاصة لما أعتبره واجباً شخصياً لا أدعي فيه فضلاً لنفسي.. وكنتُ في حقيقة الأمر قد أضمرتُ راحة نفسية، لأنه قد يخلصني من عبء المبنى وأمانة المحافظة عليه. وبعد

يومين، تمّ تسليمُه المبنى بعد مشاورات مع أبو عيسى ورغبة منه بذلك، فسمعتُ بعدها بأن أول عملٍ قام به، فور دخوله ومن معه إلى المبنى، هو تجميع كل الأوراق والكتب الكثيرة التي حواها المبنى، وقذفها نحو ناصية الشارع خارج المبنى، وعلى الرصيف المقابل كما تقذف الزبالة. ثم أمر كلّ من حوله أن يفرقوا الكتب الكثيرة على من يرغب بأخذها.. و حرق ماتبقى منها، ورميه في مكبّات القمامة..

خديعة أبو العباس الأعمى وبداية الإنكسار:

يجب أن أؤكد ثانية بأن الوضع العسكري الذي تمتْ السيطرة فيه على كامل مقدرات ومفاصل المدينة، حتى رابع أيام المعركة كان يستحيلُ تفكيكُه أو التلاعب بنتائج الانتصار الحاسم فيه على تنظيم داعش. لقد خسرت داعش معركتها في الرقة، وهي على وشك أن تصير خلفنا وجزءاً من الماضي. فقد كانت المعركة في نهاياتها، وعلى وشك الإنتهاء.. ومسألة إنقاذ ماتبقى من داعش، ومن جميع عناصرها المحاصرين داخل المدينة يُعد ضرباً من المعجزات القتالية، أو الخيال العسكري إن صح التعبير..

في اليوم السابق على إعلان حركة أحرار الشام نيتها الصريحة الانسحابَ وترك المعركة، والذي سوف أفَصِّلُ فيه لاحقاً، جرى حادثٌ صغير بالمقاييس العسكرية القتالية، لكنه كان أكثر من حاسم ومصيري في تطور مجريات ما حدث بعدئذٍ. ولم يكد ينتبه إليه كثيرون في غمرة الحدث العام، وروعة التقدم الساحق الذي أحرِزَ ضد تنظيم داعش. فقد تفاجأنا بأمر مبهم وغامض الدلالة، من قبل قيادة النصرة إلى جميع عناصرهم ومقاتليهم المرابطين عند الجسر القديم بالانسحاب فوراً، وترك حاجزهم قبالة الجسر، وهم الذين كانوا بمثابة متراسٍ صادٍ أغلق مدخل المدينة الجنوبي، ومنع داعش التي جمعت كل قواها في الريف الكائن على امتداد خط الشامية، جنوبي النهر، (من أطراف حلب، وحتى التبني في محافظة دير الزور)، من التقدم أو اقتحام المدينة، أو رفد مقاتليها المحاصَرين بقوة جديدة ومقاتلين جدد ..

كان ذلك الحاجز، يكفيه من أعداد المقاتلين مادون العشرين مقاتلاً حتى يتحكموا بحركة العبور من خلال الجسر القديم والوصول إلى كورنيش النهر، ومثله كذلك ما يمكن أن يقال عن الحاجز الآخر، حاجز الجسر الجديد. وكانت قيادة جبهة النصرة، كما سبق القول، قد اتخذتْ من مقام أويس القرني مركزاً رئيسياً لها. فجاءت الأوامر إلى مقاتلي النصرة بترك الحاجز الذي كان يقع بجانبه مقر القيادة العسكرية للنصرة، والتوجه فوراً إلى المقام ومرابطة الجميع فيه. أثار القرار دهشتي حقاً، فبعد أن انسحب عناصر النصرة وأخلوا حاجزهم والمبنى عند الجسر القديم، تدفق حشد الدواعش بأعداد هائلة من طرف الجسر. واستولوا جزئياً على قسم من كورنيش النهر خلال فترة وجيزة، وهنالك نصبوا فوراً أعداداً من مدافع الهاون، وشرعوا برميٍ متواصلٍ وكثيف على الحاجز الثاني عند الجسر الجديد، والذي منع ـ حتى الساعة ـ تسلل أي داعشي من الدخول إلى المدينة.. باختصار شديد، لو أن داعش ـ على سبيل الفرضية ـ قد استدعت مدداً عسكرياً تعداده آلاف المقاتلين بكامل سلاحهم، لما أمكنها أن تجتاز الجسرين فيما لو ظل هذان الحاجزان مرابطين عند مدخل الجسرين، ولو استمر القتال لعام كامل، ولم يكن الأمر يحتاج لصدها لأكثر من تدعيم هذين الحاجزين بشكل دائم وصمودهما..

بعد أن استولت داعش على نقطة حاجز النصرة، الذي كان يغلق الجسر القديم تمام الإغلاق في تصديه ومواجهة أي دعم أو تعزيز محتمل للدواعشة من جهة الشامية، استمر الرمي الكثيف والمتواصل على حاجز أحرار الشام مقابل الجسر الجديد بضعة ساعات، وبدأ عناصر الحاجز يطلبون عوناً ونجدة عاجلة، وكميات من الذخيرة للتصدي لقصف الدواعشة المتواصل بمدفعية الهاون، ومع إلحاحنا والطلب العاجل من قيادة الأحرار أن يحافظوا على صمود حاجز الجسر الجديد بأي ثمن، ريثما يتم تدبر أمر الخرق الفظيع الذي ترتب على قرار قيادة النصرة بسحب حاجزهم، وليمنعوا الثغرة الثانية من الإختراق، ثغرة مدخل الجسر الجديد، إلا أن المفاجأة الثانية لم تتأخر طويلاً عن المفاجأة الأولى؛ فقد صدرت الأوامر فوراً من قبل قيادة الأحرار بالتراجع وترك الجسر الجديد.

أصبح محور(الجسر الجديد ـ المركز الثقافي ـ مبنى المحافظة)، وجميع الطرق المتصلة به محتلاً ومسيطراً عليه من قبل داعش خلال ساعات، ولم تتوقف الأعداد الهائلة من مقاتلي التنظيم، الذين تدفقوا من ريف الشامية ومن محافظات أخرى عبر الشامية، بعد استدعائهم على عجلٍ خلال الأيام الماضية، وخلال ساعات اليوم الخامس للمعركة، تمكنت داعش من السيطرة على شارع النور، واستعادت كل محاور القتال المتصلة بالدرعية، وأعادت احتلال كل المباني الرئيسية التي تمت السيطرة عليها فترة الأيام السابقة، من أقصى جنوب المحافظة إلى أبعد نقطة شمالاً. وحين حصل الاجتماع ليلاً في غرفة العمليات المشتركة في النقطة"ج"، والاستفسار عن السبب الذي جعل أبو العباس وقيادة النصرة الآخرين ينسحبون من الجسر القديم، مما أعطى سبباً وذريعة للحاجز الآخر، حاجز أحرار الشام عند

طرف الجسر الجديد، بالانهيار سريعاً، لم يُقَدِّم أبو العباس إجابة شافية، واكتفى بأن راح يجمجم ويشكو بأن عناصر النصرة كانوا على وشك الحصار والوقوع في الأسر، وأن بعضهم أصيب إصابة بليغة، مما اضطره إلى التصرف بسرعة لحمايتهم، وصدور أمر عاجل بتجميعهم عند مقر مقام أويس. في الوقت الذي تدخل أبو المنذر الذي كان موجوداً أثناء ذلك في غرفة العمليات، وراح يموّه الموضوع ويلقي علينا خطبة حماسية بيانية عصماء، كخطب صلاة الجمعة، شديدة الأثر، عن فضل الصبر والرباط، وأن تولية الأدبار والتحيز في مواجهة العدو إلى فئة، من السنن المؤكدة في غزوات النبي، وأنه ما رميتَ إذ رميتَ، ولكن الله رمى، وكلُّ شيءٍ بأقدار الله؛ فالنصر منه والانكسار بإرادته.. كانت خطب أبو المنذر تكاد تكون تمهيداً نفسياً للاستعداد لتقبل فكرة الانسحاب والهزيمة.. وهكذا تُرِكَ الجواب الشافي المطلوب من أبو العباس تفسيره، والإجابة عليه، معلقاً، وقد ضاع في زحمة الخطب الإنشائية البيانية المؤثرة التي تولى إلقاءها علينا أبو المنذر السعودي..

بعد حادثة حاجز الجسر القديم هذه، بدأ أبو العباس يُلَمِّح بأنه قد عزم قراره على طلب دعم كبير من جبهة النصرة في دير الزور، وعرض في أكثر من مناسبة تلت ذلك أنه أجرى مجموعة اتصالات، ووضع قيادة الجبهة في صورة ما يجري على الأرض من تطورات في الرقة. وفي الأيام التالية، أعاد القول مبتهجاً بأن دعماً هائلاً يقارب الثلاثة آلاف مقاتل من النصرة، بكامل ما يحتاجون من أسلحة وذخائر ومؤن، على وشك الانتهاء من إعداد تجهيزاتهم وعدة سفرهم إلى الرقة خلال ساعات قادمة.

كان أبو العباس لا يستطيع التنقل أو الحركة ـ بسبب كفّ بصره وعاهته الدائمة ـ إلا بالاستعانة بابنه الشاب الذي كان في حدود العشرين عاماً، وفي يوم 13 كانون الثاني بداية عام 2014، (وهو اليوم الذي بدأ فيه الانسحاب من المدينة)، وكنتُ في مقر أحتجاز أسرى داعش في مدرسة البحتري، ترامى إلى سمعي حديث عن سفر أبو العباس إلى منطقة الشحيل في ريف دير الزور الشرقي، بغرض مرافقة الحملة العسكرية الكبيرة التي أسهب قياديو النصرة في استجلابها من الشحيل إلى الرقة ادعاءاً، (طبعاً في هذا التاريخ كان قد مضى على مغادرة جميع عناصر حركة أحرار الشام حوالي أسبوع تقريباً)، فأسرعتُ إلى النقطة"ج"، وكنتُ أضمرُ في نفسي أن أعرض فكرة خطرت لي على أبو عيسى، وهي أن يبادر إلى احتجاز الشاب الصغير، ابن أبو العباس، معنا في النقطة"ج" لحين عودة الشيخ، وذلك لتهاوي ثقتي التي بدأت تتناقص بكل ما يُقْدِمُ عليه هؤلاء، وحين وصلت النقطة"ج" كان المشهد مخيفاً حقاً..

أصيبَ أبو عيسى قبل لحظات من وصولي ـ وكان قد خرج لبرهة يتفقد بعض المصابين الذين شُرِعَ في معالجتهم عند كازية الدّلوم قرب النقطة"ج" ـ بطلقٍ ناريٍ طائش من جهة الدواعشة، فبُتِرَت إصبعه، وكان دمه ينزف غزيراً، ولم يعد متاحاً تقديم أية معالجة سريعة له، كحالة إسعافية عاجلة، للافتقار إلى أبسط المستلزمات، من شاش أو قطن طبي أو مطهر عادي أو غير ذلك.. لا له ولا لأيٍ من الجرحى.. وكان معظم قادة الكتائب متواجدين في النقطة وهم في أجواء أشد ما تكون من الإحباط واليأس، فقد كان هجوم داعش قد توالى خلال الأيام الخمسة التي تلت حادثة الحاجزين المرابطين عند الجسرين، بحيث لم يعد يفصلُها عنا إلا بضعة كيلو مترات، وكل مقاتلي اللواء تقريباً قد تجمعوا وحوصروا في محيط شارع الماكف والنقطة"ج" والشوارع الفرعية القريبة..

كانت المفاجأة شديدة الوقع والتأثير على نفسي، حين ألفيتُ أبو العباس وابنه ومعظم عناصر النصرة، قد غادروا المكان، خلا حوالي خمسة قياديين وإداريين آثروا البقاء معنا، ومنهم أبو المنذر السعودي.(وسوف أشرح لماذا بقي أبو المنذر ولم يغادر معهم بعد قليل)، وحين استعلمتُ عن الموضوع بادرني جماعة النصرة بالقول: "ذهبوا مع الشيخ أبو العباس لمرافقة الرتل القادم من الشحيل، لمساعدة عناصر الرتل على السير ليلاً والوصول بسرعة عبر طرق مأمونة".. فانتحيتُ بأبو عيسى، الذي كان قد شحب لونُه ونزف دمُه طويلاً بعد بتر إصبعه، حتى بات لايقوى على الكلام بسهولة، وجلسنا جانباً مستفسراً عما يجري.. فقال همساً:

ـ أظنه قد هرب نهائياً، ولن يعود..

فسألته: كان بإمكانك أن تحتجز ابنه كرهينة حتى يعود ..؟ فلم يُعلقْ على كلامي. وطلب مني أن أتصل بأبو العباس وأحادثه عن طريق السكايب، مستفسراً منه للمرة الأخيرة.. اتصلتُ به عبر السكايب، وراح الرجل يقسم بأغلظ الأيمان أن الأمور كلها على مايرام، وأن الرتل على وشك التحرك خلال أقل من ساعة، وراح يعدد أنواع الذخائر والأسلحة التي يحتويها الرتل، ثم سألني إن كنا نحتاج شيئاً آخر نسيه، لأذَكِّره بتجيزه وإحضاره قبل أن ينطلق الرتل بعد لحظات، واستمر يتدفق في الكلام المطمئن خلال نصف ساعة، وقد شجعنا على المقاومة والصبر والصمود لاثني عشرة ساعة.. لا أكثر، ريثما يحضر..

بدت فكرة الإنتظار حتى نهار اليوم التالي خيالية ومفرطة في التهور، فالمعركة على وشك الحسم قبل الصباح في المؤكد، وكل هؤلاء المقاتلين هم في حكم الشهداء أو الأسرى خلال الساعات القادمة على أبعد التقديرات. وحين اتصل أحد عناصر النصرة بأبو العباس في الساعة التي تلت ذلك، لم يردّ عليه أحدٌ ، وبدا مؤكداً بأن أبو العباس قد غادر الرقة إلى الأبد كما هو مظنونٌ به.. فلم يعدْ يسعُنا إلا أن نأخذَ قراراً عاجلاً بطريقة ما، للانسحاب على وجه السرعة.

خيانة أحرار الشام:

سوف أعود أدراجي إلى ثمانية، أو تسعة أيام مضت قبل هذه الأحداث الأخيرة التي أسردها الآن..

بالتحديد أكثر، إلى اليوم الخامس من بدء المعركة، وقبل حادثة فتح الثغرتين لداعش عبر الجسرين، حيث كان النصر المؤكد على داعش، كما شرحت وفصلت في الفصل الماضي، قد وصل إلى قرار شبه مؤكد، وهزيمة داعش باتت في حكم المنتهية، ولا تنتظر إلا الإعلان عنها بين فينة وأخرى. في هذه الأثناء، أي في اليوم الخامس، حدثت حادثة مركزية صادمة حقاً، ولم تكن متوقعة تحت أي احتمال، ولا في أية ذهنية مفتوحة على مآلات الأحداث كما كانت تجري عليه في الواقع.. هذه الحادثة سوف أدعوها"اعترافات مؤيد"..

مؤيد شاب في العشرينات من عمره، وهو من شخصيات كتائب حذيفة بن اليمان غير المعروفة، وشبه السرية في الوسط العام الرقاوي والثوري.. كان هذا الشاب ـ القيادي نوعاً ما في كتائب حذيفة ـ يُعَدُّ المرافق الشخصي لـ"الخال أبو معاوية"، (وهو أبرز شخصية مؤثرة في حذيفة بن اليمان، وأقرب قيادييها من قيادات داعش، ومن أبو لقمان شخصياً)، فهو مستودعُ أسراره العميقة، وصندوقه الأسود إن صح التعبير، لأن "الخال أبو معاوية" لم يكن ليتحرك أية حركة دون مرافقة مؤيد هذا أو استشارته، فهو شديد الالتصاق به بحكم درجة قرابة قوية لم أعد أتذكرها اليوم، (وأظنه كان ابن اخيه المباشر، أو أحد أبناء عمومته)، فضلاً عن كون مؤيد صديقه منذ أول أيام الثورة وفترة تأسيس كتيبة حذيفة، وزيادة على ذلك ـ وهذا أحد أسباب التزامه الدائم بمرافقة "الخال أبو معاوية" ـ فقد كان مؤيد هو المسؤول المالي ومدون كل مصادر وواردات وصرفيات وإنفاقات كتيبة حذيفة، وهو المُطّلع على أدق أسرارها الداخلية..

وقع مؤيد إذن في قبضتنا أسيراً في ثاني أو ثالث أيام المعركة، ولقد ذكرتُ فيما سبق بأن حذيفة بن اليمان كانت قد انحازت إلى تنظيم داعش منذ أول إعلان بدء المعركة والقتال، بل ولعلها كانت الفاعل الأهم والأكبر في عدة المعركة التي كانت داعش تستعد لها. فكان أسرُ مؤيد يعد بحق صيداً ثميناً من جهة لواء ثوار الرقة. وأثناء التحقيق معه اعترف مؤيد بأمر لا يكاد يُصَدَّق، بل الأصح أنه باح بسر خطير. وربما لم يكن في تلك اللحظة الحرجة، قد عَقَلَ خطورة ما أدلى به من شهادة عابرة، ولم ينتبه كثيراً إلى ما قال.. ولقد حسبتُ ما أدلى به مؤيد، للوهلة الأولى، نوعاً من الكذب الرخيص والتلبيس الصريح المضلل والمُتَعَمَّد، أو هو ضرب من التملص والهروب من أي إقرار بحقائق ما كان يختزنه من أسرار خاصة به، ومن تفاصيل ومعلومات عن داعش.

كان مؤيد ـ رابع أو خامس أيام المعركة ـ يسردُ علينا ـ مُدلياً ومعترفاً ببعض الوقائع العادية غير المهمة ـ بعضَ مادار في تلك الاجتماعات والمشاورات بين قياديي داعش، وبين بعض الكتائب المنضوية الأخرى تحت جناح داعش، ومنها كتائب حذيفة، (والتي استهدف عناصرُها أثناء الاشتباك، وعلى رأسهم أبو حمزة الشامي، أكبر عدد من اللواء، وسقط برصاصهم معظم شهداء الثوار)، أو بعض الكتائب المبايعة داعش سراً أوعلناً، ففي فترة التحضير للمعركة، ومثلما كنا منشغلين في حركة عمل متواصلة ودؤوبة قبل اشتعال المعركة، كان الطرف الآخر، داعش وجميع الكتائب المتحالفة معها في القتال، في حالة اجتماع لحظي وتدبر دائم واتصالات متواصلة.. وأثناء أحد هذه الإجتماعات السرية، التي جمعت معظم أمراء داعش وقياديين آخرين من كتائب أخرى، كان "الخال أبومعاوية" قد حضر إحدى تلك الاجتماعات السرية الخاصة، وبرفقته ـ كما هو معتاد دائماً ـ الشاب مؤيد، وقد حضر أبو لقمان الإجتماع..

وأثناء الحديث أبلغ أبو لقمان الجميعَ تفصيلاً مُهماً أثناء التحضير للقتال؛ فأخبرهم بأنه اتفق مع تنظيم أحرار الشام ـ الطرف الأساسي في المعركة ـ وأخذ منهم عهداً أكيداً ووعداً نهائياً، ومن " أعلى مستوى في قيادة أحرار الشام"، **أنهم سوف يفتحون ثغرة للتنظيم من جهة الجسر الجديد لوصول الإمدادات إلى داعش من خارج المحافظة، ثم ينسحبون من أرض المعركة، بل ومن كامل محافظة الرقة بعد بدء القتال بثلاثة أو أربعة أيام.** ولقد أقسم أبو لقمان على ذلك، وبلّغ الحاضرين بالأمر، وكأنه أمر منجزٌ لا رجعة فيه، وقد انتهى ومضى، وما عليهم إلا أن يستعدوا لمعركة لن يشارك "أحرار الشام" إلا في بداياتها، ومن باب ذرّ الرماد في العيون ليس إلا.. وبما أن

"جبهة النصرة" لم تكن تشكل عقبة أو تفصيلاً مُهماً في حسابات داعش القتالية، لضآلة حجمها التنظيمي والعسكري، ولقلة عدد مقاتليها في الرقة، فقد بلّغهم أبو لقمان القرار التالي: عليكم إذن أن تستعدوا لقتال لواء ثوار الرقة فقط.. فإذا تمَّ الانفرادُ باللواء في ساحة القتال ، فإن نتائج المعركة، والحال كذلك، قد باتت شبه مؤكدة ومحسومة، وأنها أصبحت منتهية منذ هذه اللحظة.. وأضاف أبو لقمان: اعتبروا الرقة منذ الدقيقة الأولى لبدء القتال، قد أصبحت بكاملها خالصة لنا، وتحت سيطرتنا الكاملة.. وبطبيعة الحال، فقد كان مؤيد يدلي بتلك الأقوال، وهو معزول في قبضتنا، ولا يعلم شيئاً عما كان يجري في الخارج من تفاصيل وتطورات في ميدان المعركة..

للوهلة الأولى كما ذكرت، لم يساورني أي ريب في أن مؤيد كان يكذب ويلفق، بتوصيل هذه المعلومة عرضاً إلى أسماعنا، ولغرض خبيء في نفسه.. ولما فرغت من الأسرى ورجعتُ مسرعاً إلى النقطة"ج"، وقبل أن أتمكن من تبليغ غرفة العمليات بمعلومة الأسير الخطيرة هذه، هالني ما فوجئت به وألفيته قد أصبح أمامي، وليس خلفي.. كان معظم القادة العسكريين في تنظيم أحرار الشام في النقطة"ج"، قد فرغوا لتِّوههم من إبلاغ أبو عيسى قرارَهم هذا، بلهجة معتذرة خجولة، فانتحيتُ مع أبو عيسى على انفراد، متسائلاً.. فأجاب ـ بالحرف ـ بلهجة محبطة ومرارة واضحة:

ـ " الجماعة طلعم خرطي.. بلغونا انهم بدهم ينسحبون الحز".

فقلت له: وما العمل الآن؟ هذه خيانة صريحة..؟

قال: خيانة أو غير خيانة.. ماذا أستطيع أن أفعل لهم..؟ هل أستطيع منعهم؟ قتالهم..؟ هل أستطيع إجبارهم على التراجع عما عزموا عليه..؟ لقد ورطونا في القتال وهاهم الآن يتركون أرض المعركة.. بل ويريدون ترك محافظة الرقة بأسرها، بعد أن نهبوها بالكامل، وامتصوا كل قطرة خير وفضلة مال فيها..

كانت غرفة الإجتماعات الرئيسية في النقطة"ج" تغص بالحاضرين: الأفراد القياديين والإداريين في النصرة، الذين لم يذهبوا مع أبو العباس ولم يرافقوه إلى ريف الزور، وآثروا البقاء في المدينة ومتابعة سير العمليات القتالية إلى نهايتها، (كان أبرز هؤلاء أبو فرح وأبو دجانة وأبو زينب ـ الذي لم يكن حاضراً وقتها ذلك الإجتماع، إضافة إلى أبو المنذر السعودي بالطبع)، وبضعة من القيادات الميدانية العسكرية لأحرار الشام، مع الشرعيين والأمنيين، وبعض قادة الكتائب في لواء ثوار الرقة.. وكان الشرعي العام لأحرار الشام، هو من بدأ الحديث أولاً، فقال مخاطباً الجميع:

ـ تعلمون أيها الأخوة أن تنظيم داعش قد أفتى بكون حركة أحرار الشام مرتدين أصليين.. كما أفتى بأن جميع المقاتلين الآخرين، سواءً منهم الأخوة في جبهة النصرة أو في لواء ثوار الرقة، هم من البغاة أو مجرد فئات باغية.. هذا يعني أن قتاله ضدنا ومواجهته لنا، سوف تستمر إلى النهاية، وحتى القضاء على أحد الطرفين بالمطلق، لأنهم لا يرون ـ حسب فهمهم للدين وللشريعة من منظورهم ـ أن المرتدَّ الأصلي تُقبلُ توبتُه، أو تحقنُ عودتُه عن الردة دمَه، بل إنهم أفتوا بأنه يُقتلُ حداً لا ردةً، حتى وإن رجع عن ردته وتاب عنها.. هذا يعني أنهم سوف يقاتلون حتى الموت، وحتى آخر رجل فينا وفيهم.. وهذا أمر مُكلفٌ في الدماء ولا نرى الحكمة في مواجهته واحتماله..

أضاف أبو حيدرة، القائد العسكري للأحرار، مستأنفاً حديث الشرعي:

ـ الأمر بالنسبة إليكم أهونُ من ذلك بكثير، فإن مجرد الدخول في الصلح أو الإقرار بالجنوح عن القتال وحقن الدماء، يعتبرُ بالنسبة إليهم "فيءٌ إلى أمر الله"، عملاً بالآية الكريمة التي تنص على قول الله: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيءَ إلى أمر الله).. فواقع حال لواء ثوار الرقة والجبهة، يمكنُ أن يُفضَّ هذا النزاع بمجرد تدخل طرف آخر من الأطراف، والدعوة إلى الصلح وحقن الدماء، أما بالنسبة للأحرار، فالأمر مختلف.. إنهم لا يرون إلا قتالنا حتى النهاية، ولايقبلون بصلحٍ مع مرتدٍ، حسبما يزعمون..

في الواقع الذي كان عليّ حينئذ أن أواجهه معاينة، وأن أقرَّ به دون لبسٍ أو تزوير للحقيقة العارية، أنني لو لم أقع بمحض الصدفة، وقبل ساعات من هذا الإجتماع، وأصغي بنفسي إلى ما أدلى به مؤيد من اعترافٍ خطير فاهَ به دون احتراز، ربما لصدَّقتُ ما يقوله هؤلاء، بل ولربما حملتُ مقالهم على أكثر ما يحتمل من جدية، أو رأيت ولمستُ فيه ملمحاً من صواب، أو نية طيبة واستشراف ماهو خير للجميع وماهو أقرب إلى السلامة.. هذا افتراض أولي محتمل.. بل سوف أذهب أبعد من ذلك في تنظيف كل النوايا التي باتت تغلف

المواقف، فأقول لو أن رواية اعترافات مؤيد الأخيرة تلك، قد وصلتني سماعاً من صديق ما، مهما بالغتُ في الثقة المفرطة به وبنقله وروايته، فلربما لم تمرَّ هذه الرواية دون سحابة من ظلال شك أكيد، ولما ارتفعت ريوبي بخيانة تنظيم حركة أحرار الشام إلى رتبة اليقين المطلق الذي لا يُكَدِّرُه أي تأويل.

تتابع سير ذلك الإجتماع ـ الأخير ـ بليداً وئيداً ثقيلاً، ومفتوحاً على هبوب رياحٍ من الحزن والإحباط والشعور بلا معنى كل مايدور من حولنا، وكان أبو المنذر السعودي قد انتظر حتى فرغ قادة أحرار الشام من تقديم ما وَسِعَهُم من أعذار ومبررات للإنسحاب، ليستأنف بعدهم في أخذ المبادرة، والانطلاق في الكلام على عواهنه مذكراً بفضل الصبر على أذى العدو ومكر الخوارج البغاة وشرهم، مكرراً علينا نفس الآيات والأحاديث التي اعتاد أن يسمعنا إياها في كل مرة..

وأخيراً اتفق القياديون في حركة أحرار الشام فيما بينهم، وبين بعض القادة الميدانيين في لواء ثوار الرقة، على أن يسلموهم مما تبقى من ذخائرهم الخاصة مقدار حمولة سيارتي شحن صغيرتين، مليئتين بصناديق ذخيرة خفيفة، إضافة إلى تعهدهم بترك إحدى الدبابات التي يملكونها تحت تصرف اللواء، لمتابعة قتاله لتنظيم داعش قبل أن يغادروا المحافظة نهائياً.. وهو القرار الذي عزموا عليه، وشرعوا في التحضير له عقب انصرافهم من الاجتماع مباشرة.. وفي العموم، لم تستوفِ الذخيرة التي تركوها لنا ـ كجائزة ترضية مُسْكِتة ـ أكثرمن حاجتنا إلى الذخيرة لمدة أسبوع قادم في أعقاب ذلك اليوم. أما الدبابة التي تركوها بين أيدينا وخلفوها قبل رحيلهم، فلم تعد ذات فائدة أو قيمة، ولم نحتَجْ إليها في أمر من أمور القتال في مواجهة داعش، لأنها كانت تحتاج إلى زيت خاص وذخيرة من قذائف الدبابات الخاصة بها.. وهو ما لم نكن نملكه، ولا زودنا تنظيم أحرار الشام به، فاضطُرِرنا إلى رَكنِها جانباً حتى حانت ساعة رحيلنا بعد الأسبوع الذي تلا ذلك، وقد أقدمنا على حرقها حتى التفحم قبل رحيلنا وانسحابنا فيما بعد، وتركها وراءنا حتى لا تستفيد داعش منها..

في تلك الليلة نفسها، أقدم الأمنيون في حركة أحرار الشام على فتح المقرات جميعها، وأطلقوا سراح من كان في سجونهم من أسرى وسجناء ومخطوفين شتى.. وبسرعة لافتة خلال دقائق، كان كل من في معتقلات الأحرار قد ألْفوا أنفسهم في الشارع دون سؤال أو جواب. كان أحرار الشام يستعجلون الرحيل ويعدون الدقائق حتى يصلوا إلى خارج حدود المدينة، وحين صار قرارُ رحيلهم واقعاً مؤكداً، وعلى شيوع علمٍ به من القاصي والداني، أعلنت بعض فصائلهم وكتائبهم أنها لن تمضي معهم، ولن ترافق الرتل الذي تجهز حينئذٍ للرحيل، وبلّغوا قادتهم صراحة أنهم يؤثرون القتال حتى الموت ضمن صفوف لواء ثوار الرقة، والبقاء مع أهلهم وأخوتهم حتى النهاية، على أن يُقْدموا على انسحابٍ مُذِلٍّ كهذا الانسحاب، الذي لن يتخلصوا من ثقل عبئه الأخلاقي على كواهلهم ما عاشوا بعد تلك اللحظة، وذلك ما جرى به الأمر حقاً فيما بعد، فقد انضم إلى صفوف كتائب الثوار مجموعات وأفراد شتى من أحرار الشام، ظلت تقاتل مع الثوار حتى ساعة الإنسحاب الأخيرة من المدينة..

وقبل قرار انسحاب حركة أحرار الشام بفترة غير معلومة، يبدو أنهم قد عقدوا عزماً، وبيتوا نية أخرى على قرارٍ آخر لا يقلُّ طيشاً وإجراماً عن فداحة الخيانة التي أقدموا عليها، فقد كان هنالك من مقاتلي حركة أحرار الشام، من المرابطين على الفرقة 17 في مواجهة جيش النظام، منذ حوالي السنة التي مضت، قريباً من 140 مقاتلاً، معظمهم من أهالي الرقة وشباب المحافظات الشرقية، وقليلٌ منهم من باقي المحافظات السورية الأخرى.. ولقد رسموا خطة الإنسحاب كالتالي: في حال انسحابهم ومرورهم الإجباري بجانب الفرقة 17، فإن تعرضهم لهجومٍ وشيك من قبل قوات الفرقة 17، ووقوعهم بين فكي داعش والنظام، هو احتمال قائم وفي حكم المؤكد.. هذا فيما لو أخلوا القوس الواسع من دائرة الحصار المطبق على الفرقة، والذي يشاركون فيه بعديد نقاط الرباط في ذلك الحصار، وبأعداد تقارب الـ 140 مقاتلاً كما ذكرت، فرأوا أن يتخلوا عن مقاتليهم الجاثمين في الخنادق في مواجهة النظام، (خاصة وإن معظمهم كما أسلفت، هم من منتسبي الجيش الحر فيما سبق من أبناء مدينة الرقة)، وأن ينسحبوا خلسة، ودون تبليغ أخوانهم في الخنادق بنيتهم تلك بالإنسحاب..

مضى رتل الأحرار خارج المدينة، وانقطعت السبل بأولئك المقاومين على جبهة الفرقة 17، حيث فوجئوا بهذا الوضع الجديد غير المحسوب وغير المتوقع، وبدأت ذخيرتهم تتلاشى ساعة تلو أخرى، ومؤونتهم من الطعام تنفذ بالتدريج، فلا من يُمَوّنهم ولا من يُذَخّرهم.. ولست أدري إن كان هذا الوضع الجديد المتصل بأولئك المقاومين، جزءاً من الصفقة التي أبرمها أبو لقمان أمير داعش مع قيادتهم أم لا.. غير أن الذي حدث، هو أن داعش أطبقت الحصار عليهم مباشرة من خلفهم، وطالبتهم بتسليم أسلحتهم والاستسلام فوراً..

رفض مقاتلو الأحرار التسليم لداعش، وطلبوا من قادة داعش أن يفتحوا لهم ثغرة تمكنهم من الخروج من هذا الحصار، منسحبين من المرابطة على الفرقة 17، وأن يتركوهم يمضون خارج المحافظة.. وقد فاوضتهم وسايرتهم داعش بعض الوقت، ثم وافقتهم على أن ينسحبوا إلى حدود محافظة الحسكة، شريطة أن ترافق رتل انسحابهم حتى قرية الشركراك على حدود الرقة الشمالية، وأن لا يحملوا معهم ما تبقى من ذخيرتهم. وبعد أن تم للدواعش ما أرادوا، رافقوا رتل الأحرار الكبير هذا إلى مبعدة عدة كيلو مترات خارج المدينة، وهناك عند أحد الخنادق الكبيرة، قاموا بمباغتتهم والغدر بهم، حيث نفَّذوا فيهم إعداماً جماعياً، فلم ينجُ من رتل أولئك المنسحبين أحد، حيث تمت إبادتهم جميعاً، فتركتهم داعش في ذلك العراء، ثم قفلوا راجعين إلى المدينة..

(تحرير) "المطار والفرقة17 واللواء" بقرار من نظام الأسد:

ربما لم يعد مجدياً اليوم كثيراً القولُ بأنَّ ماسُمّيَ بتحرير المطار والفرقة 17 واللواء 93، كان قراراً اتُخِذَ من قِبَل نظام الأسد نفسه. سيبدو هذا الإقرارُ في نظر كثيرين بؤساً سياسياً في الحكم على الأحداث، ومصادرة استباقية لإلباس ذلك الانتصار الداعشي، السريع والنوعي، لبوسَ المؤامرة التي تستبقُ الموقف في الافتئات عليه. وصولاً إلى الحكم على داعش حكماً واضحَ التجني، وجريء الافتراء بحق أولئك "المجاهدين". مع هذا لن أتراجع عن هذا الحكم الذي لا أراه يخرج عن منطق الأمور والموضوعية قيد شعرة. فلنتأمل المشهد كما هو في الواقع، ودون كثيرٍ من الزخرفة والقول البديع:

ـ القطع العسكرية الثلاث باتت تشكل خلال أعوامٍ من الثورة عبئاً على النظام، وكلفة لامعنى لها. فهي قطع محاصرة بكثافة من مقاتلي الجيش الحر، قليلة الفاعلية القتالية، كما أنها تستهلكُ ـ أي تلك المواقع العسكرية ـ حاجاتها اللوجستية ومخصصاتها القتالية اليومية، عبر إنزالات تتم بوساطة مروحيات. لا أمل في أن تحقق أي انجاز عسكري، وباستثناء أنها كانت مراكز متقدمة لإدارة الحرب على الثورة عن طريق عملاء على الأرض، متغلغلين داخل المدينة وأريافها، فليس واضحاً ماهي وظيفتها العسكرية، ولا أهدافُها التي يمكن أن تجنيها من هذا التصدي لحصارها المزمن، والذي لم يخرج بجدوى أو طائل للطرفين، لا لها ولا للمحاصرين، والجمود الحاصل، كواقعة عسكرية، كان مرشحاً لأن يستمر لمائة سنة قادمة، دون فائدة أو نتائج فيما لو استمر بنفس الظروف، ونفس الآليات التي تحكمه وتحيطه.

ـ إذا فكرنا جيداً واقتنعنا بأن داعش كانت تؤدي وظائفها على الأرض ضد الثورة بأفضل مما كان يؤديه النظام، وخيرٍ من أدائه على الأرض بما لا يقاس، وأنها كانت تنجز في شهر ما يعجز النظام عن إنجازه في سنة، وتنفذ عمليات انتقام ضد الأهالي والثوار على حدٍ سواء، وهي تتحرك استخباراتياً بحركة مطلقة الحرية، فإنه يصح الاستنتاج عندئذٍ أن"إهداء" المكان الذي كان يشغله النظام، ممثلاً بقواته النظامية في مطار الطبقة، وشمال المدينة حيث الفرقة 17 تحتل موقعاً استراتيجياً مفضلاً يفصل نصف المحافظة الشمالي عن نصفها الجنوبي، والموقع الحصين للواء 93، المشرف من تلٍ عالٍ على أرض منبسطة تحيطه من جهاته الأربع؛ إذا تمَّ منح هذه الميزات الاستراتيجية القتالية لداعش مؤقتاً، أما كان ذلك أجدى وأولى من ذلك التصدي اليائس لمقاتلي الجيش الحر؟

ـ من جهة أخرى، أما كان ذلك التحرير الإفتراضي الإعلامي، سوف يمنح داعش الشعبية التي تفتقدُها، وسوف يقنع من لم يصل إلى القناعة التامة بعد، بأن هؤلاء "المجاهدين" هم وحدهم من تطوى الأرضُ تحت ضرباتهم.. مؤيدين بالروح القدس وبالملائكة التي نصرت النبي يوم بدر..؟ أليس كل هذا كافياً لضخ كتلة بشرية مترددة وهي تنتظر بين الإقدام والإحجام؟ أليس المطلوبُ اليومَ هو تزويد داعش بحاضنة أهلية مقاتلة ومؤيدة حتى تظل طرقُها مفتوحة؟ إن إنجاز "هذا الفتح المبين" في مدة لا تتجاوز ستة أشهر، فيما عجز الجيش الحر عن التقدم فيه قيد شعرة واحدة، خلال ثلاث سنوات، لم يَخْطُ فيها إلى النصر قاباً، ولم ينجزْ شيئاً مذكوراً.. أليس هذا بحد ذاته معجزة؟

ـ من جهة أخرى.. أليس مجدياً أن ينتقل السلاح الذي لم يعدْ له جدوى أو فائدة، من أيدي"الأخوة جنود الاسد"، إلى "الأخوة المجاهدين في سبيل الله"، طالما أن هؤلاء الأخيرين يحرزون النصر تلو النصر على الثورة وأهلها، وأما الخشية من فقدان "المكان" فهو أمرٌ غير ذي بال أو كلفة، فإن الدولة العميقة التي لم تكن تحتاج إلا إلى بضعة مكاتب صغيرة في مطار الطبقة، سوف تنتقل بكامل أطقمها وأجهزتها المزودة بما تحتاج، لإصدار أوامرها وتعليماتها إلى مكاتب جديدة في مبنى المحافظة داخل المدينة، ولن تتكلف بأكثر من استبدال اللباس العسكري الأسدي بالزي الأفغاني، أو المظهر الجهادي المتزود بأقنعة سوداء تغطي الوجوه، وإطلاق اللحى واستبدال

لغة التخاطب بكنى وأسماء جديدة.. فما المشكلة أن يخاطَبَ القائدُ والرئيسُ من قبل مرؤوسيه باسم الأمير أبو حمزة أو أبو قتادة، بعد أن كان في موقعه السابق ينادى بعبارات مثل سيادة اللواء حيدر وسيادة العقيد سليمان؟

ـ سوف يضمن هذا التحرير، لا شعبيةً جديدة والتفاتاً مدهشاً إلى التنظيم الأسطوري فحسب، وإنما سوف ينهي عبء الضغط الشعبي الذي أخذ يتفاقم ويتزايد من قبل أهالي الجنود والضباط في الساحل والداخل، والذين علت أصواتهم تطالب السلطة بفك الحصار عن أبنائهم المحاصرين منذ سنوات، والذين لا يُعرفُ مصيرهم على وجه الدقة، وقد ينفجر هؤلاء الأهالي في وجه النظام، أو قد يتسببون في انهيارٍ وانحلال عام في معنويات الجنود الذين يقاتلون مع الأسد حتى ذلك التاريخ، وانكفاء المؤيدين انكفاءً مُرَوّعاً لا يرتجى له إصلاحٌ أو لملمة نتائج بسهولة(1)..

ـ من جهة أخرى فإن تمثيلية تسليم هذه المواقع العسكرية لداعش، بحجة تحريرها المزعوم من قبل التنظيم، سوف يستوعب إمكانية التذرع بفقدان أعداد كبيرة من العناصر والضباط الذين تمَّ إرسالهم في مهام قتالية في أوقات سابقة أو لاحقة، حيث لم يتمكن النظام أن يصرح عنها ولا عن طبيعتها، ولا أن يعترف لذويهم أين سقط هؤلاء وفي أية ظروف، والأمر نفسه بالنسبة لكل من تمت تصفيته من ضباط النظام ومقاتليه قبل هذا التاريخ، وجرى التكتم على هذه الجرائم، فقد باتت الفرصة مواتية، والمدخل إلى الإعتراف بهم أكثر من مبرر، لإبقاء مسافة التأييد بين النظام وبين جمهوره صلباً لا يعتريه شرخ أو اهتزاز من جهة، ولمنح ذويهم راحة نفسية، وشرفاً افتراضياً بتسميتهم "شهداء الوطن" الذين سقطوا دفاعاً عنه، وهم يؤدون واجبهم العسكري في القتال على جبهات الفرقة 17، أو اللواء 93 أو مطار الطبقة.. ناهيك عن أنّ معظم مقاتلي القطع العسكرية الثلاث كانوا مجندين من المناطق السنية، والتي لن يذرف النظام عليهم دموعاً بالتأكيد فيما لو ضحى بهم أو أهدى أرواحهم ودماءهم لداعش،(2) أو في مواجهة مع تنظيم إرهابي كريه، سوف يمتدح دولياً ومحلياً، وهو يعلن عن حجم خسائره في مواجهته، كما سوف يشفع تعميم هذه الشهادة والإعلان عن مقتلهم، بتعويضات مالية تستكمل الجزء الناقص من الخبر، وتعمل على توفير جائزة ترضية لجمهورهم وحواضنهم.(3)

ـ الموضوع كله متوقف على التضحية ببضعة عشرات من رؤوس الجنود، الذين سوف تضطر داعش إلى التضحية بهم لإكمال المسرحية، ولتصويرهم وإعطاء انطباع عميق وشامل في ذهن كل متابع لما يجري، بأن"آلاف المقاتلين" من قوات الأسد قد جرت تصفيتهم بعد أن استولت داعش على الفرقة والمطار واللواء(3)، بينما يكون هؤلاء الجنود، أو المهمون منهم في واقع الأمر، قد نُقِلوا إلى منازل ذويهم وعوائلهم في إجازة مُنِحُوها بعد تحملهم للمشقات وصبرٍ وجهدٍ دام سنوات.. ولن يفسد الأمر، لضرورات التمثيل، قطع رؤوس خمسة أو سبعة أشخاص، وتعليق رؤوسهم عند دوار النعيم ليكونوا مادة دسمة تتلهى بها الفضائيات الإخبارية ومواقع الأخبار على النت(4).. كذلك فإنها سوف تكون مناسبة سعيدة تشبه أعياد تقديم الذبائح والقرابين في أعياد التضحية والنحر، وفرصة لتصفية المعتقلين والسجناء المحتجزين في المطار والفرقة واللواء، وتصويرهم على أنهم جنود مقاتلون في جيش الأسد. حيث في مطار الطبقة وحده تمَّ جمع معظم أسرى ومعتقلي الشعيطات الذين أسرهم التنظيم في ريف دير الزور، بعد الاشتباك مع عشائر الشعيطات، وأعدم أكثر من مائتين وخمسين منهم أمام الكاميرات، بعد تسميتهم "أسرى النظام النصيري" و"خنازير النصيرية الكفرة" الذين تمّ أسرُهم في مطار الطبقة العسكري.. وما إلى ذلك من الحيل والشعوذات التي يقتضيها التمثيل والتصوير، وقد تمَّ التعرف على وجوه أسرى الشعيطات هؤلاء من قبل ذويهم، من الصور التي قامت داعش بتصويرها، وهي تزعم أنهم مقاتلون في جيش النظام من الأسرى الذين استسلموا في المطار، بينما وصل حوالي 97% من عناصر المطار إلى ذويهم سالمين.

بقي أن ننوّه إلى نقطة هامة لا يجب إغفالها؛ وهي أن اللواء والفرقة القريبين من منطقة عين عيسى الكثيفة بالقرى، قد قدمت شهادات موثقة من قبل الأهالي بأن الفرقة واللواء، قد بُدِئ بتفريغهما، ونقل "العناصر المهمة" فيهما،(لا حظ مسمى "العناصر المهمة"..! هل هنالك في العالم بأسره جيش جدير بالإحترام، ولديه ذرة من الشرف والكرامة، يميز بين مقاتليه، ويُقَسِّمُ مصيرَهم وأرواحهم بين"عناصر مهمة" و"عناصر غير مهمة"..!!؟؟)(5)

منطقياً يكاد يكون من شبه المستحيل أن يفرَّ أكثر من 800 ضابط وجندي من قوات الأسد من الفرقة 17 المحاطة بالمحاصِرين، وحتى لو افترضنا أنه قد تمَّ إنفاذ منفذ نجاة، وفتح ثغرة بطريقة ما، فإن الجغرافيا المحيطة لن تسمح إلا بوقوعهم ثانية في الأسر وهلاكهم جميعاً. إذ لا أمل في وصولهم حتى إلى اللواء الذي يفصلهم عنه حوالي سبعين كلم، واللواء نفسه محدود من كل الجهات بجغرافيا لا تساعد أي عسكري فار منه على الوصول إلى جنوب الفرات، حيث أقرب موقع يحامي عنه جيش النظام.. المؤكد أن هذه التمثيلية

الدموية الشائنة، لم تكن لتنجح لولا مساعدة الميليشيات الكردية في الشمال، ميليشيات الـpkk التي تعاونت واستقبلت الفارين وعملت يداً بيد، مع مروحيات النظام وقيادة داعش على نقل معظم الجنود إلى مناطق الساحل وسوريا الداخلية، والغريب أن المسرحية الهزلية المرتجلة لم تتورع عن تصوير المشهد بأن عناصر الفرقة قد فرُّوا ووصلوا خلال ساعات قليلة إلى الشمال، حيث اللواء 93، ومن ثم انحازوا وبمنتهى السهولة إلى مطار الطبقة، منتقلين إليه "في صحبة السندباد ربما، وعبر بساط الريح"، ولم يمضِ عليهم مساء اليوم التالي حتى كان المئات منهم بين عائلاتهم وأهليهم،(6) في الساحل، يتصورون ضاحكين، ويرسلون بالصور والأخبار المطمئنة عن أوضاعهم وصحتهم، بينما كان"الأخوة المجاهدون" في الرقة، يبتهجون بنصرهم الأثيل، ويطلقون الأعيرة النارية في الهواء، فرحاً بهذا النصر الذي لا يعدله "إلا نصر الله للمسلمين يوم بدر وخيبر"..

كما أنه لا يجب أن نذهل عن أن المخبرين، وأعوان النظام الذين تربوا خلال سنوات على علاقات عمالة استخباراتية بالفرقة 17 وباللواء والمطار، قد تُرِكوا في أيدٍ أمينة بعد رحيل القطع العسكرية الثلاث، وأصبحوا مادة مخابراتية متجددة، تعمل بين أيدي التنظيم العابث بالمحافظة، وحتى منظومات الدعارة التي كانت تشتغل على ترفيه ضباط وعناصر الفرقة واللواء، كلها قد تحولت جميعاً للعمل لحساب داعش.{العاهرتان المذكورتان في تقرير الجوية المرفق أصبحتا لاحقاً "أميرتين في فرقة الخنساء النسائية" في التنظيم، واحتلت المدعوة "أم عبود" أعلى المناصب بين أمراء داعش}.(7)

شهداء كتيبة "شهداء الغوطة".. واستشهاد "سندس":

الحزنُ مثل النهر..

لايمكنُ منعُ تدفقِه، مثلما تتعذرُ إعادتُه إلى مصبِّه.. ولست أدري اليوم؛ هل كنا القطَّ أم الفأر أم كليهما.. فقد كان علينا أن نُمثل الدورين: القاتلَ والمقتولَ، والثائر والشهيد.. الحزنُ فراتُنا الثاني، بعد أن ودَّعنا فراتنا الأول. فقد كان لي وطنٌ.. ما يزال يلُّوحُ لي بيده يحاولُ أن يراني.. وما أزالُ حتى اليوم، ألّوحُ له بيدي، أحاولُ أن أراه..

في اليوم الثاني من ابتداء المعركة، نصبت داعش كميناً لمجموعتين من كتيبة شهداء الغوطة، كانتا تحاولان استنقاذ أحد مقاتلي لواء ثوار الرقة الذي حاصروه بالقرب من مقام أويس وكادوا يأسرونه، وأثناء محاولتهم إنقاذه من الطوق الذي ضربته داعش حوله، وقع في الأسر أربعة شباب من المجموعة في كمين داعش المحكم، وتمكن الشاب الذي كان محاصراً من الإفلات منهم، (وقد استشهد الشاب بعد خمسة أيام حين فجرت داعش مقام أويس بسيارة مفخخة).. كان أسر الشباب الأربعة مفاجأة صادمة، ولقد هوَّن الأمر علينا بعض الشيء، أن أعداد أسراهم لدينا قد فاقت ثلاثة أضعاف من أسروا منا.. وبدأنا مفاوضات منذ اللحظة الأولى عن طريق طرف ثالث، لإرغامهم على مبادلة الأسرى، أو الاتفاق مبدئياً على صيغة تبادل بين الأسرى، والقبول المبدأي بخطة تبادل مقترحة من الطرفين.. لكن الدواعش أقدموا على جريمة منكرة أطاشت صوابنا، وفجرت غضباً عارماً في نفوسنا غير مسبوق؛ فقد أقدموا على إعدام الأسرى الأربعة فوراً، بطلقات مباشرة في الرأس، ثم نقلوا جثثهم فيما بعد إلى المشفى الوطني..

كان الشباب الشهداء الأربعة: وليد ومحمود وعلاء ومصطفى، من نخبة المقاتلين،(8) ومن صِلاب الرجال وصفوتهم، فأورث مقتلُهم، والأسلوب الغادر الذي أقدم عليه الدواعش، غضباً شاملاً في اللواء، خاصة عناصر كتيبتهم، "كتيبة شهداء الغوطة"، وأخذت موجة الغضب العارم لدى الغالب تميل إلى التفكير في الإنتقام من جميع أسرى داعش، وقتل كل من في أيدينا من الأسرى ثأراً للشباب الأربعة، ورداً على اعتدائهم باعتداء مماثل.. غير أنني لم أرضخ لسياق الغضب العام وموجته الغالبة، أو أنزل على تردد وقع الكارثة التي اجترحها الدواعش بخِسّة منقطعة النظير. وإن خلَّف استشهادُهم في القلوب جروحاً لن تندمل ما طال الزمان وامتد بي العمر.. وقبيل انسحابنا من المدينة، نصحتُ بعض مقاتلي "شهداء الغوطة" الذين كان متعذراً عليهم بسبب ظروفهم العائلية الخاصة، أن يرافقوا رتل اللواء أثناء الانسحاب، وأن يمضوا رفقة معنا، نصحتهم أن يختفوا في المدينة حتى يتحينوا ظرفاً مناسباً للخروج في وقت لاحق، فتوارى معظمهم في البيوت والأحياء، ريثما تدبروا أمر خروجهم الآمن مع عائلاتهم من المدينة فيما بعد، ووصلوا إلى تركيا بطرق متعددة.

بعد الخروج من الرقة، ومكوثنا لبضعة أيام مابين "منبج" و"صرّين"، ثم اضطرارنا إلى عبور الحدود ودخول الأراضي التركية، لم يبقَ من تلك النخبة إلا اثنان من مقاتلي "شهداء الغوطة"، رفضا رفضاً قاطعاً أن يدخلا الأراضي التركية، وآثرا البقاء عند المقر الذي نزل فيه بقية من تبقى من عناصر لواء ثوار الرقة، وهو موضع صوامع الحبوب قرب بلدة صرين.. وبعد تنقلات اضطرارية كثيرة، واشتباكات عديدة مع تنظيم داعش ـ والتي استمرت فيما بعد بضعة أشهر أخرى عقب الانسحاب من الرقة ـ لم يبقَ أحدٌ من عناصر "شهداء الغوطة" داخل الأراضي السورية إلا شابٌ واحد.. شابٌ أقسم بإصرار على قتال داعش حتى النَفَس الأخير.. وآلى في القسم؛ إما انتصار الثورة ودحر داعش، أو الشهادة والقضاء على داعش.. ذلك الشاب كان معروفاً بلقبه الشائع: "أبو سندس"..

حين قرر ذلك الشاب الرقاوي "أحمد السيد" الإنضمام إلى الجيش الحر، في بدايات العمل على تشكيله في الرقة، طُلب منه أن ينتقي اسماً حركياً يختاره لنفسه ـ أو لقباً مناسباً كما جرت عليه العادة ـ أو يختاره آخرون له.. فقرر أن ينتقي الاسم بنفسه: "أبو سندس".. وقد سألته في إحدى المرات صدفة: لماذا اخترتَ هذا الاسم بالذات؟ فأجاب: لأني أحب ابنة اختي الصغيرة "سندس"، بنت العامين.. يكاد خيالُها لا يفترق عني أبداً، وأشركتُ اسمَها معي حتى لا أنساها، لا في الدنيا ولا في الآخرة.. ولكن لأمرٍ ما، لم يفلح اللقب في أن يصمد بشكله النهائي وبهذه الصيغة، دون تحوير طفيف، فلم يعتِم بعد أيام إلا وقد صار اسمه"سندس"، ربما اختصاراً، وربما لسهولة اللفظ أثناء المناداة. وبإسقاط لفظة الـ"أبو" نهائياً من لقبه وتجاوزها .. قد تكون علة كونه صغيراً يافعاً، هي سبب آخر في عدم مناداته بلقب مقرون بلفظ "أبو"، فقد كان في غضاضة من العمر، لما يتجاوز سنه السادسة عشرة بعد، (فهو في هذه الحالة يشبه أن يكون " ابناً " لا أباً لأحد)، وربما لأسباب أخرى ودوافع غير واضحة. لقد انحل اللقب الجديد في شخصيته، إلى درجة أنه كان إذا نودي باسمه الحقيقي: (أحمد السيد)، فكان يرتبك ولا يردّ بداية، حتى لكأنه كان اسماً منسياً في ذاكرته، أو أن المُنادى شخصٌ غيره، فقد وطد استجاباته السريعة على تنبيه جديد، وإحساس مباشر وخاص بالاسم الجديد:"سندس".

في البدايات وجد "سندس" شخصيته تكاد تضمحل، وكيانُه يوشك أن يتآكل في أوساط الجيش الحر، ربما ليفاعة سنه، رغم ما يبدو عليه من كمال الجسم ولياقته، ورغم الطول الفارع الذي يقارب الـ 190 سم، واللياقة البدنية، وربما كان من أسباب هذا الاضمحلال الشخصي في البدايات، أن عائلته الوحيدة الصغيرة، الوافدة منذ تاريخ سابق من ريف حلب ـ من قرية الباب ـ إلى مدينة الطبقة، هي أحد أسباب اغترابه بدايةً، وسط تجمعات كبيرة وجاذبة، يغلب عليها التعرف على بعضٍ، وحميمية الصداقات والقربى التي تؤالف وتنسج علائق بسرعة بين الأشخاص، لكنه استطاع بسهولة تشدُّ الإنتباه أن يوقف هذا الاضمحلال الشخصي، وأن يستبدله بسرعة نسبية بحضوره الفائق الشديد، والذي تيسر له وتوطد بسبب شجاعته المميزة في القتال، إلى جانب المقاتلين في الجيش الحر، ففي هذه الميزة بالذات كان حين يشتد أزيز الرصاص موقدَ نارها، ويعسوب لظاها الذي لا ينطفىء..

ليست الشجاعة وحدها.. فقد عمم "سندس" خصائصه الفردة الشخصانية على الجميع، حتى أصبحت له هوية جديدة: الذكاء، والعمل المستميت في أوقات المعركة وغيرها، حتى كأنه اتخذ قراراً أن لا يخلد إلى الراحة أبداً.. كذلك فقد انطبع بصفات مميزة خاصة؛ أضفتها عليه ميزة صمته الدائم وعدم الشكوى حتى في أقسى الظروف والمشقات، وعدم المطالبة بشيء شخصي لنفسه.. وفوق كل ذاك الحياء الجم، والخُلق المحض، والأدب العالي الرفيع مع حدثاء السن من مجايليه قبل الكبار.

شارك "سندس" في معارك الجيش الحر التي سبقت تحرير المدينة كلها، كما شارك في معارك تحريرالمدينة، وحصارمبنيي الأمن العسكري والسياسي، ومبنى المحافظة حتى سقوطها الأخير. وبعد تحرير المدينة أصبح الرباط الدائم على حدود الفرقة 17 واللواء 93 متلازمة حياته الوحيدة، لقد وجد في بندقيته الروسية صديقه الحميم والوحيد، بندقيتُه التي اشتراها من ماله الخاص قبل أن ينضم إلى مقاتلي الحر، والذي قرر أن يحتفظ بعلاقته بها، وعلاقتها به، بقية الحياة..

كانت الجدية والصرامة في المواقف سمة تميزه، لم يكن يضحك ملء فمه إلا أحياناً نادرة.. وفي قليل منها، حين يتذكر صديقه الروحي ورفيقه في المعارك، "أبو شمسة"، ذلك الشاب الريفي الأمي البسيط، والذي لم يكد يفارقه في معظم المعارك التي خاضاها.. كان أبو شمسة يردد أحياناً: قبل أن أمدَّ بارودتي الروسية.. وقبل الشروع والبدء في القتال، أستذكرُ قول الله تعالى دائماً: (رُميتْ وما رُميتْ.. بسْ اللهْ هو الرُمى)..كان يردِدُها بلهجته القروية البسيطة المفعمة بالتصحر، والتي فُطرعليها.. فيجيبه "سندس": "أبو شمسة".. هذي آية من القرآن إلا آية من تأليفك أنت.. فيرد عليه "أبو شمسة": (شمدريني.. ماني حافظ آية من القرآن غيرها).. رحل "أبو شمسة" فيما بعد.. وترك الكتيبة بسبب فقره وعوزه المدقع، حيث عرضت عليه جبهة النصرة فيما بعد دخلاً شهرياً بسيطاً ـ راتباً ـ يكفي زوجته وطفلتيه

اللائي لم يكن يجدن حتى مأوى للسكن، أو مايكفي لأجرة غرفة، وبعد أن غادر بيت أهله الذي كان يحوي عائلته.. وبعد أسبوعين خضع لمعسكر لدى جبهة النصرة، وفي أقل من شهر، جاء الخبر باستشهاده، وجيء بجثته إلى أهله..حيث بكى "سندس" لأول مرة حزناً على فقد "أبو شمسة"، وعلى غيرعادته كمن فقد أخاً له.. بكاه بصمت.

رحل "أبو شمسة" رفيق الدرب والسلاح، وبضغط من عائلته التي أرهقتها ظروف العيش المادية، قرر "سندس" ترك الجيش الحر والانصرف إلى سوق العمل، والبحث عن لقمة العيش بعد أن تمرس في القتال، وخاض عشرات المعارك ضد النظام منذ بداية الثورة.. سافر إلى لبنان مع شقيقه، وانقطعت أخباره إلا مابين مدة وأخرى عبر رسائل اتصال، أو سؤال في الهاتف المحمول عن الأخبار.. كان قلبه معلقاً بأصدقائه من رفاق السلاح الذين عاش معهم طويلاً، وبالثورة وأخبارها، وتطورات الأوضاع في الرقة يوماً بيوم، فما ينفك يتواصل دائماً ويسأل عن الجميع واحداً واحداً، ويخوض في كثير من الأسئلة عن أدق تفاصيل مشاكلهم، حتى الخصوصية منها، وما يجدون في واقعهم اليومي، كأنه كان يحمل معه دوماً هموم الجميع.. إلى أن جاء اليوم الذي اصطدم فيه مقاتلو الثورة مع تنظيم داعش في مدينة الرقة.. وحيث بدأت المعركة، ومضى عليها قريباً من خمسة أيام..

جاءنا صوت "سندس" ملهوفاً قلقاً يتساءل عما جرى، وكيف تميل كفة القتال وتفاصيل المعركة.. وفجأة أعلن عبر الموبايل قراره الخطير، والذي رفضناه بشدة، وشجبنا خياره الذي اختاره، حين قال: (سأعود إلى الرقة اليوم أو غداً.. لن أترككم وحدكم في معركة مصيرية فاصلة، من أجل بعض المال الذي أكسبه.. الله هو الغني والمغني).. قلنا له جميعاً، وبصوت متحد وحاسم: لا ترجع.. لأنك لن تستطيع الوصول..ستحتاج في رحلة العودة إلى اجتياز حواجز "حزب الله"، وعشرات الحواجز التابعة للنظام.. وكلها، كما تعلم، أنت مطلوب لها ومعروف.. وحتى لو استطعت تجاوزها كلها، فلن تستطيع اجتياز حواجز داعش المنتشرة من ريف دمشق وحتى ريف الرقة الغربي.. الوصول إلى المريخ أسهل عليك من هذه المغامرة.. حيث المضمون الوحيد فيها أنك سوف تُعتقل في الطريق أو تهلك بسبب انفعالاتك لا أكثر.. والمُرجح أنك إذا تأخرت عن الوصول يوماً أو يومين، فإنك ستجد المعركة قد انتهت مع داعش.. فلِمَ هذه المغامرة الحبلى بالخطر والجنون والتهور.؟

أجاب "سندس" بكلمة واحدة: خير..ماشي الحال ..ومضت أربعٌ وعشرون ساعة فقط بعد هذه المكالمة..

في الليلة التالية لذلك الحوار والجدال الحامي، والذي أجمعنا فيه على رفض سفر "سندس" وعودته من لبنان، وثنيه بضراعات ورجاء، أن لا يُقدم على مغامرات لا نفع منها ولاجدوى، في تلك الليلة كانت المعركة في أشد وتيرة شهدتها، كان مقاتلو داعش قد سيطروا على الجسرين الوحيدين في الرقة، واللذين يصلان المدينة بغرب وجنوب المدينة بأطرافها.. وانتشر القناصون فوق أسطح كل المباني في المدينة، فكلُّ من يسير أو يمضي في أي زقاق أو شارع، قد يكون له نصيب من حظ أو سوء طالع أن يناله قناصٌ من فوق أحد السطوح بقصد أو بخطأ، والموت قنصاً بات أقرب الإحتمالات من غيرها.. كانت الشوارع قد خلت تماماً، فلا تسمع في طول المدينة وعرضها إلا أصوات الإشتباكات وطلقات القناصين من فوق الأسطح.. في تلك الليلة، اتصل بنا أحد عناصر جبهة النصرة المتواجدين مقابل مقام أويس القرني القريب منا، وكنتُ وقتئذٍ مع مجموعة من الشباب في المقر الذي ندعوه مقرّ "مديرية الثروة الحيوانية"، والذي لا يبعد عن حاجز النصرة أكثر من نصف كيلو متر بقليل، فقال المتصل من حاجز النصرة: (هنالك شاب وجدناه قادماً من المشلب.. يقول بأنه يعرفكم، وأنه من كتيبتكم، وهو متجهٌ إليكم.. ولا يعرف كيف يصل..الشاب في حالة رثة مزرية، وثيابه كلها غارقة بالطين والأوساخ.. ويقول بأنه عبر النهر في هذه الليلة من حويجة السوافي إلى المشلب، عن طريق طوافة خشبية من الشامية.. نخشى أنه داعشي انتحاري، نريد أن نتأكد أنكم تعرفونه).. سألناه: (اسأله عن اسمه.. صفه لنا).. أجاب مقاتل النصرة: يقول ان اسمه "سندس".. وهو طويل القامة، وعمره أقل من عشرين سنة.. سندس **!!؟؟** لقد فعلها إذن ..وما كان في ظن أحد أنه سوف يقدم على هذه المغامرة، وينجح بمثل هذه السرعة..

كان قد استعان في طريق السفر والعودة إلى الرقة، بهوية شقيقه، في اجتياز جميع الحواجز المنتشرة من لبنان وصولاً إلى مدخل المدينة، ولما تعذّرَ عليه عبور الجسر لدخول المدينة، انتقل إلى شرقيها، حيث وجد بعض الأشخاص يفاوضون أحد أصحاب المراكب والطوافات الخشبية قريباً من المشلب شرقي المدينة، لكي يجتازوا النهر عبر مركب لدخول المدينة. فدخل بينهم، وتمكن من الوصول إلى المشلب.. وهنالك قطع المسافة سيراً على قدميه حتى وصل إلى حاجز النصرة، فاقترب من الحاجز، وعرَّفهم بنفسه، ثم طلب منهم أن يتصلوا

بكتيبة "شهداء الغوطة"، لكي ينتقل إلى أحد مقراتها في المدينة، فاتصلوا بنا، وهكذا تمَّ التعرفُ عليه، وخلال دقائق بعد تلك المكالمة، كان "سندس" قد صار معنا وبيننا..

منذ وصوله مباشرة، تابع "سندس" سير الأعمال القتالية وخوض المعركة المشتجرة بيننا وبين داعش، ولم يفترق عنا بعدها حتى انسحابنا.. وبعد أن أخذنا قراراً بالانسحاب من المدينة، كان معنا في رتل اللواء أثناء الانسحاب.. وبعد أن دخل سائر عناصر اللواء الأراضي التركية، ومنهم ما تبقى من عناصر "شهداء الغوطة"، رفض الدخول إلى تركيا، وأصر على القول: (مارجعتُ من لبنان، وتركت عملي ولقمة خبز عائلتي وأهلي، لكي أعبر إلى تركيا وأقعد هناك بلا فائدة ولا قتال.. سأظل هنا، مع البقية المرابطة عند مقرّ صوامع حبوب صرين.. أفضل أن أقاتل داعش معهم حتى النهاية).. وبعدها بحوالي شهرين، أصيب "سندس" في إحدى مواقع القتال بجراح خطيرة، أثناء الاشتباكات مع داعش.. وقد حاصره الدواعش حتى منعوا الوصول إليه وإنقاذه وهو ينزف نزيفاً حاداً، حتى أسلم الروح على ثرى تلك البقعة المجهولة قرب بلدة صرين.. رحمه الله.. فاحتمل الدواعش جثته، وأخفوها مع بقية الجثث في مكان ما بعد هذه الحادثة..(وقد التقط أحد أبناء المنطقة صورة جثته الملقاة في العراء، وأرسلها لنا بعد الحادث).. ولم يُعثر له على أثر حتى اليوم، ولا عُرف مكان دفنه فيما بعد(9)..

الخروج من الرقة:

خرجنا من الرقة في غَلَسٍ من الليل..

خرجنا منتصرين على أنفسنا، وعلى الحياة بكل مافيها ومن فيها.. ومهزومين أمام الله والشيطان، وأمامَ كلِّ من كادَ لنا وتآمر علينا..

شرع رتلُ سيارات اللواء بالتحرك للإنسحاب من الرقة في منتصف ليل الثالث عشر، صباح الرابع عشر من كانون الثاني.. وقد بلغ طولُ رتل السيارات المترادفة وراء بعضها، قريباً من ثلاثة كيلو متر حين سارت على الطريق.. كنا قد خصّصنا بعض السيارات الكبيرة لتوزيع أسرى داعش خلالها، وبعضُها الآخر لراحة الجرحى الذين أصيبوا في المعركة. وكان هنالك خطران ماثلان أمامنا: الأول هو احتمال أن يطاردنا الدواعش، أو أن ينصبوا لنا كمائنَ أثناء طريق الإنسحاب، أو يعمدوا إلى سيارات مفخخة تقوم بتفجير رتل اللواء المنسحب.. والثاني هو خطر الإقتراب والمرور من جانب الفرقة 17، والتي كان عناصرُها وضباطُها ـ بكل تأكيد ـ يتابعون ما يجري على الأرض من تطورات في المدينة، وهم في حالِ مراقبة دقيقة ومتواصلة لنتائج المعركة، وعلى علمٍ بنيّة الإنسحاب لدينا من المدينة. هذا ما كان مظنوناً به، وهو الراجح احتمالاً.. لذلك كان خطر أن يستهدفوا الرتلَ بعد الخروج من المدينة من أقوى الإحتمالات.. كما كان احتمالُ أن يتفقوا مع داعش، على أن يطبقوا علينا من جهتين متعاكستين في احتمال ثالث، ليس مستبعداً هو الآخر..

كانت خطة الإنسحاب قد اقتضتنا الخطوات التالية: أولاً أن يسير ركبُ السيارات على طوله، وسط ظلامِ عتمة الليل الدامس دون إنارة الأضواء الأمامية لأية سيارة، وعلى كل سائق سيارة أن يكون حريصاً وماهراً في قيادة سيارته وسط هذا الظلام، وفي الطرق الترابية المتعرجة والملتفة، تحت طائل المسؤولية عن إنارة أي ضوء من أضواء السيارات.. وثانياً اعتمدنا على أدلّاء في كل طرقات خط سيرنا، من ذوي خبرة ومهارة مشهودة بتلك الطرق الترابية الملتفة، بحيث يقود الدليل رتل السيارات في شتى المنعرجات من تلك الدروب الترابية، مبتعداً عن السير في مسارب معهودة لسير الآليات أو معروفة للجميع، والتي تبعد ما أمكن عن مرمى أهداف الفرقة 17 إلى أقصى مدى ممكن، بحيث لا نتعرض لنيران محتملة من قبل الفرقة.. أما ثالثاً، فقد اعتمدنا خطوة تضليلية أخرى.. فقد كان على القادة الميدانيين أن يباشروا فورَ تحرُكِنا، ويأمروا الكتائب القتالية بفتح القبضات اليدوية جميعاً، ثم يتوالى توجيه أوامر عسكرية لعناصر كتائبهم، وكأنهم يستعدون لهجوم أو قتال وشيك، متخذين خطوات عملية وبصوت عالٍ ومسموعٍ للجميع، أثناء تحرك الرتل نحو الخروج، وبطريقة تمثيلية مسرحية، مفترضين بأن القبضات سوف يُعْمَلُ على اختراق تردُدِها بعد حين، وكما جرت عليه العادة كل ليلة من قبل تنظيم داعش، حيث يتمُّ تغيير توليف التردد المستخدم باستمرار أثناء القتال، نتيجة اختراق تردد القبضات..

وهكذا إذا امتنعنا عن تغيير التردد، وبدأت مسرحية هجوم، أو استعداد بهجوم وشيك من قبلنا على داعش، نحاول أن نبثه كرسائل بواسطة القبضات اليدوية، فإن ذلك كفيلٌ بأن يُريكَ الدواعش لبعض الوقت، ويُخلفهم مرابطين في مقراتهم، مستعدين للقتال والدفاع، وحتى لو أنهم اكتشفوا الخديعة التي نقوم بها بعد مرور ساعة واحدة من الوقت، أو حتى نصف ساعة وليس أكثر، فإن هذا الزمن كان

كفيلاً بان يحقق ما نحتاجه من مسافة ابتعادٍ بيننا وبينهم، بحيث تقلُّ احتمالات أي صدام مباشر أو هجوم وشيك علينا من خلفنا، أو احتمال بأن يكون لديهم الوقت الكافي لنصب كمائن لنا أثناء الطريق.. خاصة أن الذخيرة المتبقية لدينا، لا تكادُ تكفي حتى للإشتباك معهم ونحن على أهبة الإنسحاب.. ودون أن نُغفلَ عاملاً آخرَ مُهماً في خطة تفاصيل الإنسحاب، وهو أنْ لا أحدَ كان على علمٍ بالجهة التي سوف نسيرُ نحوها أو نتجهُ إليها، سوى أبو عيسى قائد اللواء.. فقد تكتمَ على أقرب مقربيه بشأن وجهة سيرِنا، أو المكان الذي كنا نقصده، حتى لا يتسربَ الخبرُ ـ ولو من باب الإحتمال ـ فتُعرفَ وجْهتُنا وخطُ سيرنا وطريقنا لأية جهة، كائنة من كانت، فنصبحَ هدفاً محتملاً.. لقد سرْنا جميعاً، وكثيرون منا علموا أثناء الطريق، أو ما بعد قطع أكثره، بأننا نتجه نحو بلدة "صِرّين"، في ريف حلب الشمالي، قرب منبج..

وما بين لحظة تحرك الرتل، وحتى ساعة الوصول إلى "صرين"، كان أمامنا مسافة تُقدّر بحوالي أكثر من 100 كيلو متر بقليل، وهي مسافة تقطعُها السيارة المسافرة في الأحوال العادية في مدة ساعة أو ساعة ونصف على الأكثر، بيد أن المسافة استغرقت من الوقت اثنتي عشرة ساعة، من منتصف الليل حتى ظهيرة اليوم التالي، وكان سبب هذا البطء الشديد في السير، لا كثرة التواء الطرقات والمنعرجات، التي عمدنا خلالها عن الإبتعاد عن أية طريق رئيسية فحسب، بل لأن غالبية السيارات التي كنا نستعملُها، هي في حالة من الرثاثة والتلف إلى حدٍ لا يبعدُ عن أن أصفها بأنها أكوام من الخُردة على هيئة سيارات.. ولقد اضطُرِرْنا إلى التوقف عشرات المرات لإصلاح بعضها، وفحصِ بعضِها الآخر، بل إن بعضَ تلك السيارات قد تعطل تماماً، فاضطُرِرْنا إلى ربطِها بحبال، ثم قَطْرِها إلى بعضها البعض وجرّها جراً.. وهكذا، فكلما تعطلت سيارة أثناء المسير، أو نفدَ وقودُها، توقف الرتلُ حتى إصلاحِ أمرِها والانتهاء من مشكلتها..

وقبل وصول رتل اللواء الذي كان يزحف على التراب كالسلحفاة، تراسلنا مع بعض كتائب الجيش الحر الذين كانوا على علمٍ بوفودنا إلى المنطقة، وكانوا ينتظرون وصولنا.. فما إن وَصلْنا المنطقة حتى تم توزيع عديدِنا على ثلاثة أماكن: بعضِ أكواخٍ رثة قرب مديرية الثروة السمكية، على شاطئ الفرات القريب من جرابلس، وفي مباني مؤسسة صوامع الحبوب في صرين، وفي مبنى مدرسة ابتدائية خالية في بلدة جرابلس.

كان من أكبر ظنوني وتوقعاتي أن داعش سوف تقوم خلال ساعات قادمة، أو أيام قليلة بمداهمة منزلي، أو الأماكن التي تعتقدُ أنني قد أتردد عليها. وكنتُ ـ تحسباً لهذا الوضع المتوقع والمحتمل ـ قد طلبت من عائلتي أن تغادر المنزل قبل أسابيع عديدة قبل هذا التاريخ.. وبالفعل، فقد راسل جيران المنزل زوجتي صباحَ اليوم الذي أعقب خروجَنا، وقد بلَّغوها أن قوة مداهمة كبيرة، مؤلفة من ستة بيكابات مليئة بالملثمين قد هاجمت المنزل صباح الغد التالي، وأنهم سألوا عني، وعن ابني حسام ، وتأكدوا من خلو البيت من أي فردٍ من أفراد العائلة، ثم انسحبوا مؤقتاً.. ليعاودوا هجومهم مرة أخرى على حين غرة، في نفس مساء ذلك اليوم، ثم كرّوا راجعين ثانية.. وعاودوا بعد أيام تلت ذلك مداهمة المنزل للمرة الثالثة.. ولم يمضِ الشهر الأول على الإنسحاب من الرقة، حتى جاؤوا للمرة الأخيرة واستولوا على البيت واحتلوه احتلالاً، أو صادروه كما ادعوا.. (ذلك البيت الذي دمّره الطيران الروسي فيما بعد.. بعد أكثر من ثلاث سنوات ونصف مضت على هذا التاريخ)، ولم يكن لي من المخاوف وقتئذٍ، إلا أن يعمدوا إلى اعتقال، أو خطف زوجتي أو بناتي وتهديدي بهم للاستسلام.. حتى بات هاجس إخراجهم من الرقة بعد مغادرتي، أكبرَ همومي وغالبَ تفكري الدائم المستمر.. وقد اقترح بعضُ الشباب عليّ دخول الأراضي التركية لفترة من الوقت، ريثما تتبدل تلك الأوضاع المزرية التي كنا نتقلب بها.. ثم بعد أن نأمن على الأسر والأطفال، نرجع ثانية إلى صرين، في انتظار ماقد يستجدُّ أو يتبدل من ظروف.

بقيتُ حوالي أسبوع في حالٍ من التردد والإحجام عن دخول الأراضي التركية.. وكان واقع شباب اللواء، من حيث القلق على أسرهم وأبنائهم، قريباً من بعضه إلى حدِّ أنه بات هَجْساً جمعياً مشتركاً. لكنّ أحداً ما، لم يكن ليفكر أو يخطر بباله أكثر من أننا قد نُضْطَرُّ إلى البقاء في تركيا لأبعد من شهرٍ أو شهرين. وعليَّ أن أذكرَ في هذا الوقت، بأن أبو عيسى قد جرى نقلُهُ إلى مكانٍ مجهول في المنطقة التي وصلنا إليها، لإسعافه بعد أن ساءت حالته الصحية بسبب نزيفه، إثرَ بَتْرٍ إصبعه في اليومين الأخيرين، فلم ألتقِ به، ولم أواجهه بعدها، حتى اليوم الذي زارني في مدينة أورفا في منزلي، ووقعت محاولة خطفه بعد خروجه من منزلي مباشرة، من قبل عصابة تركية من أشرار، تواطأوا مع تنظيم داعش، وبتعاون وخيانة أحد مرافقيه الشخصيين المدعو أحمد النهار"أبو ماهر"، في حادثة مشتهرة ومعروفة..

كما يجب أن أذكر أمراً مهماً وعدتُ مسبقاً أن أنوّهَ به، وهو السبب الذي حدا بمرافقة أبو المنذر السعودي لنا، وعدم رحيله مع أبو العباس إلى الشحيل.. فقد كان أبو المنذر قد أضمر في نفسه أن يعمدَ في لحظة من لحظات ضعف اللواء، وتشتته وانفراط عقده إلى تخليص أسرى داعش من بين أيدينا وإطلاقهم، ولقد جرب محاولاتٍ في ذلك، وحاول أن يرددَ على مسامع القادة العسكريين للواء، بأنه ينبغي له أن يفترق عنا بعد هذا اليوم، وبعد أن وصل الحالُ إلى ما وصل إليه، وأنه ينوي أن يتوجه، هو ومن بقي معه من بعض أفراد جبهة النصرة، إلى مكانٍ ما، في ريف حلب الشمالي، غير أنه، ما إن أتى على ذكر الأسرى، حتى أثار عاصفة من الغضب من قبل القادة العسكريين، وعلى رأسهم القائد العسكري والميداني للواء أبو زبير الليبي، (وهو شاب رقاوي اسمه أحمد، والليبي لقبٌ لزَمَه منذ أيام الثورة الأولى، وفي فترة التظاهرات السلمية، وكان معدوداً طوال سنوات مضت، القائد الثاني للواء بعد أبو عيسى).. فلقد وصل الغضبُ مداه، حتى رفع بعضهم السلاح في وجهه، وهددوه بالقتل إذا جاء ذكر الأسرى على لسانه ثانية، فاضطر إلى التزام الصمت بعدها، لكنه تواطأ مع بعض أفراد ما سمي بالمكتب الأمني المرتبطين بداعش سراً، (وقد تحدثت عنهم سابقاً)، فأقدم في أحد الأيام، أثناء مكوثنا في مدرسة جرابلس، على تخليص مؤيد، وتسليمه إحدى آليات اللواء قبل إطلاقه من الأسر، بعد أن زوّده بخارطة سيره خلال المنطقة، حتى وصل إلى أقرب حاجز من حواجز داعش بُعداً عنا.. ولقد برّر فعلته تلك بأن الشاب "كان من تلامذته في السابق.. وممن أقسموا على التوبة على يديه.. وعدم العودة إلى صفوف الدواعش ثانية.. وأنه، أي أبو المنذر، قد أعطاه عهداً وأقسم قسماً بأن يساعدَه على نيل حريته ثانية مهما كلفه الأمر، ولا يستطيع أن ينكث بقسمه ذاك..".

بعد ذلك التردد والحيرة التي لزمتني قريباً من أسبوع كامل، سلّمنا كل مافي عهدتنا وأماناتنا، من سلاحٍ ومعدات للواء، كما سلمتُ من كان في أيدينا من أسرى الدواعش مع ملفاتهم الخاصة، وقد ظلوا في عهدتي واستلامي حتى ذلك الوقت، تسليماً رسمياً للقادة العسكريين.. ورفقة بضع شبابٍ من اللواء، خرجنا من جرابلس مساءً حتى قدمنا البوابة الحدودية.. كانت هذه هي المرة الأولى التي أطأ فيها تراباً غير التراب السوري، وكنتُ أحسبُ أن عبوري الأراضي التركية هو طارئ مؤقت، ولفترة لن تتعدى بضعة أيام، ريثما أتدبر بعض شؤون عائلتي لأعود ثانية إلى جرابلس أو إلى صرّين..

كنتُ أودعُ وطناً لم يتركْ له العالم بأسره فسحة أمل واحدة في اليد .. ولا كان له من قبلُ عشرة على أية شجرة.. مع عزاء داخلي كبير، ما يزال يفتح في القلب نافذة الأمل والإشراق في محراب نفسي؛ لقد خضتُ غمارَها في الثمانينات، وبقيتُ قريباً من إحدى عشرة سنة ونصف في سجون هذا النظام، ثم خضتُ غمارَها ثانية في عام 2011.. لم أسرقْ من وطني وثورتي وأهل بلدي ليرة واحدة، ولم أقتلْ إنساناً ولا عذبتُ إنساناً، بل ولا تلفظتُ بلفظٍ يحطّ من كرامة إنسان أياً كان.. وها أنا في سنٍ من الكهولة، وقد شارفتُ على الستين يومذاك، ويا ليتني فيها جذعٌ مرة أخرى.. لم يكنْ يزحمُ مُخَيّلتي أي خيالٍ أو تصورٍ عن التراب الأجنبي الذي سوف أضطرُّ أن أمضيَ شوطاً بعيداً فيه، نائياً مغترباً عن وطني ومدينتي التي لم أقوَ يوماً على مفارقتها إلا مكرهاً.. كانت تركيا وأوروبا في خيالاتنا الكليلة والقاصرة الموهبة والتصاوير والتخيلات، مجرد امرأة حليبية البَشَرَة تعبق بالطيب، وتغتسل بالبيرة.. وها نحنُ أولاء نعبرُ من شرق المتوسط إلى شماله اليوم.. حيث رائحة القتل والفتك الذريع، وحيث هنالك المدنُ الخراب.. تختلط برائحة الله والملائكة ومزارات الصالحين.. وحيثُ بساطير الجنود الذين يحرسون أنظمة القَتَلَة والطغاة؛ الذين يحرسون التاريخَ ويسهرون لصالحنا ـ نحن الرعية الطيبة ـ ويرعوَن مصالحنا وشؤوننا منذ آلاف العصور.. ولم يعدْ ثمة في ثمالة ذاكرتِنا، وكسرة خبزنا الأخيرة، إلا أنهم ينتصرون علينا دائماً وأبداً.. لأمرٍ يريدُه الله..

ولأمرٍ يريده اللهُ أيضاً، أكاد ألمحُ بالقلب أيضاً كلَّ هذه الجموع الكبيرة الكثيرة.. الحقيقُ بعضُها والمزيفُ بعضُها الآخر.. وهي تملأ الشوارع والساحات، والمباني والحانات والمقابر والمقاهي وملاعب الرياضة والعربات والسيارات والقطارات.. كم هو مرعبٌ أن أبقى وحيداً وحيداً في هذا الكون يا أيها الذين خانوا قضيتهم، وأطلقوا النارَ على حريتنا وحريتهم، ليكسروا المعنى الذي يشرقُ مع الشمس منذ الأزل..؟ وليفرحوا هوناً ما، وليمرحوا قليلاً ما، ويُرَوّحوا عن ذاتهم.. فيطردون بعضَ الملل، ليصنعوا خبز تعاستنا من خمير الحقد والغباء والجهامة التي تملأ هذا العالم..

ما زلتُ أنظرُ ـ ونحن نعبرُ الحدود ـ إلى هؤلاء الشبان الذين كانوا حولي بعينٍ ملؤها الإعجاب والروعة.. لقد فعلوا أفضلَ ما يمكن أن يفعلوه.. لقد قدموا أكثر ما يمكن لهم أن يقدموه.. لقد كانوا رائعين حقاً.. بلى ، فقد كانوا أكثر من رائعين، وأكثر من أن يوصفوا بأنهم شجعان، وأنهم صفوة الرجال حقاً.. وبينما نحن نجتاز الحاجز الذي فصلني عن تراب وطني، وبينما كنتُ أرمقه للمرة الأخيرة في حياتي ـ ربما ـ وهو هنالك، وراء ذاك الأديم والسواتر والكثبان ينام، وحوله تنام الجثامين واللحود، لستُ أدري لِمَ تراودُني وتعاودُني تلك الأغنية القرغيزية القديمة الحزينة، ليتردد صداها في نفسي، فلا تكادُ تبرحُ، وهي تُدَوّم في الرأس، بينما نحن نمضي سائرين وئيداً وئيداً خلف الحدود، وفوق التراب الأجنبي الجديد.. (إني قتلتُك يا ابني قراغول .. وبقيتُ وحدي في الكون يا ابني قراغول).

تـــــــم

فرنسا - (كليرمون فِرَّان) - Clermont Ferrand

في 2017/9/9

هوامش الجزء السادس:

(1)

رائد الحلبي: سراج برس

أكدت وسائل إعلام مؤيدة لنظام الأسد مقتل اللواءين ياسين سليم حسون، وجهاد حبيب القدار في الفرقة 17 في الرقة إثر سيطرة تنظيم (الدولة) عليها .

وافادت صفحات التواصل الاجتماعي المؤيدة للنظام أن اللواء حسون كان مدير فرع الإشارة في الفرقة وهو من قرية (وادي القلع) التابعة لمدينة جبلة، وكان من كبار الضباط القادة في الفرقة 17. أما جهاد حبيب القدار الذي قتل الاربعاء الفائت، فهو من قرية (يرتي) بالقرب من القرداحة.

ويعلن النظام عن أسماء قتلاه من كبار الضباط بالتقسيط حتى يتفادى ردود الافعال الحادة لذويهم، واكد شهود عيان أن النظام بات يخشى بالفعل " نقمة عبيده المتصاعدة".

وشهد الشهر الفائت مقتل المئات من ضباط، وصف ضباط، وعناصر وشبيحة النظام في عموم سوريا.

وبدأت حالة استياء ونقمة تطفو على السطح في الساحل السوري، حيث بدأت الطائفة تشعر بأنها تدفع ثمناً قاسياً في سبيل دفاعها عن بشار الاسد.

- (2)

هذه شهادة شاهد عيان، محايد في شهادته، وغير منتمٍ إلى طرف من أطراف الصراع على الأرض. أدَوّنُ شهادته كما رواها باللهجة المحلية، ودون تصرف مني. يقول هذا الشاهد بالحرف:

((في يوم الإقتحام على الفرقة ١٧ من قبل تنظيم داعش، خرج عساكر الفرقة على شكل مجموعات، ودارت معارك بين العساكر والتنظيم بجانب مضخة الماء ـ وهي التي تسمى محلياً مضخة جروة ـ ومن بعدها قام "ابن عمي"، وحمل سلاحه ـ وهو مدني غير منتسب لأي فصيل ـ وقاتل العساكر واستشهد.

وفي اليوم الثاني جاء خبرٌ بأنّ في منطقة "أبو حنوه" يوجد عساكر مختبئون، وهذه المنطقة تقع غربي قرية "حزيمة"، وكان المسؤول الأمني للتنظيم عنصراً يدعى "خالد الفرحان، أبو البراء"، ومعه كلٌ من "أديب الرمضان الأسعد، الملقب أبو مصعب"، و"أبو مصعب" الذي كان سابقاً مرافق أبو لقمان الشخصي في منبج، والرجلان كانا يركبان سيارة مدنية مميزة الشكل، من نوع "بلاتوث ـ بيكاب أحمر اللون". حيث أقدم هذان الشخصان على الذهاب إلى هذا المكان المذكور ـ أعني أبو حنوة بالقرب من منطقة حزيمة ـ ترافقهما سرية عسكرية للتنظيم، ولقد أصدرا أوامرهما للسرية بالتوقف عند الجهة الجنوبية حيث تمركزوا في المنطقة المذكورة، كما أصدرا أمراً بعدم إطلاق النار إلا بأمرٍ منهما حصراً، وغادرا بسيارتهما المذكورة إلى ناحية الجهة الشمالية من المنطقة المذكورة.. وبعد فترة عادا سيراً على الأقدام نحو سريتهم التي أوقفوها في الجهة الجنوبية. حيث قال "أبو مصعب، أديب الرمضان الأسعد": (سوف نذهب أمامكم لكي نستكشف المكان)، وقد كانا مسلَّحَين، ومتحزمان بأحزمة ناسفة.
يتابع شاهد العيان القول: بينما وصلنا إلى المنطقة التي تجمع فيها العساكر، إذا بنا نفاجأ بالعساكر وقد خرجوا علينا من كل مكان. وأطبقوا حولنا حصاراً محكماً.. فخاطبهم أحد الرجلين بصوتٍ عالٍ، وباللهجة العلوية: "نحن جايين نخلصكم".. وأبو مصعب كان يجيد نطق اللهجة العلوية لأنه درس الجامعة لفترة في جامعة اللاذقية، فخرج عليه ضابط، وقال: (أنا العميد داوود ابراهيم.. أو ابراهيم داوود.. "التبس الاسم على الشاهد"، وهذا معي وإلى جانبي سيادة العقيد.. ولم يذكر اسم العقيد. ثم قال العميد: من أين الطريق؟ قال الرجلان: ـ الأميران في داعش ـ اتبعونا وسيروا بجانبنا.. حتى وصل الجميع إلى السيارة التي ذكرتها.. صعد العميد والعقيد إلى السيارة، وانطلقوا باتجاه اللواء 93. وعندما ذهبت السيارة أصدر الرجلان أمرهما لأعضاء سريتهما بإطلاق النار فوراً على جميع العساكر المتبقين بعد رحيل العميد والعقيد. وكان عدد العساكر 102 عسكرياً. أما العميد والعقيد ومعهما رفقة ثلاثة ن العساكر، فقد انطلقوا بالسيارة بسرعة جنونية باتجاه اللواء، ولم يوقفهم أي حاجز للتنظيم، حتى وصلوا اللواء ٩٣.. علماً أن قيادة اللواء 93 أصدرت أوامرها منذ وقت طويل باستهداف أية سيارة مدنية قد تقترب من اللواء حتى حدود ٦ كيلومتر، وإطلاق النار عليها فوراً دون انتظار أوامر، وقد دخلت السيارة إلى عمق منطقة اللواء بسلاسة دون أن يعترضها أحد، مما يؤكد على تنسيق مسبق مع اللواء وترتيب لدخول السيارة))..

ولا أستطيع أن أؤكد أو أنفي هذه الرواية.

(3)

(4)

عاجل : ذبح جنود الجيش النصيري في الفرقة ١٧ على أيدي أسود الدولة الإسلامية
الرقة ولاية
twitter / @raqqa_w

(5)

نظام الأسد يخلي العناصر المهمة من اللواء 93 بعد انذار تنظيم #داعش باقتحامه

منشورة بواسطة الرقة تذبح بصمت

#الرقة_تذبح_بصمت

الرقة | عين عيسى :: صرح ناشطين بمنطقة عين عيسى المجاور للواء 93 بالريف الشمالي للرقة بان نظام الأسد قام بإخلاء العناصر المهمة من اللواء بعد أن أنذر تنظيم البغدادي بإخلاء القرى المجاورة للواء إستعداداً لإقتحامه ، حيث نفذ الطيران الأسدي صباح البارحة عدة غارات بمحيط اللواء 93 كما سُجل البارحة سقوط صاروخ سكود بمنطقة الشركراك دون وقوع أي أضرار ، حيث ذكر الناشطين بأن اللواء 93 يحوي حالياً على 42 دبابة و أكثر من 100 عربة bmb أو brdm ما عدا السيارات والمستودعات الضخمة جدا ، كما يحوي ما بين 300-500 عنصر ما عدا الفارين من الفرقة 17 ، يعد اللواء 93 لواء دبابات لكن سُحبت أغلب دباباته الى ريف حلب الشمالي وخاصة بأحداث إعزاز حيث دُمرت أغلبها على يد الجيش الحر ، يذكر بأن اللواء 93 كان محاصر من قبل الجيش الحر وفي حزيران الماضي أُعلن عن بداية تحرير اللواء 93 بمعركة سُميت " معركة لنصرة الرسول صلى الله عليه وسلم " بمشاركة عدة كتائب الى أن جاء تنظيم البغدادي ليفرض سيطرة على كامل المحافظة بتاريخ 12/01/2014

الصورة من أرشيف المركز الإعلامي لثوار الرقة

الرقة بوست

(6)

الرقة تذبح بصمت Raqqa is Being Slaughtered Silently
منذ 4 ساعات ·

#الرقة_تذبح_بصمت
أسماء عدد من عناصر الفرقة 17 الذين حصلنا عليها ووصلو الى اللواء 93 :
العريف وفيق حميدوش
العقيد أحمد سعود
العريف بلال عماد الدين
عمر محمد
الرقيب اول نجيب غسان العشي
العريف بكر أحمد علي
الرقيب اول وضاح كاسر بدران
الرقيب هادي سهيل منصور
الرقيب إبراهيم عبد الكريم عساف
المجند محمد سعيد ابو لطيف
العريف إبراهيم رياض سلمان
الرقيب بشار محمد سلمان
المساعد باسم عزيز شاطر
المساعد لامك حسين محمد
المساعد منذر علي محمد
المساعد اول وائل الجردي
العقيد نهاد كنعان
العريف رسام محمد محمد
المجند عارف الحميد سلوم
الرقيب اول ياسر سلوم السلوم
العقيد علي حسام الدين + مجموعته
وهيب عباس
مجد صحور
ميشيل عضوم
مهند السمان
ناصر مهنا
العقيد فيصل ديب + مجموعته
العقيدعلي حسام الدين شمالي + مجموعته
عمر سقعان
محمد الراعي
العقيد رياض شيحة + مجموعته
العميد مروان عزيز جقموق + مجموعته
العميد رياض الاحمد ومجموعته

(7)

فاكس بتاريخ ٨/٤/٢٠١٠م

سيدي العقيد :

- بتاريخ ٥/٤/٢٠١٠م ألقى فرع الأمن الجنائي بالرقة القبض على امرأتين تعملان بالدعارة وهما مدعمة الشبلي - وهي زوجة الشرطي ابراهيم جنيد من القسم الغربي بالرقة - ودعد الخلف والمعروفة بأم عبود حيث تم الكشف عليهما طبياً فتبين وجود السائل المنوي لكليتهما وبالتحقيق معهما اعترفتا على المدعو رشاد سليمان وهو أحد مدني يعمل سائقاً تأسيسي على سيارة المدعو محمد خلوف - عنصر في فرع الأمن السياسي بالرقة - بأنه مارس الجنس مع المدعوة دعد الخلف وبأن المدعو محمد خلوف عاشر المدعوة مدعمة الشبلي وحالياً الامرأتان موقوفتان ومعهما المدعو رشاد سليمان ويقال بأن الاثنتين اعترفتا على العديد من الرجال مارسن البغاء معهما ومنهم ضباط من الفرقة /١٧/ وضباط شرطة وعناصر من الأمن السياسي ولكن الموضوع - كما قيل - عرض على قائد الشرطة فاكتفى بتوقيف الامرأتين والمدني رشاد سليمان منعاً للفضيحة وعلى الأقل هذا ما تم حتى الآن .

نرجو الاطلاع

المساعد رياض العمر من

شهداء كتيبة " شهداء الغوطة": وليد ـ علاء ـ مصطفى ـ محمود ـ سندس

- (9)

الشهيد أحمد السيد: "سندس"

النسخة الاصلية من موقع الرأي والفقه بوست

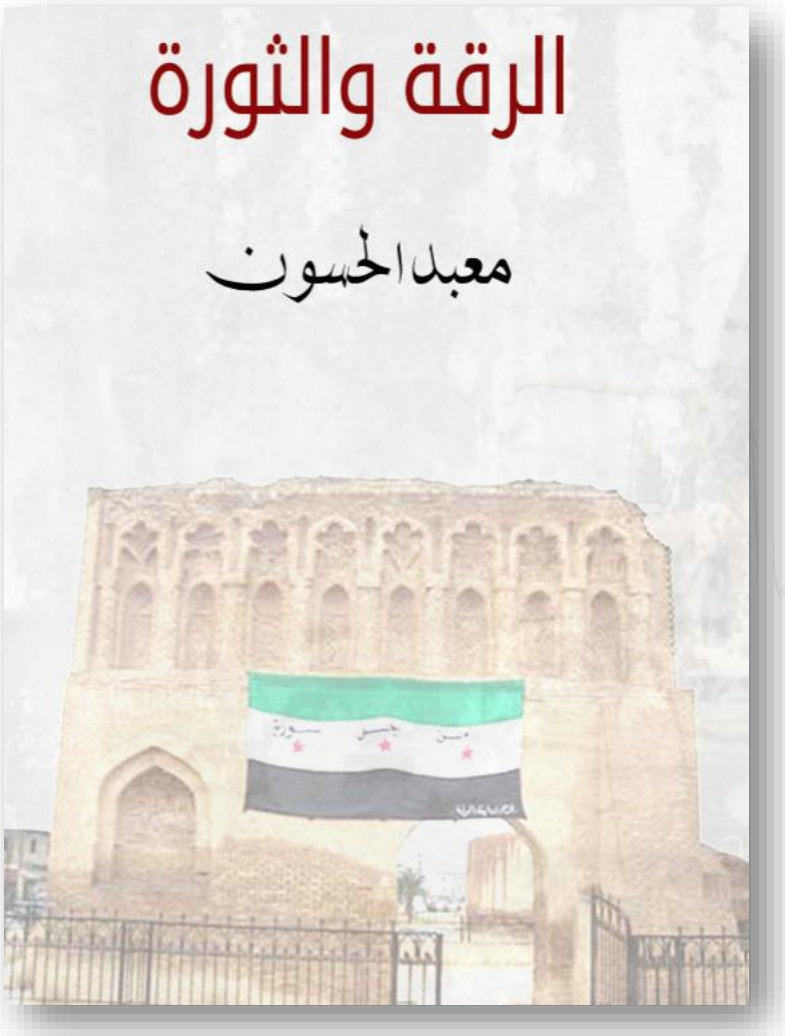

النسخة الأولى للبوست